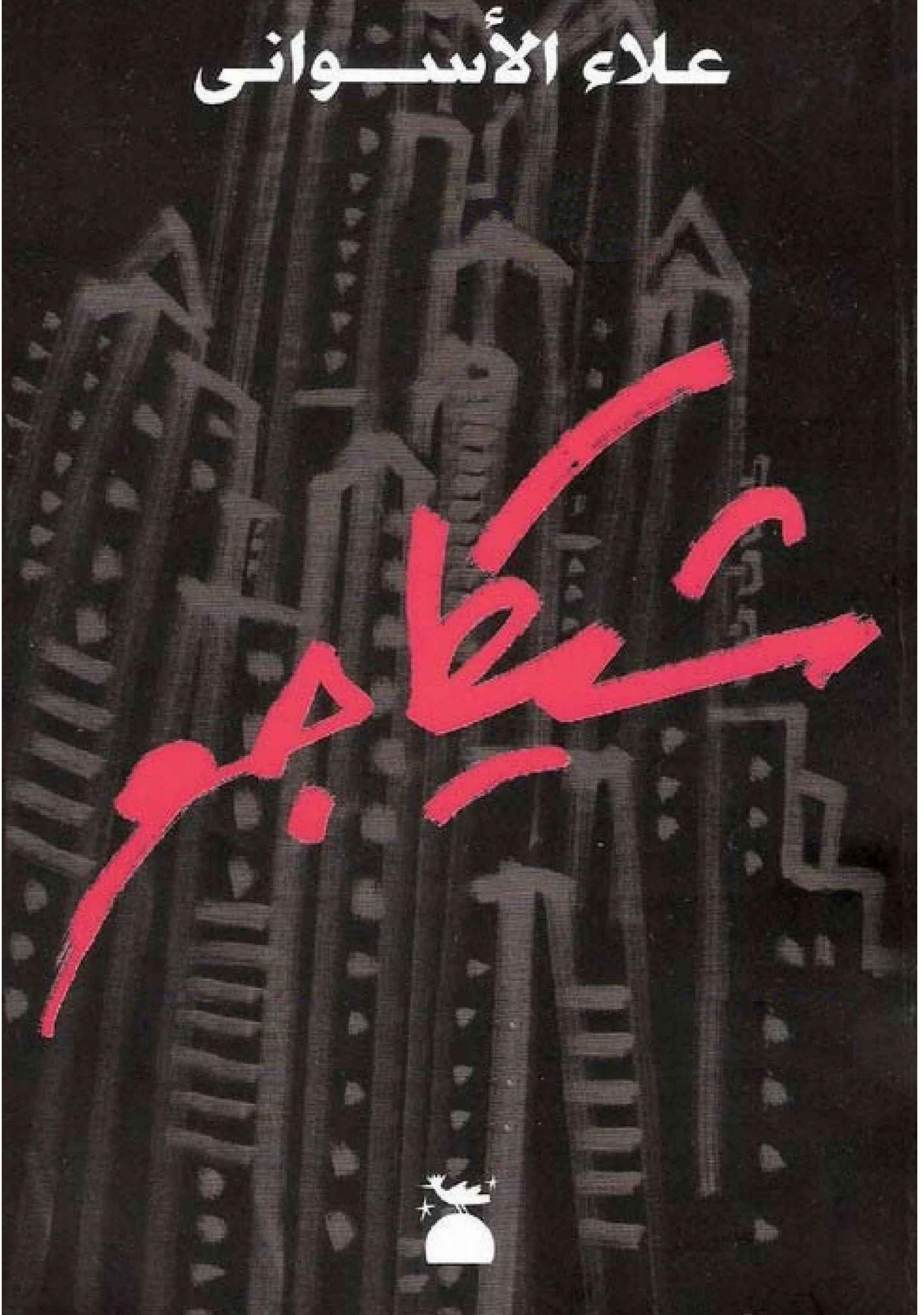

علاء الأسوانى
شيكاجو

علاء الأسواني

شيكاجو

رواية

شکیباجو

الطبعـة الأولى
٢٠٠٧

© دار الشروق
٨ شارع سيبويه المصرى
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
email: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

إهــداء

«.. إلى أمي وأبي..

.. لعلني لم أخيب أملهما..»

إشــارة

الصـفـحـات والفـقـرات المطبـوعـة بالحرف الأسـود المائل هي، طبق الأصل، مـذكـرات ناجى عـبـد الصـمـد التـى كـتـبـهـا أثناء الرحلة.

١

قد لا يعرف الكثيرون أن «شيكاجو» ليست كلمة إنجليزية، وإنما تنتمي إلى لغة الألجنوكي، وهي إحدى لغات عديدة كان الهنود الحمر يتحدثون بها. معنى شيكاجو في تلك اللغة «الرائحة القوية»، والسبب في هذه التسمية أن المكان الذي تشغله المدينة اليوم، كان في الأصل حقولا شاسعة خصصها الهنود الحمر لزراعة البصل، الذي تسببت رائحته النفاذة في هذا الاسم.

ظل الهنود الحمر لعشرات السنين يعيشون في شيكاجو، على ضفاف بحيرة ميتشجن، يزرعون البصل ويرعون الماشية ويمارسون حياتهم بسلام. حتى كان عام ١٦٧٣، عندما وصل إلى المنطقة رحالة وصانع خرائط يدعى لويس جوليه، يرافقه راهب فرنسي من طائفة الجزويت اسمه جاك ماركت. اكتشف الرجلان شيكاجو، وسرعان ما توافد عليها آلاف المستعمرين كما يتدافع النمل على إناء العسل. وخلال المائة عام التالية: شن المستعمرون البيض حروب إبادة مروعة، قتلوا خلالها ما بين ٥ و١٢ مليون نفس من الهنود الحمر في كل أنحاء أمريكا. وكل من يقرأ التاريخ الأمريكي لابد أن يتوقف أمام هذه المفارقة: فالمستعمرون البيض، الذين قتلوا ملايين الهنود واستولوا على

أراضيهم ونهبوا ثرواتهم من الذهب . . كانوا - فى نفس الوقت - مسيحيين متدينين للغاية . . على أن هذا التناقض سينجلى عندما نعرف الآراء الشائعة فى تلك الفترة ؛ فقد ذهب كثير من المستعمرين البيض إلى «أن الهنود الحمر ، بالرغم من كونهم ضمن مخلوقات الله على نحو ما ، فإنهم لم يخلقوا بروح المسيح ، وإنما خلقوا بروح أخرى ناقصة شريرة» . . وأكد آخرون بثقة « . . أن الهنود الحمر مثل الحيوانات ، مخلوقات بلا روح ولا ضمير ، وبالتالى فهم لا يحملون القيمة الإنسانية التى يحملها الرجل الأبيض ! . . » . . وبفضل هذه النظريات الحكيمة ، أصبح بمقدور المستعمرين أن يقتلوا ما شاءوا من الهنود بلا أدنى ظل من الندم أو الشعور بالذنب ، ومهما بلغت بشاعة المذابح التى يرتكبونها طوال النهار ، لم يكن ذلك ليفسد نقاء القداس الذى يقيمونه كل ليلة قبل النوم !

انتهت حروب الإبادة بانتصار ساحق للآباء المؤسسين ، وأعلنت شيكاجو مدينة أمريكية لأول مرة عام ١٨٣٧ ، وظلت بعد ذلك تحقق نموا أسطوريا حتى تضاعفت مساحتها ١٦ مرة فى أقل من عشرة أعوام ، وقد زاد من أهميتها وجودها على بحيرة ميتشجن وتمتعها بأراض شاسعة تصلح كمراع للحيوانات . . ثم أخيرا ، أنشئت السكك الحديدية لتجعل من شيكاجو ملكة الغرب الأمريكى بلا منازع .

على أن تاريخ المدن مثل حياة البشر ، تتناوب عليه بلا توقف لحظات السعادة والألم . . وقد كان الأحد ٨ من أكتوبر عام ١٨٧١ يوم شيكاجو الأسود ، ففى غرب المدينة كانت تعيش سيدة

تدعى كاترين أوليري، مع زوجها وأولادها وحصان وخمس بقرات. . تلك الليلة كانت حيوانات مسز أوليرى ترعى بهدوء فى حديقة المنزل الخلفية، وحوالى الساعة التاسعة، شعرت إحدى البقرات بسأم مفاجئ، فعَنّ لها أن تترك الحديقة وتدخل إلى المخزن الخلفى حيث أثار فضولها موقد الكيروسين، فحومت حوله قليلا ومدت رأسها لتتشممه. وفجأة، استجابت لنازع غامض ورفست الموقد بقوة، فانقلب وانساب منه الوقود ليشتعل على الأرض، وكانت هناك كومة من القش قريبة، فالتقطت النار. . وسرعان ما احترق البيت ثم البيوت المجاورة. . وكانت الريح قوية للغاية (كعادتها فى شيكاجو) فحملت النار إلى كل مكان. ولم تمض ساعة حتى كانت المدينة كلها تحترق، وقد ساعد على اكتمال الكارثة أن رجال الإطفاء كانوا منهكين من السهر طوال الليلة السابقة لإطفاء حريق آخر أدى إلى إعطاب الكثير من معداتهم (البدائية أصلا آنذاك) . . امتدت ألسنة اللهب عاليا لتشق عنان السماء وأخذت تلتهم بيوت شيكاجو (المصنوع معظمها من الخشب)، اختلطت صرخات الناس المدوية الملتاعة بصوت النار وهى تلتهم المدينة فتصدر طقطقة مخيفة وكأنها تدمدم بتعويذة اللعنة. كان المشهد أسطوريا مرعبا أشبه بوصف الجحيم فى الكتب المقدسة. ظل الحريق مشتعلا، بلا هوادة ولا رحمة، على مدى يومين كاملين، حتى تم إطفاؤه أخيرا فجر يوم الثلاثاء. . وحصرت الخسائر: أكثر من ٣٠٠ قتيل و١٠٠ ألف شخص مشرد (نحو ثلث عدد السكان)، أما الخسارة المالية فزادت على ٢٠٠ مليون دولار بحساب القرن التاسع عشر. . ولم تقف

الكارثة عند ذلك الحد، فقد حلت مع الحريق والخراب الفوضى الشاملة، فانتشرت ـ مثل ديدان الجثث ـ عصابات متجولة من الأوغاد والمجرمين، لصوص وقتلة ومدمنون ومهووسون جنسيا.. قدموا من كل مكان ليعيثوا فسادا في المدينة المنكوبة: أخذوا ينهبون محتويات البيوت المحترقة والمتاجر والبنوك ومستودعات الخمور، كانوا يعبون الخمر في الشوارع ويقتلون كل من يقف في طريقهم ويختطفون النساء ليغتصبوهن جماعيا وعلنا تحت تهديد السلاح.. وفي خضم المحنة، نظمت الكنائس في شيكاجو قداسا خاصا للتضرع ورفع الآلام.. وتحدث القساوسة جميعا، بنبرة ندم صادق، عن الكارثة باعتبارها عقابا عادلا من الرب من جراء تفشي الهرطقة والزني بين سكان المدينة!

كان الدمار شاملا، وكل من رأى شيكاجو آنذاك تأكد له أنها انتهت بلا رجعة، لكن ما حدث خالف التوقع.. فقد أدت فداحة المصيبة إلى تحفيز الهمم وبعث الشجاعة في سكان شيكاجو، حتى إن تاجرا يدعى جون رايت، لم يفهم في حياته إلا الأرقام والصفقات ولم يُعرف عنه قَطّ حب المعاني أو البلاغة، لمّا وجد نفسه واقفا وسط عشرات المنكوبين المذهولين، الهائمين على وجوههم بعد ما احترق كل شيء يملكونه، تفجرت لديه فجأة طاقة شعرية غامضة فألقى عليهم كلمة مرتجلة، صارت فيما بعد من المأثورات في تاريخ المدينة.. مد جون رايت ذراعيه أمامه وتقلصت ملامحه فيما يشبه الألم (وكان مخمورا قليلا)، ثم صاح بصوت جهوري مشروخ:

«تجلدوا أيها الرجال.. شيكاجو لم تحترق، لكنها دخلت إلى

النار حتى تتخلص من عناصرها الرديئة، ولسوف تخرج أقوى وأجمل مما كانت . . ».

وهكذا . . توهجت غريزة البقاء العميقة وانبعث التضامن الفطرى الذى يجمع الناس لحظة الخطر، وشرع الناجون فى العمل بهمة لا تعرف الكلل : تكونت فرق مسلحة من المتطوعين، المستعدين للموت من أجل مدينتهم، انطلقوا يطاردون العصابات ويشتبكون معها حتى قتلوا أفرادها أو أجبروهم على الفرار . . وتم إنشاء عشرات الملاجئ الأهلية، وانهمرت التبرعات من أجل توفير الطعام والثياب والرعاية الصحية لآلاف الأسر المشردة . تدفقت عشرات الألوف من الدولارات على شيكاجو من كل مكان فى أمريكا من أجل تعميرها وضخ الاستثمارات فى مشروعاتها التجارية . . على أن إعادة البناء أثارت مشاكل جديدة : فقد صدر قرار من مجلس المدينة يمنع تشييد البيوت الخشبية لأنها تسببت فى انتشار النار، وقد ترتب على هذا القرار ارتفاع إيجارات المنازل وبقاء معظم سكان المدينة فى الشارع لأنهم لا يملكون ما يدفعونه كإيجار منزل من الطوب، خصوصا وقد انخفض سعر اليد العاملة بسبب تدفق ألوف الغرباء إلى سوق العمل . . واحتدمت الأزمة الاقتصادية فدفعت بجيوش الفقراء والجوعى إلى التظاهر العنيف رافعين شعارًا حاسمًا مكونًا من كلمتين : «الخبز أو الموت» . . لكن النظام الرأسمالى الأمريكى استطاع كعادته أن يضع حلا مؤقتا للأزمة لم تذكره كتب التاريخ قَطّ . . وصنعت الاستثمارات بضعة أسماء جديدة من أصحاب الملايين، بينما ظل أغلبية السكان قابعين فى قاع البؤس، وبرغم

ذلك فإن نبوءة جون رايت تحققت؛ فلم تمض أعوام قليلة حتى عادت شيكاجو أجمل وأقوى مما كانت . . وتوجت، إلى الأبد، كأهم مدينة في الغرب، وثالث أكبر المدن الأمريكية، ومركز رئيسي للتجارة والصناعة والثقافة في أمريكا والعالم . . واشتهرت آنذاك أغنية شعبية مطلعها: «شيكاجو . . ملكة للغرب من جديد . . ».

ومثلما يزداد تدليل الآباء والأمهات لأطفالهم بعد نجاتهم من مرض مميت، تنوعت الألقاب التي ابتكرها الأمريكيون لتدليل شيكاجو، فأسموها «ملكة الغرب» لأهميتها وجمالها، و«مدينة الريح» لأن الرياح الشديدة لا تنقطع عنها طوال العام، و«مدينة القرن» لتوسعها المدهش في وقت قليل، و«مدينة الأكتاف الكبيرة» إشارة إلى ارتفاع مبانيها الشاهق وكثرة العمال بين سكانها، ومدينة «سوف» إشارة إلى الطموح الذي يدفع الأمريكيين إلى الهجرة إليها بحثا عن مستقبل أفضل . . و«مدينة الضواحي» إشارة إلى ٧٧ ضاحية تحيط بالمدينة يعيش فيها سكان من أصول مختلفة: زنوج وأيرلنديون وإيطاليون وألمان . . وتحمل كل ضاحية ثقافة سكانها وعاداتهم . .

مر على الحريق الكبير أكثر من مائة وثلاثين عاما، لكن ذكراه ما زالت حاضرة، كالندبة في الوجه الجميل، يستعيدها أهل شيكاجو بين الحين والآخر بأسى وانفعال، وقد صار معنى النار عندهم مختلفا . . فلو نطق أحد الناس بكلمة «حريق» في أي مكان في العالم لن يكون لها نفس الوقع الذي تحدثه في شيكاجو! لقد أدى الخوف من الحريق إلى تطوير نظام الإطفاء في شيكاجو

حتى أصبح الأفضل فى العالم . . وأنشئت أكاديمية متخصصة فى إطفاء الحرائق أقيمت فى مكان منزل كاترين أوليرى حيث بدأ الحريق الكبير . . وهكذا عمل أهل المدينة كل ما بوسعهم حتى لا تتكرر المأساة، واشتهر قول مأثور يردده المسئولون فى المدينة بمزيج من الدعابة والفخر :

«إن نظام الإطفاء فى شيكاجو من الكفاءة بحيث ينذرك بالحريق . . حتى قبل أن تبدأ فى إشعال النار . . » .

* * *

من أين لشيماء محمدى أن تعرف كل هذا التاريخ وقد قضت حياتها كلها فى طنطا، لم تغادرها إلا مرات نادرة : إلى القاهرة لحضور عرس أقارب، أو إلى الإسكندرية لقضاء الصيف مع أسرتها وهي صغيرة؟! جاءت شيماء من طنطا إلى شيكاجو هكذا . . مرة واحدة، دون استعداد أو تمهيد، كمن قفز فى البحر بملابسه الكاملة وهو لا يعرف السباحة . . وكل من رآها تجوب أروقة كلية الطب في جامعة إلينوي . . (بثوبها الشرعى الفضفاض والخمار الذى يغطى صدرها، وحذائها الواطئ وخطوتها الواسعة المستقيمة، ووجهها الريفى الخالى من المساحيق الذى يتضرج بالحمرة لأهون سبب، ولغتها الإنجليزية الثقيلة المتعثرة التى كثيرا ما تجعل التفاهم بالإشارة أسهل من الكلام) . . لا بد أنه تساءل : ما الذى أتى بهذه الفتاة الريفية إلى أمريكا؟ . . الأسباب عديدة :

أولا : شيماء محمدى من أبرز المتفوقين فى كلية طب طنطا، وهى تتمتع بذكاء خارق وقدرة أسطورية على العمل

تجعلها تعكف على الاستذكار ساعات طويلة متصلة بغير أن تنام أو حتى تنهض من مكانها إلا من أجل أداء الصلاة أو تناول الطعام أو قضاء الحاجة . . وهى تستذكر بطريقة هادئة وتركيز عميق، بلا تعجل أو تململ . . تبسط أمامها الكتب والمذكرات على السرير، ثم تربع ساقيها وتترك شعرها الناعم ينسدل على جانب رأسها الذى تميل به قليلا إلى اليمين، ثم تنحنى وتسجل بخطها المنمنم الجميل النقاط الرئيسية فى الدرس وتحفظها بما يشبه الاستمتاع وكأنها تمارس هواية محببة أو تغزل ثوبا لحبيب غائب . . وقد أدى تفوقها الساحق إلى ترشيحها للبعثة بسهولة .

ثانيا : شيماء هى الابنة الكبرى للأستاذ محمدى حامد، مدير مدرسة طنطا الثانوية للبنين لسنوات طويلة، تخرج خلالها على يديه عشرات الطلاب الذين كبروا وتولوا مناصب مرموقة . وبعد خمسة أعوام على وفاته، ما زال الناس فى محافظة الغربية كلها يتذكرونه بمحبة وتقدير ويترحمون عليه بصدق كنموذج نادر شبه منقرض لرجل التعليم الحقيقي، فى إخلاصه ونزاهته وصرامته وحنانه على الطلبة . . على أن حياة الأستاذ محمدى مثلنا جميعا ـ لم تَخْلُ من المنغصات؛ فقد شاءت الإرادة الإلهية أن تحرمه من الولد فوهبته ثلاث بنات تباعا، كف بعدهن عن المحاولة، وقد أصابه لذلك حزن بالغ سرعان ما تجاوزه بمحبته الغامرة لبناته وتربيته لهن، تماما كما يربى أبناءه الطلاب فى المدرسة، على الاستقامة والاجتهاد والثقة بالنفس . . وكانت النتيجة مبهرة : شيماء وعلياء معيدتان فى الطب، وندى الصغرى معيدة فى قسم الاتصالات بكلية الهندسة . . من هنا لعبت التربية التى تلقتها شيماء دورا فى قبولها التحدى وسفرها للبعثة . .

ثالثا : أهم الأسباب . . أن شيماء جاوزت الثلاثين بغير زواج ؛ لأن وضعها كمدرس مساعد فى كلية الطب قلل كثيرا من فرصتها . . حيث يفضل الرجل الشرقى عادة أن تكون عروسه أقل تعليما منه ! كما أنها تفتقر إلى مؤهلات الزواج السريع : فزيها الفضفاض يحجب جسدها تماما ، ووجهها ليس صارخ الجمال ، وأقصى ما تتركه ملامحها العادية فى نفس أى رجل هو الشعور بالألفة ، وهذا لا يكفى بالطبع لتحفيزه للزواج . . وهى ليست ثرية ، تعيش مع أخواتها وأمها على مرتب الجامعة ومعاش أبيها الذى رفض بإصرار طوال حياته الإعارة لدول الخليج أو إعطاء الدروس الخصوصية . . أضف إلى ذلك أنها ، بالرغم من نبوغها العلمي ، تعانى من جهل كامل بوسائل إغواء الرجال التى تتقنها معظم النساء ويمارسنها ببراعة : إما مباشرة بواسطة التزين والتعطر وارتداء الثياب العارية الضيقة التى تبرز المفاتن ، أو بطريقة غير مباشرة بواسطة الحشمة المثيرة والخجل المغرى والارتباك المحمَّل بالمعانى واللعثمة الفاتنة اللذيذة ، مع الاستعمال الدقيق لسلاح النظرات الساهمة المغلفة بالحزن والغموض . . كل هذه فنون حقيقية زودت الطبيعةُ بها المرأةَ من أجل استمرار الحياة ، لكنها قضت - لحكمة ما - بحرمان شيماء محمدى منها . . ولا يعنى ذلك أبدا أنها تعانى نقصا فى الأنوثة ، بالعكس ، فإن أنوثتها طاغية فياضة تكفى عدة نساء لممارسة حياة طبيعية ، لكنها فقط لم تتعلم كيف تعبّر عنها ، رغباتها الأنثوية تلح عليها حتى تؤلمها وتجعلها متقلبة المزاج سريعة البكاء ، ولا يخفف من توترها إلا أحلامها المحرمة مع كاظم الساهر ونوبات تلذذها المختلس بجسدها العارى (التى تندم بعدها كل مرة وتصلى ركعتين توبةً نصوحةً لله ، لكنها

لا تلبث أن تعاود) . . والحق أن الضغوط النفسية التى عانت منها بسبب تأخرها فى الزواج ، كانت سببا مباشرا فى سفرها إلى أمريكا ، وكأنما تهرب من وضعها أو تؤجل مواجهة الحقيقة ، وقد بذلت على مدى شهور طويلة مجهوداً مضنياً من أجل إتمام البعثة : طلبات واستمارات ومشاوير بلا نهاية من الكلية إلى إدارة الجامعة وبالعكس . . ثم مفاوضات عنيفة معقدة مع أمها التى ما إن علمت برغبتها فى السفر حتى عصف بها الغضب وصاحت فى وجهها :

«مشكلتك يا شيماء أنك عنيدة مثل أبيك . . سوف تندمين . . أنت لا تعرفين معنى الغربة ، تسافرين إلى أمريكا حيث يضطهدون المسلمين وأنت محجبة؟! . . لماذا لا تحصلين على الدكتوراه من هنا بكرامتك وسط أهلك؟ . . تذكرى أنك بالسفر تضيعين أى فرصة للزواج . . يا فرحتى بالدكتوراه من أمريكا وأنت عندك أربعون سنة وعانس . . » .

كانت الفكرة غريبة على الأسرة والمعارف ، وربما على طنطا كلها : «أن تسافر بنت وحدها إلى أمريكا أربع أو خمس سنوات! » . . لكن دأب شيماء وإصرارها ولجوءها إلى التشاجر العنيف حينا والتوسل والبكاء حينا ، أرغم أمها فى النهاية على الإذعان لرغبتها .

ظل حماس شيماء يزداد كلما اقترب السفر ، حتى فى الأيام الأخيرة لم تحس بأى رهبة أو قلق . . وعندما أزف الموعد لم تتأثر لدموع أمها وأختيْها . . وما إن ارتفعت الطائرة عن الأرض وأحست بذلك الانقباض الخفيف فى بطنها حتى انتابها شعور

بالانتعاش والتفاؤل، وفكرت فى أنها الآن فقط تبدأ صفحة جديدة وتترك وراءها ثلاثة وثلاثين عاما قضتها فى طنطا.

على أن أيامها الأولى فى شيكاجو، مع الأسف، جاءت بعكس التوقع: صداع وإعياء نتيجة فرق التوقيت، أرق ونوم متقطع وكوابيس مفزعة، والأسوأ من ذلك كله: إحساس ثقيل بالكآبة لم يفارقها منذ أن هبطت فى مطار أوهير.. ارتاب فيها موظف الأمن وجعلها تنتظر خارج الصف، ثم أخضعها لاختبار البصمات وأخذ يستجوبها وهو يتفحصها بنظرة مدققة مستريبة، لكن أوراق البعثة التى تحملها ووجهها الممتقع وصوتها الذى تحشرج ثم انقطع من فرط الفزع.. كل ذلك بدد شكوكه، فصرفها بإشارة من يده. وقفت شيماء على السير المتحرك ومعها حقيبتها الكبيرة (المكتوب عليها اسمها بالكامل وعنوانها فى طنطا بالحبر الشينى على طريقة الريفيين).. كان ذلك الاستقبال العدائى قد خلف فى نفسها شعورا مقبضا، واكتشفت أن السير الذى تقف عليه يتحرك داخل أنبوبة عملاقة تتقاطع مع عشرات الأنابيب لتجعل مطار أوهير أشبه بلعبة أطفال تم تكبيرها آلاف المرات.. وما إن خرجت من المطار حتى ذهلت: رأت شوارع فسيحة إلى درجة لم تتخيل وجودها قَطّ، ناطحات سحاب شاهقة جبارة تنتشر فى مدى النظر فتمنح المدينة طابعا أسطوريا سحريا كما فى مجلات الأطفال الخيالية، موجات متتابعة من الأمريكيين، رجالا ونساء، يتدفقون كطوابير النمل من كل مكان، يدبون على الأرض بسرعة وجدية وكأنهم يهرعون للحاق بقطار على وشك الانطلاق. أحست فى تلك اللحظة بأنها غريبة ووحيدة وضائعة، كأنها قشة تتلاعب بها أمواج محيط هادر،

تَمَلَّكها خوف سرعان ما تحول إلى مغص يقرص أحشاءها كأنها طفل ضاع من أمه فى زحام مولد السيد البدوى. وبالرغم من محاولاتها المضنية، فقد مر أسبوعان طويلان بغير أن تتأقلم مع حياتها الجديدة. وفى الليل عندما تستلقى على الفراش، فى حجرتها الصغيرة الغارقة فى ظلام ثقيل لا يخترقه سوى الضوء الأصفر الذي ينبعث من مصابيح الشارع عبر النافذة، تتذكر شيماء بحزن أنها ستنام وحدها فى هذا المكان الموحش لأعوام قادمة، عندئذ يجتاحها شوق جارف إلى حجرتها الدافئة وأختيها وأمها وكل الناس الذين تحبهم فى طنطا.

بالأمس تكاثرت الهموم عليها فعجزت عن النوم. ساعة كاملة وهى تتقلب فى الفراش، أحست بتعاسة بالغة، وبكت فى الظلام حتى بللت الوسادة، ثم نهضت وأضاءت الحجرة، وقالت لنفسها إنها يستحيل أن تتحمل هذا الشقاء أربع سنوات كاملة.. ماذا يحدث لو أنها كتبت طلبا لإلغاء البعثة؟.. ستعانى لفترة من شماتة بعض زملائها فى طنطا وسخريتهم، لكن أختيها ستأخذانها بالأحضان وأمها لن تشمت بها أبدا. سيطرت عليها الرغبة فى إلغاء البعثة وفكرت فى كيفية التنفيذ.. وفجأة طرأت لها فكرة أخرى، فتوضأت وفتحت المصحف وقرأت سورة يس، ثم أدت صلاة الاستخارة وأعقبتها بالدعاء، وما إن وضعت رأسها على الوسادة حتى راحت فورا فى نوم عميق. رأت فى المنام أباها الأستاذ محمدي، كان يرتدى بذلته الزرقاء المصنوعة من الصوف الإنجليزى الفاخر ماركة هيلد، والتى كان يدخرها للمناسبات المهمة (مثل زيارة معالى الوزير وحفلات التخرج فى المدرسة)..

وقف أبوها فى الحديقة أمام الباب الرئيسى لقسم الهيستولوجى حيث تدرس، كان وجهه رائقا بلا تجاعيد، ونظرته صافية متلألئة، وشعره غزيراً أسود فاحمًا بلا شعرة بيضاء واحدة مما جعله يبدو أصغر من سنه بعشرين عاما. . أخذ يبتسم لشيماء ويهمس لها بصوته الحنون: «لا تخافي. سأظل معك. . لن أتركك أبدا. . تعالى». . ثم أمسك بيدها وجذبها بلطف حتى عبرت معه باب القسم.

استيقظت شيماء في الصباح وقد هدأت نفسها وتخلصت تماما من وساوسها، قالت لنفسها: «هذه رؤية صادقة من ربنا سبحانه وتعالى ليثبّت قلبى فى مهمتى الصعبة». كانت تؤمن بأن الموتى يعيشون معنا لكننا لا نراهم، لقد زارها أبوها فى المنام حتى يشجعها على إكمال البعثة، وهى لن تخذله، سوف تنسى أحزانها وتتعايش مع وضعها الجديد. أحست براحة عميقة لأنها استقرت على رأى، وقررت أن تحتفل بذلك. كانت لها طقوس تعودت أن تمارسها مع أختيها فى المناسبات السعيدة: بدأت بصنع الخلطة الشهيرة من السكر والليمون على النار، ثم دخلت إلى الحمام، خلعت ملابسها تماما وجلست عارية على حافة البانيو وبدأت تنزع الشعر الزائد عن جسدها. كانت تستمتع بذلك الألم الخاطف اللذيذ المتكرر الذى يحدثه انتزاع الشعر من الجلد، وأعقبت ذلك بحمام دافئ طويل اعتنت خلاله بدعك جسدها جزءا جزءا حتى شعرت بانتعاش وتحرر، وبعد دقائق وقفت شيماء فى المطبخ تؤدى مشهدا مصريا خالصا: ارتدت جلبابا من الكستور المنقوش بزهور صغيرة، وشِبْشبًا من طراز «خدوجة»

ذى الوجه العريض والسيور الأربعة المتقاطعة، والذى تفضله لأنه يريح أصابع قدميها ويسمح لها بحرية الحركة. تركت شعرها الأسود الناعم الطويل المبتل يتهدل على كتفيها وقررت أن تستمتع بكل ما تحبه . . وضعت فى المسجل أغنية كاظم «هل عندك شك؟» التى كانت تعشقها لدرجة أنها سجلتها ثلاث مرات متوالية على نفس الشريط حتى لا تضطر كل مرة إلى إرجاعه من البداية. ارتفع صوت كاظم فى جنبات المكان، وأخذت شيماء ترقص على الإيقاع، وبدأت، فى نفس الوقت، تطش قرون الفلفل واحدا بعد الآخر فى الزيت المغلى لتطهو أكلتها المحببة «المسقعة الإسكندراني» . . شيئا فشيئا، اندمجت تماما وأخذت تجوب أنحاء المطبخ وهى ترقص وتغنى مع كاظم، كأنها تؤدى فقرة استعراضية، ثم تعود أمام البوتاجاز لتطش قرنا جديدا من الفلفل، وعندما غنى كاظم «قاتلتى ترقص حافية القدمين» . . مدت شيماء قدميها وقذفت بالشبشب الخدوجة بعيدا، فتدحرجت فردتاه تباعا على الأرض إلى ركن المطبخ . . وعندما سأل كاظم حبيبته «أين أتيت وكيف أتيت وكيف عصفت بوجدانى؟!»، استبد بها الطرب وانجلت وخطر لها أن تؤدى حركة راقصة طالما انتزعت إعجاب صديقاتها فى طنطا: نزلت فجأة على ركبتيها ورفعت ذراعيها، ثم أخذت تنهض ببطء وهى تهز وسطها وترج ثدييها . . ألقت هذه المرة بقرنين من الفلفل دفعة واحدة، فأحدث سقوطهما فى الزيت دويا هائلا وأطلق دخانا كثيفا . عندئذ خيل إليها للحظة، على نحو باهت بعيد كأنه لم يحدث، أنها استمعت إلى صوت صفارة أو ما يشبه ذلك، لكنها استبعدت فى تلك اللحظة كل ما يمكنه أن يعكر

مزاجها الرائق، وبدأت حركة راقصة جديدة: مدت ذراعيها جانبا وكأنها تتأهب لاحتضان شخص ما، وراحت تتقدم وتتأخر بصدرها وهى واقفة فى مكانها، ولما تناولت قرنا جديدا من الفلفل ورفعت يدها لتطشه فى الزيت . . فى نفس اللحظة . . دهمها كابوس مرعب: سمعت خبطة رهيبة انفتح فى إثرها باب الشقة بعنف على مصراعيه، واندفع ناحيتها رجال ضخام أحاطوا بها وهم يصيحون بعبارات إنجليزية لم تفهمها، ولم يلبث أحدهم أن قفز ناحيتها واحتضنها بقوة وكأنه يريد أن يحملها من على الأرض . . لم تقاومه من فرط الذهول حتى أحست بقبضتيه القويتين تنعقدان خلف ظهرها، وشمت رائحة عطنة بعد ما اندفس وجهها فى معطفه الجلدى الأسود . . عندئذ فقط انتبهت لفداحة ما يحدث، وشحذت كل قوتها فى يديها لتدفع عنها الرجل الغريب، وأخذت تطلق صرخات عالية مدوية متلاحقة تردد صداها فى أنحاء المبنى كله!

٢

جامعة إلينوى من أكبر الجامعات فى الولايات المتحدة، وتنقسم إلى قسمين: المركز الطبى فى غرب شيكاجو الذى يضم الكليات الطبية، أما الكليات غير الطبية فتقع فى وسط المدينة. بدأ المركز الطبى فى عام ١٨٩٠ بإمكانات ضئيلة، ثم تطور واتسع بسرعة فائقة، ككل شيء فى شيكاجو، حتى أصبح مدينة شاسعة مستقلة، مساحتها ٣٠ أكرى (نحو مليون وثلث قدم مربع)، وتشغل أكثر من مائة مبنى: تضم كليات الطب والصيدلة والأسنان والتمريض وفروع المكتبة والإدارة، بالإضافة إلى دور سينما ومسارح ونواد رياضية ومحالٍّ تجارية عملاقة ومواصلات داخلية تنقل الطلابَ مجانا على مدى ٢٤ ساعة.. كلية طب إلينوى هى الكبرى فى العالم، وتضم واحدا من أعرق أقسام الهيستولوجي.. مشيداً من خمسة طوابق على الطراز الحديث، تحوطه حديقة واسعة يتوسطها تمثال نصفى من البرونز لرجل خمسينى يبدو محدقا فى الفضاء بعينين واسعتين حالمتين مرهقتين، وعلى قاعدة التمثال نقشت العبارة التالية بحروف كبيرة:

«العالم الإيطالى العظيم مارشيللو مالبيجى (١٦٢٨-

١٦٩٤). . مؤسس علم الهيستولوجي . . هو الذى بدأ . . ونحن هنا لنتم العمل».

. . هذه النبرة المقاتلة تمثل روح القسم . . فما إن تجتاز البوابة الزجاجية حتى تشعر بأنك تركت الدنيا بمشاغلها وضوضائها وصرت في محراب العلم: المكان غارق فى الهدوء، وثمة موسيقى خافتة خفيفة تنبعث من الإذاعة الداخلية. الإضاءة واحدة محسوبة بحيث تريح النظر ولا تشتت الانتباه ولا تنم عن الزمن فى الخارج، عشرات الباحثين والطلاب لا يكفون عن الحركة والعمل.

الهيستولوجى كلمة لاتينية معناها «علم الأنسجة»: العلم الذى يستعمل الميكروسكوب فى دراسة الأنسجة الحية، وهو يشكل أساس الطب لأن اكتشاف العلاج لأى مرض يبدأ دائما بدراسة الأنسجة فى حالتها الطبيعية . . وبالرغم من الأهمية الفائقة للهيستولوجى فإن شعبيته قليلة وعائده المالى متواضع . . باحث الهيستولوجى غالبا طبيب، اختار أن يترك تخصصات الثروة والمجد (مثل الجراحة والنساء والتوليد) ليقضى عمره فى معمل مغلق بارد، منكفئا على الميكروسكوب لساعات طويلة، وكل أمله أن يكتشف عنصرا مجهولا لخلية متناهية فى الصغر لن يسمع بها الناس أبدا. علماء الهيستولوجى جنود مجهولون يضحون بالمال والشهرة من أجل العلم، وهم يكتسبون مع الزمن سمات أصحاب الحرف اليدوية (مثل النجارين والنحاتين وغازلى الخوص): الجلسة الراسخة المستقرة، امتلاء النصف الأسفل للجسم، قلة الكلام وقوة الملاحظة والنظرة المدققة المتفحصة،

الصبر والهدوء، وصفاء الذهن والقدرة العالية على التركيز والتأمل . . يضم القسم خمسة أساتذة تتراوح أعمارهم بين الخمسين والسبعين، وصل كل منهم إلى منصبه بعد سنوات من العمل الشاق الدءوب، يومهم ضيق جدا، وجداولهم مشغولة لأسابيع قادمة، وأمامهم أبحاث علمية لا بد من إنجازها، تجعلهم يقضون وقتهم كله فى المعامل، وهم فى غير عطلة نهاية الأسبوع قلما يجدون الفرصة حتى لتبادل الأحاديث، وفى اجتماع مجلس القسم الأسبوعى عادة ما يتفقون على القرارات بسرعة حرصا على الوقت. من هنا يعتبر ما حدث يوم الثلاثاء الماضى شيئا استثنائيا؛ فقد انعقد مجلس القسم وجلس الأساتذة بترتيبهم الذى لا يتغير: الدكتور بيل فريدمان رئيس القسم فى صدارة المائدة، بصلعته الفسيحة ووجهه الأبيض وملامحه الوديعة التى تجعله أشبه برب أسرة شريف مكافح، إلى يمينه الأستاذان الأمريكيان من أصل مصري: رأفت ثابت ومحمد صلاح . . ثم أستاذ الإحصاء جون جراهام بجسده البدين ولحيته البيضاء الخفيفة وشعره الأشيب المشعث دائما، ونظارته الطبية الصغيرة المستديرة تلمع من خلفها نظرته الذكية المتشككة، مع ابتسامة خفيفة ساخرة وغليون طويل لا يفارق فمه حتى وهو مطفأ الآن لأن التدخين ممنوع فى الاجتماع . . جراهام يشبه إلى حد كبير الكاتب الأمريكى إرنست همنجواى، مما يثير دائما تعليقات ضاحكة من زملائه . . من الناحية الأخرى إلى المائدة يجلس جورج مايكل، يسمونه «اليانكى» لأن كل ما فيه يحمل الطابع الأمريكى القح: عيناه الزرقاوان وشعره الأشقر المتدلى على كتفه وملابسه الكاچوال، جسده القوى العريض وعضلاته المنتفخة المفتولة من

أثر انتظامه الصارم فى التمرينات الرياضية، عاداته فى مد قدميه فى وجه من يحدثه، ولحس أصابعه أثناء الطعام، وعلبة المياه الغازية التى لا تفارق يده . . يرشف منها بين الحين والحين جرعة صغيرة، ثم يهز كتفيْه ويتكلم بلكنة أهل تكساس حيث نشأ قبل مجيئه إلى شيكاجو. بقى أكبر الأساتذة سنا وأكثرهم إنجازا، دنيس بيكر، الغارق فى صمته. ثيابه بسيطة نظيفة، ودائما مجعدة قليلا ربما لأنه لا يجد الوقت الكافى لكيها بإتقان. قامته طويلة، وجسده العجوز مشدود وصلب، صلعته كاملة سقط عنها شعره كله وعيناه واسعتان تشعان بنظرة نفاذة يشتد لمعانها أحيانا حتى تتجلى فيها سطوة غامضة. . زملاء دنيس بيكر يداعبونه بقولهم إنه يستعمل الكلام كما يستعمل قائد السيارة آلة التنبيه، فقط عندما لا يكون هناك مفر من ذلك!

مضى الاجتماع بطريقة عادية، وقبل أن ينصرف الأساتذة، استبقاهم الرئيس فريدمان واحمر وجهه كعادته عندما يكون لديه ما يقوله، ثم نظر فى الأوراق أمامه وقال بصوت هادئ:

ـ أود أن أستشيركم في موضوع . . تعرفون أن مكتب البعثات قد اتفق مع القسم على إرسال طلاب مصريين للحصول على الدكتوراه فى الهيستولوجي . . لدينا الآن ثلاثة طلاب: طارق حسيب . . شيماء محمدى . . وأحمد دنانة . . هذا الأسبوع بعث مكتب البعثات بأوراق طالب جديد اسمه . . (توقف وقرأ الاسم بصعوبة) . . ناجى عبد الصمد . . هذا الطالب مختلف عن الآخرين؛ أولا: لأنه يريد الحصول على الماجستير وليس الدكتوراه . . وثانيا: لأنه لا يعمل فى الجامعة . . لقد اندهشت فى

البداية، لم أفهم لماذا يريد أن يحصل على ماجستير فى الهيستولوجى إن كان لا يعمل بالبحث العلمى أو التدريس؟! . . اتصلت هذا الصباح بالمسئولة عن مكتب البعثات فى واشنطن، فأخبرتنى أن هذا الطالب قد استُبعد من التعيين فى جامعة القاهرة لأسباب سياسية، وأن حصوله على الماجستير سيدعم موقفه فى القضية التى رفعها على جامعة القاهرة. . وقد اطلعت على ملف الطالب فوجدته مشجعا: درجاته عالية فى اختبارات الإنجليزية والتسجيل العام، وكما تعرفون، فإن مكتب البعثات سيتكفل بمصاريف الدراسة. . أريد أن أعرف رأيكم. . هل نقبل هذا الطالب؟ . . أماكن الدراسات العليا عندنا محدودة كما تعرفون. . سأستمع إليكم، وإذا لم نتفق سأطرح الموضوع على التصويت.

أجال فريدمان النظر فى الحاضرين وكان جورج مايكل (اليانكى) أول من طلب الكلمة. . امتص رشفة من علبة البيبسى وقال:

ـ أنا لا أعترض على قبول الطلبة المصريين. . لكننى فقط أذكّركم بأننا فى واحد من أهم أقسام الهيستولوجى فى العالم. . فرصة التعلم هنا نادرة وثمينة، ولا يجب أن نبددها لمجرد أن طالبا من إفريقيا يريد أن يكسب قضية ضد حكومته. . أظن التعليم عندنا له وظيفة أكبر. . إن المكان الذى سيحصل عليه هذا الطالب يحتاج إليه باحث حقيقى ليتعلم جيدا ويكتشف أشياء جديدة فى العلم. . أنا أرفض قبول هذا الطالب.

ـ حسنا. . هذا رأيك يا مايكل. . ماذا عن الباقين؟ . .

هكذا سأل الرئيس مبتسما، فأشار إليه رأفت ثابت ثم بدأ الحديث بلهجة من يحكى طرفة:

ـ . . باعتبارى كنت مصريا فى يوم من الأيام، فأنا أعرف جيدا كيف يفكر المصريون . . إنهم لا يتعلمون من أجل العلم . . وهم يحصلون على الماجستير أو الدكتوراه ليس من أجل البحث العلمى، وإنما من أجل الحصول على ترقية أو عقد مُجْز فى بلاد الخليج . . هذا الطالب سيعلق شهادة الماجستير على عيّادته فى القاهرة ليقنع المرضى بأنه قادر على شفائهم . .

تطلع إليه فريدمان مندهشا وقال:

ـ كيف يسمحون بذلك فى مصر؟ إن الهيستولوجى علم أكاديمى لا علاقة له إطلاقا بعلاج الناس.

أطلق رأفت ضحكة ساخرة وقال:

ـ أنت لا تعرف مصر يا بيل . . كل شيء هناك مباح، والناس لا يعرفون معنى الهيستولوجى أساسا . .

ـ ألست تبالغ قليلا يا رأفت؟ . .

هكذا سأل فريدمان بصوت خافت، فتدخل صلاح قائلا:

ـ طبعا يبالغ . .

التفت إليه رأفت وقال بحدة:

ـ أنت بالذات تعلم أننى لا أبالغ!

تنهد فريدمان قائلا:

ـ ليس هذا موضوعنا على أى حال . . لدينا الآن رأيان من مايكل وثابت ضد قبول الطالب المصري . . ما رأى جراهام؟

أخرج جراهام الغليون المطفأ من فمه وقال بعصبية :

ـ أيها السادة . . إن كلامكم هذا جدير بمخبرين فى البوليس وليس بأساتذة جامعة . .

. . سَرَتْ بينهم دمدمة معترضة ، لكن جراهام استطرد بصوت عال :

ـ الحق واضح . كل من يجتاز الاختبارات التى طلبناها فى لائحة القسم من حقه أن يلتحق بالدراسة . . ليس من شأننا ما سوف يفعله بشهادته ، وليس من شأننا أيضا من أى بلد جاء .

ـ هذا الكلام هو ما أدى بأمريكا إلى كارثة ١١ سبتمبر !

. . هكذا قال جورج مايكل ، فتطلع نحوه جراهام وقال ساخرا :

ـ إن ما أدى بنا إلى مأساة ١١ سبتمبر أن معظم صانعى القرار فى البيت الأبيض كانوا يفكرون مثلك ، قاموا بتدعيم الأنظمة الاستبدادية فى الشرق الأوسط من أجل مضاعفة أرباح شركات النفط والسلاح ، حتى تصاعد العنف المسلح ووصل إلينا . . تذكروا أن هذا الطالب سيترك بلاده وأهله ويسافر إلى آخر الدنيا من أجل العلم . . ألا تجدون هذا سلوكا شريفا يستحق الاحترام؟ . . أليس من واجبنا أن نساعده؟ . . تذكر يا مايكل أنك كنت دائما ضد قبول أى طالب غير أمريكى . . أما أنت يا رأفت فإن كلامك يضعك تحت طائلة قانون مكافحة العنصرية ! . .

ـ أنا لم أقل كلاما عنصريا أيها الرفيق جراهام . .

هكذا قال رأفت بشيء من الحنق ، فاستدار نحوه جراهام وهو يعبث بأصابعه في لحيته وقال :

ـ إذا كنت تناديني بالرفيق من باب الدعابة ، فأنا فعلا أحب هذا اللقب ، وأؤكد لك أن كلامك عنصري . . العنصرية هي الاعتقاد بأن اختلاف العنصر يؤدي إلى اختلاف السلوك والقدرات الإنسانية . . هذا التعريف ينطبق على كلامك عن المصريين . . والمدهش أنك نفسك مصري !

ـ كنت مصريا يوما ما ، وقد أقلعت عن ذلك . . أيها الرفيق . . . متى ستعترف بجواز السفر الأمريكي الذي أحمله؟

أشار الرئيس فريدمان بيده قائلا :

ـ لقد خرجنا عن الموضوع . . جراهام ، أنت موافق على قبول الطالب . . وأنت يا صلاح ؟ !

ـ أوافق على قبول الطالب .

هكذا قال الدكتور صلاح بهدوء ، فاتسعت ابتسامة الرئيس وقال :

ـ اثنان موافقان واثنان معترضان . . سأحتفظ برأيي للنهاية . . نريد أن نسمع دينيس بيكر . . لا أعرف إذا كان اليوم أحد الأيام التي يتكلم فيها بيكر أم علينا أن ننتظر لبضعة أيام؟ !

ضج الحاضرون بالضحك ، وتبدد بعض التوتر الذي سببه

النقاش . . ابتسم بيكر وظل صامتا لحظة، ثم اتسعت عيناه وقال بصوته الأجش :

- أفضّل أن يكون التصويت رسميا . .

أطرق الرئيس من فوره وكأنه تلقى أمرا . سجل بضع كلمات على ورقة أمامه ثم تنحنح واكتسى صوته بطابع رسمى وهو يقول :

- أيها السادة . . هذا تصويت رسمي . . هل توافقون على قبول الطالب المصرى ناجى عبد الصمد فى برنامج ماجستير الهيستولوجي؟ . . من يوافق يرفع يده . .

٣

فى سكن الطلاب بجامعة إلينوى، فى الشقة رقم ٣٠٣ أمام المصعد بالدور الثالث.. يعيش طارق حسيب مثل عقرب الساعة، وحيدا نحيفا منضبطا متوترا.. ومندفعا إلى الأمام بإيقاع ثابت لا يتغير: من الثامنة صباحا حتى الثالثة بعد الظهر، كل يوم، يتنقل بين قاعات المحاضرات والمعامل والمكتبة، ثم يعود إلى الشقة ليتناول غداءه أمام التليفزيون وينام القيلولة ساعتين كاملتين، وفى تمام السابعة مساء، مهما تغيرت ظروف أو طرأت أحداث فى أنحاء العالم، لا يتبدل ما يفعله طارق حسيب قيد أنملة: يغلق تليفونه المحمول ويدير الموسيقى الخفيفة فى حجرته، ثم يتخذ الوضع الذى قضى عليه معظم سنوات حياته الخمسة والثلاثين: منحنيا على مكتبه الصغير يستذكر دروسه، أو ـ بمعنى أدق ـ يخوض حربا ضارية ضد المعلومات حتى يسيطر عليها ويسجلها فى ذهنه فلا تنمحى بعد ذلك أبدا. يبسط أمامه الكتب والأوراق ويحدق فيها بعينيه الواسعتين الجاحظتين قليلا، يقطب جبينه ويزم شفتيه الرفيعتين وتتقلص عضلات وجهه الشاحب ويرتسم عليه تعبير قاس، فيبدو وكأنه يتحمل ألمًا ما بجَلَد، عندئذ يصل تركيزه للذروة فينقطع عما حوله تماما، حتى إنه قد لا ينتبه إلى

جرس الباب أو ينسى براد الشاى حتى يجف ماؤه ويشيط . . يظل على هذه الحالة بلا كلل ولا ملل . . وفجأة، ينتفض من مكانه ويصيح عاليا، أو يضرب كفًا بكف ويوجه شتائم قبيحة إلى شخص وهمى يتخيله، أو يرفع ذراعيه فى الهواء ويرقص - بخلاعة - فى أنحاء الحجرة. هكذا يعلن فرحته عندما ينجح فى الكشف عن مسألة علمية ظلت مستعصية على فهمه!

بالعزم ذاته يواصل طارق حسيب زحفه المقدس كل يوم . . باستثناء الأحد، الذى يخصصه لإنجاز الأعمال التى قد تشغله عن المذاكرة بقية الأسبوع: يشترى لوازمه من المول، ويغسل غسيله فى مغسلة السكن، وينظف حجرته بالمكنسة الكهربائية، ويطهو طعام الأسبوع ويحتفظ به فى أطباق ورقية يسهل تسخينها . . هذا الانضباط العسكرى هو الذى مكنه من الاحتفاظ العسير بالقمة، فجاء ترتيبه الأول على محافظة القاهرة فى الشهادة الابتدائية، والثالث فى الإعدادية، والثامن على مستوى الجمهورية فى الثانوية العامة بمجموع ٩٩,٨٪ . . بعد ذلك احتفظ طارق بتقدير ممتاز خمسة أعوام فى كلية الطب، لكنه لم يفلح فى الحصول على واسطة، فعُيِّن فى قسم الهيستولوجى بدلا من الجراحة العامة التى كان يحلم بها. على أنه سرعان ما تغلب على أحزانه وعكف على العمل من جديد، فحصل على ماجستير الهيستولوجى بتقدير ممتاز، وتم ترشيحه لبعثة الدكتوراه. وعلى مدى عامين من الدراسة فى جامعة إلينوى احتفظ طارق بتقدير امتياز متواصل Straight As.

هل يعنى كل ذلك أن طارق حسيب لا يرفه عن نفسه؟ . .

غير صحيح؛ فلديه أيضا متعه الصغيرة: صينية البسبوسة التى يستحضر خلطتها من مصر ويتفنن فى صنعها ويضعها على مائدة المطبخ، فإذا ما استذكر بطريقة مُرْضيَة، قرر مكافأة نفسه بالتهام قطعة بسبوسة يتناسب حجمها مع مَا تم إنجازه من عمل. . ولديه أيضا ساعة الترفيه التى يحرص عليها كل ليلة، حتى فى أيام الامتحانات، وتنقسم إلى قسمين: مصارعة حرة وفنطازيا. . فلا يمكن أن ينام قبل أن يشاهد على القناة الرياضية مباراة كاملة فى مصارعة المحترفين. وهو ينحاز من البداية إلى المصارع الأضخم، وعندما يكيل الضربات إلى وجه غريمه فيتفجر منه الدم. . أو يرفعه من وسطه ويلقى به على أرض الحلبة. . أو يقبض على رأسه بذراعه العملاقة ويظل يخبطه فى حاجز الحلبة كأنه بطيخة على وشك الانفجار. . عندئذ، يصفق طارق ويقفز من فرط النشوة، ويصيح بأعلى صوته كأنه سَمِّيع استبد به الطرب فى حفل لأم كلثوم: «الله الله. . يا حلاوتك يا وحش الجبال. . اشرب من دمه. . كسر دماغه. . خلص عليه الليلة. .». . وبنهاية المباراة يسقط طارق على فراشه مبهور الأنفاس والعرق يتصبب منه كأنه هو الذى خاض المصارعة. . لكنه يكون عندئذ قد أرضى شيئا عميقا بداخله (نزوعه إلى القوة ربما. . لأنه نحيف وصحته ضعيفة منذ الصغر)!. . وبعد انقضاء بهجة المصارعة تحين لحظة الفنطازيا: المتعة السرية اللذيذة التى يتحرق شوقا إليها حتى يلهث ويحس بدقات قلبه تهزه هزا عندما يخرج القرص المضغوط من مخبئه فى الدرج الأسفل للمكتب ثم يضعه فى الكمبيوتر، وسرعان ما يتبدى له عالم سحرى بالغ الجمال: نساء فاتنات رشيقات شقراوات لهن سيقان وأفخاذ ناعمة لذيذة، وأثداء من

أحجام متنوعة غاية فى الروعة ولهن جميعا حَلَمات مهتاجة نافرة يصيبه مرآها بالجنون. . ثم يظهر رجال عتاولة مفتولو العضلات ذوو أعضاء طويلة منتفشة منتصبة مصقولة وكأنها مطارق فولاذية جبارة مخروطة بعناية. . ولا يلبث النساء والرجال أن يتناكحوا بمنتهى الانسجام، فتعلو أصوات الغنج والشخير والتأوهات الخليعة، وتتركز الكاميرا على وجه المرأة وهى تصرخ من فرط اللذة وتعض شفتها السفلية. . ولا يستطيع طارق أن يتحمل كل هذه الإثارة أكثر من دقائق معدودة، يندفع بعدها عَدْوًا إلى الحمام وكأنه يجتاز سباقا أو يطفئ حريقا، يقف أمام الحوض ويفرغ لذته، وشيئا فشيئا يهدأ ويستعيد توازنه، ثم يأخذ حماما ساخنا ويتوضأ ويصلى العشاء والشفع والوتر، وأخيرا. . يشد على رأسه الجورب الحريمى الذى أحضره معه من مصر، ليجد شعره فى الصباح ناعما مسترسلا، فيغطى بقدر الإمكان ـ صلعته التى تتسع للأسف باطراد. . عندئذ، يكون يوم من حياة طارق حسيب قد انقضى. . فيطفئ النور ويستلقى فى الفراش على جانبه الأيمن، سنةً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم يهمس بصوت خاشع: «اللهم أسلمت نفسى إليك، ووجهت وجهى إليك، وفوضت أمرى إليك، وألجأت ظهرى إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذى أنزلت، ونبيك الذى أرسلت». . وينام.

* * *

بقدر دقة الماكينة تكون قابليتها للتلف، وأحدث أجهزة الكمبيوتر تكفى خبطة واحدة عنيفة لإعطابها. وقد تلقى طارق

حسيب خبطة كهذه يوم الأحد الماضى . . وحتى نفهم ما حدث لابد أن نعرف أولا كيف يتصرف طارق مع النساء .

عندما يعجب رجل بامرأة ، فإنه يخطب ودها بحديث رقيق ، أو يسعد قلبها بالغزل والمديح ، أو حتى يضحكها ويسليها بحكايات طريفة . . هكذا طبيعة الإنسان والحيوان أيضا ، حتى فى عالم الحشرات . . إذا أراد الذكر مجامعة الأنثى ، يتعين عليه أولا أن يداعب قرون استشعارها برقة ونعومة حتى تلين وترضى . . هذا القانون الطبيعى لا ينطبق بكل أسف على طارق حسيب ؛ فهو على النقيض من ذلك ,إذا أعجبته امرأة جميلة اندفع يعاملها بعدوانية وسعى إلى إحراجها ومضايقتها بكل الطرق . . وكلما زاد إعجابه بالمرأة ازدادت شراسته عليها . . لماذا يفعل ذلك؟ . . لا أحد يعرف . . ربما ليدارى خجله المفرط أمام النساء ، أو لأن انجذابه إلى المرأة يشعره بالضعف أمامها ، فيسعى إلى التغلب على ذلك بالهجوم الكاسح عليها . . أو لأنه ، فى عزلة النسر التى يحياها وقتاله الضارى من أجل التفوق ، يقاوم داخله أى إحساس قد يعطله عن العمل . . هذه الخصلة الغريبة تسببت فى إفساد مشروعات خطوبة عديدة بدأها طارق بنية صادقة وانتهت كلها بحوادث مؤسفة . . آخرها ما حدث منذ عامين قبيل سفره إلى البعثة ، عندما ذهب مع والدته ليخطب ابنة لواء جيش متقاعد . . فقد بدأت الجلسة بطريقة ودية ، وتم تقديم المشروبات المثلجة والحلوى وتبادل عبارات المجاملة . كانت العروس اسمها رشا ، خريجة كلية الألسن قسم اللغة الإسبانية ، وجميلة جدا : شعرها أسود ناعم طويل ، وابتسامتها ساحرة تبدو خلالها أسنانها

الناصعة المنتظمة، ونغازتان أخاذتان على جانبى وجهها الأبيض الفاتن، أما جسدها فكان ممتلئا بضا، يفور بالحيوية ويرسل بذبذبات الشهوة فى الهواء، مما أفقد طارقًا تركيزه للحظات وقد تخيل نفسه وهو يمتلك جسد العروس ويفعل به الأفاعيل، وسرعان ما تحول إعجابه كالعادة إلى نزعة عدوانية، حاول جاهدا فى البداية أن يسيطر عليها، لكنه فشل واستسلم لها فاجتاحته بعنف. . كان والد العروس، كما يحدث فى تلك المناسبات، يتحدث عن ابنته بحب وإعجاب. . قال بشىء من الزهو:

ـ رشا ابنتنا الوحيدة، وقد عملنا ما بوسعنا لنوفر لها أحسن تربية. . الحمد لله. . طول عمرها فى مدارس لغات. . من الحضانة حتى الثانوية. .

رمقه طارق بعينيه الجاحظتين قليلا، ثم سأله وعلى وجهه ابتسامة ساخرة محتقنة:

ـ عفوا يا باشا. . الآنسة رشا كانت فى أى مدرسة بالضبط؟

سكت اللواء لحظة وقد فاجأه السؤال، ثم أجاب مبتسما ولايزال لديه استعداد للتسامح:

ـ مدرسة آمون. .

وهنا وجد طارق نفسه أمام المرمى فسدد الكرة بقوة. قال وعلى وجهه ضحكة خفيفة تظاهر بمحاولة إخفائها ليضاعف من تأثيرها:

ـ عفوا يا سيادة اللواء. . مدرسة آمون عمرها ما كانت مدرسة

لغات . . آمون مدرسة تجريبية . . يعنى مدرسة حكومية عادية لكن بمصاريف رمزية . .

بدا على وجه اللواء حرج سرعان ما انقلب إلى استياء ، ودخل مع طارق فى جدل عنيف حول الفرق بين المدارس التجريبية ومدارس اللغات . . وحاولت والدة طارق أن تتدخل بكلمة مهدئة ، وأشارت لابنها أكثر من مرة بإيماءات خفية من حاجبيها وشفتيها أن يسكت ، لكن شراسته كانت قد انطلقت من عقالها ولم يعد بمقدوره أن يوقفها ، فأخذ يفند آراء والد العروس بقسوة وقد قرر أن يلحق به هزيمة ساحقة بلمس الأكتاف . قال وهو يتنهد وكأنه زهق فعلا من مناقشة البديهيات :

- مع احترامى لسيادتك . . كلامك غير صحيح إطلاقا . . الفرق كبير بين مدرسة آمون ومدارس اللغات . . مدارس اللغات فى مصر قليلة ومعروفة ، ولا يمكن لأحد أن يدخلها بسهولة .

- ماذا تقصد؟

هكذا سأل اللواء وقد احمر وجهه من الغيظ .

وتمهل طارق قليلا قبل أن يوجه ضربته القاضية :

- أقصد ما قلته . . بالضبط . .

مرت لحظات من الصمت بذل خلالها اللواء مجهودا كبيرا (كاد أن يُسمع فى صورة شهيق) من أجل السيطرة على غضبه . . وأخيرا. . التفت إلى والدة طارق الجالسة إلى يساره وقال بلهجة ذات مغزى وهو يتململ فى جلسته إيذانا بنهاية الزيارة والخطوبة معا :

ـ حصلت البركة يا ست هانم . . شرفتم . .

وبدا طريق العودة طويلا . ساد صمت ثقيل بين طارق وأمه في التاكسي ، كانت قد ارتدت أبهى ثيابها من أجل الخطوبة : تايير كحلي طويل وبونيه من نفس اللون مرصع بالترتر وخرج النجف . كانت تتمنى أن تخطب لابنها قبل أن يسافر إلى البعثة . . لكنه فعل مثل كل مرة وأفسد الخطوبة ، وكانت قد يئست من إسداء النصح له . قالت له مرارا إنه عريس محترم ومرموق ، وكل البنات تتمناه . . لكن طريقته الاستفزازية تترك الانطباع عند الناس بأنه عدواني وغريب الأطوار ، فيخافون منه على ابنتهم . .

وكأنما أحس هو بما تفكر فيه أمه ، فقال فجأة :

ـ شفت يا ماما الناس الكذابين . . يقولون على مدرسة آمون مدرسة لغات؟!

ونظرت إليه أمه مليا ثم قالت بصوت خافت اختلط في نبرته اللوم بالحنان :

ـ الموضوع لم يكن يستأهل يا حبيبي . . الرجل كان غرضه يتباهى بابنته . . شيء طبيعي!

وقاطعها طارق بحدة :

ـ من حقه أن يتباهى بابنته ، لكن لا يكذب علينا . . عندما يقول إن آمون مدرسة لغات فمعنى ذلك أنه يستخف بعقولنا . . لا يمكن أن أسمح له بذلك .

* * *

ذلك المساء استيقظ طارق حسيب من نوم القيلولة وقال لنفسه: سأنتهى من واجب الإحصاء ثم أنزل لشراء لوازم الأسبوع. انكب على حل المسائل، أخذ يقدح ذهنه ويسجل الأرقام، ثم يتطلع بلهفة إلى آخر الكتاب آملا كل مرة أن تكون إجابته صحيحة.. فجأة.. انطلقت صفارات الإنذار تعوى فى أنحاء السكن، وارتفع صوت من الإذاعة الداخلية يحذر من أن المبنى يتعرض إلى حريق ويطلب من السكان مغادرة شققهم بأقصى سرعة. كان ذهن طارق مشبعا بالأرقام، فاستغرق لحظات حتى استوعب الأمر، وسرعان ما قفز من مكانه وهرع على درجات السلم وسط الطلبة المذعورين. انتشر رجال الإطفاء فى أنحاء المبنى وأخذوا يتأكدون من إخلاء كل دور على حدة، ثم يضغطون أزرارا خاصة مثبتة فى الحوائط فتنسدل فورا أبواب فولاذية غير قابلة للاحتراق. احتشد الطلبة فى بهو المدخل، كانوا منفعلين، يضحكون بعصبية ويتهامسون بقلق، وقد نزل معظمهم بثياب النوم، مما منح طارقًا (بالرغم من رهبة الموقف) فرصة نادرة لتأمل سيقان البنات العارية.. ظهر ثلاثة أشخاص قادمين من أقصى القاعة، وشيئا فشيئا اتضحت ملامحهم: رجلان من شرطة شيكاجو، أحدهما أبيض أميل إلى القصر والبدانة، وزميله أسود فارع القامة مفتول العضلات، وبينهما مشت شيماء محمدى بالجلباب الكستور التى لم يتسع وقتها لتغييره. وصلوا إلى مكتب الاستقبال، وأخرج الشرطى الأبيض ورقة وقال بنبرة رسمية وصوت عال:

- يا آنسة.. هذا إقرار ستوقّعين عليه لتكونى مسئولة عن أية

أضرار تظهر فى المستقبل بسبب الحريق الذى تسببت فيه، يجب أن توقعى أيضا على تعهد بعدم تكرار هذا الحادث فى المستقبل.

حدقت شيماء فى وجه الشرطى الأبيض وكأنها لا تفهم، وهنا قال الشرطى الأسود وقد اتخذ وجهه هيئة من يلقى بنكتة لاذعة:

- اسمعى يا صديقتى، أنا لا أعرف أنواع الطعام التى تأكلونها فى بلدكم.. لكنى أنصحك أن تغيرى من طعامك المفضل لأنه كاد أن يتسبب فى إحراق الجامعة!

ضحك الشرطى الأسود بلا غضاضة، على حين حاول زميله أن يخفى ابتسامته من باب اللياقة. انحنت شيماء ووقعت على الورقة فى صمت، ولم يلبث الشرطيان أن تبادلا بعض الكلمات ثم استدارا منصرفين. بعد قليل أذيع أن الخطر قد زال، وبدأ الطلاب فى الصعود إلى شققهم، لكن شيماء ظلت واقفة أمام مكتب الاستقبال. بدت شاحبة كالأموات، ظلت ترتجف وتتنفس بعمق وتحاول استجماع نفسها وكأنها استيقظت لتوها مفزوعة من كابوس. كانت تحس بأن روحها مسحوبة وبأن كل ما يحدث غير حقيقى.. وسيطر عليها شعور بالمهانة من أثر احتضان رجل الإطفاء لها، وكان ظهرها لم يزل يؤلمها من أثر ضغط يده. وقف طارق حسيب يتفحصها بنظرة متأنية، ثم دار حولها مرتين مستكشفا وكأنه حيوان يتشمم حيوانا آخر من فصيلة مجهولة لديه، وقد أحس من أول وهلة بانجذاب ناحيتها، وسرعان ما تحول إعجابه - كالعادة - إلى حنق بالغ. كان يعرف اسمها، وقد رآها من قبل فى قسم الهيستولوجى، لكنه استمتع بالتظاهر بأنه لا يعرفها.. تقدم ناحيتها ببطء، وعندما صار فى مواجهتها تماما

رمقها بنظرة متفحصة مستنكرة مستريبة كان يوجهها إلى طلاب طب القاهرة عندما يراقبهم فى الامتحان التحريري، ولم يلبث أن سألها باستخفاف:

- أنت مصرية؟

أجابت بإيماءة من رأسها المتعب، وانهمرت أسئلته كزخات الرصاص: ماذا تدرسين؟.. أين تسكنين؟.. كيف تسببت فى الحريق؟.. ظلت تجيب بصوت خافت وهى تتحاشى النظر إلى عينيه.. ساد الصمت لحظة، ووجدها طارق مناسبة لهجوم مباغت، فقال بحدة:

- اسمعى يا أخت شيماء.. أنت هنا فى أمريكا ولست فى طنطا.. يجب أن تتصرفى بطريقة متحضرة..

تطلعت إليه صامتة.. ماذا تقول؟.. إن ما فعلته دليل على غبائها وتخلفها. همت بالرد عليه، فاقترب منها متحفزا وهو على أتم استعداد لإفحامها وسحقها سحقا.

٤

رفع البروفيسور دنيس بيكر يده موافقا، وكذلك فعل الدكتور فريدمان، ثم أحصى الأصوات بنظرة سريعة وانحنى على الأوراق ليسجل قرار المجلس بقبول ناجى عبد الصمد. انتهى الاجتماع وانصرف الأساتذة، واستقل رأفت ثابت سيارته عائدا إلى البيت. كان يشعر بالغيظ من نتيجة التصويت حتى إنه ضغط يديه بقوة على عجلة القيادة وزفر بحنق.. فكر أن المصريين سيفسدون القسم.. هذه الحقيقة.. المصريون لا يصلحون للعمل فى أماكن محترمة لأن عيوبهم كثيرة وفادحة: الجبن والنفاق، الكذب والمراوغة والكسل، عدم القدرة على التفكير المنظم، وأسوأ من كل ذلك: العشوائية والفهلوة..

هذه النظرة السلبية للمصريين تتوافق مع تاريخ رأفت ثابت؛ فقد هاجر من مصر إلى أمريكا أوائل الستينيات بعد أن أمم عبد الناصر مصانع الزجاج التى يملكها أبوه محمود باشا ثابت، وبالرغم من القبضة الحديدية للنظام آنذاك، فقد استطاع أن يهرب بمبلغ مالى كبير بدأ به حياته الجديدة، فتعلم حتى حصل على الدكتوراه، وعمل بالتدريس فى عدة جامعات أمريكية فى نيويورك وبوسطن، ثم استقر فى شيكاجو منذ ثلاثين عاما،

وتزوج من الممرضة ميتشيل وحصل على الجنسية الأمريكية، وصار أمريكيا فى كل شيء. . فهو لا يتحدث العربية مطلقا، ويفكر بالإنجليزية وينطقها بلكنة أمريكية متقنة. . بل إنه يهز كتفيْه ويحرك يديه ويصدر أصواتا من فمه أثناء الكلام تماما كالأمريكيين. . وفى أيام الآحاد، يذهب إلى مباريات البيسبول التى صار خبيرا بها حتى إن الأمريكيين أنفسهم كثيرا ما يستشيرونه إذا اختلفوا على قواعدها. . يجلس فى المدرج وقد ارتدى قبعته الرياضية بالمقلوب، يتابع اللعب بشغف وحماس وهو يرشف من كوب البيرة الكبير الذى لا يفارق يده. . هذه الصورة التى يحبها لنفسه، أن يكون أمريكيا حقيقيا كاملا، نقيا خالصا بلا شوائب، وفى حفلات الاستقبال والمناسبات الاجتماعية عندما يسأله أحدهم:

ـ من أين أنت؟

يجيب رأفت من فوره: I am Chicagoan . . أى: أنا من شيكاجو.

يتقبل كثير من الناس إجابته ببساطة. . لكن بعضهم، أحيانا، ينظر إلى ملامحه العربية باستراية ثم يسأله:

ـ أين كنت قبل أن تأتى إلى أمريكا؟

عندئذ يتنهد رأفت ويهز كتفيه مرددا جملته الأثيرة التى صارت شعارا له:

ـ ولدت فى مصر، وهربت من الظلم والتخلف إلى العدل والحرية.

هذا الاعتزاز المطلق بكل شيء أمريكى مقابل احتقار كل ما هو مصري، يفسر كل ما يفعله؛ فلأن المصريين أجسادهم مترهلة وحياتهم غير صحية، يحرص هو على رشاقته ولياقته. . وبالرغم من بلوغه الستين فإنه لا يزال يحتفظ بمظهر جذاب: قامة فارعة وجسد رياضي ممشوق، بشرة متماسكة قليلة التجاعيد، وشعر مصبوغ بطريقة رزينة مقنعة تركت قليلا من الشيب على الفودين ومقدمة الرأس. والحق أنه وسيم، يحمل أناقة أرستقراطية متوارثة تظهر فى ثيابه وحركات جسده، وهو يشبه إلى حد كبير الممثل رشدى أباظة، إلا أن طابعا خاملا مترددا يقلل دائما من جاذبية وجهه. . ولأنه يفخر بإنجازات بلاده، يحرص الدكتور رأفت على اقتناء أحدث الأجهزة الأمريكية، بدءا من سيارته الكاديلاك الحديثة (التى دفع مقدم ثمنها من أجره عن محاضرات ألقاها الشتاء الماضى فى هارفارد) وأحدث طراز من التليفون المحمول. . إلى ماكينة الحلاقة الكهربائية التى ترش العطر على الذقن، ومقص الحديقة الكهربائى الذى يقلم الحشائش على حين تنبعث منه الموسيقى. . وفى حضور المصريين بالذات، يحلو له أن يستعرض فى زهو إمكانات أجهزته الحديثة، ثم يسألهم ساخرا:

- متى تستطيع مصر أن تنتج مثل هذا الجهاز . . بعد كم قرن؟

ثم ينفجر ضاحكا وسط حرج الحاضرين. وعندما يتفوق طالب مصرى فى القسم لا بد لرأفت أن ينخزه، يتقدم إليه ويصافحه قائلا:

- أهنئك لأنك تفوقت بالرغم من التعليم البائس الذى تلقيته فى مصر . . يجب أن تشكر أمريكا على ما وصلت إليه .

وبعد أحداث ١١ سبتمبر ، كان رأفت يجاهر بآراء ضد العرب والمسلمين قد يتحرج منها أكثر الأمريكيين تعصبا . . كأن يقول مثلا :

- من حق الولايات المتحدة أن تمنع أى شخص عربى من دخول أراضيها حتى تتأكد من أنه شخص متحضر . . لا يعتبر القتل فرضا دينيا .

من هنا ، كان قبول ناجي عبد الصمد بمثابة هزيمة شخصية للدكتور رأفت . . إلا أنه لم يلبث أن قرر ، بعد قليل ، أن ينفض الأمر برمته عن ذهنه . رفع يده اليمنى عن عجلة القيادة وضغط بأصبعه زر المسجل ليستمع إلى أغانى لَيُونل ريتشى الذى يعشقه ، فكر فى أمسية هادئة يقضيها مع زوجته ميتشيل وابنته سارة ، وتذكر زجاجة الويسكي الفاخر من نوع «التحية الملكية» ROYAL SALUT التى اشتراها من أيام ، وعزم على أن يفتحها الليلة لأنه يحتاج إلى شراب جيد . بعد قليل وصل إلى منزله ، مبنى أبيض أنيق يتكون من دورين تحوطهما حديقة جميلة وفناء خلفى . تلقاه كلبه الألمانى ميتز مرحبا بنباح عال متواصل . دار بالسيارة حول المنزل كعادته حتى يصل إلى الجراج . . لكنه ، لدهشته ، لمح النور مضاء فى حجرة الطعام مما يعنى وجود ضيوف . استغرب لأن زوجته ميتشيل لم تخبره بأنها تتوقع أحدا على العشاء . . ضغط على زر التحكم فتم إغلاق السيارة أوتوماتيكيا ، ثم أغلق باب

الجراح وجذب بيده المزلاج ليتأكد من إحكامه. مشى ببطء ناحية البيت وهو يحاول أن يخمن من يكون الضيف.. داعب الكلب ميتز على عجل وتخلص منه، ثم دخل من الباب الجانبى واجتاز الردهة بحذر، وأحست زوجته ميتشيل بوقع خطواته على خشب الأرضية فهرعت إليه وبادرته بقبلة على خده قائلة بمرح:

ـ تعال بسرعة.. لدينا مفاجأة جميلة..

عندما دخل إلى حجرة الطعام.. كان جيف صديق ابنته سارة يقف بجوارها، شاب فى نحو الخامسة والعشرين، نحيل ووجهه شاحب، عيناه الزرقاوان جميلتان، وشفتاه رقيقتان مضمومتان، وشعره الكستنائى الناعم يسترسل على ظهره فى ضفيرة طويلة، يرتدى فانلة «تى شيرت» بيضاء وبنطلونا جينز أزرق ملطخًا بالألوان فى أكثر من موقع، وصندلا قديما تبرز منه أصابع قدميه المتسخة.. تقدم جيف ليصافح رأفت، على حين ارتفع صوت ميتشيل فى الخلفية:

ـ لقد انتهى جيف من لوحته الجديدة هذا المساء وقرر أن نكون أول من يشاهدها.. أليس هذا رائعا؟

ـ عظيم.. أهلا بك يا جيف..

هكذا قال رأفت، وقد لاحظ بنظرة جانبية أن زوجته صففت شعرها وتزينت وارتدت بنطلون القطيفة الجديد.. تقدم جيف ليصافحه وقال ضاحكا:

ـ دعنى أكون صريحا معك يا رأفت.. رأيك يهمنى بالطبع،

لكنى عندما انتهيت من لوحتى الجديدة لم أفكر إلا فى شيء واحد، أن تكون سارة أول من يراها.

ـ شكرا لك..

هكذا همست سارة وهى تضغط يده بيدها وتتطلع إلى وجهه الوسيم بإعجاب.. ولم تلبث ميتشيل أن سألته وكأنها تجرى معه حديثا فى التليفزيون:

ـ قل لى يا جيف.. بماذا يحس الفنان عندما ينجز عملا جديدا؟

رفع جيف رأسه ببطء ونظر إلى السقف وأغمض عينيه وصمت لحظة، ثم مد ذراعيه أمامه كأنما يحتضن العالم وقال بصوت حالم:

ـ لا أعرف كيف أصف ذلك؟.. إن أجمل لحظة فى حياتى عندما أضع الفرشاة الأخيرة على اللوحة.

أثرت كلماته للغاية فى المرأتين، فراحتا ترمقانه بشغف وإكبار.. ثم قالت ميتشيل:

ـ والآن.. ما رأيك يا رأفت.. هل نبدأ بالعشاء أم نشاهد اللوحة أولا؟

كان رأفت جائعا، فقال بهدوء:

ـ كما تريدين.

لكن سارة صفقت وهتفت بمرح:

ـ لا أستطيع أن أصبر لحظة واحدة حتى أرى اللوحة.

ـ ولا أنا..

هكذا قالت ميتشيل ضاحكة وهى تجذب رأفت من يده إلى ركن الحجرة. كان جيف قد علق اللوحة على حامل وغطاها بقماش أبيض لامع.. وقفوا جميعا أمامها لحظة، ثم تقدم جيف ومد يده وجذب طرف القماش بحركة مسرحية خاطفة، فانكشفت اللوحة وصاحت ميتشيل وسارة فى نفَس واحد:

ـ أوه.. رائع.. رائع!

استدارت سارة وشبت على قدميها وقبَّلت جيف على وجنتيه.. على حين أخذ رأفت ينظر إلى اللوحة ويهز رأسه ببطء كأنما يتعمق فى فهمها. كانت اللوحة مطلية كلها باللون الأزرق الغامق، وفى منتصفها ثلاث بقع كبيرة باللون الأصفر، وفى أعلى يسار اللوحة كان هناك خط واحد باللون الأحمر لا يكاد يظهر فى قتامة الخلفية. انبرت سارة وأمها فى كيل المديح لجيف، على حين ظل رأفت صامتا.. فسألته ميتشيل بنبرة ناعمة لا تخلو من اللوم:

ـ ألا تعجبك هذه اللوحة البديعة؟!

ـ أحاول أن أفهمها.. إن ذوقى تقليدى قليلا.

ـ ماذا تقصد؟..

هكذا سأله جيف وقد تكدر وجهه فجأة.. فأجاب رأفت بصوت معتذر:

ـ فى الحقيقة يا جيف . . أنا أفضّل الطريقة القديمة فى الرسم لأنى أفهمها أكثر . . أن يرسم الفنان مثلا وجها إنسانيا أو منظرا طبيعيا . . أما الرسم على طريقة الفن الحديث فأنا بصراحة لا أفهمه .

ـ يؤسفنى أن يكون فهمك للفن بدائيا بهذا الشكل . . كنت أتوقع منك أفضل من ذلك لأنك تعلمت فى أمريكا . . الفن لا يُفهم بالعقل لكننا ندركه بالإحساس . . بالمناسبة، أرجوك يارأفت ألا تستعمل أمامى كلمة رسم لأنها تثير أعصابي . . الرسم نتعلمه فى المدرسة الابتدائية . . الفن التشكيلى أكبر من ذلك بكثير .

تملكت جيف حدة مفاجئة، ثم تنفس بعمق وأشاح بوجهه مستنكرا، ثم عاد ينظر إلى المرأتين وهو يغتصب ابتسامة ليبدو فى صورة الفنان الذى أهين بقسوة لكنه قرر نسيان الإساءة لأنه مطبوع على التسامح . وتأثرت ميتشيل بذلك فصاحت توبخ زوجها :

ـ إذا كنت لا تفهم فى الفن يا رأفت، فالأفضل ألا تتحدث عنه . .

ابتسم رأفت ولم يرد . وبعد قليل جلس الأربعة يتناولون العشاء : جيف بجوار سارة، ورأفت بجوار ميتشيل التى فتحت على شرف الضيف العزيز زجاجة من نبيذ بولونيا الفاخر .

اندمج العاشقان فى حديث هامس حميم، على حين راحت ميتشيل ترمقهما برضا واضح، وقال رأفت بصوت عال :

ـ ميتشيل . . هل انتهت المشاكل فى المصحة؟

ـ نعم . .

هكذا قالت ميتشيل باقتضاب وقد بدا أنها لا تفضل الحديث فى الموضوع . . لكن رأفت استطرد موجها الحديث للعاشقين ليجذب انتباههما عن الغرام :

ـ اسمعا هذه الحكاية الطريفة . . تعرفان أن ميتشيل تعمل فى مصحة للحالات النهائية فى وسط شيكاجو . . مهمة هذه المصحة أن تساعد المرضى الميئوس من شفائهم . . الذين ينتظرون الموت .

ـ كيف تساعدهم؟ . .

هكذا سأل جيف بنصف اهتمام . . فأجابه رأفت بحماس :

ـ هدف المصحة أن تجعل فكرة الموت مقبولة وغير مؤلمة بالنسبة للمرضى المحتضرين . . يحضرون لهم رجال دين ومختصّين نفسيين يتحدثون معهم حتى يزول خوفهم من مواجهة الموت . . طبعا زبائن المصحة كلهم من الأثرياء . . الأسبوع الماضى حدثت واقعة طريفة لمريض مليونير اسمه . .

ـ شيلدز . . ستيوارت شيلدز .

هكذا تمتمت ميتشيل وهى تمضغ الطعام، واستطرد رأفت قائلا :

ـ أشرف المستر شيلدز على الموت، وأرسلت إدارة المصحة إلى أولاده، فجاءوا بالطائرة من كاليفورنيا ليشهدوا موته ويقوموا بإجراءات الدفن . . لكنهم ما إن وصلوا إلى المصحة حتى تحسنت صحة الأب فجأة وتجاوز الأزمة . . وقد تكرر هذا الأمر مرتين،

فهل تعلمون ماذا فعل أولاد المليونير شيلدز؟ . . لقد أرسلوا إنذارا قضائيا للمصحة . . قالوا فيه إنه من الواضح أن نظام التوقع الطبى فى المصحة يعانى من خلل جسيم؛ لأنهم كل مرة يتركون أعمالهم ويتكبدون مشقة وتكاليف السفر لحضور موت أبيهم، لكنهم يفاجئون بأنه على قيد الحياة! وقد أنذروا المصحة بأنهم، إذا تكرر ذلك فى المستقبل، سيطالبون بتعويض كبير عن تضييع وقتهم وأموالهم . . ما رأيكم فى هذه الحكاية؟

ـ مسلية جدا يا رأفت .

هكذا قال جيف ساخرا، ثم تثاءب بصوت عال فانفجرت سارة ضاحكة . . تجاهل رأفت السخرية وقال :

ـ إن العقلية الشرقية تفسر هذا التصرف على أنه جحود من الأبناء . . لكننى أراه دليلا على احترام الوقت فى المجتمع الأمريكى .

لم يرد أحد على رأفت، فقد اندمج العاشقان من جديد فى همسهما، وأسر جيف بكلمات فى أذن سارة، فابتسمت واحمر وجهها . . وعلى حين ظلت ميتشيل منهمكة فى تقطيع قطعة اللحم، نهض رأفت وهو يمسح طرف فمه بالفوطة وقال وعلى وجهه ابتسامة فاترة :

ـ اعذرنى يا جيف . . أنا مضطر إلى الصعود إلى المكتب . لدى عمل لابد أن أنجزه . . تصرف كأنك فى بيتك . . سأراك فى نهاية الأسبوع حتى نكمل مناقشتنا فى الفن .

لوح رأفت بيده مودعا وصعد السلم الخشبى إلى الدور

الأعلى، وما إن أغلق خلفه باب المكتب حتى توجه من فوره إلى الدولاب المجاور للنافذة وأخرج زجاجة الويسكى الجديدة وصنع لنفسه كأسا بالصودا والثلج، ثم جلس إلى مقعده الهزاز ورشف ببطء، فأحس باللذعة الأولى التى يحبها، وسرعان ما داخله شعور بالراحة.. لم يكن لديه عمل، لقد كذب عليهم لأنه لم يتحمل الجلوس مع المدعو جيف أكثر من ذلك.. يا الله!.. كيف تعلقت سارة الذكية الموهوبة بهذا الشخص التافه؟.. ولماذا يشعر السيد جيف بكل هذه الثقة؟ إنه يتعامل مع الناس وكأنه فان جوخ أو بيكاسو، فمن أين يستمد شعوره بالأهمية؟.. إنه مجرد تلميذ فاشل ترك المدرسة الثانوية وهرب من أهله، حتى محطة البنزين التى كان يعمل فيها طردوه منها، وهو يعيش الآن فى حى أوكلاند حيث الصعاليك والمجرمون.. عاطل ومدعى فن ووقح بطريقة لا تصدق.. لقد حاول أن يفتح معه حديثا - من باب أدب الضيافة - لكنه سخر منه وتثاءب فى وجهه.. يا للوغد!.. ما الذى يعجب سارة فيه؟ إنه قذر لا يستحم إلا فى المناسبات، فكيف لا تشعر بتقزز وهى تقبّله؟.. وهو يلطخ اللوحات بهذا الهراء وهاتان المرأتان الحمقاوان تعتبرانه عبقريا.. ولا يكتفى بذلك بل يريد أن يعطيه دروسا فى الفن؟! ياله من صفيق!.. هكذا قال رأفت لنفسه، وابتسم بمرارة وهو يصب كأسه الثانية.. وشيئا فشيئا، خففت الخمر من انفعاله وأحس بالاسترخاء.. أغمض عينيه ورشف من الكأس بتلذذ.. وفجأة، انفتح الباب بعنف ودخلت سارة وميتشيل، وقفتا أمامه بتحفز واضح.. سألته ميتشيل:

- أين العمل الذى تركتنا لتنجزه؟

ـ انتهيت منه .

ـ أنت تكذب . .

تطلع إلى زوجته صامتا ثم سألها متظاهرا بالانزعاج :

ـ أين ذهب جيف؟

ـ انصرف .

ـ هكذا سريعا؟

ـ كان لابد أن ينصرف بعد ما فعلته . . إن لديه كرامة مثلنا جميعا . . هل تعلم أنه انتظرك ساعة كاملة حتى يتناول العشاء معك؟ !

أطرق رأفت ، وجعل يهز الكأس فى يده حتى يذيب الثلج ، وقرر أن يتجنب المواجهة بقدر الإمكان . لكن سكوته ضاعف من غضب سارة ، فتقدمت حتى واجهته تماما ودقت بيدها على المنضدة ، فاهتزت آنية الزهور بشدة ، ثم صرخت بنبرة بدت له هستيرية وغريبة :

ـ ليس من اللياقة أن تتعامل مع صديقى بهذه الطريقة ! . .

ـ لم أفعل شيئا غير لائق . . بل هو الذى هبط علينا دون موعد .

ـ جيف صديقي . . من حقى أن أستقبله فى أى وقت . .

ـ كفى يا سارة من فضلك . . أنا متعب . . أريد أن أنام . . ليلة سعيدة .

هكذا قال رأفت وهو ينهض من المقعد متوجها نحو الباب . . لكن سارة لاحقته بالصياح :

- لن تهرب بما فعلته . . لن أسامحك أبدا لأنك أهنت صديقي . . جاء بمنتهى اللطف ليعرض علينا لوحته الجديدة، فكانت النتيجة أنك أهنته . . لكنك لن تستطيع إهانته مرة أخرى . . عندى لك مفاجأة مدهشة . . أتحب أن تعرفها؟

* * *

«.. يقاتل الجندى أعداءه بضراوة، يتمنى لو يفنيهم جميعا.. لكنه إذا قُدِّر له، مرة واحدة، أن يعبر إلى الجانب الآخر ويتجول بين صفوفهم، سيجدهم بشرا طبيعيين مثله، سيرى أحدهم يكتب خطابا لزوجته، وآخر يتأمل صور أطفاله، وثالثا يحلق ذقنه ويدندن.. كيف يفكر الجندى حينئذ؟.. ربما يعتقد أنه كان مخدوعا عندما حارب هؤلاء الناس الطيبين وعليه أن يغير موقفه منهم.. أو.. ربما يفكر أن ما يراه مجرد مظهر خادع، وأن هؤلاء الوادعين ما إن يتخذوا مواقعهم ويشهروا أسلحتهم حتى يتحولوا إلى مجرمين، يقتلون أهله ويسعون إلى إذلال بلاده..

ما أشبهنى بذلك الجندى.. أنا الآن فى أمريكا التى طالما هاجمتها وهتفت بسقوطها وأحرقت علمها فى المظاهرات.. أمريكا المسئولة عن إفقار وشقاء ملايين البشر فى العالم.. أمريكا التى ساندت إسرائيل وسلَّحتها ومكَّنتها من قتل الفلسطينيين وانتزاع أرضهم.. أمريكا التى دعمت كل الحكام الفاسدين المستبدين فى العالم العربى من أجل مصالحها.. أمريكا الشريرة هذه أراها

الآن من الداخل فتنتابني حيرة ذلك الجندي، ويلح عليَّ السؤال: هؤلاء الأمريكيون الطيبون الذين يتعاملون مع الغرباء بلطف، الذين يتسمون في وجهك ويحيونك بمجرد أن تلقاهم، الذين يساعدونك ويفسحون لك الطريق أمام الأبواب ويشكرونك بحرارة لأقل سبب، هل يدركون مدى بشاعة الجرائم التي تقترفها حكوماتهم في حق الإنسانية؟»..

كتبت الفقرة السابقة لأبدأ بها أوراقي، ثم شطبتها لأنها لم تعجبني.. قررت أن أكتب ببساطة ما أشعر به. لن أنشر هذه الأوراق ولن يقرأها أحد سواي، أنا أكتب لنفسي، أكتب حتى أسجل نقطة التحول في حياتي، أنتقل الآن من عالمي القديم الذي لم أعرف سواه، إلى عالم جديد مثير مفعم بالإمكانات والاحتمالات.. وصلت هذا الصباح إلى شيكاجو، نزلت من الطائرة ووقفت في صف طويل حتى وصلت إلى ضابط الجوازات الذي فحص أوراقي مرتين ووجه إليَّ عدة أسئلة بوجه مستريب كاره قبل أن يختم الجواز ويسمح بدخولي. ما إن خطوت قليلا في بهو المطار حتى لمحت اسمي مكتوبا بالإنجليزية على لافتة يحملها رجل جاوز الستين، ملامحه مصرية وبشرته سمراء رائقة، أصلع تماما ويرتدي نظارة طبية بإطار فضي تمنح وجهه طابعا رسميا، ثيابه أنيقة متناسقة تنم عن ذوق راق: بنطلون كحلي من القطيفة، وسترة رصاصية خفيفة، وقميص أبيض بياقة مفتوحة، وحذاء رياضي أسود.. اقتربت منه وأنا أجر حقيبتي، فتهلل وجهه وسأل:

ـ أنت ناجي عبد الصمد؟

هززت رأسي، فشد على يدي بقوة وهتف بحرارة:

ـ أهلا بك في شيكاجو.. أنا محمد صلاح.. أستاذ في قسم الهيستولوجي الذي سوف تدرس فيه.

في آخر الجملة بدأت أميز لكنة خفيفة في لغته العربية.. شكرته بحرارة.. قلت إنني أقدر كرمه لأنه ترك أسرته في يوم العطلة لكي يستقبلني.. حرك يده أمام وجهه على الطريقة الأمريكية وكأنه يهش ذبابة، بمعنى أن الأمر لا يستحق الشكر.. حاول أن يساعدني في حمل الحقيبة إلى السيارة، لكني رفضت شاكرا. قال وهو يدير المحرك:

ـ نحن المصريين نحب الحفاوة والمشاعر الحارة.. عندما نسافر حتى إلى مسافة قريبة، نحب أن يكون أحد في انتظارنا..أليس كذلك؟

ـ شكرا جزيلا يا دكتور.

ـ هذا واجب العمدة.

نظرت إليه مترددا، فضحك عاليا ثم قال بمرح وهو ينحني بالسيارة المسرعة مع اتجاه الطريق:

ـ المصريون هنا يطلقون عليَّ «عمدة شيكاجو».. وأنا أبذل جهدي حتى لا أفقد اللقب.

ـ حضرتك في شيكاجو من زمان؟

ـ من ثلاثين سنة.

ـ ثلاثين سنة؟!

رددت وراءه بدهشة، فساد الصمت لحظة.. ثم قال بنبرة مختلفة:

ـ كان المفترض أن يستقبلك رئيس اتحاد الدارسين المصريين في أمريكا.. لكنه اعتذر لظروف.. إنه زميلك من طب القاهرة.

ـ ما اسمه؟

ـ أحمد دنانه.

ـ أحمد عبد الحفيظ دنانه؟!

ـ أعتقد أن هذا اسمه بالكامل.. هل تعرفه؟

ـ كل خريجي قصر العيني يعرفونه لأنه عميل للمباحث!

لاذ الدكتور صلاح بالصمت وبان على وجهه بعض الضيق، فأحسست بندم وقلت:

ـ أنا آسف يا دكتور.. لكن دنانه هذا، أثناء حرب الخليج الثانية، تسبب في اعتقالي أنا وزملاء كثيرين.

ظل صامتا وعيناه موجهتان إلى الطريق، ثم قال:

ـ حتى لو كان هذا صحيحا فأنا أنصحك أن تنساه، يجب أن تبدأ رحلتك العلمية وقد تخلصت من كل صراعاتك القديمة.

هممت بالرد عليه، لكنه بادرني ليغير الموضوع:

ـ كيف ترى شيكاجو؟

ـ كبيرة وجميلة.

ـ شيكاجو مدينة رائعة لكنها مظلومة.. سُمْعَتُها في العالم أنها بلد عصابات، والحقيقة أنها من أهم مراكز الثقافة الأمريكية.

ـ ألا توجد فيها عصابات؟!

ـ في العشرينيات والثلاثينيات كانت المافيا نشطة هنا، أيام «آل كابوني»، أما الآن.. فالعصابات في شيكاجو كمثلها في أية مدينة أمريكية أخرى.. بالعكس، شيكاجو أكثر أمنا من نيويورك مثلا.. على الأقل هنا المناطق الخطرة معروفة، أما في نيويورك

فالخطر شامل.. قد يهاجمك مسلحون في أى مكان.. أتحب أن أطوف بك قليلا؟

لم ينتظر إجابتى، خرج بالسيارة من الطريق السريع، وعلى مدى نصف ساعة طاف بى برج سيرز وبرج المياه وعبر بى بجوار متحف الفن الحديث وتمهل حتى أشاهد التمثال الذى أهداه «بابلو بيكاسو» إلى شيكاجو.. وعندما سرنا بالسيارة بحذاء شاطئ البحيرة أشار بيده قائلا:

- هذه حديقة جرانت بارك.. ألا تذكّرك هذه المنطقة بالكورنيش فى الإسكندرية؟

- ألا تزال تذكر مصر؟

ابتسم وقال:

- طبعا!.. بالمناسبة.. ماذا يحدث فى مصر هذه الأيام؟ إن ما أقرؤه فى الجرائد يقلقني.

- بالعكس، إن الأحداث تبعث على التفاؤل.. لقد صحا المصريون وبدءوا يطالبون بحقوقهم.. النظام الفاسد يهتز بشدة، وأعتقد أن أيامه معدودة.

- ألا تعتقد أن المظاهرات والإضرابات ستفضى بالبلد إلى الفوضى؟

- لا يمكن أن نحصل على الحرية دون ثمن.

- وهل تعتقد أن المصريين صالحون لتطبيق الديمقراطية؟

- ماذا تقصد؟

- أقصد أن نصف المصريين من الأميين.. أليس من الأجدى أن نركز جهودنا لتعليمهم القراءة والكتابة؟

ـ مصر كان لديها أقدم برلمان في الشرق.. كما أن الأمية لا تتعارض مع تطبيق الديمقراطية.. بدليل نجاح الديمقراطية في الهند مع وجود الأمية فيها.. لا يحتاج الإنسان إلى شهادة جامعية ليدرك أن حاكمه فاسد وظالم.. ومن ناحية أخرى فإن القضاء على الأمية يستلزم أن ننتخب نظاما سياسيا عادلا وكفؤا.

للمرة الثانية أحس بأنه تضايق من كلامي.. انحرف بالسيارة من جديد إلى طريق علوي وقال:

ـ لا شك أنك متعب من السفر.. يجب أن تستريح.. سيكون لدينا وقت فيما بعد لنطوف بشيكاجو.. نحن نتجه الآن إلى الجامعة.. احفظ الطريق.

ـ سأحاول.. ذاكرتي الجغرافية ضعيفة!

ـ مستحيل أن تضل الطريق في شيكاجو لأنها مصممة على خطوط طول وعرض منتظمة، فيكفي أن تعرف رقم أي مبنى لتصل إليه بسهولة.

.....

تجولنا في مول الجامعة، وساعدني على شراء البقالة.. وقال بلطف:

ـ إذا كنت تحب الفول المدمس.. هناك معلبات في آخر الصف.

ـ هل يأكل الأمريكيون الفول والطعمية مثلنا؟

ـ لا طبعا، ولكن.. هناك مهاجر فلسطيني ينتجه هنا في شيكاجو.. تحب تجربه؟

ـ لقد أكلت في مصر كميات من الفول تكفيني إلى قيام الساعة!

عندما يضحك يكتسب وجهه طابعا ودودا. وصلنا إلى سكن الطلبة. المبنى كبير تحوطه حديقة شاسعة. رحبت بنا موظفة الاستقبال السوداء، وبدا واضحا أنها صديقة للدكتور صلاح لأنه سألها عن أسرتها. ضغطت اسمي على شاشة الكمبيوتر فظهرت البيانات..

ـ شقة رقم ٤٠٧ .. الدور الرابع..

هكذا قالت وهي تناولني المفتاح بابتسامة.. ودعت الدكتور صلاح وشكرته من جديد، ثم أخذت حقيبتي وصعدت إلى الشقة، أغلقت الباب خلفي وخلعت ثيابي. كان الجو دافئا فظللت بملابسي الداخلية، وما إن رأيت السرير حتى سقطت قتيلا. استغرقت في نوم عميق ولم أستيقظ إلا بعد الظهر. الشقة عبارة عن حجرة نوم وحمام ومطبخ مفتوح على صالة تكفي بالكاد لمائدة ومقعدين.. المكان ضيق لكنه نظيف، ويحمل، بسبب ورق الحائط المنقوش والموكيت الوثير ومصابيح الإضاءة غير المباشرة، طابعا غربيا أنيقا كذلك الذي نراه في الأفلام الأجنبية. أخذت حمّاما ساخنا وصنعت لنفسي قهوة، ثم تمددت على الفراش وأشعلت سيجارة.. وهنا حدث شيء غريب.. اجتاحتني فجأة خيالات جنسية فاحشة، تملكتني رغبة عارمة كادت تؤلمني من فرط قوتها وإلحاحها!.. أشعر ببعض الخجل وأنا أكتب ذلك، فقد استبد بي هياج جنسي عارم لا أعرف له سببا.. ربما نتيجة إحساسي بالانطلاق وأنا أبدأ حياتي الجديدة في أمريكا، أو بسبب الهواء النقي الذي استنشقته على ضفاف بحيرة ميتشجن، أو ربما يكون جو الشقة الهادئ والإضاءة الظليلة وسكون يوم الإجازة قد ذكّرني بمشاهد صباح الجمعة في شقة الجيزة التي شهدت مغامراتي.. لا أعرف.

حاولت أن أقاوم الرغبة بأن أفكر في شيء آخر، لكنى فشلت.. فنهضت من الفراش ورفعت سماعة التليفون وسألت موظفة الاستقبال إن كان من حقى أن أستقبل صديقة في شقتي.. فضحكت وقالت بمرح:

ـ طبعا من حقك.. أنت في بلد حر.. لكن لائحة السكن تمنع صديقتك من المبيت معك.. يجب أن تنصرف قبل العاشرة مساء!

ضاعف كلام الموظفة من هياجي.. فقمت وأعددت لنفسى سندوتش تونة، ثم فتحت زجاجة النبيذ التى اشتريتها من الطائرة.. بدأت أشرب ببطء وأتصفح دليل التليفون الضخم.. كنت أعرف أن الدعارة ممنوعة في شيكاجو، وسرعان ما اكتشفت أنها تتخذ اسما آخر!.. وجدت في الدليل إعلانات عن سيدات جميلات متخصصات في «التدليك الخاص».. قلت لنفسي: هذا بالضبط ما أريده!.. تفاديت الإعلانات الكبيرة لأننى قدرت أنها ستكون باهظة الثمن.. اخترت أصغر إعلان واتصلت، وضعت السماعة على أذنى فسمعت دقات قلبى قوية متسارعة من فرط الانفعال.. جاءنى صوت امرأة ناعما نعسانَ كأنها صحت لتوها من النوم:

ـ كيف أستطيع أن أساعدك؟

اندفعت قائلا:

ـ أريد سيدة جميلة لتقوم بتدليكى.

ـ سيكلفك هذا ٢٥٠ دولارا في الساعة.

ـ هذا كثير جدا.. أنا طالب ونقودى قليلة.

ـ ما اسمك؟

ـ ناجي.. وأنت؟

ـ أنا دونا.. من أين أنت؟

ـ من مصر.

صاحت بحماس:

ـ مصر؟!.. أوه.. كم أعشقها!.. أحلم بأن أذهب يوما إلى الأهرام وأركب الجمل وأرى التماسيح فى النيل..اسمع يا ناجي.. هل تشبه أنور السادات؟..لقد كان وسيما جدا.

ـ أنا فعلا أشبه السادات حتى إن كثيرين يظنوننى ابنه..كيف عرفت؟

ـ مجرد تخمين.. ماذا تفعل فى أمريكا؟

ـ أدرس فى إلينوى.. اسمعى.. سأدعوك الشتاء القادم لكى تقضى إجازتك فى مصر..ما رأيك؟

ـ إنه حلم حياتى.

ـ أعدك بذلك.. لكننى يا صديقتى لا أستطيع أن أدفع ٢٥٠ دولارًا فى ساعة حب.

صمتت لحظة وقالت بصوت خفيض:

ـ سأساعدك يا ناجي.. أغلق الآن واتصل بى بعد خمس دقائق.

أغلقت دونا الخط فجأة، فطنت فى أذنى صفارة الحرارة وانتابتنى الهواجس: لماذا أنهت المكالمة بهذه الطريقة؟.. مم تخاف؟.. هل تطاردها الشرطة؟.. هل التقطوا رقم تليفونى؟.. هل يقبضون علىَّ بتهمة الاتصال بشبكة دعارة؟.. يالها من بداية غير موفقة ابعثتى العلمية الميمونة!.. استبد بى القلق وبدأت أندم على المغامرة، لكننى لم أستطع التراجع. اتصلت بعد خمس دقائق

فقالت لى:

ـ اسمع.. سأقدم لك عرضا خارج الشركة.. بدلا من ٢٥٠ دولارًا سوف آتى لك بنفسى مقابل ١٥٠ دولارا فى الساعة فقط.

ترددت قليلا، فقالت ضاحكة:

ـ هذا عرض خاص من دونا لأنك مصرى وسيم مثل السادات.. لو كنت مكانك لقبلته فورا.

ـ هل ستمتعيننى؟

ـ سأصحبك إلى الجنة.

ـ اتفقنا.

أعطيتها عنوان السكن، وتواعدنا على أن تأتى فى الساعة السابعة..وقبل أن تنهى المكالمة همست بصوت خائف:

ـ لقد تم تسجيل رقمك فى الشركة.. سوف يتصل بك شخص ليسألك لماذا لم تتفق على إحضار امرأة؟.. قل له إنك غيرت رأيك لأنك متعب وسوف تتصل غدا.. أرجوك.. إياك أن تخبره باتفاقنا.. لا أظنك تحب أن تؤذينى.

وفعلا، كما قالت، اتصل بى الرجل وسألنى، فأجبته كما أوصتني، لم يَبْدُ على صوته أنه اقتنع بكلامي، لكنه حيانى وأنهى المكالمة. وداخلنى القلق من جديد، لكن رغبتى العارمة، التى تضاعفت الآن بتأثير الخمر، أنستنى ما عداها لدرجة أننى تجاهلت أن مبلغ ١٥٠ دولارًا الذى سأدفعه سيصيب ميزانيتى بارتباك بالغ.. لم يعد فى ذهنى إلا دونا.. المرأة الجميلة التى سأمارس معها الحب. ما شكلها ياترى؟.. أتكون بيضاء ممتلئة

ذات ردفيْن مكتنزيْن وصدر بارز، مثل مونيكا عشيقة كلينتون؟..أم رشيقة باريسية القوام ذات وجه عصفورى حالم مثل جوليا روبرتس؟.. حتى لو جاءت فى مستوى باربارا استرايسند، أنفها طويل قليلا وجسدها مضلع وليس مستديرا بانسياب، سأكون سعيدا بها. لن أتوقف عند هذه العيوب الهينة.. سبحان الله الذى جعل للجمال مائة شكل!.. بدأت فى تحضير نفسى قبل الموعد بساعة كاملة.. أخذت حماما جديدا اعتنيت خلاله بتنظيف جسدي.. ثم ارتديت روبا حريريا على جسدى العاري، مثل زير النساء فى الأفلام المصرية.. أكتب الآن وأنا أعب النبيذ (كما يقول العرب)، بقيت دقائق على الموعد وأنا جالس أنتظر حبيبتى دونا على أحر من الجمر.. ها هو جرس الباب.. حبيبتى منضبطة فى مواعيدها.. ما أجمل هذا كله!.. سأنهض لأفتح الباب.

أيها السادة.. يا للسعادة!..

٥

ما إن توقف المترو حتى انفتحت أبوابه وتدافع منها ركاب نهاية الأسبوع: عشاق صغار يحتضنون بعضهم البعض، شحاذون يحملون آلات موسيقية لن يلبثوا أن يأخذوا أماكنهم على الرصيف ليعزفوا، متشردون مخمورون ينتقلون منذ الأمس من حانة إلى أخرى. . سياح أوروبيون يحملون فى أيديهم كتيبات سياحية وخرائط، شبان زنوج يحملون أجهزة تسجيل ضخمة تنبعث منها موسيقى صاخبة يرقصون على نغماتها، وعائلات أمريكية تقليدية، أب وأم وأطفال عائدون من يوم قضوه فى الحدائق. . وفى أركان المحطة يقف رجال البوليس بأجسادهم الضخمة وزيهم المميز، صدورهم بارزة عليها شارة «بوليس شيكاجو» وكأنهم يستمدون قوتهم منها، كلابهم الضخمة المدربة رابضة بجوارهم، ترفع أنوفها لأعلى تتشمم رائحة المخدرات، وما إن تنبح باتجاه أحد الركاب حتى يندفع إليه الجنود، يشلون حركته ويدفعونه باتجاه الحائط ويكشفون عن صدره لو كان زنجيا ليروا إن كان مسجلا بعلامة الخطر، ثم يفتشونه حتى يعثروا على المخدرات ويقبضون عليه. . فى خضم هذا المشهد الأمريكى الخالص يبدو الدكتور أحمد دنانه خارجا عن السياق تماما، كأنه

خرج لتوه من القمقم السحرى أو آلة الزمن، أو كأنه ممثل مسرحى عَنَّ له أن يتجول في الشارع بملابس التمثيل. . ملامحه مصرية ريفية، وزبيبة الصلاة المثلثة تتوسط جبهته، شعره مجعد يغزوه المشيب، رأسه ضخم ونظارته سميكة مستديرة من طراز «كعب كوبايه»، زجاجها يميل إلى الزرقة قليلا يعكس نظرات عينيه الماكرتين في دوائر متداخلة كثيرا ما تربك محدثيه. . المسبحة لا تفارق يده، وبدلته الكاملة صيفا وشتاء صنع المحلة، يستحضرها من مصر مع خراطيش سجائر الكليوباترا السوبر تقليلا للنفقات، يمشى دنانه في شوارع شيكاجو بنفس الطريقة التى كان يتريض بها ساعة العصارى على السكة الزراعية في قرية الشهدا بمحافظة المنوفية، موطنه الأصلي. . يتحرك بتؤدة مهما يكن على عجل، يتلفت حوله بنظرة تتراوح بين الاستعلاء والاسترابة، يقذف واثقا بقدمه اليمنى إلى الأمام ثم يتبعها باليسرى ويشد ظهره، فيتدلى كرشه الضخم الناتج عن ولعه بالعشاء الدسم كل ليلة. .

هكذا يصنع أحمد دنانه هيبته كرئيس لاتحاد الدارسين المصريين في أمريكا. أنشئ الاتحاد في عهد عبد الناصر، وتعاقب على رئاسته مبعوثون كثيرون، عادوا جميعا بعد ذلك إلى مصر وتولوا مناصب عليا في الدولة. . على أن دنانه هو الوحيد الذى فاز برئاسة الاتحاد لثلاث فترات متتالية، بالتزكية، وهو إلى ذلك يتمتع باستثناءات عديدة: فهو يعد للدكتوراه في الهيستولوجى منذ سبع سنوات بالرغم من أن قانون البعثات حدد خمس سنوات كحد أقصى. . وقد تحايل على ذلك بأن أنفق عامين كاملين فى دراسة اللغة الإنجليزية، ثم عامين آخرين فى دراسة الأمن

الصناعى فى جامعة لايولا قبل أن يبدأ برنامج الدكتوراه فى إلينوى . . وبالرغم من أن القانون يمنع المبعوثين المصريين من العمل فى أمريكا، إلا أنه استطاع الحصول على وظيفة بعض الوقت مقابل أجر مُجْز يقبضه بالدولار ويحوله إلى حساب خاص في البنك الأهليّ (لا يعرف بأمره مخلوق سواه) . . وقد تمكن، بفضل اتصالاته ودعم السفارة المصرية، من تنظيم حفلة للمغنى «عمرو دياب» فى شيكاجو حققت له ربحا كبيرا أضافه إلى مدخراته، فتكون لديه مبلغ معتبر مكنه فى العام الماضى من الزواج بابنة تاجر ثرى يملك محلا كبيرا للأدوات الصحية فى الرويعى . . كل هذه الامتيازات جاءت نتيجة لعلاقته الوطيدة بأجهزة الدولة المصرية، والمبعوثون يعتبرونه رئيسهم فى العمل أكثر من كونه زميل دراسة، فهو يكبرهم سنا، وهيئته الرصينة تجعله أشبه بمدير عام حكومى منه بطالب علم . . كما أنه، بالفعل، يتحكم فى شئون حياتهم جميعا : بدءا من الجرائد والمجلات المصرية التى يوزعها عليهم بالمجان، مرورا بقدرته الفائقة على تذليل أية عقبة تصادفهم، ونهايةً بقدرته على التنكيل المروع بهم . . إذ يكفى تقرير واحد منه ـ تعتمده السفارة المصرية فورا ـ حتى يصدر القرار من القاهرة بإنهاء بعثة الطالب المذنب! خرج دنانه من باب المحطة إلى الشارع ولم يلبث أن دخل إلى أحد الأبنية القريبة، حيًّا البوابة الزنجية العجوز الجالسة خلف الحاجز الزجاجى، ثم استقل المصعد إلى الدور الرابع وفتح باب الشقة، فتلقته رائحة عطنة من جراء إغلاقها طوال الأسبوع . الصالة صغيرة بها أريكة مستطيلة وبضعة مقاعد جلدية . . على

الحائط صورة كبيرة للسيد رئيس الجمهورية، علقت تحتها آية الكرسى مذهبة، ثم لوحة باللغة العربية حروفها مطبوعة ببنط أزرق صغير وعنوانها مكتوب بخط الرقعة: «اتحاد الدارسين المصريين فى أمريكا . . اللائحة الداخلية».

وفى نهاية الردهة حجرتان متجاورتان: الصغيرة يستعملها دنانه كمكتب، والأخرى قاعة اجتماعات تتوسطها مائدة مستطيلة ومقاعد متراصة، تفوح منها رائحة خشبية عتيقة كتلك التى تنبعث من مدرجات الجامعة وفصول المدارس فى مصر. والحق أن الشقة كلها بالرغم من وجودها فى شيكاجو، قد اكتسبت على نحو غامض طابعا مصريا حكوميا يذكّرك بمجمع التحرير أو محكمة باب الخلق أخطأوا . . . جلس دنانه فى صدر المائدة يرقب المبعوثين وهم يتوافدون على حجرة الاجتماعات . . كانوا يحيونه باحترام ويصطفون فى أماكنهم حول المائدة، على حين يتمهل هو ببطء ملكى، قبل أن يرد التحية بصوت أجش ونبرة مضبوطة ما بين التعالى والترحاب، وقد قطب جبينه واتخذ هيئة المسئول الرفيع فى الدولة، المشغول بأمور خطيرة لا يمكن تأجيلها ولا الإفصاح عنها . . أجال دنانه نظره فى الجالسين ثم خبط بيده على المائدة، فانقطع الهمس فورا وساد سكون عميق قطعته النحنحة التى تسبق كلامه، والتى غالبا ما تنتهى بنوبة سعال نتيجة إفراطه فى التدخين . . مد يده وأدار جهاز التسجيل الموضوع أمامه، ثم تردد صوته الأجش واضحا قويا فى أنحاء الحجرة:

- «بسم الله الرحمن الرحيم، وبه نستعين، والصلاة والسلام

على أشرف الخلق، سيدنا رسول الله، المصطفى صلى الله عليه وسلم . . أرحب بكم فى اتحاد الدارسين المصريين فى أمريكا فرع شيكاجو . . كلنا حاضرون اليوم باستثناء شيماء محمدى وطارق حسيب . . وعندهما عذر مقبول . . شيماء وقعت فى مشكلة كبيرة هذا الصباح . . » . .

تطلع إليه الحاضرون، بفضول فجذب نفَسا من سيجارته وقال باستمتاع واضح :

ـ كانت الأخت شيماء تطهو الطعام، فكادت تتسبب فى حريق كبير لولا ستر ربنا، وأخونا طارق ـ جزاه الله خيرا ـ يقف الآن خلفها ليواسيها» . .

نطق الجملة الأخيرة بلهجة ذات مغزى ثم ضحك عاليا، فأحس الحاضرون بالحيرة والحرج ولاذوا بالصمت . . كانت هذه واحدة من طرقه المتنوعة فى السيطرة على المبعوثين : أن يفاجئهم بمعرفة أدق أسرارهم، ثم يطلق عليهم تعليقات ماكرة تقبل أكثر من تفسير . . مد رأسه الضخم إلى الأمام وعقد ذراعيه على المائدة ثم قال :

ـ «أبشركم يا إخوان بخبر سيفرحكم جميعا إن شاء الله . . بالأمس وافقت بلدية شيكاجو على تخصيص مبنى كبير من أربعة أدوار فى أفخم مكان فى المدينة ـ ميتشجن أفنيو ـ ليكون مسجدا ومركزا إسلاميا إن شاء الله . . وقد أرسل سيادة السفير إلى مصر من أجل انتداب واعظ من الأزهر، وخلال شهرين على الأكثر، سنصلى معا بإذن الله فى المسجد الجديد» .

سرت همهمات ارتياح، وهتف طالب بحماس:

ـ «جزاك الله خيرا يا دكتور!».

تجاهله دنانه تماما واستطرد:

ـ «كانت الموافقة على إقامة مسجد فى هذا المكان شبه مستحيلة، لكن ربنا سبحانه وتعالى أراد لنا التوفيق».

صاح نفس الطالب متملقا:

ـ «نشكرك يا دكتور دنانه على المجهود العظيم الذى تبذله من أجلنا».

حدجه دنانه بنظرة استنكار وسأل بما يشبه الغضب:

ـ «من قال لك إنى أفعل ذلك من أجلكم؟.. أنا لا أنتظر الثواب إلا من ربنا سبحانه وتعالى!».

ـ «ونعم بالله يا فندم».

أحس الحاضرون بضرورة اشتراكهم فى الثناء، فترددت فى الحجرة تمتمات شكر تجاهلها دنانه وأطرق صامتا كممثل ينحنى أمام جمهوره ويتمنى داخله ألا ينتهى التصفيق أبدا.. ثم قال:

ـ «موضوع آخر غاية فى الأهمية.. بعض المبعوثين لا يحضرون فصولهم بانتظام.. بالأمس راجعت نسب الغياب فوجدتها مرتفعة جدا.. لن أذكرهم بالاسم حتى لا أحرجهم.. هم يعرفون أنفسهم».

وجذب نفَسا من السيجارة ونفثه بقوة وقال:

- «اعذرونى يا جماعة . . لن أغطى على أحد ولن أتوسط لأحد بعد اليوم . . لقد ضغطت على نفسى كثيرا من أجلكم . . إذا لم تساعدوا أنفسكم فلن أستطيع أن أساعدكم . . كل من يكسر المعدل المسموح به فى الغياب سأرفع عنه تقريرا للبعثات وهم يتصرفون معه وفقا للائحة» . .

ساد صمت متوتر، وراح دنانه يتفحص الحاضرين بنظراته القوية، ثم أعلن الانتقال إلى جدول الأعمال الذى كان كالعادة مزدحما بطلبات متنوعة للمبعوثين: تسهيل السفر إلى مصر، والحصول على تذاكر مخفضة، واستخراج اشتراك المواصلات المجانى . . ومشاكل أخرى: طالب يشكو من تعسف المشرف عليه، وآخر جاوز الحد الأقصى للبعثة، وطالبة تريد أن تغير السكن لأن زميلتها الأمريكية تستقبل فيه عشيقها . . ينصت دنانه بانتباه إلى كل مشكلة، ويسأل مستوضحا عن بعض التفاصيل، ثم يحدق فى السقف ويجذب نفَسا عميقا من السيجارة وتبين على وجهه علامات التفكير . . وأخيرا، يعلن الحل بثقة وبساطة . . عندئذ يبدو الامتنان على المبعوث ويلهج لسانه بالشكر، فيتجاهله دنانه وكأنه لا يراه، ويحلو له فى تلك اللحظة أن يعاجله بدعابة خشنة أو إساءة ما، يحكم بها سيطرته النفسية عليه . . يقول له مثلا:

- «المهم تذاكر وتنجح يا مغفل» .

أو يتساءل ساخرا:

- «ماذا أصنع بكلمة متشكر؟ . . أصرفها من أى بنك؟ . . ياخيبتك الثقيلة» .

ولا يكون أمام الطالب المهان على حين غرة، وقد أضعفته الحاجة وأسكته الامتنان، إلا أن يتغاضى عن الإهانة، فيضحك بعصبية أو يصمت مشيحا بوجهه كأنه لم يسمع شيئا!

- «انتهى جدول الأعمال. . هل لديكم مشاكل أخرى؟» . .

هكذا سألهم دنانه، فلم يتكلم أحد ما عدا طالبًا ملتحيًا قال:

- «يا دكتور دنانه. . الجزار الفلسطينى الذى نشترى منه اللحم الحلال. . أغلق محله للأسف وترك شيكاجو. . حضرتك تعلم يا أفندم إن اللحم فى المحلات العادية مذبوح بطريقة غير شرعية» . .

قاطعه دنانه بإشارة من يده مهونا الأمر، ثم استدار وجذب من المكتبة خلفه ورقة ناولها إليه قائلا:

- «خذ يا مأمون. . هذه عناوين جميع الجزارين الحلال فى شيكاجو» . .

تهللت أسارير مأمون وتناول الورقة متمتما:

- «جزاكم الله خيرا يا فندم» .

وكالعادة تجاهل دنانه الشكر وعاد يقول:

- «هل لديكم حاجة أخرى؟» .

صمت الحاضرون، فمد دنانه يده وأغلق التسجيل. وهكذا انتهى الاجتماع ولم يَتَبَقَّ، وفقا للتقاليد، إلا توزيع الجرائد على المبعوثين. لكن تليفون دنانه المحمول أطلق رنينا مفاجئا، وما إن

رد حتى تغير وجهه من الترحيب العادى إلى الاهتمام البالغ، وسرعان ما أنهى المكالمة وانتفض واقفا وقال وهو يلملم أشياءه على عجل:

- «مضطر أنصرف حالا . . وصلت إلى شيكاجو شخصية رسمية رفيعة لا بد أن أكون فى استقبالها . . خذوا الجرائد، ولا تنسوا إغلاق باب الشقة وإطفاء الأنوار».

٦

لم يتوقع الدكتور محمد صلاح أن يزوره أحد فى تلك الساعة!

كان قد انتهى من تناول العشاء مع زوجته كريس وشربا معا زجاجة كاملة من النبيذ الوردى، ثم جلست بجواره على الأريكة، التصقت به وألقت برأسها على صدره، ربت رأسها بحنان وتخلل شعرها الأصفر الناعم بأصابعه، فصدرت عنها آهة خافتة كان يدرك معناها، فابتعد قليلا وراح يقرأ فى الأوراق التى يحملها حتى همست له فيما يشبه الرجاء:

ـ لديك عمل الليلة؟

ـ يجب أن أقرأ هذا البحث لأنى سأشرحه غدا للطلبة.

صمتت لحظة ثم تنهدت ونهضت، قبّلته على وجنته وهمست بود:

ـ ليلة سعيدة.

ظل ينصت إلى وقع قدميها على الدرج الخشبى وهو يخفت مبتعدا، ولما سمع صوت إغلاق باب حجرة النوم وضع البحث فى حقيبته وأعد لنفسه كأسا. لم تكن به رغبة للشراب، لكنه أراد

أن يتلكأ قليلا حتى تستغرق كريس فى النوم . . ثم انتبه فجأة على جرس الباب، استغرب ولم يصدق تماما حتى سمع رنة أخرى، واضحة مؤكدة هذه المرة. قام مترددا وتطلع إلى ساعة الحائط، فوجدها جاوزت الحادية عشرة والنصف. تذكر أن جهاز الديكتافون معطل من أسبوع، وقد طلب من كريس أن تستدعى من يصلحه لكنها نسيت كالعادة. . عندما صار على بعد خطوات من الباب خطرت له فكرة مزعجة: أن يكون الديكتافون قد تم تخريبه عمدا! . . تكاثرت فى ذهنه تفاصيل مشابهة قرأها كثيرا فى صفحات الحوادث، عصابة تراقب منزلا ما ثم تقطع عنه أجهزة الإنذار قبل مداهمته، عادةً ما يتم الأمر بهذه الطريقة: فتاة شكلها بريء تماما تطرق الباب فى ساعة متأخرة وتطلب المساعدة، وما إن يفتح لها صاحب المنزل حتى يهاجمه المسلحون. حاول جاهدا أن يستبعد هذا الهاجس لكنه لم يستطع، فأبطأ خطواته حتى توقف أمام الدولاب الصغير المثبت فى حائط المدخل وضغط على الزر السرى، فانفتح الدرج وسحب منه مسدسه العتيق من نوع «بيرتا» الذى اشتراه أول ما جاء إلى شيكاجو. . لم يستعمله قَط، لكنه اعتنى به فاحتفظ بحالة جيدة. أحس برهبة وهو يستمع إلى طقطقة خزانة الرصاص. تقدم نحو الباب بخفة ويده اليمنى تستشعر برودة المعدن على حين كان أصبعه يلامس الزناد. الآن . . تكفى ضغطة واحدة لتمزيق رأس الواقف خلف الباب إن كان يريد شرا. اقترب بحذر بالغ وأطل فى العين السحرية، وسرعان ما ارتخت يده على المسدس، تقدم وفتح الباب، وصاح بحماس وعلى وجهه ابتسامة عريضة:

ـ هاللو . . يا لها من مفاجأة!

كان رأفت ثابت واقفا أمام الباب . . مرتبكا قليلا وعلى وجهه ابتسامة معتذرة :

ـ آسف لإزعاجك يا صلاح . . اتصلت فوجدت تليفونك مغلقا ، وكان لا بد أن أراك الليلة .

ـ أنت دائما مزعج يا رأفت . . ما الجديد فى ذلك؟

هكذا قال ضاحكا وهو يجذبه من يده . كانت هذه طريقتهما الخاصة فى الدعابة ، ساخرة وقاسية بعض الشيء . . كأنما تخفى بفظاظتها ما يعتمل بينهما من حنان . . صداقتهما العميقة توطدت على مدى ثلاثين عاما ، رفقة طويلة ، زمالة سلاح ، اجتازا معا أحزانًا ومسرات وأوقاتا عاصفة ، خلقت بينهما حالة نادرة من التفاهم حتى إن نظرة واحدة الآن من صلاح إلى وجه رأفت كانت كافية لأن يدرك أنه يعانى من مشكلة جدية . تلاشت ابتسامته فورا وسأله بقلق :

ـ خيرًا؟

ـ اصنع لى كأسا .

ـ ماذا تشرب؟

ـ سكوتش بالصودا وثلج كثير .

أخذ رأفت يشرب ويحكى ، اندفع يتكلم بسرعة وحرارة كأنما يلقى بحمل ثقيل ، وبعد ما فرغ ظل مطرقا لحظة ، ثم جاءه صوت صلاح متفهما وعميقا :

ـ هل تركت سارة البيت فعلا؟

ـ ستغادر فى نهاية الأسبوع.

ـ وماذا فعلت أمها . . ؟

ـ أتفادى الحديث معها بقدر الإمكان حتى لا نتشاجر، لكنها طبعا تؤيد سارة!

ساد الصمت من جديد، وقام رأفت ليعد لنفسه كأسا أخرى، وتردد صوته المتعب بين صليل مكعبات الثلج:

ـ ألا تجد هذا غريبا يا صلاح ؟! أن تنجب طفلة فتتعلق بها وتحبها أكثر من أى شخص فى الدنيا وتبذل أقصى مجهودك لتوفر لها حياة سعيدة . . وما إن تكبر طفلتك حتى تجفوك وتهجرك مع صديقها فى أول فرصة!

ـ هذا أمر طبيعى.

ـ لا أجده طبيعيا أبدا!

ـ سارة أمريكية يا رأفت . . البنات فى أمريكا جميعا يتركن منازل أسرهن ليعشن حياة مستقلة مع أصدقائهن . . أنت تعرف ذلك أفضل منى . . لا يمكن فى هذا البلد أن تتحكم فى حياة أبنائك الشخصية.

ـ حتى أنت يا صلاح تقول ذلك؟! أنت تتكلم مثل زوجتى ميتشيل بالضبط . . أنتما تضجرانى فعلا . . ماذا أفعل لكى أقنعكما بأننى أتقبل فكرة أن تتخذ ابنتى صديقا؟ أرجو أن تصدق مرة واحدة وإلى الأبد هذه الحقيقة: أنا أمريكى، وقد ربيت ابنتى

على القــيم الأمــريكيــة . . تخلصت إلى الأبد من التــخلف الشرقي . . لم أعد أربط شرف الإنسان بأعضائه التناسلية!

ـ أنا لم أقصد ذلك .

ـ هذا معنى كلامك .

ـ آسف لو كنت ضايقتك!

ـ أنت لا تفـهـمنى يا صـلاح . . هـذا كل مـا فى الأمـر . . أنا لا أتدخل فى حياة سارة الشخصية ، لكننى لا أثق فى هذا الوغد ولا أئتمنه عليها لحظة واحدة .

ـ إذا كان جيف شخصا سيئا ، فسوف تكتشف سارة ذلك يوما ما . . من حقها أن تخوض تجاربها وحدها .

ـ لكن شخصيتها صارت غامضة يا صلاح . . يخيل إلىَّ أحيانا أنها إنسانة أخرى . . ليست سارة التى حملتها على ذراعى وهى طفلة رضيعة . . . أنا فعلا لا أفهمها . . لماذا تعاملنى بقسوة؟ . . لماذا تبدو مستفزة من أى كلمة أقولها؟ . . تكون هادئة ولطيفة للغاية ، وفجأة تنتابها حالة من الهياج بلا سبب . . كما أن وجهها شاحب وصحتها سيئة .

ـ هذه طبيعة الشباب . . تقلب المشاعر وتغير الحالة المزاجية من النقيض إلى النقيض . . حتى قسوتها معك طبيعية . . هل تذكر كيف كنت تعامل أباك وأنت شاب؟ فى مثل هذه السن تدفعنا الرغبة فى الاستقلال عن أبوينا إلى القسوة عليهما . . إن فظاظتها معك يا رأفت لا تعنى أنها لم تعد تحبك . . إنها فقط تتمرد على السلطة التى تمثلها .

استمر حديثهما ساعة كاملة أعادا خلالها ما قالاه بطرق مختلفة، ثم نهض رأفت وقال:

- يجب أن أنصرف.

- ألديك محاضرات غدا؟

- لا.

- إذن.. نَمْ جيدا يا صديقى وسوف تكتشف فى الصباح أن المشكلة بسيطة.

انصرف رأفت، وأغلق صلاح الباب وراءه، ثم صعد ببطء على الدرج المفضى إلى حجرة النوم محاولا ألا يُحدث صوتا لئلا يوقظ كريس. خلع روبه الحريرى وعلقه على المشجب، وتسلل بحذر حتى استلقى على الفراش بجوارها. كان ثمة ضوء ضعيف ينبعث من مصباح صغير جانبى تتركه كريس مضاء فى الليل لأنها تخاف الظلمة.. حدق فى السقف فرأى ظلال المصباح وكأنها أطياف أشباح تتراقص، وانتابه فجأة شعور بالإشفاق على رأفت.. كان يفهمه جيدا.. إنه لا يطيق فكرة أن تعشق ابنته رجلا آخر، ولذلك يشعر بغيرة قاتلة من جيف.. هذه هى الحقيقة!.... كتب «ديستويفسكى» فى إحدى رواياته أن كل أب فى الدنيا يكن كراهية عميقة لزوج ابنته مهما تظاهر بالعكس.. على أن مشكلة رأفت أكثر تعقيدا؛ فهو لا يحتمل أن ترتبط ابنته بعلاقة خارج الزواج، وبالرغم من مرافعاته المطولة دفاعا عن الثقافة الغربية فهو ما زال يحمل عقلية الرجل الشرقى التى يهاجمها ويسخر منها.. قال صلاح لنفسه: «ربما أكون

محظوظا لأنى لم أنجب . . أن أكون عقيما خير من أن أكون مكان رأفت الآن!»، لكنه عاد وقال: «إن مشكلة رأفت تكمن فى شخصيته ذاتها . . هناك مصريون كثيرون أنجبوا فى أمريكا واستطاعوا أن يحتفظوا بالتوازن بين ثقافتين . . لكن رأفت يحتقر ثقافته ويحملها داخله فى نفس الوقت، وهذا ما يعقد الأمر».

«مسكين رأفت» . . هكذا همس بالإنجليزية، ثم وقع نظره على المنبه، فهاله أن الساعة بلغت الواحدة صباحا . . أمامه ساعات قليلة على موعد الاستيقاظ . دخل تحت الغطاء لينام . . انقلب على جنبه واتخذ وضع القرفصاء وأحاط رأسه بالوسادة وأغمض عينيه . . وبدأ، شيئا فشيئا، يحس بذلك الانسحاب التدريجى لظلمة النوم المريحة . . لكن كريس الراقدة بجواره سعلت فجأة وتحركت . . ثمة إيقاع صلب فى حركتها أنبأه بأنها مستيقظة . تجاهلها وأخذ يحاول الاستغراق فى النوم، لكنها استدارت نحوه واحتضنته تحت الغطاء، ولما قبَّلته انبعثت من فمها رائحة كحول، فهمس بانزعاج:

- هل شربت من جديد؟

التصقت به وأخذت تحتضنه وتقبّله وهى تلهث . حاول أن يتكلم، لكنها وضعت يدها على شفتيه برفق، وبان وجهها فى الضوء الخافت لأول مرة مضطرما وكأنه يبعث بحرارة ما . أحس بيدها تتحسس طريقها بين ساقيه، وهمست وهى تدنو بشفتيها من فمه:

- أوحشتنى!

* * *

وقف طارق متحفزا يحدق فى شيماء وكأنه حارس مرمى يترقب وصول الكرة من أى اتجاه ليصدها فورا! . . كان ينتظر أية كلمة منها ليفندها ويسخر منها، لكنها فعلت ما لم يتوقعه قَطّ، تقلصت ملامحها فجأة، ثم أجهشت بالبكاء كطفل ضائع، وأخذ جسدها يرتجف. تطلع إليها وهو لا يدرى ماذا يصنع، ولم يلبث أن قال بصوت بدا غريبا على سمعه:

ـ كفاية يا دكتورة. . الموضوع انتهى على خير والحمد لله.

ـ أنا تعبت. . لم أعد أحتمل. . غدا سألغى البعثة وأرجع إلى مصر.

ـ لا تتسرعى. .

ـ لقد قررت وانتهى الأمر.

ـ تذكرى أنك ستحصلين على الدكتوراه من إلينوى. . فكرى كم تعبت من أجل هذه البعثة. . وكم زميلا لك فى طنطا يتمنى أن يكون مكانك.

أطرقت شيماء، وخيل إليه أنها هدأت قليلا، فقال:

ـ لا تتركى نفسك للأفكار السيئة.

ـ ماذا أفعل؟

ـ تأقلمى مع حياتك الجديدة.

ـ حاولت وفشلت.

ـ هل لديك مشاكل فى الدراسة؟

ـ لا والحمد لله.

ـ ما المشكلة إذن؟

قالت بصوت خافت كأنها تكلم نفسها:

ـ أنا وحيدة تماما هنا يا دكتور طارق. ليس لديَّ أصدقاء ولا معارف. لا أعرف كيف أتعامل مع الأمريكيين.. لا أفهمهم.. طوال عمري أحصل على الدرجة النهائية فى اللغة الإنجليزية، لكنهم يتكلمون إنجليزية أخرى.. ينطقون بسرعة ويمضغون الحروف فلا أفهم ما يقولونه!

قاطعها طارق:

ـ إحساسك بالغربة طبيعي، ومشكلة اللغة واجهناها جميعا فى البداية. أنصحك بمشاهدة التليفزيون كثيرا حتى تتدربى على فهم اللهجة الأمريكية.

ـ حتى لو تحسنت لغتى فإن ذلك لن يغير شيئا..

أشعر بأننى منبوذة فى هذا البلد.. الأمريكيون ينفرون منى لأنى عربية ومحجبة.. فى المطار استجوبونى وكأننى مجرمة، وفى الكلية بعض الطلبة يسخرون منى كلما رأوني.. أرأيت كيف عاملنى رجل البوليس؟

ـ هذه ليست مشكلتك وحدك.. كلنا نتعرض لمواقف سخيفة.. صورة المسلمين ساءت هنا جدا بعد ١١ سبتمبر.

ـ وما ذنبى أنا..؟

ضعى نفسك مكانهم . . الأمريكى العادى لا يكاد يعرف شيئا عن الإسلام . . وقد ارتبط الإسلام فى ذهنه بالإرهاب والقتل!

ساد الصمت لحظة ثم قالت بمرارة :

ـ قبل أن أجيء إلى أمريكا كنت أشكو من صعوبة الحياة فى مصر . . والآن أحلم بالعودة إليها .

ـ كلنا نعانى من الغربة مثلك . . أنا أيضا بالرغم من أننى قضيت عامين هنا . . أشتاق إلى مصر كثيرا وتمر بى أوقات عصيبة ، لكنى أقول لنفسى إن الشهادة التى سأحصل عليها تساوى كل هذا التعب . . أصلى وأدعو الله أن يصبّرني . . هل تواظبين على الصلاة؟

ـ الحمد لله .

هكذا همست وأطرقت ، ووجد نفسه يقول :

ـ على فكرة ، شيكاجو مدينة جميلة . . هل تفرجت عليها؟

ـ لا أعرف إلا مبنى الجامعة!

ـ سأخرج الآن لأشترى لوازم الأسبوع . . ما رأيك لو تأتين معى؟

اتسعت عيناها وبدا أنها فوجئت بالعرض ، ثم نظرت إلى جلبابها الكستور ومدت قدمها أمامها وسألته بما يشبه الدعابة :

ـ آتى معك بالشبشب؟!

ضحكا لأول مرة ، ثم سألته وكأنها مترددة :

ـ هل سنتأخر ؟ . . لدىَّ مذاكرة كثيرة .

ـ أنا أيضا لديَّ واجب إحصاء طويل . . سنرجع بسرعة .

جلس ينتظرها فى قاعة الاستقبال حتى تبدل ملابسها . عادت بعد قليل وقد ارتدت ثوبا فضفاضا أزرق بدا له أنيقا ، ولاحظ أنها تخلصت من الضيق وبدت أقرب إلى المرح . . قضيا المساء معا . أخذا المترو إلى وسط شيكاجو ، طاف بها برج المياه وبرج سيرز . . وبدت سعيدة كطفلة وهى تقف بجواره فى المصعد الزجاجى فى محل «مارشال فيلد» الشهير ، ثم عادا إلى المول واشتريا لوازمهما . . وأخيرا استقلا أتوبيس الجامعة عائدْين إلى السكن . . تكلما طوال الطريق . . حكت له عن اعتزازها بأبيها وحبها لأمها وأختيها ، قالت إنها برغم اشتياقها لهن لا تتصل بهن إلا مرة واحدة كل أسبوع لأن عليها أن تدخر كل دولار من مرتب البعثة الضئيل . . وسألته عن نفسه ، فقال لها إن أباه كان ضابط شرطة ترقى حتى وصل قبل وفاته إلى منصب مساعد مدير أمن القاهرة ، وقد رباه على الضبط والربط . . كان يضربه بشدة إذا أخطأ ، ومرة أجبره وهو فى الإعدادية على أن يأكل فى المطبخ مع الخدم لمدة أسبوع كامل لأنه تجرأ وأعلن على مائدة الطعام أنه لا يحب السبانخ ! . . ضحك طارق وهو يتذكر ، ثم أضاف باعتزاز :

ـ أبى رحمه الله كان مدرسة ، أراد بهذا العقاب أن يعطينى درسا فى الرجولة ، ومن يومها تعلمت أن آكل كل ما يقدم إلىَّ دون اعتراض . . تعرفى . . شدة أبى هذه أفادتنى جدا . . أنا طول عمرى متفوق ، ولولا المحسوبية لكنت الآن جراحا كبيرا ! . .

الحمد لله على كل حال . . نتائجي مشرفة . . هل تعرفين كم يبلغ متوسط درجاتي . . ٣ . ٩٩ من ٤ .

- ما شاء الله!

- كثيرا ما يلجأ إليَّ الطلبة الأمريكيون حتى أساعدهم على فهم الدروس . . عندئذ أحس بالفخر لأني مصري وأفضل منهم .

ثم أسند ظهره إلى المقعد وتطلع بعيدا كأنه يتذكر وقال :

- العام الماضي . . كان معي في فصل البيولوجي طالب أمريكي اسمه سميث، معروف في الجامعة كلها لأنه عبقري، احتفظ بالامتياز طوال دراسته . . حاول سميث هذا أن يتحداني في العلم، لكني علمته الأدب!

- فعلا؟

- صرعته بلمس الأكتاف وحياتك . . طلعت الأول عليه ثلاث مرات . . لما يشوفني الآن في أي مكان يضرب لي تعظيم سلام!

- أصر أن يحمل عنها الأكياس، وأوصلها إلى شقتها في الدور السابع ووقف يودعها . . تهدج صوتها وهي تشكره :

- لا أعرف ماذا أقول يا دكتور طارق . . جزاك الله خيرا بما فعلته معي!

- ممكن تقولي طارق بدون ألقاب؟

- بشرط . . أن تقول لي شيماء!

جعله وقع صوتها الهامس يحس بما يشبه الرجفة، وفكر وهو

يصافحها فى نعومة يدها. عاد إلى شقته فوجد النور مضاء وكتاب الإحصاء مفتوحا وكوب الشاى فى مكانه والبيچاما ملقاة على الفراش.. كان كل شىء كما تركه.. لكنه، هو نفسه، لم يعد كما كان.. ثمة أحاسيس جديدة تضطرم داخله وقد بلغ به الانفعال درجةَ أنه خلع ثيابه وظل يذرع الشقة ذهابا وإيابا بملابسه الداخلية، ثم ألقى بنفسه على الفراش وأخذ يحدق فى السقف. بدا له ما حدث غريبا، لماذا تصرف معها بهذه الطريقة؟ من أين واتته هذه الجرأة؟!.. لأول مرة فى حياته يخرج مع فتاة.. لقد كان يحس بأن من يجلس بجوارها فى المترو ليس هو وإنما شخص آخر!.. وحتى الآن يخيل إليه أن لقاءه معها وهم، وأنه لو بحث عنها الآن لن يجدها!.. يا الله!.. لماذا انجذب إليها بهذا الشكل؟.. إنها مجرد ريفية متوسطة الجمال مثل عشرات البنات اللاتى كان يراهن كل يوم فى القاهرة.. ماذا يميزها؟.. هل أثارته جنسيا؟.. صحيح أنها تمتلك شفتين مكتنزتين شهيتين تصلحان لأغراض رائعة، كما أن ثوبها الفضفاض يلتصق أحيانا رغما عنها بجسدها فيعلن عن ثديين رابضين لا يستهان بهما، لكنها لا تقارن أبدا بالطالبات الأمريكيات فى إلينوى ولا بالعرائس المصريات اللاتى تقدم لخطبتهن ويستحيل أن يرد مجرد ذكرها بجوار الفاتنات العاريات اللاتى يشعلن رغبته فى أفلام الجنس!.. لماذا أعجبته إذن؟.. بسبب انكسارها وقلة حيلتها؟.. لأنها بكت فأثارت تعاطفه؟.. أم لأنها أثارت حنينه إلى مصر؟.. فعلا.. كل شىء فيها مصرى تماما: الجلباب الكستور ذو الورود الصغيرة، رقبتها الناصعة الجميلة، وأذناها الدقيقتان اللتان يتدلى منهما قرط ذهبى ريفى على شكل عنقود عنب، الشبشب

الخدوجة الذى يكشف قدميها الصغيرتين النظيفتين وأظافرها المستديرة المقلمة بعناية، المتروكة دون طلاء (حرصا على صحة الوضوء). . تلك الرائحة النظيفة الخافتة المنبعثة من جسدها وهو جالس إلى جوارها. . إن ما يجذبه إليها يحس به ولا يستطيع وصفه. . شىء مصرى صرف مثل الفول والطعمية والبصارة والضحكة المجلجلة والرقص الشرقى وصوت الشيخ رفعت فى رمضان ودعاء أمه بعد صلاة الفجر، كل ما يفتقده بعد عامين من الغربة.

استغرق فى أفكاره حتى انتبه على دقات الساعة المعلقة فى الصالة، فقفز من الفراش وصاح وقد تذكر واجب الإحصاء: »يانهار أسود!«. جلس إلى مكتبه ووضع رأسه بين كفيه وركز ذهنه ليتخلص من حالته الحالمة، وشيئا فشيئا انهمك فى العمل. أنجز المسألة الأولى بالطريقة الصحيحة، ثم الثانية والثالثة. . ولما انتهى من المسألة الخامسة أصبح من حقه، طبقا لتقاليده العريقة، أن يلتهم قطعة بسبوسة من الحجم الصغير. . لكنه لدهشته ـ ولأول مرة ـ لم يحس بشهية للبسبوسة!. . كانت فكرة الدرس قد اتضحت تماما، فأنجز بضع مسائل جديدة فى نحو نصف ساعة، وخطر له أن يستريح قليلا. . لكنه خشى أن يفقد حماسه، فاستمر يعمل حتى سمع جرس الباب، فنهض متثاقلا وذهنه لم يزل مشبعا بالأرقام. . فتح الباب فرآها أمامه، كانت لا تزال فى ثياب الخروج، وبدا وجهها فى الضوء الأزرق الهادئ الذى ينير الردهة أجمل من أى وقت مضى. قالت على استحياء وهى تمد يدها بطبق مغطى بورق مفضض:

ـ بالتأكيد أنت جائع ولن يتسع وقتك لإعداد العشاء . . عملت لك سندوتشين . . تفضل . . بالهنا والشفا!

* * *

«مهما أوتيت من قدرة على التخيل لم أكن لأتوقع ما حدث! .. فتحت الباب نشوانَ بالخمر والرغبة، فأفقت على الصدمة.. كأني حلقت بين السحاب وسقطت فجأة فارتطمت رأسي بالأرض الصلبة! .. ظللت لحظات مذهولا عاجزا عن التفكير.. رأيت أمامي سيدة مسنة، جاوزت الأربعين وربما الخمسين، سوداء، بدينة، تعاني من حوَل ظاهر في عينها اليسرى..كانت ترتدي فستانا أزرق قديما مهترئًا عند الكوع وضيقا يبرز ثنايا جسدها المكتنزة بالشحم.. ابتسمت فانكشفت أسنانها الكبيرة المعوجة المتسخة بفعل النيكوتين، ثم هتفت بمرح:

ـ هل أنت ناجي؟

ـ نعم.. أي خدمة؟

هكذا سألتها وأنا أتشبث بآخر خيط من أمل أن يكون هناك خطأ ما، ألا تكون هي المرأة التي أنتظرها.. لكنها نحتني برفق ودخلت وهي تهز جسدها عمدا لتبدو مثيرة:

ـ ظننتك ستعرفني بقلبك.. أنا دونا يا عزيزي.. أوه.. إن شقتك لطيفة فعلا.. أين حجرة النوم؟

لما جلست على السرير بان وجهها في ضوء الحجرة أكثر قبحا من ذي قبل، وخطر لي أني أحلم وأن كل ما يحدث غير حقيقي! .. قلت لنفسي: قد يكون مفيدا أن أعطي لنفسي فرصة للتفكير، فجلست في المقعد المواجه لها وصببت لنفسي كأسا جديدة.. قالت وهي تتفحصني وتبتسم:

ـ أنت وسيم فعلا، لكنك لا تشبه أنور السادات.. لقد كذبت عليَّ فى التليفون لتتمكن من إغوائى.. أليس كذلك؟

ازدردت النبيذ فى صمت ثم قلت:

ـ أتريدين كأسا؟

ـ أوه شكرا.. لا أشرب النبيذ إلا مع الأكل.. ألديك بعض الويسكى..؟

ـ لا.. للأسف..

ـ إذن.. هل لديك طعام..؟.. أنا جائعة!

ـ فى الثلاجة.

كنت أتحاشى النظر إليها. نهضَتْ وفتحَتْ الثلاجة، ولم تلبث أن صاحت باستنكار:

ـ جبن وبيض وخضروات؟! أهذا كل ما لديك؟.. هذا أكل أرانب.. أريد عشاء ساخنا.. أنت كريم يا حبيبى وسوف تدعونى الليلة فى مطعم فاخر.. أليس كذلك؟

لم أنطق بكلمة.. تجرعت الكأس دفعة واحدة وأنا أحس بكآبة تثقل قلبى، وصببت لنفسى كأسا أخرى.. ظللت مطرقا، ولما رفعت رأسى وجدتها قد خلعت ثوبها ووقفت وسط الحجرة بقميصها الداخلى. بدا جسدها الأسود الهائل بانبعاجاته ونتوءاته الكثيرة، فى الضوء الخافت، وكأنها حيوان بحرى ضخم تم اصطياده للتو من المحيط! اقتربت منى حتى أحسست بصدرها على وجهى، كانت تلهث من أثر التدخين. وضعت يدها على فخذى وهمست:

ـ تعال يا حبيبى.. سآخذك إلى الجنة!

كانت رائحتها خليطا من عرق منتن وعطر ردىء عَطِن. قمت من مكانى مبتعدا ثم استجمعت نفسى وقلت:

ـ دونا.. أنا آسف جدا.. لكننى فى الواقع لست على ما يرام.

اقتربت من جديد وهمست:

ـ أنا أعرف كيف أجعلك على ما يرام.

حجزتها بيدى هذه المرة لأبعدها عنى، وقلت وقد صرت أكثر جرأة وتحديدا:

ـ أنا سعيد بمعرفتك، لكننى فى الواقع متعب جدا ولن أستطيع أن..

تطلعت إلىَّ وكأنها تحاول أن تفهم، ثم أقعت فجأة على ركبتيها ووضعت يدها بين ساقىَّ وقالت بصوت كالفحيح:

ـ ما رأيك فى الجنس بالفم؟.. أنا خبيرة به.. سيمتعك جدا.

ـ لا.. شكرا.

ـ كما تريد!

نهضت ببطء، ثم قالت بهدوء وهى تبحث عن ثوبها:

ـ لكنك ستدفع أجرى..

ـ مـــــاذا؟

ـ اسمع.. أنا لا ألعب معك.. اتفقت معى على ١٥٠ دولارًا.. سوف تدفعها ما دمت قد جئت إليك.. سواء نمت معى أم لا!

ـ لكننى..

ـ ستدفع ١٥٠ دولارًا!

هكذا صاحت وقد اربد وجهها بالغضب وأخذت تحملق نحوى

بعينها السليمة، فى حين كانت عينها الحولاء تعطى انطباعا مختلفا.. قلت بحزم:

ـ لن أدفع!

ـ ستدفع!

ـ لن أدفع دولارا واحدا!

هكذا صحت وأنا أحس بحنق بالغ.. وبدت هى فجأة وكأنها جنت، فأمسكت بكم الروب وأخذت تهزنى بعنف:

ـ يجب أن تتعلم كيف تعامل النساء فى أمريكا؟ .. فاهم يا عربى؟ .. المرأة هنا مواطنة محترمة وليست مخلوقا بلا كرامة كما تعتبرونها فى الصحراء التى أتيت منها!

ـ أنا أحترم المرأة، لكنى لا أحترم الساقطات!

حدقت فىَّ لحظة، وفجأة.. لطمتنى على وجهى.. أرجعت رأسى بسرعة فطاشت يدها وأصابت أذنى اليمنى.. أحسست بدوخة وتقلص فى معدتى، وفقدت صوابى من تأثير الإهانة والخمر وخيبة الأمل، فدفعتها بقوة فى كتفها وأنا أصيح:

ـ اخرجى.

تراجعت أمامى، فدفعتها دفعة أقوى.. ترنحت بشدة ثم فقدت توازنها وسقطت على الأرض.

ـ اخرجى الآن.. سأتصل بالبوليس ليأخذك يا مومس!

ظلت جالسة فى نفس الوضع: ساقاها منفرجتان أمامها ويداها مستندتان على الأرض ورأسها مائل إلى الخلف وكأنها ترقب شيئا ما على السقف.. أخذتُ أشتمها، استعملتُ كل الشتائم الإنجليزية التى أعرفها.. رمقتنى بنظرة حانقة ثم مدت يدها

ناحيتى وأشارت بأصبعها كأنما تهددنى وفتحت فمها لتقول شيئا، وفجأة.. اختلج وجهها وانخرطت فى البكاء!.. ظللت أرقبها صامتا، كنت مذهولا من تصاعد الأمر على هذا النحو، غمرنى إحساس مفاجئ بالأسى سرعان ما تحول إلى ندم، فقلت بصوت خافت:

ـ دونا.. أنا آسف.. فى الواقع أنا مخمور تماما.

ظلت صامتة حتى ظننت أنها لم تسمعنى.. ثم خرج صوتها محشرجا وهى ما زالت مطرقة:

ـ أنت لا تعرف كم أحتاج إلى هذا المال.. أنا أطعم ثلاثة أطفال من عملى هذا.

ـ أنا آسف.

ـ أبوهم هرب مع امرأة تصغره بعشرين عاما وتركنى معهم.. ليست لى حقوق قانونية لأننا لم نكن متزوجين، وحتى لو كانت لى حقوق فليس بمقدورى الحصول عليها لأننى لا أعرف مكانه.. لا أستطيع أن أتخلى عن الأطفال.. ما ذنبهم فى هذه الدراما؟.. علىَّ أن أدفع وحدى كل شىء: مصاريف المدرسة وثمن الطعام والملابس وفواتير الغاز والكهرباء.. لا أحب أن أكون مومسا، لكننى ببساطة لم أجد عملا آخر.. حاولت كثيرا ولم أجد.

قمتُ منْ مكانـي، وهى تتكلم، وجلستُ على ركبتىَّ بجوارها، ثم اقتربتُ وطبعتُ قبلة على جبينها:

ـ سامحينى يا دونا.

ـ لا عليك.

ـ هل سامحتنى فعلا؟

رفعت رأسها ببطء ناحيتى وابتسمت بحزن:

ـ سامحتك.

ظللنا صامتين منهكين تماما وكأننا ملاكمان انتهيا لتوهما من مباراة عنيفة!.. نظرت إلىَّ وقالت برقة:

ـ هل يمكن أن تدفع لى نصف المبلغ؟

لم أرد، فوضعت يدها على كتفى وهمست:

ـ ادفع لى نصف المبلغ.. أرجوك.. أنا فعلا أحتاج المال.. لقد ضاعت الليلة فلن أجد زبونا آخر.

لم أرد، فهمست فى محاولة أخيرة:

ـ اعتبر المبلغ قرضا لصديقة.. وسوف أرده لك عندما أستطيع.

نهضت إلى الدولاب وعدت ومعى ورقة بمائة دولار، التقطتها دونا بسرعة واحتضنتنى.. طبعت قبلة على خدى وهمست:

ـ شكرا يا ناجى.. أنت فعلا كريم!

بعد قليل.. كانت قد ارتدت ثيابها وسألتنى وقد بدأت تستعيد مرحها:

ـ أنا ذاهبة.. هل تريد شيئا؟

ـ شكرا.

توجهَتْ إلى باب الخروج وفتحَتْه، ثم استدارت إلىَّ وكأنها تذكرت شيئا وقالت بنبرة متفائلة مغرية مصطنعة كتلك التى يستعملها مندوبو الدعاية:

ـ إذا أردت شابات فى العشرينيات فبإمكانك أن تتصل بى..

إنهن رائعات حقا.. شقراوات وسمراوات كما تحب.. سأحافظ على نفس السعر من أجلك، وسأحسب المائة دولار من المبلغ...يجب أن أكون كريمة معك كما كنت كريما معي.

رحت أرقبها في صمت حتى خرجت وأغلقت الباب.

٨

عندما تقدم الدكتور أحمد دنانه لخطبة الآنسة مروة نوفل، بدا بكل المقاييس عريسا ممتازا: متدين، بدليل علامة الصلاة على جبينه والمسبحة في يده واستشهاده الدائم بالقرآن والحديث وحرصه على أداء الصلاة في أوقاتها مهما تكن الظروف.. وجاهز لأعباء الزواج.. يمتلك شقة فاخرة مساحتها ٢٠٠ متر من مستويين، تطل على شارع فيصل بالهرم.. وقد أعلن استعداده لدفع المهر المطلوب وشراء الشبكة التى تختارها العروس (فى حدود المعقول).. والأهم من ذلك أنه مدرس مساعد فى كلية الطب، ويتعلم فى أمريكا، وسوف يحصل على الدكتوراه ويعود ليشغل أعلى المناصب فى مصر. وكما يهدهد النسيم أغصان الشجر، داعبت الحاج نوفل (تاجر الأدوات الصحية بالرويعى) أمنية أن يصير زوج ابنته وزيرا أو حتى رئيسا للوزراء.. ولم لا؟!.. الدكتور دنانه عضو بارز فى أمانة الشباب بالحزب الحاكم ولديه علاقات مهمة، وأثناء إجازته فى القاهرة يلتقى يوميا كبار رجال الدولة.. ماذا يعيبه إذن كعريس؟!.. تقدمه فى السن قليلا؟!.. هذه تحسب له وليس عليه.. الرجل الناضج سوف يدلل مروة ويخاف عليها بدلا من شاب طائش قد يسىء

معاملتها!.. تحمس الحاج نوفل لقبول دنانه، وحَسبَ تكلفة الزواج (بعقلية التاجر) فوجد أنه سيدفع أضعافَ ما دفعه العريس.. لكنه قال لنفسه: إن الله أعطاه ثروة طائلة، فعليه أن ينفق بما يوازى قدرته، كما أنه لا يمكن أن يستكثر أى مبلغ على ابنته الكبرى.. أما مروة نفسها، فقد قضت أعواما بعد تخرجها فى كلية التجارة (بالقسم الإنجليزى) ترفض زواج الصالونات التقليدى وتسخر منه.. كانت تدرك أنها جميلة، وأن جمالها من النوع الذى يثير شهوة الرجال، فمنذ بدأت المراهقة تكاد تكون لم تقابل رجلا لم تلمح فى عينيه الشهوة.. شعرها الفاحم الناعم المسترسل على كتفيها، عيناها السوداوان الرائعتان، شفتاها المكتنزتان الشهيتان، وجسدها المقدود بحلاوة.. الصدر نافر، والوسط ضيق، ثم يتسع الرِّدفان ويهبطان على ساقين جميلتين.. حتى قدماها الصغيرتان بأصابعهما المتناسقة وأظافرهما المستديرة المطلية كانتا أشبه بتحفة بديعة التكوين منهما إلى أطراف البشر.. غرقت مروة سنوات فى أحلامها، كانت ترى نفسها سمو الأميرة التى تنتظر فارسا وسيمًا يخطفها على جواده الأبيض، رفضت خطابًا كثيرين وجهاء وأثرياء، لأنها لم تحس نحو أحد منهم بانجذاب حقيقى، ثم اكتشفت فجأة أنها جاوزت التاسعة والعشرين ولم تجد حبها الكبير.. عندئذ تعين عليها أن تراجع الموقف بنظرة عملية!.. وقد أكدت لها أمها مرارا أن الحب الذى يأتى بعد الزواج يكون أكثر رسوخا واحتراما من العواطف الملتهبة المتقلبة التى قد تتلاشى فجأة أو تنتهى بمصيبة!.. ثم قرأت مروة نفس المعنى فى الإجابة على مشكلات القراء التى تنشر يوم الجمعة فى بريد الأهرام، فتأكد لها عندئذ أن كلام أمها يعكس حقيقة فى

الحياة. . عليها إذن أن تتنازل عن حلمها بالحب الكبير لأنها قد تقضى حياتها ولا تجده. . الحياة في الواقع مختلفة عنها في السينما. . فلتتزوج كما يتزوج الناس جميعا. . في النهاية يجب أن يكون لديها بيت وأسرة وأطفال. . وهي لم تعد صغيرة، شهور قليلة وتبلغ الثلاثين! . . الأهم الآن أن تتزوج، وسوف يأتي الحب فيما بعد. لم يكن لديها شيء ضد أحمد دنانه ولا معه، كانت مشاعرها نحوه محايدة، لكنها وجدته - بحسابات العقل - زوجا لا بأس به. . لو استطاعت فقط أن تنسى ملامحه الغليظة وتجاعيد جبهته وشعره المجعد وكرشه البارز للعيان بالرغم من ضغط الصديرى الذى يحرص على ارتدائه ليبدو أكثر رشاقة. . لو استطاعت أن تصرف عن ذهنها هذه السلبيات لأمكنها، على نحو ما، أن تعيش قصة حب معه. . أوليس رقيقا وحنونا معها؟ . . هل مرت مناسبة واحدة بغير أن يقدم لها هدية ثمينة؟ . . ألم يأخذها إلى أفخم الفنادق والمطاعم في مصر؟ . . ألم ينفق عليها بلا حساب حتى أشفقت عليه أكثر من مرة من الفواتير الباهظة التى يدفعها عن طيب خاطر؟! . . هل يمكن أن تنسى تلك الليلة الرائعة عندما تناولا العشاء على أضواء الشموع وعزف الكمان في الباخرة «أطلس» العملاقة وهى تجوب بهما النيل على مدى ساعتين مرا عليها كحلم جميل. . إنه يحبها ويدللها ويبذل أقصى ما في وسعه لإسعادها. . ماذا تريد أكثر من ذلك؟ . . صحيح أنها تتعرض أحيانا إلى نوبات كآبة تدفعها إلى النفور منه، لكن ذلك نادرا ما يحدث، وقد اقتنعت بتفسير أمها التى أكدت أنها محسودة ونصحتها بالإكثار من قراءة القرآن خصوصا أثناء الليل! . . ومضت أيام الخطبة على أفضل ما

يكون، وقام فضيلة شيخ الأزهر شخصيا بعقد القران فى جامع سيدنا الحسين (رضى الله عنه)، وتم الزفاف فى حفل أسطورى كلف الحاج نوفل ربع مليون جنيه، أقيم فى الميرديان وأحياه إيهاب توفيق وهشام عباس والراقصة، دينا وحضره ـ كما نشرت الصحف ـ لفيف من نجوم المجتمع ورجال الدولة . . وقد ثارت اعتراضات شرعية جادة على وجود راقصة عارية فى فرح أسرة عرفت بتدينها العميق، لكن الحاج نوفل واجه المعترضين بجملة واحدة حاسمة :

«مروة هى ابنتى الكبرى وأول فرحتى . . والفرح بدون راقصة سيكون بلا طعم . . وربنا سبحانه وتعالى يعلم النوايا وهو غفور رحيم»!

والحق أن تمسُّك الحاج نوفل بالراقصة دينا *(المشهورة بثيابها الفاضحة وحركاتها المثيرة)* ثم تشجيعه لها بالتصفيق والهتاف أثناء الرقص، وذلك الحديث الباسم الهامس الذى دار بينهما فى نهاية الفرح وطال حتى أدى إلى ظهور التوتر على وجه زوجته الحاجة «إنصاف» . . كل ذلك أعاد إلى الأذهان حكايات تروى سرا عن انغماس الحاج نوفل فى الملذات ومطاردته للراقصات وهو شاب قبل أن يتوب الله عليه ويصلح حاله!

وسافر العروسان، على نفقة الحاج نوفل، لقضاء شهر العسل فى تركيا، ومن هناك طارا إلى شيكاجو حيث استأجر دنانه شقة جديدة متسعة خارج سكن الطلبة . أقبلت مروة على حياتها الجديدة بحماس وإخلاص، وأرادت من أعماقها أن تسعد زوجها وتنظم حياته وتسانده حتى ينجح ويصل إلى القمة . . لكن

الصورة المشرقة، منذ الأيام الأولى، تخللتها الشوائب. والآن، بعد عام كامل من الزواج، تقبع مروة وحدها في البيت، تمر الأحداث بذهنها كشريط سينمائى تستعيده مرة بعد أخرى، وتلوم نفسها بشدة لأنها لم تَرَ إشارات واضحة فى سلوك زوجها من البداية، أو ربما تكون لاحظتها وتجاهلتها حرصا على خيالها الوردى.. ها هى الأحلام تهوى من حالق فترتطم بصخور الواقع وتتناثر كشظايا الزجاج!

بدأت المشاكل بواقعة البدلة.. كان دنانه قد ارتدى أثناء الفرح بدلة بيضاء فاخرة أنيقة من تصميم فرساتشى.. لكن مروة، بعد الزواج، أثناء تنظيم ثيابه فى الدولاب لم تجد البدلة، فانزعجت للغاية وخطر لها أنها سرقت أو ضاعت فى الطائرة.. ولما عاد من الكلية سألته، فسكت ورمقها بنظرة خبيثة مترددة، ثم قال وكأنه يمزح:

ـ هذه البدلة معونة أمريكية!

استوضحته، فقال وهو يصطنع مغالبة الضحك ليخفى ارتباكه:

ـ يوجد نظام فى أمريكا يعطيك الحق فى إرجاع أية سلعة تشترينها إذا قدمت الفاتورة فى خلال شهر من تاريخ الشراء.

ـ ما زلت لا أفهم.. ماذا حدث لبدلة الفرح؟

ـ أبدا. فكرت أننى لن أرتديها إلا ليلة واحدة فى العمر كله ـ علما بأن ثمنها باهظ جدا ـ فاحتفظت بالفاتورة وأرجعتها واستعدت نقودى!

ـ ألا يعتبر هذا نوعا من الخداع . . أن تشترى البدلة وتتزوج بها ثم ترجعها إلى المحل؟

ـ شركات الملابس فى أمريكا عملاقة، وميزانياتها بالملايين لن يؤثر فيها ثمن بدلة . . كما أننا لسنا فى بلد مسلم . . لقد استشرت علماء دين ثقات فأكدوا لى أن أمريكا من الناحية الشرعية تعتبر دار كفر وليست دار إسلام، وهناك قاعدة فقهية معروفة أن الضرورات تبيح المحظورات . . وبالتالى فإن احتياجى لثمن البدلة يبيح لى شرعا أن أرجعها للمحل!

استغربت مروة جدا من تفكيره وكادت تسأله: «من قال لك إن الإسلام يأمرنا بسرقة غير المسلمين؟» . . لكنها مع ذلك حاولت أن تلتمس له العذر . . قالت لنفسها: «يجب أن أتذكر أنه ليس ثريًا مثل أبى، وهو يحتاج فعلا إلى ثمن البدلة» . . ومرت هذه الواقعة وكادت تنساها، لولا أن تعاقبت بعدها أحداث مؤسفة.

بدأ دنانه يشكو من ضعف مرتب البعثات لأنه لا يكفى نفقات البيت، وكرر شكواه مرارا فتجاهلتها مروة (استجابةً لنذير داخلى غامض) . . لكنه سرعان ما انتقل من التلميح إلى التصريح، فسألها مباشرة:

ـ هل يمكن أن أقترض من أبيك كل شهر مبلغا من المال . . على أن أدفعه له عندما نرجع إلى مصر؟

تطلعت إليه صامتة، فاستطرد ضاحكا بوقاحة:

ـ ممكن أكتب له إيصال أمانة لو أراد . . حتى يطمئن على ماله.

أحست مروة بالصدمة وبدأت حقيقة زوجها تطاردها، لكنها - برغم ذلك - اتصلت بأبيها وطلبت منه مساعدة مالية . . لماذا؟ . . لعلها تمسكت بخيط واه أخير ينقذها من خيبة الأمل! . . حاولت أن تقنع نفسها بأن زوجها في ضائقة لأنه يدرس في بلد غريب وطبيعي أن يتعثر ماليا، ولا يعيبه أن يطلب مساعدة من أبيها. ولقد أدهشها أن أباها تَقَبَّل الأمر بهدوء وكأنه يتوقعه، وبدأ يرسل إليها مبلغ ألف دولار، ينتظره دنانه أول كل شهر ويتسلمه من يدها بلا غضاضة، بل ويستعجله إذا تأخر . . لم يكن المال في حد ذاته ما يقلق مروة، فقد كانت على استعداد للمساهمة في نفقات البيت بأكثر من ذلك؛ لأن التربية التي تلقتها ترسخ نموذج الزوجة الأصيلة التي تساند زوجها بكل ما تملك من جهد ومال . . لكن الصدفة البحتة جعلتها تعثر في جيب دنانه على تحويل بنكي فهمت منه أنه يقبض مبلغا كبيرا بخلاف مرتب البعثة . . وهنا لم تتمالك نفسها، سألته والغضب يتجمع أمام عينيها بسرعة السحاب في يوم غائم:

- لماذا أخفيت عني مرتبك الإضافي؟! . . ولماذا تجعلنا نطلب مساعدة من أبي ما دمنا لا نحتاجها؟

ارتبك دنانه قليلا، وسرعان ما استعاد جرأته قائلا:

- لم أخبرك عن الإضافي لأنه لم تأت مناسبة، كما أنك كزوجة ليس من حقك دينيا أن تعرفي مرتب زوجك، وأستطيع أن أقدم لك الدليل الشرعي على ذلك . . أما المبلغ البسيط الذي يساعدنا به أبوك فأنا أراه أمرا طبيعيا؛ لأن ربنا أعطاه مالا كثيرا، أما نحن

فنبدأ حياتنا ويجب أن ندخر . . والادخار فضيلة كبيرة حضنا عليها أشرف الخلق المصطفى صلى الله عليه وسلم .

لم تقتنع بالطبع هذه المرة، وتكَشَّفَ لها بخله واضحا لا لبس فيه كشمس يوم حار. بدأت تلاحظ كيف يربد وجهه إذا اضطر إلى دفع أية مصروفات أيا كانت، وكيف يتجلى فيه حرص أشبه بالجزع عندما يعد نقوده ويضعها بتَأنٍّ في محفظته التي يدسها في جيبه الداخلي وكأنه يدفنها في مثواها الأخير . . وشيئا فشيئا، انتابتها هواجس مفزعة . . إنها بعيدة جدا عن أهلها، يفصلها عنهم المحيط الأطلنطي وعشرات الألوف من الكيلومترات . . إنها غريبة ووحيدة تماما في شيكاجو، لا أحد يعرفها ولا أحد يهتم بها، إنجليزيتها الضعيفة لا تمكّنها حتى من التفاهم مع الناس في الشارع، وليس لديها في الغربة إلا دنانه . . فهل يمكنها فعلا أن تعتمد عليه؟ . . ماذا يحدث لو مرضت أو تعرضت لحادث؟ . . هذا الشخص الذي تزوجته لن يعبأ بها إطلاقا، وسوف يلقي بها في الشارع لو كانت ستكلفه عشرة دولارات! . . هذه هي الحقيقة . . إنه بخيل أناني لا يفكر إطلاقا إلا في نفسه . . بل لعلها الآن تفهم أكثر من أي وقت مضى لماذا اختارها للزواج، فها هو قد بدأ في استحلاب ثروتها، ولا شك أن لديه خططا - بعد وفاة والدها - للاستيلاء على إرثها، بل لعله يحسبه منذ الآن بدقة! . . على أن المشكلة لم تقتصر على بخله وأنانيته، إذ ثمة شعور آخر كريه يترسخ بينهما كل يوم . . مسألة خاصة جدا ومحرجة جدا، لا يمكن أن تبوح بها مروة حتى لأقرب الناس إليها، بل لعلها تلوم نفسها على مجرد التفكير فيها، لكنها مع ذلك تؤلمها وتنغص

حياتها . . إنها، بصراحة، تكره طريقة زوجها فى الاجتماع بها . . إنه يأتيها بطريقة غريبة، يهجم عليها دون مقدمات، تكون جالسة تشاهد التليفزيون فى حجرة النوم أو خارجة من الحمام فينقض عليها، يسقط عليها فجأة بانتصابه كما يفعل المراهقون مع خادمات المنازل، وقد سببت لها طريقته الفجة فزعا وتوترا نفسيا وإحساسا بالمهانة، كما أدت إلى تقرحات مؤلمة فى جسدها. وذات ليلة، ألمحت إليه بما تعانيه وهى تتحاشى النظر إلى وجهه من فرط الخجل، لكنه ضحك ساخرا وقال بما يشبه الزهو:

- حاولى أن تتعودى على ذلك لأن طبيعتى قوية وعنيفة . . هكذا كل الرجال عندنا فى الأسرة . . لى خال فى البلد تزوج وأنجب بعد الثمانين!

أحست بالإحباط لأنه لم يفهمها، ولم يكن بمقدورها أن تشرح له أكثر. ودت لو تنصحه بقراءة التعبير القرآنى البديع ﴿وقَدِّمُوا لأنفُسكُمْ﴾ ليفهم ما تريد أن تقوله، لكن الخجل غلبها فسكتَت . . وفوجئت به بعد ذلك، أثناء الاختلاء بها، يحاول استعمال نوع من الدهان رائحته نفاذة. فرفضت بشدة، ودفعته بقوة بعيدا عنها وقفزت من الفراش وقد تضاعف حنقها عليه . . راحت تتهرب من لقائه بكل الذرائع الممكنة، حتى هجم عليها ذات ليلة فقاومته بعنف وقفزت بعيدا عنه، فصاح غاضبا وهو يلهث من فرط الرغبة والمجهود:

- اتقى الله يا مروة . . أحذرك من عقاب الله سبحانه وتعالى . . إن ما تفعلينه حرام شرعا بإجماع جمهور العلماء . .

لقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: إن المرأة التى ترفض زوجها فى الفراش تبيت والملائكة تلعنها!

كان مسجى أمامها على الفراش وهى واقفة أمامه بثياب النوم، استبد بها الغضب ورمقته بنظرة كارهة مستهزئة، كادت ترد عليه بأن الإسلام لا يمكن أن يكره المرأة على معاشرة زوج منفر مثله، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أمر بتطليق سيدة من زوجها لمجرد أنها لا تستريح إليه.. بلغ بها الحنق درجةَ أن فكرت لأول مرة فى الطلاق.. فليطلقها الآن ويتركها تعود إلى مصر.. طلاقها أرحم من انتهاكها كل ليلة بهذه الطريقة المقززة!

«طلقنى الآن».. تَرَكَّزَ تفكيرها فى هذه الجملة حتى رأت حروفها مكتوبة فى ذهنها، لكنها لسبب ما (حاولت أن تفهمه بعد ذلك ولم تفلح أبدا) ما إن همت بالرد عليه، ما إن فتحت شفتيها لتنطق بالجملة الحاسمة، حتى اعترتها مشاعر متناقضة وغامضة أجبرتها على الصمت، ثم وجدت نفسها تقترب منه ببطء وكأنها منومة.. أخذت تخلع ثيابها بطريقة باردة محايدة، قطعة قطعة، حتى وقفت أمامه عارية تماما، ولما هجم عليها لم تقاومه.. تلك الليلة بدأت بينهما مرحلة جديدة، صارت تسلم له جسدها ببرود كامل، تغلق عينيها وتتحمل بجَلَد أنفاسه الثقيلة الكريهة ولزوجة جسده المقززة، تمر اللحظات ثقيلة ومؤلمة، تغالب شعورها بالغثيان حتى يفرغ لذته ويستلقى على ظهره لاهثا مزهوا وكأنه انتصر فى معركة حربية، فتندفع عندئذ إلى الحمام لتتقيأ ثم تبكى من القهر والعجز والألم، وتظل تشعر بعد ذلك بتكسير فى جسدها كأنها تعرضت لضرب مبرح، بل إن وجهها كان يتغير

عقب اللقاء فيبدو مربدا ومحتقنا كأنه متورم. . . لكنها بالرغم من هزيمتها أمامه فى معركة الجنس ظلت ترفض بإصرار فكرة الإنجاب. . كان يلح عليها حتى ينجبا طفلا فى أمريكا، سعى لإقناعها بشتى الوسائل. . كان يقول لها:

ـ يا بنت يا عبيطة. .

ـ من فضلك لا تكلمنى بهذه الطريقة!

تشيح بوجهها، فيقترب منها متوددا ويهمس بصوت كالفحيح:

ـ يا حبيبتى اسمعى الكلام. . لو أنجبنا الآن سيحصل الطفل على الجنسية الأمريكية. . وسنحصل عليها نحن تلقائيا بعد ذلك. . الناس تدفع عشرات الألوف من أجل جواز سفر أمريكى وأنت ترفسين النعمة بقدمك!

ـ ألم تتعب من تكرار هذا الكلام؟. . لا أريد أن أنجب طفلا الآن. . ولا يمكن أن أنجب لمجرد أن أحصل على جواز سفر أمريكى!

* * *

تلك الليلة، كانت مروة جالسة باسترخاء على الأريكة فى حجرة المعيشة تشاهد مسلسلاً تليفزيونيّا على الفضائية المصرية عندما سمعت جرس الباب، أحست بقلق لأنها لم تكن تتوقع أحدا. نهضت مترددة وطافت بذهنها كل التحذيرات التى طالما سمعتها من فتح الباب للأغراب فى شيكاجو. . تطلعت من العين

السحرية، فرأت صفوت شاكر واقفا يبتسم، ولم يلبث أن قال بصوت عال:

ـ الدكتور دنانه موجود؟!

ـ غير موجود.

ـ آسف يا مدام.. جئت من واشنطن خصيصا لمقابلته، وتليفونى معطل للأسف.. هل أستطيع أن أدخل وأنتظره؟

لم ترد، فاستطرد بإلحاح:

ـ أريده لأمر مهم لا يقبل التأجيل.

كانت تعرف صفوت شاكر، رأته أكثر من مرة فى حفلات القنصلية ولم تسترح له قَطّ، بدا لها دائما متغطرسا ومريبا، لكنها تعرف كم يهتم زوجها بأمره. لم يكن لديها اختيار، ففتحت الباب وأدخلته. كان أنيقا كالعادة تفوح منه رائحة عطر فاخر. صافحها وجلس على أقرب مقعد فى المدخل. جلست أمامه وقد تركت باب الشقة مفتوحا. اتصلت بدنانه وأخبرته، فأكد أنه قادم حالا.. كان لابد أن تقوم بضيافته، فصنعت له كوبا من الشاى، وأغلقت بلباقة وحسم محاولاته المتكررة لفتح أحاديث معها. وما إنْ وصل دنانه حتى انسحبت إلى حجرتها.. والحق أن دنانه لم يُعرْها أى اهتمام، كان جل تركيزه على الضيف الكبير.. هرع يرَحب به وهو يلهث، ربما مبالغا قليلا ليثبت أنه جاء عَدْواً. قال بابتسامة متملقة:

ـ أهلا يا فندم.. شيكاجو نَوَّرت!

ـ آسف لأنى جئت دون موعد.

ـ سيادتك تشرفنى فى أى وقت.

ـ أرجو أن تعتذر للهانم على الإزعاج.

ـ بالعكس يا فندم.. مروة سعيدة بسيادتك لأنها تعرف قدرك ومقدارك عندى!

عاد صفوت بظهره فى المقعد وقال:

ـ الموضوع الذى جئت من أجله غاية فى الأهمية..

ـ خيراً إن شاء الله!

ـ عندى أولا بعض الأسئلة.

ـ تحت أمرك.

ـ هل لديكم مصريون أقباط فى القسم؟

ـ لا يوجد أقباط فى قسم الهيستولوجي.. إنهم موجودون فى أقسام الباطنة والجراحة والفيسيولوجي.. المركز الطبى فى جامعة إلينوى يضم سبعة أقباط فقط أعرفهم جميعا.

أخرج صفوت من جيب سترته ورقة مطوية فَضَّها ببطء وناولها لدنانه الذى تلقفها وطالعها باهتمام، ثم ارتسم على وجهه الغضب وقال:

ـ أكاذيب بذيئة!

ـ هذا واحد من بيانات عديدة تم توزيعها الأسبوع الماضي..

احتفظ به واقرأه على مهلك. . نشاط أقباط المهجر يتزايد بطريقة مقلقة، يهاجمون مصر وسيادة الرئيس بوقاحة. . وللأسف فإن الإدارة الأمريكية تستمع إليهم!

ـ كلهم خونة، عملاء يقبضون من إسرائيل!

أطرق صفوت شاكر لحظة ثم قال بجدية:

ـ إسرائيل لها علاقة بمنظمة واحدة فقط. . بقية المنظمات القبطية تعمل وحدها وتعتمد على التمويل الذاتي. . إنهم يهاجمون النظام حتى يحصلوا على مكاسب للأقباط في مصر.

مستحيل يا فندم. . مصر لا تخضع للابتزاز، كما أن الاستقواء بالخارج خيانة.

هكذا ردد دنانه بسرعة وكأنه يستظهر درسا. . وهز صفوت رأسه موافقا ثم سأل بصوت جاد:

ـ ماذا تعرف عن كرم دوس؟

ـ جراح قلب. . مليونير يسكن في قصر فخم في أوك بارك. . ومن زعماء أقباط المهجر.

ـ اكتب لي تقريرا مفصلا عنه.

ـ تحت أمرك.

ـ أريد معلومات شاملة مع تقدير موقف.

ـ حاضر.

ـ بالنسبة للولد ناجي عبد الصمد . . المسئولون فى أمن الدولة أرسلوا إليَّ نسخة كاملة من ملفه . . انتبه إليه لأنه عنصر مشاغب!

أطلق دنانه ضحكة عالية وكأنه يسخر وقال:

ـ الولد ناجي خائب . . أنا أعرفه من مصر . . وقد أعددت له برنامجا سيعجب سيادتك!

ساد الصمت لحظات، ثم تنهد صفوت وقال:

ـ الآن . . إلى الموضوع الأهم .

أشعل دنانه سيجارة ونظر من خلف النظارة بانتباه بالغ إلى صفوت الذى استطرد بصوت خافت:

ـ سيادة الرئيس سيحضر بإذن الله فى زيارة إلى أمريكا بعد شهرين . . الزيارة مهمة جدا، وتأتى فى ظروف حساسة للغاية وتستلزم منا إعدادا جيدا . . الوقت أمامنا ضيق، وأى خطأ من ناحيتنا يعمل مصيبة .

ـ سيادتك عرفت خط السير؟

ـ خط السير لا يعلن أبدا إلا فى آخر لحظة . . وعادةً ما يتغير فجأة لأسباب أمنية . . لكنى عرفت بطريقتى أن سيادة الرئيس سيزور واشنطن ونيويورك وسيأتى إلى شيكاجو . . وطبعا سيادته سوف يلتقى بأبنائه المبعوثين . .

ـ لقاء سيادة الرئيس عيد وطنى للمبعوثين جميعا!

ـ أنت ذكى يا دنانه وتفهم أن أى زيارة للسيد الرئيس قد تغير حياتنا . . ربما أخرج بعدها إلى الوزارة أو إلى المعاش!

ـ إلى الوزارة يا فندم بإذن الله . . لكن أمانة ما تنسانى .

ضحك صفوت شاكر، وبدا مزاجه رائقا ونهض لينصرف، لكن دنانه ألح ليستبقيه على العشاء، كاد يتوسل :

ـ يا صفوت بك . . أرجوك . . لا تحرمنى من هذا الشرف . . أن نتعشى معا .

ـ لدىَّ موعد هام فى القنصلية .

ـ كُلْ سيادتك لقمة سريعة ثم انصرف فى أمان الله إلى موعدك .

انطلق دنانه مهرولا إلى الداخل، وبعد نحو ربع ساعة ظهرت مروة وهى تحمل الأطباق، فتلقاها صفوت بابتسامة ونظرة متفحصة :

ـ أعتذر مرة أخرى عن إزعاجك يا مدام!

تمتمت مروة ببضع كلمات وكأنها تنفى الإزعاج، لكن وجهها لم يكن مستريحا، مما جعل دنانه يحدق نحوها أكثر من مرة لينبهها . . ولما يئس من التفاتها إليه انطلق فى فاصل جديد من الترحيب بصفوت . . استدارت مروة لتنصرف، فسألها صفوت بجرأة :

ـ ألا تأكلين معنا؟

أجابت بسرعة وكأنها تتوقع السؤال :

ـ تناولت العشاء منذ قليل . . تفضل سيادتك بالهنا والشفا .

جلس دنانه إلى المائدة أمام صفوت الذى فتح حقيبته وأخرج زجاجة ويسكى صغيرة مينياتور . .

ـ ممكن تجيب لى «ثلج»؟

فى لحظات أحضر دنانه مكعبات الثلج وكأسا كبيرة فارغة، وقال صفوت وهو يصب الويسكى بلهجة معتذرة :

ـ اكتسبت هذه العادة بسبب إقامتى فى الغرب لسنوات طويلة : أن آخذ كأسا مع الأكل .

ـ يا فندم سيادتك تبذل مجهودا فوق طاقة البشر فى عملك . . ومن حقك أن ترفه عن نفسك قليلا .

جاوبه صفوت بابتسامة رزينة وهو يرشف من كأسه، وقد أكل بشهية ثم نهض لينصرف، فأوصله دنانه إلى الباب ودار بينهما حديث قصير جدِّى عما يجب عمله فى الأيام التالية . وقف دنانه يودع سيده بعينيَه حتى غاب داخل المصعد . . فتنهد ودخل وأغلق الباب خلفه، ومثلما يتغير وجه البطل من الخير إلى الشر فى أفلام الخيال العلمى، تغيرت ملامح دنانه شيئا فشيئا وهو يجتاز الردهة . . وعندما وصل إلى حجرة النوم كان وجهه يعبّر عن سخط بالغ، وفتح الباب بعنف فوجد زوجته مستلقية على الفراش . . صاح بصوت كالرعد :

ـ تصرفتِ مع الرجل بمنتهى قلة الذوق!

ردت مروة بهدوء :

ـ هو الذى لا يعرف الأصول . . كيف يدخل بيتك وأنت غائب؟

- كان يريدنى للأهمية .

- يستطيع أن يترك رسالة .

- الأمر أهم من ذلك بكثير .

- أنا لا أرتاح إليه .

- هل تعرفين من هو صفوت شاكر؟

- ليكن من يكون .

- صفوت شاكر مسئول المخابرات فى السفارة المصرية وأهم واحد فيها . . أهم من السفير نفسه . . تقرير واحد يكتبه يرفعنى إلى السماء أو يقضى على مستقبلى نهائيا!

تطلعت إليه مروة مليا وكأنها تراه لأول مرة وقالت :

- مهما يكن منصبه فليس من حقه أن يدخل بيتك وأنت غائب . . كما أنى أرفض أن يتحول بيتى إلى خمارة .

- لن أسمح لك بتدمير مستقبلي . . أنا أحذرك . إذا جاء مرة أخرى وتعاملت معه بطريقة غير لائقة ستكون النهاية بيننا .

- كم أتمنى هذه النهاية وأنتظرها بفارغ الصبر!

هكذا قالت وهى تتطلع إلى وجهه بتحفز ، فصاح فيها :

- إنها غلطتى لأنى تزوجت من أسرة جاهلة!

- لا أسمح لك بإهانة أهلى .

- هذه ليست إهانة . . لكنها الحقيقة!

ـ احترم نفسك!

ـ أبوك الحاج نوفل متعلم أم جاهل؟

ـ ظروف أبى لم تمكّنه من التعليم، لكنه اجتهد وربانا وعلمنا أحسن تعليم.

ـ لكنه ما زال جاهلا.

ـ أبى الجاهل الذى لا يعجبك هو الذى ينفق على بيتك.

ارتفعت يد دنانه وهوت على وجهها بصفعة قوية جعلتها ترنح، فانقضت عليه وأمسكت بقميصه وهى تصرخ:

ـ تضربنى؟!.. لن أعيش معك يوما واحدا.. طلقنى الآن.. فورا!

٩

بعد ثلاثين عاما لا يزال يتذكر تلك الليلة بوضوح!

اضطر إلى ترك ورديته فى قصر العينى ليذهب إليها، كانت قوات الأمن تحاصر جامعة القاهرة تماما وتمنع الدخول والخروج. ما بين كوبرى الجامعة والبوابة أوقفته عدة حواجز أمنية، سألوه نفس الأسئلة وأجاب نفس الإجابة. فى الكمين الأخير ظهر ضابط برتبة عقيد بدا أنه القائد، كان وجهه مرهقا وحركاته عصبية ويدخن بشراهة.. نفث سحابة من سيجارته وقال بعد أن فحص بطاقة الأطباء التى يحملها:

- ماذا تريد يا دكتور؟

- لى قريبة فى الاعتصام.. جئت لأعيدها لأسرتها.

- اسمها؟

- زينب رضوان.. كلية الاقتصاد.

تفحصه الضابط بنظرة خبيرة وكأنما اطمأن إلى صدقه، فقال:

- أنصحك أن تأخذها معك بسرعة.. لقد أنذرناهم حتى يفضوا الاعتصام، لكنهم مصرون على الشغب.. بين لحظة

وأخرى سنتلقى تعليمات باستعمال القوة . . عندئذ سنضربهم بلا رحمة ونعتقلهم جميعا .

ـ أرجو من سيادتك أن تقدّر أنهم شبان وغاضبون من أجل بلدهم .

ـ نحن أيضا مصريون ووطنيون ـ لكننا لا نتظاهر ولا نخرب !

ـ أتمنى أن تعاملهم سيادتك بروح الأب .

ـ لا أب ولا أم . . أنا أنفذ تعليمات !

هكذا صاح الضابط بصوت عال كأنما يقاوم تعاطفا بداخله ، ثم تقهقر خطوتين وأعطى إشارة بيده ، فتحرك الجنود مفسحين له الطريق . كانت الجامعة مظلمة تماما وبرد يناير ينخر فى العظام حتى إنه أحكم إغلاق معطفه ودس يديه فى جيوبه . اللافتات وصحف الحائط تغطى المبانى ، لم يستطع أن يميز المكتوب عليها فى الظلمة باستثناء صورة كبيرة لأنور السادات تمثله وهو يدخن الجوزة ! . . رأى مئات الطلاب جالسين على النجيل وعلى درجات السلالم ، كثيرون منهم كانوا نائمين ، بعضهم يدخن ويتكلم ، وبعضهم ينشد أغانى الشيخ إمام . . أخذ يبحث عنها فترة حتى وجدها ، كانت واقفة أمام قاعة الاجتماعات تتناقش بحماس مع بضعة طلاب . . اقترب ونادى عليها ، فأقبلت إليه ، هتفت بطريقتها الحارة التى لا ينساها :

ـ يا أهلا .

رد بصوت مقتضب :

ـ تبدين متعبة .

ـ أنا بخير .

ـ أريدك أن تأتى معى .

ـ إلى أين؟

ـ إلى بيتك وأهلك .

ـ جئت تأخذنى من يدى إلى حضن ماما؟! . . تريدنى أن أغسل قدمى وأشرب اللبن حتى تضعنى فى السرير وتغطينى وتحكى لى حدوتة قبل النوم؟!

أدرك من سخريتها أن مهمته ليست سهلة . . فتطلع إليها لائما وقال بنبرة صارمة :

ـ لن أسمح لك بإيذاء نفسك!

ـ هذا شأنى .

ـ ماذا تريدين بالضبط؟

ـ أنا وزملائى لنا مطالب محددة . . لن نفض الاعتصام قبل تحقيقها .

ـ هل تظنون أنكم ستغيرون الكون؟!

ـ سنغير مصر .

ـ مصر لن تتغير بمظاهرة .

ـ نحن نعبّر عن المصريين جميعا .

ـ كفاية أوهام . . الناس خارج الجامعة لا يعرفون عنكم شيئا . . زينب . . تعالى معى . . لقد أكد لى الضابط أنهم سيعتقلونكم .

ـ فليفعلوا ما شاءوا .

ـ أتحبين أن يضربك الجنود ويسحلوك على الأرض؟

ـ لن أترك زملائى مهما حدث .

ـ أنا خائف عليك .

هكذا همس بجزع ، فرمقته بنظرة ساخرة ثم استدارت ببطء وعادت إلى زملائها ، استأنفت حديثها معهم وتجاهلته تماما . . ظل فترة واقفا فى مكانه يتطلع إليها ، ثم انصرف غاضبا وقال لنفسه إنها مجنونة ولا تصلح له أبدا ، وإذا تزوجها سيتحول بيتهما إلى ساحة معارك . . إنها مغرورة وعنيدة ، وقد عاملته بوقاحة واستهتار . . لقد حذرها لكنها أصرت على حماقتها . . فليضربها الجنود . . فليسحلوها على الأرض ، فليهتكوا عرضها . من الآن فصاعدا لن يشعر بأى تعاطف معها ، هى التى اختارت مصيرها .

أوى إلى فراشه وكان مرهقا للغاية ، لكنه عجز عن النوم . أخذ يتقلب حتى سمع أذان الفجر ، نهض وأخذ حماما وارتدى ثيابه وعاد إلى الجامعة ، فعرف أن الجنود اقتحموها وقبضوا على الطلبة ، وبذل مجهودا مضنيا فى الاتصال بمعارفه حتى استطاع أخيرا أن يزورها فى مديرية الأمن بعد الظهر . . كانت شاحبة تماما وشفتها السفلى متورمة ، وثمة كدمات زرقاء حول حاجبها الأيسر وعلى جبهتها . . مد يده وتحسس وجهها وسألها بحزن :

ـ هل يؤلمك؟

فأجابت بسرعة:

ـ مصر كلها مجروحة!

بعد كل هذا العمر ما زال يتذكر زينب رضوان، بل هو في الحقيقة لم ينقطع عن التفكير فيها يوما واحدا.. الصور القديمة تتجلى في ذهنه بوضوح مدهش، يعاوده شلال الذكريات، يكتسحه، كأنما الماضي مارد عملاق خرج من القمقم. ها هي تقف أمامه، بقامتها الضئيلة ووجهها الجميل وشعرها الأسود الطويل الذى تربطه على هيئة ذيل حصان، عيناها تلمعان بالحماس، تحدثه عن مصر بنبرة حالمة وكأنها تلقى قصيدة حب:

ـ بلادنا عظيمة يا صلاح لكنها ظُلمت طويلا.. شعبنا يمتلك إمكانات هائلة.. لو تحققت الديمقراطية ستصبح مصر بلدا قويا متقدما فى أقل من عشر سنوات.

كان ينصت إليها وقد أخفى عدم اكتراثه بابتسامة محايدة. كم حاولت أن تجتذبه إلى موقفها، لكنه كان فى واد آخر. أهدت إليه فى عيد ميلاده التاريخ الكامل لعبد الرحمن الجبرتي.. قالت:

ـ كل سنة وأنت طيب.. اقرأ هذا الكتاب لتفهمنى أكثر.

قرأ فى الكتاب قليلا ثم أصابه الملل، وأخبرها كذبا أنه انتهى منه.. لا يحب الكذب، ونادرا ما يقترفه، لكنه فقط لم يكن يريد أن يغضبها.. كان يريد أن يحتفظ بها فى أجمل أحوالها.. عندما يكون مزاجها رائقا تتلألأ ابتسامتها ويشرق وجهها.. فى

لحظات صفائهما الرائعة كانا يجلسان متجاورين فى حديقة الأورمان وقد وضعت كتبها جانبا على المقعد الرخامى الأبيض المستدير، تنقضى الساعات فلا يشعران بها، يتكلمان ويحلمان بالمستقبل، يتهامسان ويقترب منها فيشم رائحة عطرها الذى يسترجعه الآن بقوة، يمسك بيدها ويميل فيخطف قبلة على خدها، فتوجه له نظرة بين اللوم والحنان. . ولكن ما أسرع ما تنتهى الأحلام! . . ها هو المشهد الأخير، سيستعيده بعد ذلك ألف مرة، سيتوقف عند كل كلمة وكل نظرة وكل لحظة صمت. . كانا فى مكانهما الأثير فى الحديقة عندما أخبرها بقرار الهجرة. . حاول أن يكون هادئا، أراد أن يحيل الموقف إلى مناقشة منطقية، لكنها اندفعت قائلة:

- أنت تهرب!

- بل أنجو بنفسى.

- تتحدث عن نفسك فقط؟!

- جئت أدعوكِ إلى حياتنا الجديدة.

- لن أترك بلادى أبدا.

- كفاك شعارات من فضلك.

- ليست شعارات، بل إحساس بالواجب لا يمكن لك أن تفهمه.

- زينب! . .

تعلمتَ بأموال الشعب المصرى الفقير حتى أصبحتَ طبيبا. .

كان هناك ألف شاب مصرى يتمنون مكانك فى كلية الطب . . والآن تريد أن تترك مصر وتذهب إلى أمريكا التى لا تحتاجك! . . أمريكا التى تسببت فى كل مصائبنا . . ماذا تسمى من يتخلى عن بلاده فى محنتها ويضع نفسه فى خدمة الأعداء؟

- لقد تعلمتُ الطب وأخذت مكانى فى الجامعة بمجهودى لأنى متفوق . . كما أن العلم ليس له وطن . . العلم محايد .

- العلم الذى أمد إسرائيل بقنابل النابالم لتشوى وجوه أطفالنا فى بحر البقر . . لا يمكن أن يكون محايدا!

- أعتقد يا زينب أننا يجب أن نرى الواقع كما هو وليس كما نتمنى أن يكون .

- تكلم يا فيلسوف!

- لقد هُزمنا وانتهى الأمر . . إنهم أقوى منا بكثير ، ويستطيعون سحقنا فى أى لحظة .

- لن ننتصر أبدا إذا فكرنا مثلك!

استفزته الإهانة ، فصاح بصوت جعل رواد الحديقة يلتفتون إليهما :

- متى تفيقين من أوهامك؟ . . انتصارنا مستحيل بسبب التخلف والفقر والاستبداد . . كيف ننتصر عليهم ونحن عاجزون عن صناعة ميكروسكوب ضوئى من أبسط طراز؟! . . نحن نتسول كل شىء من الخارج ، حتى الأسلحة التى ندافع بها عن

أنفسنا . . ليست المشكلة فى أمثالى بل فى أمثالك . . عبد الناصر عاش مثلك فى الأحلام حتى جلب علينا الخراب . .

ارتفع صوتهما واشتبكا فى مشادة عنيفة ، واربد وجهها بالغضب ونهضت ولملمت كتبها التى سقطت رغما عنها وانتثرت على الأرض . فى تلك اللحظة انسدل شعرها الأسود الناعم على وجهها ، فبدت له على نحو مفاجئ فاتنة للغاية ، تمنى لو يأخذها فى حضنه ويقبّلها . . حاول فعلا أن يقترب ، لكنها أبعدته بحركة من يدها ، وقالت بصوت له وقع القدر :

- لن ترانى بعد اليوم!

- زينب!

- يؤسفنى أنك جبان!

ياللصداع القاتل . . يبدأ من أعلى الرأس ويزحف كأنه جيش من النمل يفترسه! . . هل يحلم الآن أم أن ما يحدث حقيقى؟ . . أعادته ومضة إلى الوعى ، فوجد نفسه ممددا على المقعد الطويل فى عيادة الطبيب النفسى ، ثمة موسيقى خفيفة تتردد حوله . . الإضاءة تنبعث خافتة من خلفه ، والطبيب جالس بجواره يسجل كل ما يقوله بعناية . . ماذا يفعل؟! . . ماذا أتى به إلى هنا؟ . . هل هذا الطبيب هو الذى سيصلح حياته؟ . . يا للعبث . . إنه يعرف نموذج هذا الشاب جيدا . . أبناء الطبقة المتوسطة العليا الذين يتعلمون بأموال آبائهم ويتخرجون فيجدون أماكنهم محفوظة على قمة المجتمع الأمريكى . . كانوا دائما أسوأ أنواع الطلبة الذين درسهم . . جهل وكسل وغطرسة . . ها هو أحدهم : جسد

رياضى ووجه نضر ونظرة خالية من الهم . . ماذا يعرف هذا الصبى عن الحياة؟ . . أقصى ما خبره من ألم ذلك الذى يصيبه بعد مباريات الاسكواش! . . ابتسم الطبيب بطريقة مهنية مصطنعة وقال وهو يمسك بالقلم فى يده وكأنه يمثل دورا فى السينما :

ـ احْكِ لى أكثر عن حبيبتك زينب .

ـ لم يعد لدىَّ ما أحكيه .

ـ أرجو أن تساعدنى حتى أساعدك .

ـ أنا أفعل كل ما بوسعى .

قال الطبيب وهو ينظر إلى الأوراق أمامه :

ـ كيف التقيت زوجتك الأمريكية كريس؟

ـ بالصدفة .

ـ فى أى مكان؟

ـ فى بار .

ـ أى بار؟

ـ هل هذه نقطة مهمة؟

ـ جـدا .

ـ التقيت بها فى بار للعُزّاب .

ـ ماذا كانت تعمل؟

ـ عاملة فى محل .

ـ لا تغضب من كلامى . . لكن الصراحة أساس علاجك . . هل تزوجت كريس لتحصل على الجنسية؟

ـ لا . . كنت أحبها .

ـ هل كانت متزوجة؟

ـ كانت مطلقة .

لاذ الطبيب بالصمت . . وسجل بضع كلمات فى الأوراق ثم سدد له فجأة نظرة غريبة وقال :

ـ صلاح . . أنا أرى تاريخك على النحو الآتي : أنت أردت أن تحصل على الجنسية الأمريكية ، فذهبت إلى بار للعزاب والتقطت عاملة بائسة ، مطلقة ووحيدة . . وسيطرت عليها جنسيا حتى تزوجتك ومنحتك الجنسية .

ـ أنا لا أسمح لك!

هكذا صاح الدكتور صلاح وهو يلهث من الغضب ، لكن الطبيب استطرد وكأنه لم يسمعه :

ـ الصفقة معقولة وعادلة . . الطبيب العربى الملون يمنح بيته واسمه للعاملة الأمريكية البيضاء الفقيرة ويأخذ فى المقابل جواز سفر أمريكيا!

نهض الدكتور صلاح وقال لاهثا من الغضب :

ـ إذا كنت ستتكلم بهذه الوقاحة ، فأنا لا أريد علاجك .

ابتسم الطبيب وكأنه عاد إلى طبيعته وقال بنبرة معتذرة :

ـ آسف . . أرجو أن تسامحني . . أردت فقط أن أتأكد من شيء ما .

أخذ يكتب من جديد في أوراقه ثم سأل :

ـ قلت إنك تعاني من العجز الجنسي مع زوجتك؟

ـ نعـــم .

ـ منذ متى؟

ـ ثلاثة أشهر . . ربما أكثر قليلا .

ـ هل فقدت قدرتك الجنسية بالتدريج أم مرة واحدة؟

ـ مرة واحدة .

ـ صفْ لي بالتفصيل ما تحس به قبل أن تمارس الجنس مع زوجتكَ .

ـ كل شيء يمضي بطريقة طبيعية ثم أفقد الرغبة فجأة .

ـ لماذا يحدث ذلك؟

ـ لو أنني أعرف لما جئت إليك!

ـ صف لي كيف يتغير شعورك .

ـ الشهوة تحجب التفاصيل . . إذا رأيتُ التفاصيل فقدتُ الشهوة!

ـ لا أفهم . . أعطني أمثلة .

ـ إذا كنتَ جائعا فلن تلاحظ أبدا شرائح البصل العالقة على

حرف الطبق . . ستلاحظها فقط بعد أن تشبع . . أما إذا لاحظتها قبل الأكل ستفقد الرغبة فى الطعام . . هل تفهمنى؟

هز الطبيب رأسه وأشار إليه أن يستمر، فقال:

- عندما تشتهى امرأة فلن ترى تفاصيلها الصغيرة . . فقط بعد أن تضاجعها ستلاحظ مثلا أن أظافرها غير نظيفة تماما أو أن لها أصبعًا أصغر مما يجب أو أن ظهرها مغطى ببقع داكنة . . إذا لاحظت ذلك قبل أن تنام معها ستفقد الرغبة . . وهذا بالضبط ما يحدث مع زوجتى . . عندما أقترب منها تتضح لى تفاصيلها وتسيطر على تفكيرى، فأفقد الرغبة فيها .

- هذا الكلام سيساعدنا كثيرا .

هكذا تمتم الطبيب، ثم عاد إلى ابتسامته المهنية وفتح درجا بجواره وقال بثقة وهو يناوله علبة دواء :

- قرص واحد مع الإفطار لمدة أسبوع .

ثم التقط دواء آخر من أمامه وقال :

- وهذا القرص قبل اللقاء الجنسى بنصف ساعة .

هل تعالج هذه الأقراص أحزان ستين عاما؟! . . كم يبدو كل ما يحدث سخيفا! . . لماذا يثق هذا الصبى بنفسه إلى هذا الحد؟ . . إلى الجحيم أنت وأقراصك! . . ماذا تعرف عن الحياة الحقيقية؟ . . ها هو يقف ليودعه على الباب، بكل ود واحترام، إنه ينفذ ما تعلمه فى الكلية بحذافيره . . باب «كيف تعامل مرضاك» .

استبقى الطبيب يده وقال ببطء :

ـ دكتور صلاح . . فى مثل حالتك . . عادةً ما يحاول المريض أن يهرب من العلاج بأن يُسقط كراهيته على الطبيب . . أعتقد أنك أذكى من ذلك . . ثق أننى أريد مساعدتك . . آسف إن كنت ضايقتك بكلامى . . سأراك بعد أسبوع . . فى نفس الموعد .

* * *

خصصوا لى فى قسم الهيستولوجى حجرة مكتب صغيرة وطلبوا إلىَّ أن أطبع لافتة باسمى لأعلقها على الباب. نزلت إلى الدور الأرضى حيث وجدت مسئول اللافتات عجوزا أمريكيا.. استقبلنى بود وطلب إلىَّ كتابة اسمى على ورقة صغيرة، ثم قال بغير أن يرفع رأسه عن اللافتة التى يعمل فيها:

ـ مُرَّ على بعد الغداء لتتسلم لافتتك.

اندهشت؛ إذ لم يكن قد بقى على الغداء سوى ساعة واحدة.. عدت إليه فى الموعد فأشار بيده قائلا:

ـ ستجدها هناك.

وجدت اسمى مكتوبا بأناقة على اللافتة الجديدة، أمسكت بها ووقفت مترددا ثم سألته:

ـ ماذا أفعل الآن؟

ـ خذها.

ـ ألا يجب أن أوقّع على إيصال باستلامها؟

ـ أليست هذه لافتتك؟!

ـ نعـــــم..

ـ هل سيهتم أحد سواك بأن يأخذها؟

هززت رأسي وشكرته، وفي المصعد ضحكت من نفسي، لابد أن أتخلص من الميراث البيروقراطي المصري الذي أحمله في دمي. هذا العامل الأمريكي البسيط أعطاني درسا: لماذا أوقّع على استلام اللافتة إذا كانت تحمل اسمي؟

مضى اليوم بهدوء، وبعد الغداء كنت أطالع البرنامج الدراسي للقسم عندما ظهر أحمد دنانه.. اقتحم عليّ الحجرة وقال بصوت عال:

ـ حمدًا لله على السلامة يا ناجي.

قمت وصافحته. تذكرت نصيحة الدكتور صلاح، وحاولت أن أبدو ودودا معه.. تبادلنا حديثا عاما.. وفجأة، لكزني في كتفي وقال بنبرة آمرة:

ـ تعال معي.

اصطحبني عبر ردهات القسم حتى دخلنا إلى غرفة مملوءة برفوف مكتظة بأوراق وكراسات بأشكال وألوان متنوعة، قال لي:

ـ خذ ما تريده من كراسات وأوراق وأقلام.

أخذت بعض الكراسات والأقلام الملونة، فقال ضاحكا:

ـ هذه الأدوات مخصصة للباحثين في القسم.. كله مجانا.. على حساب صاحب المحل!

ـ شكرا.. لقد أخذت ما أحتاجه.

اجتزنا الردهة عائدين، وإذا به يقول:

ـ كل المصريين الذين أتوا إلى شيكاجو.. أنا صاحب فضل

عليهم.. وقفت بجانبهم وساعدتهم، لكنهم نادرا ما يحفظون الجميل!

لم تعجبنى العبارة، لكنى آثرت الصمت. وعندما وصلنا إلى باب مكتبى صافحنى مودعا، وقال بود:

ـ بالتوفيق يا ناجى.

ـ شكرا.

ـ لدينا اجتماع فى رابطة الدارسين المصريين الليلة.. ما رأيك أن تأتى حتى أعرّفك على الزملاء؟

بان علىَّ التردد، فاستطرد مؤكدا:

ـ سأنتظرك الليلة فى السادسة.. خذ العنوان.

* * *

عدت إلى البيت وجلست أدخن وأفكر: أحمد دنانه عميل لمباحث أمن الدولة، ولن يأتى من ورائه خير أبدا، لا شك أنه يتودد إلىَّ لغرض ما.. لماذا تورطت معه؟.. كان الواجب تجنبه تماما. هممت أن أتصل به لأعتذر، لكننى عدت وقلت لنفسى إن الرابطة تضم الدارسين المصريين فى شيكاجو، ومن حقى أن أشترك فيها وأتعرف إليهم.. لن أتنازل عن حقى بسبب خوفى من دنانه!.. أخذت حمّاما وارتديت ثيابى وذهبت إلى الاجتماع.. كان العنوان مطبوعا بالتفصيل مع خريطة توضيحية، فوصلت إلى مقر الرابطة بسهولة.. المبعوثون نحو عشرين طالبا وثلاث طالبات محجبات، صافحتهم وتعرفت إليهم.. ولما بدأ الاجتماع رحت أتأملهم، كانوا جميعا شبانا متفوقين مجتهدين مثل مئات غيرهم من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات المصرية، لا أظن أحدا منهم يهتم فى الدنيا إلا

بدروسه ومستقبله العلمي وزيادة دخله. معظمهم متدينون، على وجوههم علامات الصلاة وبعضهم مُلْتَح.. إنهم فى الغالب يفهمون الدين على أنه صلاة وصوم وحجاب. لاحظت جهاز تسجيل بجوار دنانه، فسألته:

ـ هل تسجل ما نقوله؟

ـ طبعا..عندك اعتراض؟..

هكذا قال بخشونة وحدجني بنظرة مستفزة.. استغربت من تبدله المفاجئ معي.. لذت بالصمت ورحت أتابع حديثه مع المبعوثين.. استوقفتني السطوة الكاملة التى يمارسها عليهم.. كانوا يتحدثون إليه برهبة وتملق وكأنه رئيسهم فى العمل أو قائدهم العسكرى وليس مجرد زميل.. وبعد حوالى نصف ساعة من المناقشات الصغيرة والتفاصيل المملة.. هتف دنانه بحماس:

ـ على فكرة.. لدىَّ خبر سيفرحكم: علمت، من مصادر مؤكدة، أن سيادة الرئيس سيزور الولايات المتحدة قريبا وسوف يمر بشيكاجو.

سرت بينهم همهمات، فاستطرد بصوت أعلى:

ـ أنتم محظوظون.. يوما ما سيكون بمقدوركم أن تقولوا لأولادكم إنكم قابلتم الزعيم العظيم وجها لوجه!

ثم جذب نفسا من السيجارة وقال:

ـ أستأذنكم فى أن أبعث باسمكم برقية لسيادة الرئيس نجدد فيها البيعة ونعبّر فيها عن سعادتنا بزيارته الكريمة.

ـ لا أوافق!

هكذا قلت بسرعة، فانقطع الهمس حولي وساد صمت ثقيل. التفتَ إليَّ دنانه ببطء وقال بنبرة منذرة:

ـ علام تعترض بالضبط؟

ـ أعترض على إرسال برقية مبايعة للرئيس.. هذا النفاق لا يليق بنا كمبعوثين.

ـ لسنا منافقين.. نحن فعلا نحب رئيسنا.. هل تنكر زعامته التاريخية؟.. هل تنكر أن مصر شهدت في عهده إنجازات جبارة غير مسبوقة؟

ـ هل تسمى الفساد والفقر والبطالة والتبعية.. إنجازات؟

ـ أما زلت شيوعيًا يا ناجي؟!.. ظننتك كبرت وعقلت.. اسمع..

هنا في الرابطة لا مكان للشيوعية بيننا.. كلنا والحمد لله مسلمون ملتزمون.

ـ لستُ شيوعيًا، وهى ليست تهمة إن كنت تفهم معناها!

ـ سيادة الرئيس الذى لا يعجبك تسلم البلد وهى مثقلة بالمشاكل المزمنة، واستطاع بحكمته وزعامته أن يصل بها إلى بر الأمان.

ـ هذه أكاذيب الحزب الحاكم.. الواقع أن أكثر من نصف المصريين يعيشون تحت خط الفقر.. في القاهرة وحدها نحو أربعة ملايين شخص يعيشون في العشوائيات!

قاطعني بصوت عال:

ـ حتى لو كنت ترى سلبيات فى حكم سيادة الرئيس، فإن واجبك الدينى يفرض عليك طاعته!

ـ من قال ذلك؟

ـ الإسـلام.. إن كنت مـسلمـا.. لقد أجـمع فـقـهـاء السنة على وجـوب طاعة المسلمين للحـاكم حـتى لو ظلمهم، مـا دام ينطق بالشهـادتين ويؤدى الصلاة فى أوقاتهـا.. لأن الفتنة المتـرتبة على مقاومة الحاكم أضر على الأمة بكثير من تحمل الظلم!

ـ هذا كـلام ليس من الإسـلام فى شىء.. وإنما من صنع فـقهـاء السلاطين الذين استعملوا الدين لتدعيم الأنظمة المستبدة.

ـ إذا أنكرت هذا الكلام تـكون قـد خالفـت إجمـاع جـمـهـور الفقـهاء وأنكرت ما هو معلوم مـن الدين بالضرورة.. هل تعلم عقوبة ذلك؟

ـ أقول له يا دكتور؟

هكذا هتف شـابٌّ مُلْتَحٍ ساخـرا.. فتـطلع إليه دنانه ضـاحكا بما يشبه الامتنان وقال:

ـ لا داعى لذلك.. المناقشات مع الشيـوعيين لا تنتهى أبدا.. إنهم خبـراء فى الجـدل العقـيم.. ليس لدينا وقت نضيـعه.. سـأطرح الأمر للـتصويت.. يا جـماعـة، هل توافقـون على إرسال برقـية مبايعة لسيادة الرئيس؟.. من يوافق يرفع يده من فضلكم.

رفعوا جميعا أيديهم فى الحال، فأطلق دنانه ضحكة ساخرة وقال وهو يرمقنى باستخفاف:

ـ ما رأيك الآن؟

لم أرد. سكتُّ تماما حتى انتهى الاجـتماع، ولاحظت أن الزملاء تجاهلونى تمامـا.. خرجت مـسرعا وقلت «السـلام عليكم»، فلم يرد أحد علىّ. كـان المترو مزدحمـا فـاضطـررت إلـى الوقوف، وفكـرت أن دنانه دعـانى للاجـتمـاع حـتى يشـوه صورتى أمـام المبعـوثين فلا أتمكن بعد ذلـك مـن إقناعـهـم باتخـاذ أى موقف

وطني. أنا الآن في نظرهم شيوعي ملحد، ..طريقة مباحثية مبتذلة وقديمة، لكنها ما زالت صالحة لتشويه أي شخص! ..

انتبهت على يد تربت كتفي، التفتُّ فوجدت الشاب الملتحي الذي سخر مني في الاجتماع واقفا بجواري، ابتسم وقال:

ـ أنت في طب إلينوي.. أليس كذلك؟

ـ نعـــم.

ـ أخوك مأمون عرفة.. أعد للدكتوراه في الهندسة المدنية من جامعة نورث ويسترن.. هل تعيش في سكن الطلبة؟

ـ نعـــم.

ـ عشت فترة في السكن ثم انتقلت إلى شقة أرخص مع زميل لبناني.

لذت بالصمت من جديد.. شيء ما كان يدفعني إلى تجنب الحديث معه.. قال فجأة:

ـ باين عليك سياسي خطير.. تهاجم رئيس الجمهورية مرة واحدة! .. ألا تعلم أن اجتماعات الرابطة كلها مسجلة؟!

تجاهلته تماما، أدرت رأسي ورحت أتطلع من النافذة القريبة.. مرت عدة محطات وكان لابد أن أنزل، فبدأت أشق طريقي في الزحام.. فجأة أمسك بذراعي وهمس في أذني:

ـ اسمع.. إياك تخسر أحمد دنانه، كل شيء هنا في يده.. لو غضب عليك ممكن يضيعك!

جذبت ذراعي من يده بعنف، فقال:

ـ أنا حذرتك، وأنت حر.

* * *

ما إن رأيت الدكتـور صلاح فى الصباح حـتى بادرنى قائلا وهو يبتسم:

ـ يا ناجى مشاكلك لا تنتهى!

ـ لمـــاذا؟

ـ أخبرنى دنانه أنك تشاجرت معه.

ـ كذاب.. كل مـا حدث أنه أراد أن يرسل برقـية نفـاق للرئيس فاعترضت عليها.

تطلع إلىَّ بنظرة متفحصة وقال:

ـ أنا طبعـا معجب بحماسك، لـكن هل هذه قضية تتـشاجر من أجلها؟

ـ هل تريدنى أن أوقّع على وثيقة مبـايعة مثل المنافقين فى الحزب الوطنى؟!

ـ لا طبعـا.. لكن لا تبدد طاقتك فى هذا الكلام.. أمامـك فرصة عظيمة للتعلم فلا تضيعها.

ـ لا قيمة للعلم إن لم أتخذ موقفا مما يحدث فى بلادى!

ـ تعلم واحصل على شهادتك، ثم اخدم بلادك كما تشاء.

ـ زملاؤنا فى جامـعة القاهرة الذين كانوا يرفضـون الاشتراك فى المسـيرات الوطنيـة كانوا يسـتعـملون نفس المنطق.. هذه حلول نضحك بها علـى أنفسنا.. أن نستبدل الواجب الوطـنى بالتفوق المهنى.. لا يا سـيـدى.. مـصـر تحـتـاج الآن إلى العـمل الوطنى المباشر أكثر بكثير من احتياجها إلى مدرسين ومحاسبين.. إذا لم نطالب بحـقوق الناس فى العدل والحـرية، فلا خـير فى أى علم نتعلمه.

كنت أتحدث بحماس، ويبدو أنني تسرعت.. لأن الدكتور صلاح بدا عليه الغضب فجأة وصاح فى وجهى:

ـ اسمع.. أنت هنا من أجل العلم فقط.. إذا كنت تريد أن تعلن الثورة.. ارجع إلى مصر.

فوجئت بغضبه فظللت صامتا.. أخذ نفسا عميقا ثم قال بنبرة معتذرة:

ـ أرجو أن تفهمنى يا ناجي.. كل غرضى مساعدتك.. أنت فى واحدة من أكبر الجامعات فى أمريكا، وهذه فرصة لن تعوض.. لقد تم قبولك فى القسم بمعركة.

ـ معركة؟

ـ كانوا مترددين فى الموافقة على أوراقك لأنك لست مُدَرِّسًا فى الجامعة.. وكنت من المتحمسين لقبولك.

ـ أشكرك.

ـ أرجو ألا تخذلنى.

ـ حاضر.

ـ وعد؟

ـ وعد.

تنهد الدكتور صلاح وكأنه استراح، ثم قال بنبرة جادة وهو يناولنى ورقة:

ـ هذه مقترحاتى للمواد التى ستدرسها.

ـ وماذا عن البحث.؟

ـ هل تحب الرياضيات؟

ـ كنت أحصل فيها على الدرجة النهائية.

ـ عظيم. ما رأيك لو تعد بحثك عن طريقة تكوين الكالسيوم في العظام؟.. ستعمل على الكالسيـوم المشع.. وسيكون جزءا كبيرا من بحثك معتمدا على الإحصاء.

ـ تحت إشرافك؟

ـ ليس هذا تخصصي.. اثنان فقط يعملان في هذا المجال: جورج مايكل وجون جراهام.

ـ حضرتك ترشح لي الأنسب.

ـ لن تنسجم مع مايكل.

ـ أرجـو ألا تأخـذ عني فكرة سيئـة. أستطيع أن أتعـامل مع أي أستاذ.

ـ المشكلة ليست فيك.. جـورج مـايكل لا يحب أن يعـمل مع العرب!

ـ لمـــاذا؟

ـ هكذا طبيعته.. عموما الأمر لا يعنينا.. اذهب إلى جراهام.

ـ متـــى؟

تطلع إلى الساعة المعلقة على الحائط وقال:

ـ يمكن أن تقابله الآن.

نهضت لأنصرف، فابتسم وقال:

ـ ستجده غريب الأطوار بعض الشيء.. لكنه أستاذ عظيم.

في نهـاية الردهة طرقت باب مكـتب جراهام، فـجـاءني صـوته الأجش:

- ادخـــــل.

استقـبلتني غيمة كـبيرة من دخان الغليـون المعطر.. تلفتُّ حولي لأرى إن كانت هناك نافذة، فقال:

- أيضايقك الدخان؟

- أنا نفسي أدخن.

- هذا أول توافق بيننا.

أطلق ضحكة مـجلجلة وهو ينفث دخانا كثـيفا. كان مضطـجعا على المقـعـد وقد مـد قـدميه أمـامـه على المكتب على الطريقـة الأمـريكيـة. لاحظـت أن عـينيــه تعكـســان دومـا تعـبـيـرا سـاخرا وكـأنه يشاهد شيئـا مسليا، لكنه ما إن يبـدأ في الحديث حتى يكتسب وجهه طابعا جادا.

- كيف أستطيع أن أساعدك؟

- أتمنى أن تشرف على رسالتي للماجستير.

هكذا قلت مبتسما بأدب محاولا أن أعطي له انطباعا جيدا.

- لديَّ سؤال.

- تفضـــــل.

- لماذا تتعب نفسك في الحصول على الماجستير في الهيستولوجي إذا كنت لا تعمل في الجامعة؟

- أرجو ألا تستغرب إجابتي.. أنا في الحقيقة شاعر!

- شـــاعر.؟!

- نعم.. أصـدرت ديوانين في الـقـاهـرة.. الشـعـر أهم شيء في حياتي، ولكن لا بد أن يكون لي مهنة أعـيش منها.. لقد رفضوا تعييني في جامعة القاهرة بسبب نشاطي السياسي.. رفعت قضية

ضد الجامعة، لكنى لا أعتقد أنها ستؤدى إلى شيء.. حتى لو كسبت القضية تستطيع الإدارة أن تضغط عليّ حتى أترك الجامعة، كما حدث مع زملاء آخرين .. أريد أن أحصل على الماجستير من إلينوى حتى أعمل بضعة أعوام فى دول الخليج وأجمع مبلغا من المال، ثم أعود إلى مصر وأتفرغ للأدب.

نظر إليّ جراهام ثم نفث سحابة جديدة من الدخان وقال:

ـ إذن.. أنت تدرس الهيستولوجى من أجل الأدب؟

ـ بالضبط.

ـ هذا غريب، لكنه يثير اهتمامى.. اسمع.. أنا لا أقبل الإشراف على أى طالب إلا بعد أن أعرف، إلى حد ما، طريقة تفكيره.. شخصية الطالب عندى أهم من معلوماته.. ماذا تفعل مساء السبت؟

ـ لا شيء محدد.

ـ ما رأيك لو تتناول العشاء معى..؟

ـ بكل سرور.

١٠

على مدى ساعة كاملة، أخذ رأفت ثابت يتقلب فى فراشه مطاردا النعاس بلا جدوى. كانت الحجرة مظلمة، والصمت عميقًا لا يقطعه سوى تردد أنفاس زوجته ميتشيل النائمة بجواره. جذب جسده لأعلى وأراح ظهره إلى مسند السرير، فتراءت أمام عينيه أحداث النهار: هذا يوم متفرد فى حياته، لن ينساه أبدا.. جاء جيف فى الصباح وأخذ منه ابنته الوحيدة. هكذا هجرته سارة لتعيش مع عشيقها.. بدا الحبيبان فى منتهى السعادة وهما ينقلان الحقائب إلى السيارة، كانا يضحكان ويتبادلان الدعابات، وانتهز جيف الفرصة وخطف منها قبلة. ظل رأفت يراقبهما من نافذة مكتبه، ثم قرر فجأة أن يتجاهل ابنته تماما، فلتذهب إلى الجحيم، من الآن فصاعدا لن يهتم بها، إذا لم تكن تحبه بالقدر الكافى فسيتوقف هو أيضا عن حبها. سوف يعيش ما تبقى من حياته وكأنه لم ينجب. ابتعد عن النافذة واستلقى على الأريكة، وتناهت إلى سمعه من جديد ضحكاتهما فى الحديقة.. كانت ميتشيل زوجته تشاركهما المرح وكأنها تحتفل بهما، أحس حينئذ بكراهية عميقة نحوهم جميعا.. وبعد لحظات انتبه على طرقة خفيفة، ثم انفتح الباب وظهرت سارة، بدت هادئة ومنتعشة وبشرتها رائقة وقد لمت

شعرها للخلف . . رمقته بنظرة بريئة ، وقالت بصوت عادى كأنها ذاهبة إلى رحلة مدرسية :

- جئت لأودعك .

- إلى أين؟

- أظنك تعرف .

- أوه . . ظننتك قد تفكرين مرة أخرى .

- لقد قررت وانتهى الأمر .

اقترب منها واحتضنها بقوة وقبَّل جبينها ووجنتيها أكثر من مرة ، انبعثت من جسدها تلك الرائحة النقية التى كانت تملأ أنفه عندما يحملها بين ذراعيه وهى طفلة . . نظر إليها مليّا وهمس :

- انتبهى لنفسك جيدا . . إذا احتجت إلى أى شىء اتصلى بى .

بعد أن رحلت سارة ، قضى مع زوجته ميتشيل يوم أحد عاديا ، ذهبا إلى السينما ثم تناولا العشاء فى مطعم إيطالى على البحيرة ، يدهشه الآن أنهما لم يتحدثا فى موضوع سارة طوال النهار ، وكأنهما اتفقا على تجاهله ! . . ويدهشه أيضا أنه ، بمجرد عودتهما إلى البيت ، تملكته رغبة عارمة نحوها ، مارس معها الجنس كما لم يفعل من سنوات ، انهال عليها ، انهمر إحساسه حارا عنيفا كأنما يدفن أحزانه داخلها أو يحتمى بها أو يطعنها لينتقم من رحيل سارة . . بعد ما فرغا من الحب ، استسلمت هى لنوم هادئ على حين ظل هو غارقا فى خواطره . . فجأة ، أضىء المصباح الجانبى وطالعه وجهها يحمل آثار النعاس :

ـ رأفت . . لماذا لم تنم؟

ـ عندى أرق بسبب القهوة التى شربتها بعد العشاء .

ابتسمت بعطف ووضعت يدها على رأسه :

ـ لا يا رأفت . . ليس بسبب القهوة . . أقدّر شعورك تماما . أنا أيضا حزينة لرحيل سارة ، لكن ماذا بمقدورنا أن نفعل؟ . . هكذا هى الحياة . . لا بد أن نتقبلها .

ظل صامتا فاستطردت :

ـ ستوحشنى سارة كثيرا . . لكنى أعزى نفسى بأنها تعيش فى شيكاجو وليس فى مدينة بعيدة . . إنها ، بمعنًى ما ، تعيش بجوارنا . سوف نتبادل الزيارات وندعوها ، بين الحين والحين لتقضى معنا نهاية الأسبوع .

«هذا الأسف ليس صادقا ، إنها سعيدة بما حدث» . . هكذا فكر رأفت . هى التى شجعت سارة على الرحيل وتتظاهر الآن بالحزن! اقتربت ميتشيل منه وطبعت قبلة على خده وأحاطته بذراعها . . كان يحس بأنه فارغ تماما ومنهك وليس لديه ما يقوله . . سألها فجأة :

ـ هل تعرفين أين ستقيم سارة مع جيف؟

ـ فى بيته .

ـ طبعا فى بيته . . هل تعرفين أين يقع هذا البيت ؟ . . فى أوكلاند . . أفقر وأقذر حى فى شيكاجو!

ـ لقد شرح لى جيف السبب . . ليس بمقدوره الآن أن يدفع أجر السكن فى حى أفضل . . لكنه عندما يبيع لوحته الجديدة سيكون حاله أفضل .

ـ هل أقنعك أنت أيضا بهذه الأوهام ؟! . . هل تعتقدين أن هناك من سيدفَع دولارا واحدا ليشترى هذا الهراء الذى يلطخ به اللوحات؟

ـ رأفت . . لا أفهم لماذا تكرهه إلى هذا الحد؟

ـ بل أنا الذى لا أفهم هذا التبلد الذى أصابك . . هذا الوغد أخذ ابنتك الوحيدة إلى أقذر أحياء شيكاجو وما زلت تدافعين عنه!

ـ أنا لا أدافع .

ـ أنت لا تدافعين فقط . . بل أنت السبب فى الواقع!

ـ ماذا تقول؟

ـ أنت التى شجعتِها على الرحيل .

ـ رأفت!

ـ كفاك تمثيلا سخيفا .

ـ اسمع . .

ـ بل يجب أن تسمعى أنت . . لقد سئمت الدور الذى تلعبينه . . أنت لم تحبينى قط . . لقد ندمت على زواجك منى . . كنت دائما تعتقدين أنك تستحقين زوجاً أفضل . . فى كل يوم

كنت تجعلينني أشعر بأننى أقل منك فى كل شىء . . فعلت كل شىء لتثبتى لى أنى مجرد مصرى متخلف، على حين خُلقْتِ أنت من عنصر أرقى!

ـ توقف عن هذا . .

ـ لن أتوقف . . نحتاج الآن إلى مواجهة الحقيقة . . أنت كرهتنى وأردت أن تنتقمى منى فى سارة . . لقد جعلتنى أفقدها .

تطلعت إليه ميتشيل بفزع . كان واقفا فى وسط الحجرة وبدا وكأنه فقد صوابه . ضرب السرير بقدمه وأخذ يصيح :

ـ تكلمى . . لماذا لا تنطقين؟ . . ألم تخططى لهذا اليوم ؟ . . أهنئك يا ميتشيل فقد نجحت . . أضعت منى ابنتى الوحيدة .

اتجه إلى الدولاب وفتحه بعنف، ثم خلع البيچاما وألقاها على الأرض وشرع يرتدى ثياب الخروج . . قفزت ميتشيل وحاولت أن تمسك به فدفعها بعيدا . . لكنها حاولت من جديد . . وقفت لتسد بجسدها باب الحجرة، فصاح فيها بصوت عال :

ـ ابعدى . .

ـ إلى أين تذهب؟

ـ ليس هذا من شأنك .

حاولت أن تتكلم، لكنه جذبها من يدها بقوة ليبعدها، فاختل توازنها وسقطت على حافة الفراش . . خرج وصفق الباب بقوة، وبعد قليل سمعت صوت سيارته وهى تبتعد .

١١

كم تغيرت شيماء!

نفذت بدقة كل الوصفات من برنامج »ست الحسن« الذى يذاع كل أربعاء على الفضائية المصرية. . تخلصت من بثور الوجه باستعمال صنفرة الملح وزيت الزيتون. اكتسبت بشرتها نعومة ونضارة بفضل قناع الزبادى بالخيار، صارت تزجج حاجبيْها بعناية، وتتحمل بجَلَد وطأة الكحل البلدى الذى يحرق عينيها ويسيل دموعها بغزارة قبل أن يستقر على الجفون فيمنحها رونقا أخاذا. . حتى ثيابها الشرعية، رصعت أكمامها بالترتر وخرج النجف، وقامت بتضييقها قليلا بالقدر الذى يبرز استدارات جسدها (على الأخص صدرها العامر الذى تعرف قيمته حتى لتبدو أحيانا وكأنها تحمله أمامها بإعزاز). . لم تعد تمشى على خط مستقيم كالعسكرى، باتت تتأود وتتثنى بطريقة رقيقة، تقع بالضبط فى منتصف المسافة بين الدلال والاحتشام. . حتى نظارتها الطبية عنوان الجد والاجتهاد، تتركها الآن تنسدل شيئا فشيئا على أنفها ثم ترفعها بأصبعها فجأة، فيضفى ذلك حولها حالة مرح وشقاوة. . كل هذا من أجل طارق. . طارق. . تنطق اسمه بحنان وكأنها تقبّله. . سبحان الله!. . انتظرت نصيبها فى

طنطا حتى أصابها اليأس، ثم جاءت لتعثر عليه هنا، على الجانب الآخر من العالم! . . ربنا سبحانه وتعالى دفع بالبعثة فى طريقها وجعلها تصر عليها من أجل خيرها . . هل حلمت بعريس أفضل من طارق حسيب؟! . . أستاذ في الطب مثلها، لن يغار من تفوقها، ولن يطلب منها أن تترك الجامعة وتقعد فى البيت كما فعل الآخرون، سنه مناسبة وشكله مقبول (بالرغم من نحافته الزائدة وأنفه الطويل وعينيه المحملقتين) . . طول عمرها لا تحب الوسامة الزائدة، الرجل الحلو مثل السكر الزائد :يع النفس، لا يمكن لرجل أن يستهويها إلا إذا كان خشنا . . شائكا!

إنها تحب طارقًا، ترعاه وتحنو عليه وكأنها أمه، تحفظ جدول محاضراته وتعيش معه لحظة بلحظة، تنظر إلى ساعتها وتبتسم، وتفكر أنه انتهى الآن من المحاضرة وتتخيله وهو يمشى متوجها إلى المعمل، تطلبه على المحمول عدة مرات فى اليوم، ويستبد بها الشوق فترسل إليه رسائل تطمئن عليه. تطهو له الطعام يوم الأحد، وتحفظ عن ظهر قلب كل ما يحبه: الأرز المفلفل والبامية وصينية البطاطس والمكرونة بالبشاميل، والحلو . . أم على ومهلبية وأرز بلبن . . الحمد لله أنها تعلمت الطبخ من أمها فانتزعت إعجابه، قال لها غير مرة وهو يلتهم الأكل بتلذذ:

- تسلم يدك يا شيماء .

كم تسعدها هذه العبارة فتنسى عن طيب خاطر الساعات التى قضتها واقفة فى المطبخ، تشكره ويتضرج وجهها خجلا، تتطلع إليه مليا وكأنها تقول:

- هذا قليل من كثير سأفعله من أجلك عندما نتزوج .

بالليل عندما تأوى إلى فراشها يجمح بها الخيال، فترى نفسها جالسة فى الكوشة بالفستان الأبيض. كيف سيكون الفرح؟.. حفلة كبيرة يحييها فنانون مشهورون ويحضرها عشرات المدعوين؟.. أم عشاء هادئ يقتصر على الأقارب؟.. أين يقضيان شهر العسل؟.. شرم الشيخ أم مرسى مطروح؟.. يقولون إن تركيا جميلة وأسعارها رخيصة.. هل يعيشان بعد الزواج فى القاهرة أم طنطا؟.. كم طفلا سينجبان؟.. وهل يسمح لها بأن تسمى عائشة ومحمدى على اسمى والديها؟

على الرغم من فرحتها بطارق فإنها تستغرب تصرفاته: إنه يهتم بها ويلح على رؤيتها ويعاملها برقة، وفجأة، بلا سبب أو تمهيد، ينقلب إلى شخص فظ كأنما تَلَبَّسَهُ شيطان، يصيح فى وجهها ويعنفها على أهون سبب.. عندئذ تسكت، لا ترد عليه أبدا عملا بنصيحة أمها: «المرأة العاقلة لا تقارع الرجل كالند للند، بل تحتويه بحنانها وتكون له سكنا كما جاء فى القرآن الكريم.. ليس هذا انتقاصا من كرامتها.. إذا ردت الإهانة بمثلها ستتحول المشادة إلى معركة عنيفة.. لكنها إذا سكتت سيؤرقه ضميره ويعود إليها معتذرا».. على أن نوبات غضبه لم تكن أكثر ما يقلقها، كانت تحس على نحو ما بأنه لا يثور عليها وإنما على مشاعره نحوها، كأنما يقاوم حبه لها بالتشاجر معها.. كانت تحس أيضا ببعض الراحة لأن المشاجرات في النهاية ليست إلا بروفة للزواج، يدل حدوثها على إمكانية حدوثه.. ما يؤرقها فعلا أمر آخر، فقد مرت على علاقتهما فترة طويلة وأصبحا مرتبطين فى كل شىء، لكنه حتى الآن لم ينطق بكلمة واحدة عن الحب أو الزواج.. وبالرغم من خبرتها المنعدمة فى الغرام (باستثناء حبها

الصامت من طرف واحد لابن الجيران وهى فى أولى ثانوى) إلا أنها متأكدة أن موقف طارق غير طبيعى . . إذا كان يحبها فلماذا لا يصارحها؟ . . إنه جاد ومتفوق ومتدين ، ولا يمكن أن يكون غرضه العبث معها . . وهو أيضا محترم ، لم يلمس جسدها قَط ، باستثناء مرتين (بل ثلاث مرات) التصقا ببعض ـ عفويا ـ فى زحام المترو . . لماذا لا يتكلم إذن؟ . . هل يخشى المسئولية؟ . . أم أنه خام وخيبة لا يعرف كيف يتعامل مع النساء؟! . . هل يريد أن يختبرها قبل أن يرتبط بها؟ . . أتكون لديه خطيبة فى مصر وقد خلع الدبلة وأخفى الأمر عنها؟ . . الأسوأ من كل ذلك : أيكون غير مقتنع بها؟ . . ألا يراها أهلا لتكون أم أولاده؟ . . إنه ، مثلها ، ينتمى إلى أسرة محافظة متدينة ، فهل يعتبر اختلاطها به دليلا على الانحلال؟ . . تبقى فعلا مصيبة! لابد أن يفهم أنها تخرج معه بسبب ظروف الغربة الاستثنائية ، ولو أنه قابلها فى مصر لم يكن ليحظى منها بأكثر من الحديث العابر كأى زميل آخر . . لماذا لا يتكلم؟ . . لقد ألمحت إليه وشجعته أكثر من مرة ، لكنه تجاهل الإشارة . . يا الله! . . كل ما تتمناه جملة واحدة : «أحبك يا شيماء وأريد أن أتزوجك» . . أهى ثقيلة على لسانه إلى هذا الحد؟! . . استبدت بها الهواجس منذ الأمس ، فاستيقظت هذا الصباح وقد عقدت العزم . . كان عليها أن تمر على الكلية لتطمئن على عينات البحث ثم تلحق بطارق فى حديقة لنكولن بارك حيث تعوَّدا أن يتغديا معا كل يوم سبت . . «لن أقبل المماطلة أكثر من ذلك . . اليوم أقطع الشك باليقين» . . هكذا قالت لنفسها وهى تحمل حقيبتها المصنوعة من الخوص ، رفعت ذقنها وزمت شفتيها ثم نزلت بسرعة إلى محطة المترو الذى نقلها فى دقائق قليلة إلى

الحديقة . . كان طارق هناك ، جالسا كعادته على مقعدهما الرخامى المفضل بجوار النافورة . . استقبلها بحفاوة فردت بتحفظ ، جلست بجواره ومدت بينهما مفرشا أزرق ، ثم وضعت السندوتشات والحلو بعناية فى الأطباق الكرتونية ، بجوار ترموس الشاى بالنعناع . . التهم طارق سندوتشين كبيرين محشوين على آخرهما ، الأول لنشون فراخ مرصع بالزيتون المخلل ، والآخر بيض أومليت بالبسطرمة . . ثم رشف بتلذذ من كوب الشاى بالنعناع وقال وهو يتطلع باهتمام نحو طبق المهلبية المحلى بالزبيب وجوز الهند :

- تسلم يدك يا شيماء . . الأكل لذيذ كالعادة .

شرعت فورا فى تنفيذ خطتها ، فقالت :

- هل قرأت تفسير الشيخ الشعراوى . . ؟

- كنت أتابعه فى التليفزيون بمصر .

- لا بد أن تقرأه مكتوبا . . لقد أحضرته معى وأقرأ فيه كل ليلة .

- كان الشيخ الشعراوى عالما عظيما .

- ألف رحمة ونور عليه . . لقد منحه الله القدرة على شرح عظمة الإسلام .

- ونعم بالله .

- الإسلام لم يترك صغيرة ولا كبيرة من شئون الحياة .

- طبعا .

- تصدق أن الإسلام تحدث عن الحب؟

التفت طارق نحو النافورة وأخذ يتأمل شلال الماء المندفع من فتحاتها . . فاستطردت :

ـ الإسلام يشجع على الحب ما دام لا يؤدى إلى معصية .

تنهد طارق وبدا قلقا بعض الشيء لكنها لاحقته :

ـ لقد أفتى الشيخ الشعراوى بأن الشاب والفتاة عندما يشعران بالحب لا يكون هذا حراما ما داما ينويان الزواج .

ـ مفهوم طبعا .

ـ ما رأيك أنت؟

ـ على فكرة يا شيماء . . اكتشفت محل بيتسا رخيصا جدا فى رش ستريت .

رمقته بنظرة غاضبة وقالت :

ـ لماذا تغير الموضوع؟

ـ أى موضوع؟

ـ موضوع الشعراوى .

ـ ما له الشعراوى؟

ـ يؤكد أن الحب ليس حراما ما دام يؤدى إلى الزواج !

ـ أنت تكررين نفس الكلام . . لا أفهم ما علاقتنا بهذا الموضوع؟

هكذا قال بحدة ، فساد صمت ثقيل لم يقطعه سوى خرير المياه

المتدفقة من النافورة وصياح الصبية الذين يلعبون قريبا منهما . . نهضت فجأة وقالت وهى تلملم أشياءها فى الحقيبة :

- سأعود إلى السكن .

- لمــاذا؟

- تذكرت أن لدىّ امتحانا غدا .

- ابقى قليلا . . الوقت مبكر والجو جميل .

نظرت إليه بحنق ، ثم ثبتت نظارتها بأصبعها وقالت بانفعال :

- استمتع بالجو وحدك .

- لحظة واحدة . . شيماء!

هكذا هتف طارق ليستبقيها ، لكنها انطلقت بسرعة . . فنهض وكاد يهرع وراءها . . لكنه لم يلبث أن عاد إلى جلسته وأخذ يتابعها بنظره حتى اختفت فى الزحام .

١٢

بالرغم من الهيبة التى يفرضها أحمد دنانه حوله، فإن النظرة المدققة إليه تكشف طابعا أنثويا لا لبس فيه! . . ولا يعنى هذا أنه مخنث ـ لا سمح الله ـ فقد ولد ذكرا مكتملا . . لكن جسده البدين اللين الذى يخلو من أية عضلة بارزة، وطريقته فى رفع حاجبيه إذا اندهش، وزم شفتيه ووضع يديه فى وسطه إذا غضب، كذلك شغفه بالتفاصيل والأسرار وولعه بالثرثرة والنميمة وإلقاؤه بعبارات تحمل أكثر من معنى، وحرصه على تقبيل من يلقاهم على خدودهم، واستعماله لألقاب المحبة النسائية مثل «يا روحى» و«يا حبيب قلبى» . . كل هذه العلامات تجعله أشبه بامرأة متنمرة منه برجل صارم! . . ولقد تسللت إليه هذه الأنوثة من فرط تأثره بوالدته الحاجة بدرية رحمة الله عليها . . فقد كانت برغم كونها أمية لا تقرأ، قوية الشكيمة صعبة المراس، حكمت ـ بيد من حديد ـ بيتا كبيرا يضم أربعة أولاد وابنتين وأباهم، وكانت نظرة واحدة منها تكفى لإرباك أى فرد من الأسرة، وأولهم زوجها الذى تحول مع تقدمه فى السن إلى ما يشبه السكرتير الخاص أو التابع المطيع . وقد تشبع دنانه بشخصية أمه حتى صار لا شعوريا ـ على الأخص إذا توتر ـ يستدعى طريقتها فى التعبير، فتظهر عليه نبرتها ونظراتها وإيماءاتها جميعا . . وهكذا، بعد أن تشاجر مع مروة وصفعها،

بدأ فورا سلسلة من التصرفات الكيدية النسوية: قاطعها تماما، وصار كلما رآها يقلب شفتيه ويرمقها باحتقار، أو يتنهد ويخبط كفا بكف ويستغفر الله بصوت مسموع، أو بعد أن يتوضأ، في طريقه لسجادة الصلاة، يمر بجوارها وهى تتفرج على التليفزيون ويقذفها بعبارة ملغومة؛ كأن يقول مثلا: «حسبى الله ونعم الوكيل.. اللهم صبرنى على البلاء». أو يقول: «الفاتحة على روحك يا أمي.. كنت نموذجا للزوجة الصالحة»!

كانت هذه طريقته في عقاب زوجته. وقد يسأل سائل: لماذا يعاقبها أساسا؟!.. أليس الأجدر به أن يعتذر لأنه صفعها؟!.. الإجابة أن دنانه ينتمى إلى ذلك النوع من الناس الذى لا يلوم نفسه أبدا، فهو يعتبر نفسه دائما على حق، أما الأخطاء كلها فتصدر عن الآخرين!.. وهو يؤمن بأن عيبه الوحيد طيبة قلبه الزائدة التى يستغلها الخبثاء - وما أكثرهم - لتحقيق مصالحهم على حسابه.. كان مقتنعا تماما بأن مروة أخطأت فى حقه.. هى التى تطاولت عليه فاضطرته إلى ضربها.. ثم ما الضرر فى أن يوجه لها، من حين لآخر، صفعة واحدة متوسطة القوة تعيدها إلى الصواب؟.. ألم يسمح الشرع الحنيف للرجل بضرب زوجته بغرض التأديب؟.. وما العيب فى أن يقترض مالا من أبيها؟.. أليس من واجب الزوجة مساندة زوجها؟.. ألم تساعد السيدة خديجة - رضى الله عنها - زوجها بالمال وهو أشرف الخلق أجمعين صلى الله عليه وسلم؟.. لقد ارتكبت زوجته فى حقه خطأ جسيما لا بد أن تعتذر عنه، ولو تهاون معها هذه المرة ستتمادى فى غيها حتى يفقد السيطرة عليها.. أما شكواها من لقائهما الجنسى

فهو يعتبر ذلك، باطمئنان كامل، نوعا من دلال المرأة لا أكثر ولا أقل! . . إن اللذة والألم عند المرأة مرتبطان ومختلطان لدرجة أنها فى أوج لذتها تصرخ كأن أحدا يضربها بعنف . . وبالتالى فكل ما تشكو منه المرأة فى الجنس غالبا ما يكون، فى الحقيقة، من أسباب سعادتها ولقد سمع دنانه مرة من أحد أصدقائه رأيا اقتنع به، مفاده أن الرغبة الدفينة لدى كل امرأة تتلخص فى أن يتم اغتصابها بعنف . . هذا فعلا ما تريده المرأة وإن تظاهرت بالعكس . . فيالها من كائن غامض متناقض مستعصى على الفهم، تتظاهر بعكس مشاعرها، تقول لا وهى تقصد نعماً . . . ألم يقل الشاعر القديم : «يتمنعن وهن الراغبات»؟! حقا . . إن النساء ناقصات عقل ودين، والرجل الجدير بهذا الاسم يجب أن يُخضع المرأة فى الحياة كما يخضعها فى الفراش، يجب أن يسيطر عليها ويقودها، وفى نفس الوقت لا يمنحها ثقته الكاملة أبدا . . ولقد تواترت عن السلف الصالح مأثورات عديدة فى هذا المعنى :

«استشيروا النساء ثم خالفوهن» . .

«علامات الأحمق ثلاث : ملاعبة السباع، وشرب السم على سبيل التجربة، وائتمان النساء على الأسرار» . .

«تجنبوا شرار النساء وكونوا من خيارهن على حذر» .

هكذا يرى دنانه المرأة . . علما بأن خبرته معها قبل الزواج لم تتعد بضع مرات، ضاجع فيها خادمات وفلاحات أجيرات مقابل مبالغ قليلة كان يتفق معهن عليها . . ثم، بعد أن يقضى وطره، يرهقهن بالفصال حتى يدفع أقل . . ولعل انحصار خبرته فى

البغايا تكون السبب وراء فهمه للجنس ليس كعلاقة إنسانية متبادلة، وإنما باعتباره فعلا أحاديا ذكوريا عنيفا تستمتع فيه المرأة بالاعتداء عليها!

شدد دنانه من حصار زوجته والتعريض بها، وهو ينتظر اللحظة التى تنهار فيها وتقدم له الاعتذار اللائق، لكن الأيام مرت وهى عازفة عنه، والحق أن الصفعة التى تلقتها، برغم بشاعتها كإهانة، قد خلصتها من آخر إحساس بالالتزام الزوجي، كما أعفتها القطيعة من التعذيب الجسدي الذى كانت تتعرض له عدة مرات فى الأسبوع، وقد منحتها هذه الهدنة فرصة للتفكير العميق فى حياتها معه، وماذا تنوى أن تفعل؟ . . كانت كراهيتها لدنانه قد وصلت لمنتهاها . . لكنها لم تخبر أمها بعدُ برغبتها فى الطلاق . . كانت تنتظر حتى ترتب أفكارها وتعرف بالضبط ما ستقوله مثل محام يؤجل نظر القضية حتى يرتب المستندات بطريقة تضمن الحكم لصالحه . . كانت واثقة من تأييد أبويها إذا اقتنعا بمعاناتها . . أبوها الذى انفجر بالبكاء كالأطفال وهو يودعها فى المطار، وأمها التى لم تكن تنام الليل إذا أصابتها نوبة برد بسيطة، لا يمكن أن يتركاها فى هذا الجحيم . . ستتصل بهما يوم الجمعة القادم فى السابعة مساء، سيكون دنانه فى اجتماع الرابطة، ويكون أبوها - بتوقيت القاهرة - عائدا لتوه من صلاة الجمعة . . ستتحدث معهما طويلا وتحكى كل شىء بالتفصيل . . حتى المسألة الخاصة ستلمح إليها . . ستضعهما أمام خيار واحد . . الانفصال والعودة إلى مصر فورا . . بعد أن عزمت على ذلك هدأت تماما، لم تعد تعبأ بتحرشاته وتنهداته وعباراته المستفزة . . لماذا تهدر طاقتها فى

شجار جديد؟ . . كلها أيام وتتخلص نهائيا من العذاب. ولكن حدث ما لم يكن فى الحسبان. . فقد حل أول الشهر ولم تعط مروة دنانه مبلغ الألف دولار الذى أرسله أبوها، نسيته فى خضم المشاكل، على حين ظل دنانه بالطبع يتذكره. . ولما انقضت بضعة أيام من الشهر الجديد تزايد قلقه وسيطرت عليه الهواجس، حتى إنه شك فى أنها افتعلت المشكلة بينهما خصيصا لتمنع عنه المبلغ الشهرى أو تبتزه بطلباتها أو. . الأخطر من كل ذلك، أن مال أبيها أصبح الآن أمراً قابلاً للتفاوض، تمنحه إذا رضيت وتمنعه إذا غضبت. . كل هذه الاعتبارات دفعته إلى تغيير طريقته، فأقلع عن تحرشاته، وأخذ كلما رآها يبادرها قائلا «السلام عليكم»، ثم يتطلع إليها بنظرة متفهمة محبة يشوبها لوم خفيف. . ثم تقدم بالأمس خطوة أخرى فجلس بجوارها أمام التليفزيون. كانت تتفرج على فيلم لعادل إمام، فبدأ يضحك بصوت عال كمقدمة للحديث معها، لكنها تجاهلته تماما وكأنه غير موجود حتى يئس ودخل لينام. . استيقظ فى الصباح فاغتسل وتوضأ وصلى ثم جلس فى الصالة يشرب الشاى ويدخن، وبعد قليل ظهرت مروة، وما إن لمحته حتى استدارت لتنصرف. . لكنه بادرها قائلا:

ـ من فضلك يا مروة. . أريدك فى موضوع مهم.

ـ خيراً إن شاء الله.

هكذا قالت بوجه جامد، فنهض واقترب منها، ثم أمسك بيدها، فجذبتها بعنف وصاحت:

- إياك أن تلمسنى .

- اسمعى يا بنت الحلال . . أنت أخطأت فى حقى وتطاولت علىَّ . . ولقد تركتك هذه الفترة حتى ترجعى إلى عقلك .

- لا أريد أن أتكلم فى هذا الموضوع .

- أنا أنصحك لوجه الله . . ما تفعلينه حرام شرعا . . أنا صحيح ضربتك . . لكنكِ أهنتِ كرامتى ، فاستخدمتُ حقى الشرعى .

- احتفظ بمواعظك الدينية لنفسك . . ماذا تريد بالضبط؟

- كل خير .

ابتسمت باستهزاء وقالت وهى تبحث فى حقيبتها :

- أنا أعرف ما تريده .

- ماذا تقصدين؟

- أنت تريد المال . . خذه . . تفضل . . ولكن إياك أن تقترب منى بعد ذلك .

كان المبلغ عدة ورقات من فئة المائة دولار مطوية معا ، التقطها دنانه بحركة رشيقة من يده ثم تنهد وقال وهو يدسها فى محفظته :

- الله يسامحك يا مروة . . لن أحاسبك على كلامك . الواضح أن أعصابك تعبت . . أنصحك بحمَّام ساخن ثم صلاة ركعتين بنية انفراج الهم . . تجدين خيرا كثيرا بإذن الله!

* * *

«فى تمام الثامنة، مساء السبت، كنت أقف أمام بيت جراهام وأنا أرتدى أفضل ثيابي وأحمل في يدى باقة زهور.. البيت صغير من طابق واحد، تحوطه حديقة ضيقة لكنها مملوءة بأحواض الورد على جانبى الممر.. فتحت لى الباب شابة سوداء رشيقة وجميلة (تشبه عارضة الأزياء الشهيرة ناعومى كمبل) كانت ترتدى ملابس بسيطة، فانلة بيضاء وبنطلون جينز أزرق، ومن خلفها وقف طفل أسود فى نحو السادسة.

ـ هاللو.. أنا كارول ماكنيللى صديقة جون..وهذا مارك ابنى.

صافحتهما وناولتها الزهور، فشكرتنى بحرارة وهى تشمها. الأثاث كله من الخشب الداكن على الطراز الإنجليزى، بسيط وأنيق. كان جون جالسا فى حجرة المعيشة، مسترخيا بجسده الضخم على الأريكة وأمامه مائدة متحركة بجَرّار اصطفت عليها زجاجات الخمر والكئوس. قدمتُ له هدية بسيطة: طبق مرصع بالصدف من خان الخليلي، رحب بى وأجلسني أمامه. اقترب منه الصبى وهمس فى أذنه، هز جون رأسه وقبَّله على وجنته فانطلق يعدو إلى الداخل.. ثم التفت إلىَّ بابتسامة وسألنى:

ـ ماذا تشرب؟!

ـ نبيذ أحمر.

ـ أليس الخمر محرما فى الإسلام؟

هكذا سألت كارول وهى تفتح الزجاجة.

ـ أنا مؤمن بالله فى قلبى.. لست متزمتا.. كما أن رجال الدين فى العراق أثناء حكم الدولة العباسية أباحوا شرب النبيذ.

عقب جراهام قائلا:

ـ كنت أعتقد أن الدولة العباسية انتهت منذ فترة طويلة!

ـ لقد انتهت فعلا، لكننى أحب النبيذ.

ضحكنا جميعا.. وقالت كارول بلطف وهى ترشف من كأسها:

ـ قال لى جون إنك شاعر.. هل يمكن أن تُسمعنا شيئا من شعرك؟..سيكون هذا رائعا.

ـ لا أعرف كيف أترجم شعرى.

ـ مع أن لغتك الإنجليزية جيدة.

ـ ترجمة الشعر موضوع مختلف.

ـ ترجمة الشعر خيانة!

هكذا هتف جراهام..ثم استطرد قائلا بجدية:

ـ أيها الشاعر. ستمنحك دراستك فى أمريكا فرصة طيبة لكى تفهم المجتمع الأمريكى.. لعلك تكتب عنه يوما.. لقد ألهمت نيويورك الشاعر الإسبانى فريدريكو جارثيا لوركا أعمالا جميلة.. ونحن ننتظر قصائدك عن شيكاجو.

ـ أتمنى ذلك.

ـ من المؤسف أنك جئت إلى أمريكا أثناء المد المحافظ الرجعى الذى يجتاحها الآن.. يوما ما، عشته وأنا شاب وشاركت فيه، كانت هناك أمريكا أخرى.. أكثر إنسانية وتحررا.

توقف لحظة ليصب لنفسه كأسا جديدة، واستطرد وقد اكتسب صوته نبرة عميقة:

ـ أنا من جيل فيتنام.. نحن الذين كشفنا خداع الحلم الأمريكى وفضحنا جرائم المؤسسة الأمريكية وحاربناها بضراوة.. على

أيدينا شهدت أمريكا فى الستينيات ثورة فكرية حقيقية، حلت قيم تقدمية بدلا من أفكار الرأسمالية التقليدية.. لكن بكل أسف، كل ذلك انتهى الآن!

ـ لماذا؟

هكذا سألت، فأجابت كارول:

ـ لأن النظام الرأسمالى استطاع أن يجدد نفسه ويستوعب العناصر المعارضة له.. الشبان الثوريون، الذين كانوا رافضين للنظام، صاروا الآن رجالا بورجوازيين مترهلين فى منتصف العمر، أقصى ما يسعون إليه صفقة ناجحة أو وظيفة بمرتب أعلى.. انتهت الأفكار الثورية وصار كل مواطن أمريكى يحلم بالبيت والحديقة والسيارة وعطلة سنوية يقضيها فى المكسيك.

ـ هل ينطبق هذا الكلام على الدكتور جراهام؟

ضحكت كارول وقالت:

ـ جون جراهام أمريكى من طراز نادر.. إنه لا يهتم بالنقود إطلاقا.. ربما يكون الأستاذ الجامعى الوحيد فى شيكاجو الذى لا يمتلك سيارة.

بعد قليل تناولنا العشاء الذى أعدته كارول. كانا فى غاية اللطف معى، حكيت لهما عن مصر، وتناقشنا فى موضوعات مختلفة.. شربت المزيد من النبيذ فشعرت بنشوة غامرة جعلتنى أسرف فى الحديث والضحك.. ثم اختفت كارول فجأة وفهمت أنها دخلت لتنام.. اعتبرت هذا إشارة لانقضاء السهرة فقمت مودعا جراهام.. لكنه أشار إلىَّ بيده أن أنتظر وقال وهو يرفع زجاجة الفودكا:

ـ ما رأيك فى كأس من أجل الطريق؟

فردت ذراعيَّ مرحبا وقلت له وقد أطلقت الخمر لساني:

ـ لا بأس بكأس من النبيذ!

ـ ألا تحب الفودكا؟!

ـ لا أشرب سوى النبيذ.

ـ عملا بنصيحة رجال الدين العباسيين؟!

ـ أنا فعلا أحب العصر العباسي وقد قرأت عنه كثيرا، ربما يكون حبي للنبيذ محاولة لاسترجاع العصر العربي العظيم الذي ضاع. بالمناسبة .. ما رأيك لو تفعل مثل هارون الرشيد؟

ـ ماذا فعل؟

ـ من مفارقات التاريخ أن هارون الرشيد، بالرغم من قدرته على قطع رأس أي شخص بإيماءة واحدة منه إلى مسرور السياف، كان في نفس الوقت إنسانا خجولا رقيقا، حريصا إلى أبعد حد على مشاعر الآخرين.. وكانت لديه عصا يضعها بجواره إذا جلس يشرب مع أصدقائه، فإذا تعب وأراد منهم أن ينصرفوا، كان يضع العصا على ساقيه فيفهمون عندئذ أن السهرة انتهت.. وبهذه الطريقة لا يحرجهم ولا يثقلون عليه.

ضحك جراهام عاليا ونهض بحماس طفولي، ثم أحضر مضرب هوكي كان معلقا على الحائط وقال:

ـ فلنستعد التاريخ إذن.. ها هي العصا قائمة.. فإذا وضعتها هكذا تفهم عندئذ أنني أريد أن أنام.

تبادلنا حديثا لا أذكر معظمه الآن وضحكنا كثيرا، انتابتني مع السُّكْر رغبة ملحة في الكلام، فحكيت له ما حدث مع الغانية الزنجية.. قهقه جراهام عاليا في البداية، لكنه في نهاية الحكاية أطرق مفكرا وقال:

ـ هذه التجربة لها معنى.. إلى هذا الحد من الفقر الذى رأيته بنفسك، يعيش ملايين المواطنين فى أغنى بلد فى العالم.. هذه المرأة البائسة فى رأيى أشرف من كثير من الساسة الأمريكيين.. إنها تبيع جسدها لتطعم أولادها، فى حين أنهم يوجهون السياسة الخارجية الأمريكية من أجل افتعال حروب للسيطرة على منابع النفط، ويبيعون خلالها أسلحة تقتل عشرات الألوف من الأبرياء حتى تنهمر عليهم الأرباح بالملايين!.. شىء آخر يجب أن تفهمه: إن المؤسسة الأمريكية قد سيطرت على كل شىء فى حياة الأمريكيين.. حتى العلاقة بين الرجل والمرأة وضعت لها نظاما صارما!

ـ ماذا تقصد؟

فى الستينيات كانت دعوتنا للحرية الجنسية محاولة لممارسة مشاعرنا بعيدا عن سيطرة الكبار، أما الآن فقد عاد العرف البورجوازى إلى كامل قوته: إذا أردت أن تتعرف إلى امرأة فى أمريكا، فيجب أن يتم ذلك من خلال خطوات محددة وكأنه إشهار لشركة تجارية: يتعين عليك ـ أولا ـ أن تقضى وقتا فى الحديث معها، وأن يكون حديثك مسليا ومضحكا، وثانيا: يجب أن تدعوها إلى شراب على حسابك، وثالثا: تطلب منها رقم تليفونها الخاص، ورابعا: تدعوها إلى العشاء فى مطعم فخم، وفى النهاية تدعوها لزيارتك فى البيت.. عندئذ، يعطيك العرف البورجوازى الحق فى أن تنام معها. وفى أية خطوة من هذه الخطوات تستطيع المرأة أن تنسحب، فإذا رفضت المرأة إعطاءك رقم تليفونها أو اعتذرت عن دعوتك للعشاء يكون معنى ذلك أنها لا ترحب بالعلاقة معك.. أما إذا قطعت معك الخطوات الخمس فمعنى ذلك أنها تريدك.

نظرتُ إليه صامتا، وسرعان ما غلبته روح الدعابة فضحك وقال:

ـ وهكذا ترى أن أستاذك العجوز لديه معلومات أهم بكثير من الهيستولوجى!

كانت السهرة رائعة.. وفجأة، سمعت صفارة حادة متقطعة، ولحظت لأول مرة وجود سماعة ولوحة أزرار مثبتة فى الحائط بجوار الأريكة. أدنى جراهام رأسه من السماعة وضغط الزر وهتف بمرح:

ـ كرم.. لماذا تأخرت ؟!.. سأفرض عليك غرامة.

ثم التفت إلىَّ قائلا:

ـ هذه مفاجأتى لك الليلة.. صديق مصرى مثلك.

بثت السماعة دمدمة لم أميزها، وضغط جراهام الزر فانطلقت صفارة جديدة، أدركت أنه يفتح باب البيت الخارجي.. بعد قليل، وقف وسط الحجرة رجل مصرى يناهز الستين، جسده رياضى فارع ممشوق، وشعره أبيض مفروق من منتصف الرأس وملامحه قبطية خالصة، بشرته سمراء، وأنفه غليظ، وعيناه واسعتان مستديرتان مفعمتان بالذكاء والحزن وكأنه خرج لتوه من إحدى لوحات معرض «وجوه الفيوم».. قال جراهام:

ـ أقدم لك صديقى كرم دوس.. واحد من أمهر جراحى القلب في شيكاجو.. وهذا صديقى ناجي عبد الصمد.. شاعر ويدرس للحصول على الماجستير فى الهيستولوجى.

ـ مسرور لرؤيتك.

هكذا قال كرم بإنجليزية متقنة وقد بدا من الوهلة الأولى معتزا

بنفسه وأنيقا للغاية: قميص أبيض بأكمام منقوشة يظهر على صدره توقيع مصمم الأزياء، بنطلون أسود أنيق، وحذاء أسود لامع، وحول رقبته سلسلة سميكة من الذهب تحمل صليبا يغوص في شعر صدره الكثيف الأبيض..كان مظهره أقرب إلى نجم سينمائي منه إلى طبيب.. غاص في المقعد الوثير وقال:

ـ آسف لأني تأخرت.. كنت أحتفل مع زملائي بتقاعد واحد من أساتذتنا في الجراحة فامتدت بنا السهرة.. لكنني قررت أن أجيء.. ولو حتى لبضع دقائق.

ـ شكرا على مجيئك.

هكذا قال جراهام، واستطرد كرم بصوت خافت وكأنه يحدث نفسه:

ـ أنا أعمل كثيرا لدرجة أنني في عطلة نهاية الأسبوع أحس وكأنني طفل في فسحة المدرسة.. أود أن أستمتع بأقصى ما أستطيع وألتقي أكبر عدد من أصدقائي، لكن الوقت كالعادة لا يكفي.

ـ ماذا تشرب؟

سأله جراهام وهو يجذب مائدة المشروبات ناحيته:

ـ لقد شربت كثيرا يا جون.. لكن لا بأس بكأس سكوتش صغيرة بالصودا.

سألته وأنا أبتسم بود:

ـ هل تعلمت الطب في أمريكا؟

ـ أنا خريج طب عين شمس.. لكنني فررت إلى أمريكا هربا من الاضطهاد!

ـ اضطهاد؟!

ـ نعم، فى أيامى، كان رئيس قسم الجراحة العامة، الدكتور عبد الفتاح بلبع، مسلما متشددا يجاهر بكراهيته للأقباط.. كان يؤمن بأن تعليم الأقباط الجراحة لا يجوز فى الإسلام لأنه يمكّن الكفار من التحكم فى حياة المسلمين!

ـ هذا غريب جدا!

ـ لكنه حدث.

ـ هل يمكن أن يفكر أستاذ جراحة بهذه الطريقة المتخلفة؟!

ـ ممكن جدا فى مصر.

هكذا قال وهو يحدق فى وجهى بطريقة بدت لى مستفزة على نحوٍ ما، وتدخل جراهام قائلا:

ـ إلى متى يتعرض الأقباط إلى الاضطهاد وهم أصحاب مصر الأصليون؟

ساد الصمت لحظة. تطلعت إلى جراهام وقلت:

ـ لقد اختلط العرب بالمصريين منذ ١٤٠٠ عام، ولا يمكن عمليا أن نتحدث اليوم عن أصحاب مصر، كما أن معظم المسلمين المصريين كانوا أقباطا واعتنقوا الإسلام.

ـ قصدك أجبروا على اعتناق الإسلام.

ـ دكتور جراهام.. الإسلام لم يجبر أحدا على اعتناقه.. وأكبر دولة إسلامية فى العالم إندونيسيا ـ لم يفتحها العرب.. وإنما انتشر فيها الإسلام على أيدى التجار المسلمين.

ـ ألم يتعرض الأقباط إلى مذابح حتى يتحولوا إلى الإسلام؟

ـ هذا غير صحيح.. لو أراد العرب ألا يبقى فى مصر قبطى

واحد لما منعهم أحد من ذلك.. لكن الإسلام يأمر أتباعه باحترام عقائد الآخرين.. لا يمكن أن تكون مسلما إلا إذا اعترفت بالأديان الأخرى.

ـ أليس غريبا أن تدافع عن الإسلام بهذه الحرارة وأنت سكران؟

ـ سُكْرى موضوع شخصى ليس له علاقة بالمناقشة.. تسامح الإسلام حقيقة تاريخية اعترف بها كثير من المستشرقين الغربيين.

ـ لكن الأقباط مضطهدون فى مصر!

ـ المصريون جميعا مضطهدون.. النظام فى مصر مستبد وفاسد.. وهو يضطهد المصريين جميعا، مسلمين وأقباطا.. بالطبع تحدث حوادث تعصب فردية هنا وهناك، لكنها لا تشكل ظاهرة فى رأيى.. إن التعصب الدينى نتيجة مباشرة للكبت السياسى.. المصريون جميعا يعانون من التمييز ضدهم ما داموا ليسوا أعضاء فى الحزب الحاكم..أنا مثلا مسلم، لكنهم رفضوا تعيينى فى جامعة القاهرة بسبب نشاطى السياسى.

عبث جراهام بلحيته وقال:

ـ آه.. دعنى أتأمل هذه الفكرة.. هل تقصد أن الاضطهاد فى مصر سياسى وليس دينيا؟

ـ بالضبط.

ـ من السهل على مصرى مسلم مثلك أن يؤكد أن كل شىء تمام.

هكذا قال كرم متحرشا وقد بدا أن كلامى لم يعجبه، فرددت عليه بهدوء:

ـ المشكلة فى رأيى ليست بين المسلمين والأقباط، وإنما بين النظام والمصريين.

ـ هل تنكر وجود مشكلة قبطية؟

ـ هناك مشكلة مصرية، ومعاناة الأقباط جزء منها.

ـ لكن الأقباط يتم تجاهلهم فى كل مناصب الدولة العليا.. الأقباط يُضطهدون ويُقتلون أيضا.. هل سمعت عما جرى فى قرية الكُشح؟.. لقد تم ذبح عشرين قبطيا أمام أعين الشرطة ولم يتحرك أحد لإنقاذهم!

ـ هذه مأساة محزنة بالطبع.. لكننى أذكّرك أيضا بأن المصريين يموتون يوميا فى أقسام الشرطة ومقار أمن الدولة من شدة التعذيب.. الجلادون لا يفرقون بين مسلم وقبطى.. المصريون جميعا مضطهدون.. لا أستطيع أن أرى مشكلة الأقباط بشكل منفصل عن مشكلة مصر.

ـ أنت تتبع الطريقة المصرية المعروفة فى إنكار الحقيقة!.. إلى متى يظل المصرى كالنعامة يدفن رأسه فى الرمل حتى لا يرى الشمس؟!.. تعرف يا جون.. عندما كنت طبيبا مبتدئا فى مصر، جاء وزير الصحة ليتفقد المستشفى.. الذى أعمل فيه، وأخذ المدير يحذرنا من أن يتحدث أحد عن مشاكل المستشفى، كان كل ما يهمه أن يعتقد الوزير أن كل شىء عظيم، فى حين كان المستشفى يعانى من إهمال شنيع.. هذا نموذج للتفكير المصرى!

ـ هذا التفكير يعود إلى فساد النظام الحاكم فى مصر وليس إلى المصريين أنفسهم.

ـ المصريون مسئولون عن النظام.

ـ أنت إذن تلوم الضحية؟

ـ كل شعب فى العالم ينال الحكومة التى يستحقها.. هكذا قال ونستون تشرشل، وأنا أوافقه.. لو لم يكن المصريون قابلين للاستبداد لما تعايشوا معه قرونا طويلة!

ـ لا يوجد شعب فى الدنيا لم يقع فى قبضة الاستبداد.

ـ لكن مصر حكمها الطغاة أكثر من أى بلد آخر فى التاريخ، والسبب فى ذلك أن المصريين بطبيعتهم أميل إلى الإذعان والخضوع.

ـ يدهشنى أن تقول هذا الكلام وأنت مصرى؟

ـ كونى مصريا لا يمنعنى من ذكر عيوب المصريين. أما أنت فتعتبر أن ترديد الأكاذيب واجب وطنى!

قلت بنبرة محذرة:

ـ أنا لا أردد أكاذيب، وأرجو أن تعتنى بانتقاء ألفاظك.

كنا جالسين على مقعدين متقابلين.. فى حين تمدد جراهام بيننا على الأريكة، لكنه فجأة حرك جسده إلى الأمام ومد ذراعيه أمامه وكأنه يفصل بيننا وقال:

ـ آخر ما أحتاج إليه الليلة أن تنشب مشاجرة بينكما!

نظر كرم نحوى بتحفز وبدا أنه مصرٌّ على المضى إلى النهاية.قال:

ـ لماذا نهرب من الحقيقة ؟!.. كانت مصر القديمة تمتلك حضارة عظيمة، أما الآن فقد تحولت إلى بلد ميت.. الشعب المصرى فى مؤخرة الشعوب من حيث التعليم والتفكير.. لماذا تعتبر هذه الحقيقة إهانة لشخصك؟

ـ إذا كان لديك عيوب المصريين فعندى أيضا مزاياهم.

ـ ما هذه المزايا؟.. اذكر لى ميزة واحدة من فضلك.

سألنى كرم ساخرا، فأجبته:

ـ على الأقل.. أنا أحب بلادى ولم أهرب منها!

ـ ماذا تقصد؟

ـ أقصد أنك هربت من مصر؛ فلا يحق لك الكلام عنها.

ـ لقد تركتها مضطرا.

ـ لقد تركت بلدك الفقير البائس من أجل حياتك المريحة فى أمريكا.. تذكَّر أنك تعلمت بالمجان على حساب هؤلاء المصريين الذين تحتقرهم الآن.. لقد علمتك مصر لكى تكون مفيدا لها يوما ما.. لكنك تخليت عن المرضى المصريين الذين يحتاجون إليك.. تركتهم يموتون هناك وجئت إلى هنا لتعمل فى خدمة الأمريكيين الذين لا يحتاجون إليك!

هب كرم واقفا وصاح:

ـ فى حياتى لم أسمع أغبى من هذا الكلام!

ـ أنت مُصرٌّ على إهانتى، لكن ذلك لن يغير الحقيقة.. الذين هربوا من بلادهم مثلك يجب أن يكفوا عن توجيه النقد إليها.

تمتم كرم بشتائم واندفع ناحيتى رافعا قبضته، فنهضت واقفا مستعدا للدفاع عن نفسى.. لكن جراهام، بالرغم من وزنه الثقيل، قفز بخفة فى اللحظة المناسبة وحال بيننا قائلا:

ـ مهلا مهلا.. اهدآ.. أنتما مخموران.

كنت ألهث من فرط الانفعال، وصحت بصوت عال:

- دكتـور جراهام.. أنا لا أقبل أن يهين أحد بلادى.. سـأنصرف لأنى لو انتظرت لحظة واحدة سأضربه!

استـدرت وخرجت مـسرعا، وبينـما أعبـر الردهة سمـعت كرم يصيح:

- بـل أنـا الـذى سـأحطـم رأسـك.. يا وقـح يا ابـن القحبـة!

* * *

كنت مـخمـورا لدرجـة أننى لا أذكر كـيف عـدت إلى السكن. يبدو أننى خلعت ثيابى فى الصالة لأنى وجدتها بعد ذلك مكومة على الأرض بجوار المائدة. استـيقظت الساعة الرابعـة عصرا فى حالة شنيعة. كنت مريضا من أثر الشـراب. تقيأت أكثر من مرة، وظللت أعـانى من هبوط وحمـوضة فى مـعدتى بالإضـافة إلى صداع فظيع وكأن مطارق رهيـبة تدق رأسى.. والأسوأ من هذا كله شعورى بالذنب لأنـى أفسدت السهرة وتسـببت فى مشكلة للدكـتور جـراهام.. لم أنـدم علـى كلمـة واحـدة قلتـهـا لكـرم دوس، كلما تذكرت غطرسته وإهاناته للمصريين تـجدد حنقـى عليـه. كـيـف يسـتطيع إنسـان أن يهين بلاده على الملأ بـهـذه البساطة؟.. مع ذلك فقد أخطأت لأنـى لـم أسيطـر على نفسـى، إذ لم يكن من اللائق أبدا أن أتشـاجـر.. مـا ذنـب جـراهـام؟.. أراد الرجل الطيب أن يحـتفى بى ويتـعرف إلىَّ فـتسببت له فى مشكلة!.. قـال لى إن شخصـية الطالـب عنده لا تقل أهمـية عن مـسـتـواه العلمي.. مـاذا يظن بـى بـعـد مـا حـدث؟.. أخـذت حمّـامـا ساخنا واحـتسيت كـوبا كـبيـرا مـن القـهـوة.اتصلـت بالدكـتـور جـراهام لكى أعـتذر له لكنـه لم يرد.. تذكـرت أنـه يحتـفـظ برقمى فى ذاكرة التلـيفون، فهل مـعنى ذلك أنه يرفض

الحديث معي؟.. عاودت الاتصال أكثر من مرة، لكنه لم يرد.. احتسيت قهوتي الثانية وشعرت ببعض التحسن، وبدأت أراجع ما فعلته منذ وصولي إلى شيكاجو.. يبدو أنني فعلا - كما قال الدكتور صلاح - لا أستطيع أن أسيطر على مشاعري السلبية!.. هناك عيب جوهري في شخصيتي يجب أن أواجهه.. لماذا أستفز بسهولة؟ .. هل أنا عدواني؟!.. هل ترجع شراستي إلى الإفراط في الخمر أم إلى شعوري بالإحباط؟.. أم أن أحاسيسنا تزداد رهافة في الغربة؟.. كل هذه عوامل مساعدة، لكنني أدرك السبب الحقيقي لتعاستي.. أحمله داخلي وأتجاهله.. أتهرب من مجرد التفكير فيه.. مضى عام كامل وأنا عاجز عن كتابة شطرة واحدة من قصيدة.. مشكلتي الحقيقية عجزي عن الكتابة.. عندما أكتب أكون أكثر تسامحا وتقبلا للخلاف، عندئذ أشرب أقل وآكل وأنام بشكل أفضل، أما الآن فأنا ضيق الصدر وأميل للتشاجر وأشعر بحاجة إلى الشرب بلا توقف.. الشِّعر هو الشيء الوحيد الذي يعيد إليَّ التوازن.. لديَّ أفكار قصائد تبدو خلابة من بعيد، لكنني ما إن أجلس لتسجيلها على الورق حتى تهرب مني..كأنني ظمآن يطارد سرابا في الصحراء، مرة بعد أخرى بلا نهاية.. لا يوجد في الدنيا أتعس من شاعر فقد الإلهام!..كان همنجواي أهم روائي في عصره، ولما عجز عن الكتابة انتحر!.. الخمر تعزيني، لكنها تدفعني إلى نفق مظلم بلا نهاية..كيف سأنتظم في الدراسة وأنا أشرب بهذه الكثافة؟.. انتبهت على جرس الباب.. قمت ببطء لأفتح، ولما تطلعت من العين السحرية ظللت مبهوتا للحظة، إذ رأيت آخر شخص أتوقع زيارته.. الدكتور كرم دوس!

١٣

نفذ الدكتور صلاح نصيحة الطبيب ودعا زوجته إلى العشاء يوم السبت فى المطعم المكسيكى المفضل لديها . تألقت كريس بتصفيفة شعر جديدة وماكياج كامل وثوب أحمر يكشف عن صدرها ويتوسطه بروش متلألئ على شكل وردة . مضت السهرة على أكمل وجه : استمعا إلى الموسيقى المكسيكية ، وأكلا الطعام الحراق اللذيذ ، وشربت كريس عدة كئوس من التكيلا ، أما صلاح فاكتفى بكأس واحدة كما نصحه الطبيب . . تهامسا بود ، وضحكت بسعادة وقالت :

ـ أشكرك يا حبيبى . . المكان رائع .

قبل أن ينصرفا ، استأذن وذهب إلى الحمام وابتلع الحبة ، وفى طريقهما إلى البيت جلست بجواره فى السيارة . ثمة توتر جثم بينهما ، كأنهما يترقبان شيئا ما ولا يستطيعان الإفصاح عنه ، فيغطيان ذلك بحديث متصل أجوف فارغ . وصلا إلى البيت ، وسبقها إلى الحمّام ثم خرج مرتديا الروب الكشمير الأبيض ، واستلقى على الفراش وراح يشاهد التليفزيون حتى تنتهى من حمامها . . كانت هذه طقوسهما العريقة قبل الغرام . استعاد فى ذهنه لقاءه مع الطبيب .

لماذا اعتبر ما قاله وقاحة؟! . . لقد ذكر الحقيقة التى يحملها فى أعماقه ويتهرب منها! . . فعلا . . لقد استعمل كريس جنسيا . . جعلها تدمنه حتى ينفّذ مخططه ويتزوجها من أجل جواز السفر الأمريكى.

ـ «كفاك خداعا لنفسك . . اعترافك بحقارتك ربما يساعدك . . أنت تصرفت مثل جوجولو، تماما كأولئك الذين يلاحقون السائحات الأمريكيات العجائز فى بارات ساوباولو ومدريد . . أنت مثلهم تماما . . الفرق أنك متعلم . . جوجولو بالدكتوراه . . ماذا فعلت مع كريس؟ . . كنت تشعل شوقها الجسدى بالشراب والمداعبات ثم تتدلل عليها . . تتشاغل عنها . . وعندما تلح عليك تسألها وكأنك مومس:

ـ كم برهانا على الحب تريدين الليلة؟

كنت تعبث بشهوتها حتى تكاد تبكى، وكانت صفاقتك معها تزيد من رغبتك فيها . . تتمنّع عليها حتى تكاد تيأس منك . . وفجأة، تنهال عليها حتى تحرقها باللذة، ترتوى وتغيب فى إغفاءة طويلة، ثم تفيق وتطالعك بامتنان وتُغرق جسدك بالقبلات . . كل شىء تم كما خططت له: تزوجت من كريس وحصلت على البطاقة الخضراء، وبعد ذلك الجنسية الأمريكية . . ».

عندما وقف ليؤدى قسم الولاء لوطنه الجديد، لم يستطع للحظة واحدة أن يبعد زينب رضوان عن ذهنه. «يؤسفنى أنك جبان» . . عبارة قالتها زينب من ثلاثين عاما، لعلها تصلح عنوانا لحياته! . . انتبه من أفكاره على كريس، كانت قد خرجت من

الحمام وهى ترتدى روبا أبيض تعمدت أن تتركه مفتوحا، فبدا جسدها العارى شاهق البياض، جلست بجواره على الفراش والتصقت به. . تطلع إليها، كان وجهها مربدا وبدأت تلهث من فرط الشهوة. . حاول أن يتكلم، لكنه اكتشف أنه لم يعد هناك ما يقال. . ما إن لمس جسدها بأصابعه حتى ألقت بنفسها عليه، احتضنته بقوة والتقمت شفتيه. . استشعر تضاريس جسدها وملأ عطرها الجميل أنفه، فأحس بالدم يندفع إليه. . تأكدت صلابته وراح يعض ثدييها ويعتصرهما براحتيه وكأنه عاد إلى عنفوانه القديم، لكن الهواجس دهمته فجأة، فركز تفكيره ليتخلص منها، وأحست هى بما يعتمل فى نفسه، فعزمت على مؤازرته حتى ينتصر. . أخذت تداعبه بصبر وإصرار، بذلت كل ما لديها، جربت أكثر من طريقة حتى يحتفظ بتوهجه، لكنه اهتز. . ثم خبا شيئا فشيئا حتى خمد تماما. . تراءى لهما الإخفاق كنبأ خاطف، كومضة برق!. . أغمضت عينيها وتزحزحت قليلا، فى حين تمدد هو على ظهره وكأنما فقد القدرة على الحركة. أخذ يتطلع إلى الخيالات التى يصنعها المصباح الخافت على السقف، وخطر لذهنه أنها قد تكون أشكالا لها معنى. . ألا يشبه ما يراه الآن دبا كبيرا وطفلا بجواره، أم شجرتين متلاصقتين إحداهما أطول من الأخرى؟!. . اقترب وقبَّل رأسها، تطلعت إليه بعينين مغرورقتين بالدموع فغمره الإشفاق عليها. . تمتمت بصوت مجروح:

- مشكلتى ليست فى الجنس. . لستُ صغيرة، واحتياجى الجسدى يقل مع السن.

أخذ يمسح بيديه على شعرها وهو صامت . . استطردت :

ـ ما يؤلمنى أنك لم تعد تحبنى !

ـ كريس !

ـ لا يمكن أن تخدع امرأة فى إحساسها بالحب .

اعتدل فى جلسته ، وبدأ يتكلم على مهل وكأن الفشل قد منحهما فسحة من الوقت . .

ـ بعد أسابيع قليلة سأتم ستين عاما . . حياتى تقترب من النهاية ، على أفضل تقدير قد أعيش عشرة أعوام أخرى . . عندما أنظر خلفى إلى السنوات الطويلة التى مرت يتأكد لى أننى اتخذت قرارات كثيرة خاطئة . .

ـ هل كنت ضمن قراراتك الخاطئة . . ؟

ـ أنت أجمل إنسانة عرفتها لكننى فقط . . أتمنى أن أعيد حياتى مرة أخرى لأتخذ قرارات مختلفة . . قد يبدو هذا مضحكا أو سخيفا . . أعتقد الآن أن قرارى بالهجرة لم يكن صائبا . .

ـ لا يستطيع أحد أن يعيد حياته من جديد . .

ـ هذه هى المأساة . .

ـ العلاج النفسى سيخلصك من هذه الأفكار . .

ـ لن أتحمل ذلك مرة أخرى . . . . لن أنام على سرير فى حجرة مغلقة لأحكى أسرار حياتى لشخص لا أعرفه وأتقبل توبيخه وكأننى طفل مذنب . . لن أفعل ذلك أبدا . .

قـال الجملة الأخيـرة بصـوت عال وهو ينهض من السـرير . . أضاء نور الحجرة والتقط كتابا من فوق المنضدة الجانبية ثم قال وهو ممسك بمقبض الباب قبل أن يخرج :

ـ تعرفين جيدا ماذا تعنين بالنسبة إليّ ، لكنى أمر بأزمة لن أخرج منها قـريبا . . لا أريد أن أسبب لك المزيد من الآلام . . أقترح أن ننفصل ولو مؤقتا . . آسف يا كريس ، لكنى أعتقد أن هذا أفضل لكلينا !

١٤

«لست عبيطا حتى أقع فى الفخ . . لم يكن ينقصنى إلا هذا . . على آخر الزمن أتزوج شيماء؟ ! . . أصوم وأفطر على بصلة ! . . صحيح أنها معيدة فى كلية الطب ، لكنها فلاحة . . أنا ابن اللواء عبد القادر حسيب ، مساعد مدير أمن القاهرة ، أنا الذى نشأت فى روكسى ونادى هليوبوليس ورفضت بنات الأكابر . . أتزوج فى النهاية من فلاحة؟ ! فلتغضب كما تشاء . . تنفلق ! » .

هكذا قال طارق لنفسه . . صحيح أنها خفيفة الظل وصحبتها ممتعة . . صحيح أنها ترعاه وتطبخ له الأصناف التى يحبها . . لكن ليس معنى ذلك أن يتزوجها ! عليها أن تختار ، إما أن تستمر صداقتهما كما كانت ، أو تختفى من حياته . سيتركها فترة حتى تعود إلى رشدها . . لن يكلمها . . لماذا يكلمها؟ . . هى التى أخطأت فى حقه . . غضبت بلا مبرر وكلمته بطريقة غير لائقة فى مكان عام . . لابد أن تعتذر .

جلس يستذكر دروسه وهو يركز تفكيره بعيدا عنها . وكعادته قبل أن ينام ، شاهد مباراة مصارعة واستمتع بفيلم جنسى . . (الحق أنه أجبر نفسه على اللذة ليثبت أنه لم يتأثر بمشكلة شيماء) . . وفى الصباح ذهب إلى الكلية وقضى اليوم فى

المحاضرات والمعمل. . حاول جاهدا أن يطرد صورتها عن ذهنه، وحوالى الساعة الثالثة كان يمشى عائدا إلى السكن عندما توقف فجأة وضغط رقمها على التليفون المحمول. . سوف يتصل بها لا لكى يصالحها، وإنما ليوبخها. . سيشرح لها كم هى مخطئة، سيقول لها بوضوح وحسم إذا كانت ستستمر على هذه الطريقة فإنه لا يحتاج إليها. . مع ألف سلامة! . . ألصق المحمول بأذنه وهو يجهز العبارات القاسية التى سينهال بها عليها، لكن الرنين استمر حتى انقطع، لم ترد، لعلها تنام بعد الظهر كعادتها، عندما تصحو ستجد رقمه وتطلبه. . تناول طارق الطعام (الذى أعدته شيماء) ونام القيلولة، وما إن استيقظ حتى مد يده إلى المحمول وأضاء الشاشة فوجدها لم تطلبه. . ضغط رقمها فلم ترد، ولما أعاد المحاولة أغلقت عليه الخط. المسألة واضحة الآن. . إنها تلعب دور الحبيبة الغاضبة، تريده أن يجرى وراءها ويتذلل إليها. . «مستحيل!». . هكذا دمدم وقد انفرجت زاوية فمه بابتسامة حانقة وأخذ يحملق أمامه فى غيظ. . ما دامت تغلق الخط فى وجهه فقد اختارت النهاية. . لن يقول «مع السلامة» ولكن «فى ستين داهية». . «ماذا تظن نفسها؟ هذه الفلاحة تريد أن تذلنى؟ . . يا للمهزلة! . . إنها إذن لا تعرف من هو طارق حسيب. . كرامتى أهم من حياتى نفسها. . من الآن سأحذفها من حياتى كأن لم تكن. . قبل أن أعرفها ماذا كان ينقصنى؟ كنت أعمل وآكل وأنام وأستمتع وأعيش ملك زمانى. . بالعكس. . منذ أن عرفتها وأنا قلق ومتوتر».

جلس كعادته إلى مكتبه وأخرج الكتب والمذكرات وبدأ فى

الاستذكار . . كتب العناصر الأساسية للدرس، وبذل مجهودا كبيرا ليحتفظ بتركيزه، لكنه بعد حوالى نصف ساعة . . فجأة . . نهض من مكانه وخرج من الشقة، اجتاز الردهة على عجل كأن أحدا يطارده أو كأنه يخشى أن يغير رأيه، استقل مصعد السكن إلى الدور السابع، تطلع إلى المرآة، كان يرتدى الزى الرياضى الأزرق، وبدا وجهه مرهقا وذقنه نصف حليقة . . وصل إلى شقتها، ضغط الجرس أكثر من مرة، مرت فترة قبل أن تفتح، كانت ترتدى جلباب المنزل . . بادرها قائلا بابتسامة :

ـ السلام عليكم .

ـ عليكم السلام يا دكتور طارق .

رنت فى أذنه لهجتها الرسمية، فرمقها بنظرة عميقة . . لكنها تجاهلتها وقالت :

ـ خيراً إن شاء الله .

قال بصوت خافت :

ـ أما زلت غاضبة منى؟

ـ من قال ذلك؟

ـ تركتنى بالأمس ولم تسألى عنى اليوم كعادتك .

تطلعت إليه صامتة وكأنها تقول : أنت تعلم السبب .

ـ شيماء . . هل تسمحين لى بالدخول؟ . . من فضلك .

ارتبكت لحظة، إذ لم تتوقع أن يطلب منها الدخول . . فى

المرات السابقة لم يتجاوز عتبة الباب الخارجية . . تراجعت خطوات وأفسحت له ، فدخل مسرعا وكأنه يخشى أن تتراجع . . جلس على المقعد فى الصالة ، وانتبهت هى لأول مرة أنها لا تزال ترتدى ملابس البيت ، فاستأذنت وتركته فترة بدت له طويلة ، ثم عادت بكوب شاى وقد ارتدت فستانا أخضر أنيقا . . جلست فى المقعد البعيد عنه . . رشف من كوب الشاى وقال :

ـ ما الذى أغضبك؟

ـ هل يهمك أن تعرف؟

قالت هذه الجملة بإيماءة دلال انبعثت منها نسمة أنثوية غاية فى الرقة ، فخفق قلبه وقال بصوت مضطرم :

ـ افتقدتك جدا!

ـ وأنا أيضا . . لكنى غير مرتاحة لصداقتنا!

ـ لماذا؟

ـ كل يوم أتعلق بك أكثر ولم نتحدث قَطّ عن المستقبل .

اندهشت فى نفسها من هذه الجرأة . . هل هى شيماء الخجولة التى تستقبل رجلا فى بيتها وتتحدث معه بهذه الطريقة؟

ـ المستقبل بيد الله .

هكذا قال بصوت خافت فى محاولة أخيرة لتجنب الموضوع .

ـ أرجو أن تقدّر موقفى . . أنت رجل لا يعيبك شىء مهما فعلت . . أنا بنت ، وأسرتى تقاليدها شديدة . . كل ما نفعله هنا

فى أمريكا سوف يصل إلى الناس فى مصر عن طريق أولاد الحلال وهم كثيرون كما تعلم . . لا أريد أن أجلب العار على أهلى .

ـ نحن لا نفعل شيئا خطأ .

ـ بل نفعل . . علاقتنا ضد التقاليد . . ضد المبادئ التى تربيت عليها . . كان أبى رحمه الله رجلا مستنيرا يؤيد تعليم المرأة وعملها . . لكن ليس معنى ذلك أن أفرط فى نفسى وسمعتى .

ـ سمعتك محفوظة يا شيماء .

استطردت وكأنها لم تسمعه :

ـ لماذا نخرج سويا؟ . . لماذا أنت هنا الآن؟ . . لا تقل لى زمالة لأن الزمالة لها حدود . . يجب أن نحكم عقلنا ولا ننساق وراء العواطف . . اسمع يا طارق ، سأسألك سؤالا وأرجو أن تجيب بصراحة .

ـ تفضلى .

ـ ماذا أمثل بالنسبة إليك؟

ـ صديقة .

ـ فقط؟

هكذا همست بصوت ناعم ، فارتعش قلبه وقال بصوت متهدج :

ـ إنسانة عزيزة علىّ .

ـ فقط؟

ـ أنا أحبك!

قالها مرة واحدة وكأنها أفلتت منه، وكأنه ظل يقاوم ثم انهار فجأة! . . تبدل الجو في لحظة وكأنما نطق بكلمة سحرية انفتحت لها الأبواب . . فابتسمت وتطلعت إليه بحنان غامر وهمست:

ـ قلها مرة أخرى.

ـ أحبك!

أخذا ينظران بعضهما إلى بعض، وكأنهما لا يصدقان، وكأنهما يتمسكان بالحالة الفريدة التي توصلا إليها ولا يعرفان ماذا يفعلان بعد ذلك. نهضت من مكانها وحملت الصينية والأكواب الفارغة في يديها، ثم قالت بصوت لم يسمع أعذب منه منذ أن عرفها:

ـ أنا عملت صينية «أم على» . . سأحضر لك طبقًا.

لم تنتظر إجابته وإنما توجهت إلى المطبخ وعادت تحمل الطبق بين يديها، كانت تتهادى بثقة ودلال وكأنها تحس الآن بأنوثتها كاملة . . وقف طارق ليتناول الطبق منها لكنه فجأة مد يديه وأمسك بمعصمها، جذبها نحوه ودنا من وجهها حتى لفحت بشرتها أنفاسه اللاهثة الحارة. دفعته بعيدا بكل قوتها وصاحت بصوت مختنق:

ـ طارق . . أنت مجنون؟!

١٥

خلف الستارة الخضراء التى تغطى النافذة، فى الحجرة المكتظة بالكتب المعبأة من سنوات بدخان الغليون، يحتفظ جون جراهام بصندوق خشبى بنى داكن مغطى بنقوش من النحاس القديم، يغلقه بإحكام وينساه لفترات طويلة، ثم يَعنُّ له فجأة فيغلق مزلاج باب المكتب من الداخل ويجرجر الصندوقَ إلى وسط الحجرة وهو يلهث، يجلس القرفصاء ويخرج محتوياته ويبسطها أمامه على الأرض، فتتبدى له عندئذ حياته بأكملها: صور أبيض وأسود تمثله فى شبابه، قصاصات من جرائد الستينيات تحمل عناوين بالأحداث الهامة، بيانات ثورية غاضبة ضد الدولة، منشورات تحمل صور الأطفال والنساء الذين قُتلوا أو شُوهوا فى حرب فيتنام (بعضها من البشاعة بحيث لا يستطيع بعد كل هذه السنوات أن يطيل النظر إليها)، دعوات ملونة مرسومة باليد لحضور مظاهرات وحفلات روك فى الهواء الطلق، برنامج مهرجان الوودستوك، شارات تحمل علامة الحب والسلام الشهيرة، مزمار هندى كان يعزف عليه بمهارة.. ثم أعز المحتويات جميعا: خوذة معدنية انتزعها من رأس رجل بوليس أثناء اشتباك عنيف فى إحدى المظاهرات. فى الصور القديمة يبدو جراهام كشاب نحيف، لحيته مهملة، وشعره طويل معقود على هيئة ذيل حصان، يرتدى

قميصا هنديا واسعا وبنطلون جينز وصندلا . . أيام الحدائق كما يسميها كان يأكل ويشرب ويدخن الماريجوانا ويتظاهر وينام ويمارس الحب مع رفيقاته فى حدائق شيكاجو الشهيرة : جرانت بارك ولنكولن بارك .

كان واحدا من الشباب الغاضب، المتمردين ضد حرب فيتنام، الذين أعلنوا رفضهم لكل شيء : الكنيسة والدولة والزواج والعمل والنظام الرأسمالي، معظمهم تركوا بيوتهم وأسرهم وأعمالهم ودراستهم، يقضون الليل فى المناقشات السياسية وتدخين الماريجوانا والغناء وعزف الموسيقى وممارسة الحب، وفى النهار يشعلون أتون المظاهرات . . فى أغسطس عام ١٩٦٨ اجتمع الحزب الديمقراطى فى شيكاجو من أجل اختيار مرشحه الجديد لرئاسة الولايات المتحدة، فتظاهر عشرات الألوف من الشباب . . وفى مشهد تاريخى نقلته الكاميرات إلى كل أنحاء العالم، قاموا بإنزال العلم الأمريكى ورفعوا بدلا منه قميصا ملطخا بالدماء، ثم أحضروا خنزيرا كبيرا، لفوه فى علم أمريكا وأجلسوه على منصة عالية وأعلنوا أنهم سينتخبونه كأفضل مرشح لرئاسة أمريكا! . . وتعاقبت كلمات المديح للمرشح الخنزير من المتظاهرين وسط عاصفة من الهتاف الساخر والصفير والتصفيق . كانت رسالتهم واضحة : إن مؤسسة الحكم نفسها فاسدة من أساسها مَهْمَا تغير الأشخاص . إن حكام أمريكا يرسلون أبناء الفقراء إلى الموت فى فيتنام حتى تتضاعف أرباحهم بالملايين، على حين يعيش أبناؤهم حياة مرفهة بعيدا عن الخطر . إن الحلم الأمريكى وهم، سباق بلا نهاية لا يفوز فيه أحد، يندفع خلاله الأمريكيون إلى عمل شاق

ومنافسة ضارية بلا رحمة من أجل الحصول على البيت والسيارة الفارهة والمقر الريفى . . يقضون حياتهم فى مطاردة السراب، ويكتشفون آخر العمر أنهم خُدعوا، وأن نتيجة السباق محسومة قبل أن يبدأ: حفنة من أصحاب الملايين يتحكمون فى كل شىء . . نسبتهم إلى عدد السكان لم تزد إطلاقا خلال خمسين عاما، على حين أن عدد الفقراء فى زيادة مطردة. كان يوم انتخاب الخنزير تاريخيا بحق، وقد وصلت الرسالة بقوة إلى الرأى العام، وبدأ ملايين الأمريكيين يفكرون أن هؤلاء الشبان ربما يكونون على حق . . حدثت مواجهات عنيفة مع البوليس، تحولت الحدائق إلى ميادين قتال حقيقية، كانت الشرطة تضرب المتظاهرين بكل الطرق المتاحة وبمنتهى القسوة، بالهراوات الغليظة وخراطيم الماء والقنابل المسيلة للدموع والرصاص المطاطى، وكان الطلبة يدافعون عن أنفسهم بقذف الحجارة وعلب سبراى الشعر التى يشعلونها فتتحول فى أيديهم إلى قنابل صغيرة . . أصيب الكثيرون إصابات مميتة، حملت سيارات الإسعاف المئات، وتم القبض على مئات آخرين . . فى ذلك اليوم انفتحت رأس جراهام من أثر هراوة غليظة وقضى فى المستشفى أسبوعين، وظل حتى اليوم يحمل ندبة خلف أذنه، كانت تلك أيام النضال الحقيقى: قُبض عليه عدة مرات، وحوكم وقضى فى السجن فترات مختلفة وصلت إحداها إلى ستة أشهر كاملة بتهم إثارة الشغب وإتلاف الممتلكات العامة والاعتداء على الشرطة، لكنه لم يندم قط على ما فعله. ظل مشردا لسنوات، مع أنه لو أراد آنذاك لحصل على حياة مريحة، فقد كان طبيبا متخرجا بتفوق فى جامعة شيكاجو الشهيرة، وبمقدوره أن يجد وظيفة جيدة فى أى وقت يشاء، لكنه آمن

بالثورة وكأنها دين لا بد أن يضحى من أجله. كان يخرج من السجن ليتظاهر من جديد، وعاش بلا عمل ولا مورد مع زملائه المتمردين.. كانوا على يقين من أن العالم يتغير، وسوف تنتصر الثورة فى أمريكا كما انتصرت فى أماكن أخرى كثيرة.. سوف يسقط النظام الرأسمالى، وسوف يصنعون بأيديهم أمريكا جديدة عادلة وإنسانية.. سيكون الأمريكيون جميعا آمنين على مستقبل أولادهم.. ستختفى إلى الأبد المنافسة الضارية غير الأخلاقية.. ستختفى لافتات «خسارتنا هى مكسبك» التى ترفعها المحلات التجارية المشرفة على الإفلاس لتثير أطماع الناس فى الشراء الرخيص..

كانت هذه أحلام الشباب الثائر، لكنها لم تتحقق.. انتهت حرب فيتنام وانقضت الثورة، معظم الرفاق انخرطوا فى النظام الذى كانوا بالأمس ثائرين عليه: حصلوا على وظائف، وتزوجوا وصارت لهم زوجات وأطفال، وكون بعضهم ثروات طائلة.. غيَّروا جميعا أفكارهم.. إلا جون جراهام الذى جاوز الستين ولايزال مخلصا للثورة!.. لم يتزوج لأنه لا يؤمن بمؤسسة الزواج وليس بمقدوره أن يتحمل مسئولية إحضار أطفال إلى هذا العالم الفاسد، لم يتزعزع إيمانه قَط بإمكان صنع عالم أفضل لو تخلص الأمريكيون من الماكينة الرأسمالية التى تسيطر على حياتهم. وبرغم تقدمه فى السن، ظل ناشطا فى عدة جمعيات يسارية: «أصدقاء بورتوريكو».. «الجمعية الاشتراكية الأمريكية».. «جيل فيتنام».. «الحركة المناهضة للعولمة» وغيرها.. وقد دفع ثمنا باهظا لنضاله: انتهى شيخا وحيدا، لا

أسرة له ولا أولاد. . تورط في علاقتي حب فشلتا بعد سنوات، وخلفتا في نفسه جروحا غائرة. . وقد أصيب بالاكتئاب مرتين، وأدخل إلى مصحة نفسية وحاول الانتحار، لكن شفاءه من الأزمة لم يأت نتيجة الأدوية ولا جلسات العلاج، وإنما بفضل صلابة داخلية تعوَّد طوال حياته أن يستدعيها فلا تخذله. . وأيضا، بفضل حبه لعمله وانغماسه الكامل فيه، فعلى الرغم من انتمائه السياسي المثير للجدل والمشاكل، يُعتبر جراهام واحدا من الأساتذة المعدودين في علم الإحصاء الطبي، وله عشرات الأبحاث المهمة المنشورة في أنحاء العالم. . وهو يَعتبر الإحصاء فنا إبداعيا يعتمد على الإلهام أكثر منه علما حسابيا، وله جملة مأثورة يبدأ بها محاضراته لطلاب الدراسات العليا:

ـ لقد وقع الإحصاء في ظلم تاريخي تسببت فيه عقول بورجوازية متوسطة الذكاء اعتبرت الإحصاء مجرد طريقة لحساب المكسب والخسارة. . تذكروا هذا جيدا: الإحصاء طريقة صادقة لرؤية العالم. . إنه ببساطة علم المنطق عندما يطير بجناحين: الخيال والأرقام!

وبالرغم من شعبية جراهام الجارفة في الجامعة، كشخصية ظريفة وعالم فذ ومحاضر عظيم، إلا أنه نادرا ما حظي بصداقة حقيقية؛ فالمتعاطفون معه من زملائه يعتبرونه مجرد شخصية فلكلورية طريفة تثير الفضول وتبعث المرح، ويحتفظون بمسافة تفصلهم عنه، أما المحافظون (مثل جورج مايكل) فينفرون منه ويهاجمونه على الملأ باعتباره شيوعيا ملحدا وفوضويا يدعو إلى أفكار هدامة شريرة!

هكذا مضت حياة جراهام واقتربت من نهايتها المتوقعة: أستاذ الجامعة اليسارى العجوز الذى يعيش ويموت وحيدا، أهم أحداث حياته صارت خلفه. بدأ يحس يوما بعد يوم بأن أواصره مع العالم تتآكل.. حاول أن يتخيل شكل النهاية: كيف يموت؟.. ربما فى مكتبه أو أثناء إلقائه إحدى المحاضرات، أو ربما تداهمه أزمة قلبية أثناء الليل ويكتشف الجيران موته بعد أيام.. على أن مفاجأة حدثت منذ عامين غيرت حياته. عقدت الحركة المناهضة للعولمة اجتماعا حاشدا فى لينكولن بارك، وألقى جون جراهام خطابا عنيفا ضد الاستعمار الجديد المتخفى خلف الشركات متعددة الجنسية، وقد صفق المحتشدون له طويلا متأثرين بسنه المتقدمة وحماسه وسمعته كمناضل قديم ما زال على العهد.. نزل جراهام من المنصة وهو يحمل أوراقه، وأخذ يرد تحية الحاضرين ويصافحهم.. عندئذ، اقتربت منه شابة سوداء جميلة قدمت نفسها باسم كارول ماكنيللى، كان هدفها أن تستوضح بعض النقاط فى خطابه وتستدل منه على بعض الكتب عن العولمة.. لم يكن ما تطلبه يستغرق دقائق، لكن جون وكارول اندمجا فى الحديث، وسرعان ما بديا وكأنهما لا يحتاجان إلى شخص ثالث.. ظلا معا من العصر حتى منتصف الليل، انتقلا إلى ثلاثة بارات مختلفة، لم ينقطعا عن الشراب والنقاش.. انجذب جراهام إليها بسرعة غريبة، والمدهش أكثر أنها أحبته بالرغم من عمر كامل يفصل بينهما!.. بدا لها جذابا إلى درجة لا يمكن مقاومتها، بشعره الأبيض وأفكاره اليسارية وثباته على مبادئه وسخريته الذكية المترفعة عن كل ما يتلهف عليه الرجل العادى.. كانت قد خرجت من علاقة حب طويلة فاشلة خلفت لها أحزانا

ثقيلة وابنا فى الخامسة . . بعد أسابيع لما طلب منها جراهام أن تنتقل لتعيش معه فى بيته، لم يَبْدُ عليها أنها فوجئت . . تطلعت إليه بابتسامة هادئة وقالت :

- أنا أحبك ، لكنى لا أستطيع أن أترك ابنى .

- لن تتركيه . . سيأتى ليعيش معنا .

- هل أنت واثق أنك ستتقبله؟

- نعم .

- هل تعرف معنى أن تعيش مع طفل . . هو فى النهاية ليس ابنك؟

- أعرف .

- لا أريدك أن تندم بعد ذلك!

- لن أندم .

- هل تحبنى إلى هذه الدرجة؟

كانا يمشيان على ضفاف بحيرة ميتشجن ، وكان البرد قارسا والجليد يغطى كل شىء . . كانا وحيدين تماما وكأن شيكاجو قد خلت إلا منهما . . أوقفها جراهام وأمسك بكتفيها ، ثم نظر إليها مليا فيما كانت أنفاسه الحارة تصنع أمام وجهه سحابة بخار متجددة . . سألها بلهجة جادة :

- أتريدين إجابة على سؤالك؟

- من فضلك .

ـ الآن أم فيما بعد؟

ـ الآن . . حالا .

عندئذ . . احتضنها بقوة والتقم شفتيها فى قبلة طويلة ، ثم ابتسم وقال :

ـ هذه إجابتى !

فضحكت وقالت :

ـ إجابة مقنعة !

أحب جراهام مارك الصغير الذى تعلق به ، وصار الاثنان يقضيان وقتا طويلا معا . . وجد مارك فيه الأب الذى حُرم منه ، أما جراهام فقد وجد فى علاقتهما ما يشبع حنانه الغريزى للأطفال . . والأهم من ذلك ، أنه أحب كارول كما لم يحب امرأة من قبل . . كانت فاتنته وملهمته وعشيقته وصديقته وابنته ، عاش معها أجمل تجربة حب فى حياته حتى ليهيأ إليه أحيانا أن وجودها معه غير حقيقى ، مجرد حلم قد يفيق منه فجأة فلا يجدها . . على أن اختلافهما فى اللون جر عليهما مشاكل جمة . . هو أبيض وهى سوداء ، ومنظرهما وهما يتعانقان أو يتناجيان أو حتى يتماسكان بالأيدى يستفز المشاعر العنصرية عند الكثيرين . . بدءًا من الجرسونات البيض فى المطاعم والبارات الذين يعاملونهما ببرود ووقاحة ، إلى نظرات بعض المتطفلين المقتحمة المستهجنة فى الأماكن العامة ، حتى بعض جيران جراهام فى الشارع ، والذين عندما يلاقونهما بالصدفة يتوجهون إليه بالحديث ويتجاهلونها تماما وكأنها غير مرئية بالنسبة إليهم ! . . كم مرة رفض صاحب

مطعم استقبالهما بحجة أن المطبخ مغلق، مع أن زبائن آخرين كانوا فى نفس اللحظة ينتظرون الوجبات التى طلبوها! . . وفى عطلة نهاية الأسبوع، تعوَّد جراهام وكارول تلقى تعليقات جارحة من السكارى فى الشارع . . من مثل :

- أبيض وأسود (إشارة إلى نوع الويسكى الشهير) .

- لماذا لا تنامين مع زنجى مثلك؟

- هل تحب مضاجعة الزنوج أيها الجد؟

- بكم اشتريت هذه العبدة؟

حتى فى جامعة إلينوى حيث يعمل، حدث موقف مؤسف؛ فقد اضطرت كارول ذات صباح للمرور عليه فى الكلية، فلقيها لسوء الحظ جورج مايكل . . لم تكن تعرفه، فحيته بطريقة طبيعية وسألته عن مكتب جون . . ففوجئت به يسألها :

- لماذا تريدين دكتور جراهام؟

- أنا صديقته .

- صديقته؟ !

هكذا تساءل مايكل بصوت مسموع مظهرا دهشته بوضوح حتى تكتمل الإهانة . . ثم رمقها بنظرة متفحصة بطيئة من أعلى لأسفل وقال :

- مكتب الدكتور جراهام فى آخر الردهة . . حجرة ٣١٢ . . لكننى لا أصدق أبدا أنك صديقته .

- لماذا؟

ـ أظنك تعرفين السبب . .

هكذا قال مايكل واستدار منصرفا . . وعندما دخلت كارول وهى تجهش بالبكاء إلى مكتب جراهام وحكت له ما حدث ، شهد قسم الهيستولوجى واقعة فريدة من نوعها ؛ فقد جذب جراهام كارول واندفع يعبر الردهة وهو يجرجرها خلفه وكأنها طفلة فى يد أبيها ، ثم اقتحم مكتب مايكل وصاح بصوت كالرعد :

ـ اسمع . . لقد أهنت صديقتى بوقاحة . . إما أن تعتذر لها الآن أو أحطم رأسك . . فاهم؟!

رفع مايكل رأسه ببطء ، كان منهمكا فى الإعداد لمحاضرة سيلقيها بعد قليل . . وأدرك بذكائه وخبرته الطويلة مع جراهام أنه سينفذ تهديده (ولم يكن يستبعد عنه أى تصرف باعتباره شيوعيا فوضويا بلا أخلاق تقريبا) . . تطلع بهدوء إلى كارول (التى انقلب وجهها فى تلك اللحظة من البكاء إلى الفزع من عواقب تطور المعركة) ثم ضم يديه أمام صدره على طريقة الهنود وأحنى رأسه الكبير وقال ضاحكا ليبدو الأمر كدعابة :

ـ أنا أعتذر عما قلته لك يا سيدتى . . أرجو أن تغفرى لى!

عندئذ بدا جراهام وكأنه طفل غاضب لم يتمكن من إحراز انتقامه ، فزفر وخرج من الحجرة وكارول تهرول وراءه . . على أن التحرشات العنصرية برغم ضراوتها لم تؤثر قطّ فى العاشقين ، فبعد كل موقف عنصرى يتعرضان له كانا يعودان إلى البيت ويمارسان الحب بمتعة واشتياق ، يجرعان كأس الغرام بنهم فى البداية ، ثم يتمهلان ويرشفان بلذة وتأنّ كأنهما فى أيامهما

الأولى، كأنهما يتشبثان ببعضهما فى مواجهة ذلك العالم القبيح الظالم المُصرّ على التفريق بينهما، أو كأن من وَجَّه إليهما الإهانة يشاهدهماَ وهما يمارسان الحب، فيرغبان فى أعماقهما أن يتحدياه ويثبتا له كم هو مخطئ. . ذات مرة، بعد ما فرغا من نوبة حب جنونية استنفدت قواهما، استلقيا عاريين وهما يلهثان. . نامت على صدره، وأخذت كعادتها تنصت لدقات قلبه وتعبث بشعيرات صدره البيضاء بين أصابعها و تقبّلها. . قال لها بصوت حالم تردد فى سكون الحجرة:

ـ لو كنت أستطيع. . لتزوجتك فورا!

ـ ولماذا لا تستطيع؟

ـ مراسم الزواج المدنى تذكّرنى بإجراءات إشهار الشركات التجارية. . أما الوقوف أمام قس بدين يعانى من عسر هضم لأردد خلفه صلوات ستجعلنا زوجين. . فهذا موقف لا يمكن أن أحتمله!

ـ لماذا؟

ـ إذا كان الله موجودا. . فهل تظنينه يحتاج إلى أوراق وأختام رسمية؟!

ـ هذه مراسم الكنيسة!

ـ الكنيسة واحدة من أكبر الأكاذيب فى التاريخ، وقد لعبت فى معظم العصور دور المؤسسة التجارية الاستعمارية أكثر من أى شىء آخر.

ـ جون!

ـ أستطيع أن أثبت لك لو أردت بالأدلة التاريخية أن المسيح لم يوجد أصلا . . لقد اخترَع الإنسان الأديان ليتغلب على خوفه من المجهول!

وضعت يدها على فمه وقالت:

ـ أرجوك . . أنا مسيحية مؤمنة . . هل يمكن أن تحترم مشاعرى قليلا؟

عندما تغضب، عندما تزم شفتيها ويبدو وجهها كطفل على وشك البكاء، عندما تحدق فيه بعينيها الجميلتين وكأنه قد خيب أملها، عندئذ تصبح فتنتها لا تقاوم، فيأخذها بين أحضانه ويغرقها بالقبلات، وعادةً ما ينتهى الأمر بنوبة حب جديدة . . كان حبهما رائعا لكن المتاعب أطلت برأسها عندما فقدت كارول عملها . . جاء مدير أبيض جديد للمول الذى تعمل فيه واستغنى عنها مع زميلة سوداء أخرى بلا سبب واضح (سوى لونهما بالطبع) . . وعلى مدى عشرة أشهر قاتلت كارول بعناد لتحصل على وظيفة أخرى، لكنها فشلت . وتعرض العاشقان إلى أزمة مالية لم تكن فى الحسبان: لم يكن لجراهام أية مدخرات على الإطلاق، كان يبدد المال أولا بأول كأنه يتخلص من عبء أو عار، وكان مثل كل المسنين تؤرقه بقسوة فكرة أن يصيبه مرض يقعده، فاختار شريحة باهظة من التأمين الطبى كان قسطها الشهرى يلتهم جزءا كبيرا من مرتب الجامعة، وفى نفس الوقت كانت أقساط مدرسة الصغير مارك ومصروفاته الأساسية كبيرة، على حين أن إعانة البطالة التى تحصل عليها كارول لا تكاد تذكر . . وهنا ضغط جراهام نفقاته ليتخطى الأزمة: امتنع نهائيا

عن دعوة كارول للطعام خارج البيت، واستغنى عن شراء ثياب يحتاجها للشتاء، وتخلى لأول مرة من سنوات طويلة عن التبغ الهولندى الفاخر الذى يعشقه واكتفى بنوع محلى رخيص رائحته خانقة كأنما تنبعث من خشب يحترق! . . فعل كل ذلك عن طيب خاطر دونما تذمر أو جزع . . بل على العكس، زادت دعاباته مع كارول وقال لها أكثر من مرة ليهون عليها :

ـ ليست لدىَّ أزمة . ما دمنا نستطيع أن نوفر مصروفات الصغير وطعامنا فلا يوجد ما يقلقنى . . لقد عودت نفسى على الحياة بأقل القليل . . أجمل أيام عمرى تلك التى قضيتها متشردا فى الشوارع!

لكن كارول لم تتقبل الأزمة بنفس البساطة، كانت تشعر بالذنب لأنها جرَّت عليه هذه المعاناة . . كانت تقول لنفسها إنها ظلمته معها . . كان مرتبه يكفيه فصارت مع ابنها عالتين على حياته! . . ما ذنبه هو إذا كان والد مارك لا يريد أن ينفق عليه؟! . . كانت تحس بمرارة بالغة لأنها فقدت وظيفتها ليس لأنها مهملة أو غير كفء ولكن لمجرد أنها سوداء، وقد فوجئ بها جراهام ذات صباح تعلق فى مدخل الصالة لوحة خشبية كبيرة محفورة عليها العبارات التالية :

«هل أنت أبيض؟ أنت على حق . .

هل أنت أسود؟ . . عد من حيث أتيت!» .

YOU ARE WHITE... YOU ARE RIGHT

YOU ARE BLACK... GO BACK

انزعج جراهام وسألها: لماذا كتبت هذه اللوحة. . ابتسمت بحزن وقالت:

- لأنها الحقيقة يا جون. . علقتها أمام عينى حتى لا أنساها أبدا.

صارت ضيقة الصدر معتكرة المزاج، تظل صامتة لفترات طويلة ثم تبكى فجأة بلا سبب. . أحيانا تتصرف بعدوانية وتتشاجر معه لأتفه الأمور، وكان هو يَلْقَى ثورتها بتفهم وتسامح من يحب. . فى قمة غضبها عندما تصيح فى وجهه وتلوح بيديها كان يلوذ بالصمت ويبتسم بحنان. . يقترب منها بهدوء ويأخذها فى حضنه ويهمس:

- لا أريد أن أتكلم فى التفاصيل. أنا أحبك. . وأعتذر عن كل ما يغضبك حتى لو لم أتسبب فيه.

كان من عادته يوم الأحد أن يصحو متأخرا، لكنه لسبب ما أفاق من نومه مبكرا ذلك الصباح فلم يجدها بجواره!. . أخذ يبحث عنها فى أنحاء البيت، وأحس بقلق لأنها خرجت دون أن تخبره كعادتها. . أين ذهبت، ولماذا لم تترك له رسالة؟ لقد خرجت مبكرا وهى مطمئنة إلى أنه لن يستيقظ كعادته قبل الظهر ما الذى تخفيه؟ هل ذهبت إلى والد مارك لتطلب منه الإنفاق عليه؟ قالت له مرة إنها تود أن تفعل ذلك فاعترض بشدة، قال إنها يجب أن تحفظ كرامتها، لكنه كان يعلم أن اعتراضه نابع من الغيرة. . يخاف أن يتجدد حبها مع رفيقها القديم. . إنه شاب لم يزل وبينهما تاريخ طويل. . هل ذهبت إليه؟. . لن يسامحها أبدا لو فعلت ذلك!

كان مارك الصغير قد استيقظ، فأعد له جراهام الإفطار وكوبا كبيرا من الشوكولاتة الساخنة باللبن وضبط له التليفزيون على محطة الكارتون، ثم عاد إلى حجرته وأغلق الباب وأشعل غليونه، لكنه لم يتمالك نفسه فعاد وسأل الصغير:

- هل رأيت كارول وهى تخرج؟

- كنت نائما.

- هل تعلم أين ذهبت؟

- لا تقلق يا جون على أمى.. إنها امرأة قوية.

ضحك جون جراهام واحتضن مارك وقبَّله وجلس بجواره يداعبه، وبعد قليل سُمع صوت الباب يُفتح ثم يئز ويُغلق ببطء، ولم تلبث كارول أن ظهرت على باب الحجرة.. بدت عابسة وشاردة الذهن برغم مظهرها المتأنق الذى أكد شكوكه. جذبها جراهام برفق وحزم إلى حجرتهما.. أغلق الباب وسألها وهو يسعى جاهدا لكبح غضبه:

- أين كنت؟

- هل هذا تحقيق رسمى؟

- أريد أن أعرف.

- ليس من حقك.

كانت تتحدث بعدوانية، وفى نفس الوقت تتحاشى النظر إلى وجهه.. ألقى بجسده الضخم على المقعد واستغرق لحظات حتى أشعل غليونه ونفث سحابة دخان كثيفة، ثم قال بهدوء:

ـ كارول . . أنا آخر شخص فى العالم يسعى إلى امتلاك المرأة التى يحبها . . لكننى أظن ، بما أننا نعيش معا ، أنَّ من الطبيعى أن يعرف كل واحد منا إلى أين يذهب الآخر .

ـ لن أطلب منك تصريحا مكتوبا حتى أخرج !

هكذا صاحت وقد بدا أنها عازمة على تصعيد الخلاف إلى مداه . كانت تحمل العدد الأسبوعى من جريدة الشيكاجو تريبيون ، ومن فرط الغضب ألقت بها من يدها ، فتناثرت أوراقها الكثيرة على الأرض وصاحت :

ـ هذه حياة لا تطاق !

اندفعت خارجة من الحجرة ، لكنها قبل أن تصل إلى الباب بخطوة واحدة توقفت فجأة ، تجمدت فى مكانها ، لم تخرج ولم تستدر عائدة إليه ، وكأنها استجابت لذلك الإيقاع الغامض الراسخ الذى ينشأ بين المتزوجين لفترة طويلة . . ظلت واقفة فى مكانها كأنها تنتظره أو تستدعيه ، وكأنما تَلَقَّى هو الإشارة فاندفع إليها وطوقها من الخلف ، ثم أدارها نحوه واحتضنها هامسا :

ـ كارول . . ماذا بك؟

لم ترد . أخذ يقبّلها بنهم حتى أحس بجسدها يلين شيئا فشيئا وكأنما ينفتح أمامه ، فدفعها برفق نحو الفراش . . لكنه فجأة شعر بدموعها تبلل وجهه ، فسألها بجزع :

ـ ماذا حدث؟

ابتعدت عنه وجلست على حافة الفراش . . كانت تبذل

مجهودا خارقا للتحكم في نفسها، لكنها في النهاية انهارت وأجهشت بالبكاء. . قالت بصوت متقطع:

ـ ذهبت إلى مقابلة عمل. . قلت لنفسى سأخبرك فقط لو حصلت على الوظيفة. . لديك ما يكفيك من خيبة الأمل بسببى!

رفع يديها إليه وجعل يقبّلهما. . وتردد صوتها رخيما كأنما ينبعث من قاع الحزن:

ـ كان صاحب العمل خنزيرا. . ما إن رآنى سوداء حتى أنهى المقابلة. قال إنه سيتصل بى فيما بعد. أكدت له أننى عملت سكرتيرة تنفيذية لسنوات وأن معى شهادات خبرة. . لكنه صرفنى بإشارة من يده وكأننى خادمة!

ساد صمت عميق، وهمست وهى تدفس رأسها فى صدره وتستسلم لنوبة بكاء جديدة:

ـ أوه يا جون. . كم أحس بالمهانة!

١٦

الاحترام إلى درجة التبجيل الذى يحظى به البروفسور دنيس بيكر يعود إلى أسباب عديدة: شخصيته القوية، ونزاهته، وإخلاصه للعلم. . تعامله مع تلاميذه وزملائه بحب وعدل، مظهره الخشن البسيط، صمته الدائم الذى لا يقطعه إلا ليقول شيئا ضروريا ومفيدا. . وأهم من كل ذلك: إنجازه العلمى. . يقدم بيكر نفسه بوصفه «مصور خلايا». . هاتان الكلمتان تختصران المجهود الشاق الذى بذله على مدى أربعين عاما حتى استطاع أن يحول تصوير الخلايا من مجرد «طريقة مساعدة» فى البحث العلمى إلى علم مستقل راسخ له أدواته وقواعده. . اخترع بيكر وسائل وتقنيات جديدة فى تصوير الخلايا سُجلت باسمه، وتعددت أبحاثه على مدى السنين حتى أصبح تسجيل سيرته الذاتية فى المؤتمرات العلمية يشكل مشكلة حقيقية لأنه يحتاج إلى أضعاف المساحة التى يحتاجها أى أستاذ آخر. . وبات من المستحيل أن يصدر كتاب هيستولوجى فى أية جامعة فى العالم دون الاستعانة بمجموعات بيكر لصور الخلايا. والحق أنه يمارس عمله بروح الفنان: يستحوذ عليه فى البداية خاطر غامض يلح عليه ويؤرقه، ثم يختفى ليتركه مع فكرة مدهشة لكنها هشة، يظل يختبرها ويمحصها حتى تختمر فى ذهنه، يقضى أسابيع فى اختبار

الخلايا على درجات مختلفة من الإضاءة ومستويات متعددة من قوة الميكروسكوب، وأخيرا يحل الإلهام.. يتراءى له بوضوح عجيب ما يجب أن يفعله، فيندفع بحماس إلى التصوير والتسجيل والطباعة.

وبالإضافة إلى انجازه العلمي، يعتبر بيكر واحدا من أعظم المحاضرين الذين عرفتهم جامعة إلينوى فى تاريخها.. محاضراته عن أنسجة الجسم تجمع بين العمق والبساطة، مما دفع إدارة الجامعة إلى طبعها على أقراص مضغوطة نفدت منها آلاف النسخ. وعلى الرغم من روعة إنجازه، لم يسلم بيكر قط شأن المبدعين الكبار من مخاوف الفشل وهواجس التقصير!.. أفكار سوداء تدفعه أحيانا إلى التساؤل عن قيمة ما يفعله. والذين عملوا معه يعرفون جيدا ذلك القلق الذى ينتابه قبل المحاضرة، كالممثلين قبل العرض، وما إن تنتهى المحاضرة حتى يسأل أحد مساعديه:

ـ ألا تعتقد أن شرحى كان غامضا بعض الشىء؟

وإذا لم يسارع المساعد إلى نفى الاتهام بحرارة، فإن بيكر يتأكد له عيبه المتخيَّل، فيهز رأسه ويردد بحزن:

ـ سأسعى المرة القادمة لكى أكون أفضل.

فى شتاء شيكاجو القارس العاصف المغطى بالجليد، كثيرا ما يستيقظ العجوز بيكر فى الرابعة صباحا. يغتسل، ثم يضع الثياب الثقيلة على جسده ويرتدى قفازه ويحكم غطاء رأسه على أذنيه وكأنه جندى ذاهب إلى ميدان القتال، يركب مترو الخامسة صباحا مع عمال النظافة وسكارى الليلة الماضية، يتكبد هذا العناء عن

طيب خاطر حتى يتمكن من الكشف عن عينات للخلايا فى الموعد الذى حدده بالدقيقة. هكذا صنع دنيس بيكر مجده يوما بعد يوم، بدأب نملة وإخلاص راهب، حتى تحول إلى أسطورة. وأصبح الحديث فى إلينوى يتردد بقوة من سنوات عن احتمال فوزه بجائزة نوبل فى أية لحظة.. وقد علق جون جراهام، فى إحدى تجلياته، على ذلك قائلا:

«إن الحضارة الغربية العظيمة قد صنعها علماء أفذاذ مخلصون مثل دنيس بيكر، لكن النظام الرأسمالى أحال إبداعهم العظيم إلى ماكينات إنتاج وصفقات تجارية تتدفق منها ملايين الدولارات على رجال أغبياء وفاسدين مثل جورج بوش وديك تشينى!».

أشرف بيكر على عشرات الرسائل للماجستير والدكتوراه، وكان بين تلاميذه العديد من المصريين الذين حصلوا على نتائج باهرة.. وهو يحتفظ فى معمله برسائل شكر منهم يطلب إليهم دائما أن يكتبوها باللغة العربية لأنه يحب شكل حروفها.. وقد أدت خبرته الإيجابية مع المصريين إلى إثارة فضوله عن بلادهم، فاستعار أكثر من كتاب عن مصر من مكتبة الجامعة.. وحدث مرة أنه كان مدعوا مع بعض الأساتذة إلى حفل استقبال فى جامعة دوبول وشرب كأسين من الويسكى (الحد الأقصى الذى يسمح به لنفسه).. عندئذ منحته الخمر عذوبتها، وتدفق داخله تيار جارف من الحنان، فنظر إلى الدكتور صلاح الواقف بجواره وسأله بطريقته المباشرة:

ـ صلاح.. عندى سؤال.. إن كل المصريين الذين عملوا

معى يتمتعون بالموهبة والقدرة الفائقة على العمل . . وبالرغم من ذلك فإن مصر كبلد لا تزال متأخرة علميا . . هل لديك تفسير لذلك؟

فأجابه صلاح بسرعة وكأنه أعد الإجابة :

- مصر تتخلف بسبب انعدام الديمقراطية . . لا أكثر ولا أقل . . المصريون الموهوبون يحققون نتائج عظيمة عندما يهاجرون إلى الغرب . . أما فى مصر ، بكل أسف ، فإن النظام الاستبدادى عادةً ما يضطهدهم ويستبعدهم .

نظر إليه بيكر لحظة ثم هز رأسه وقال :

- فهمت .

هذا التقدير العميق من العالم الكبير للمصريين دفعه دائما إلى قبول الإشراف على رسائلهم . ولابد أن نذكر هنا أن بيكر ، المسيحى البروتستانتى المؤمن الحريص على صلاته ، لا يرى أى فرق بين الأجناس المختلفة ، فالبشر كلهم فى عقيدته أبناء الله نفخ فيهم من روحه المقدسة . . هكذا نفهم مواقفه الليبرالية المتسامحة فى مجلس القسم ، فهو يقيّم كل طالب وفقا لمجهوده وقدراته فقط ، دون النظر إطلاقا إلى جنسيته أو لون بشرته (على العكس من جورج مايكل المتعصب) . . هذه المُثُل العظيمة التى يؤمن بها بيكر تعرضت مؤخرا لتجربة صعبة ؛ فقد رحب بالإشراف على أحمد دنانه فى الدكتوراه . . لكنه ، من الوهلة الأولى ، لاحظ أنه طراز فريد من المصريين لم يره من قبل : سنه متقدمة ، وهيئته رسمية ، ويرتدى البدلة الكاملة ورباط العنق . لم يتوقف بيكر

كثيرا عند مظهر دنانه، لكن المشكلة بدأت مع أول فصل دراسى. . كان بيكر يدرّس لطلابه مناهج البحث، وهو فصل مهم لأنه يقدم للباحث المبادئ الأساسية التى سيتبعها فى رسالته، وكان النجاح فى هذا الفصل يعتمد على المشاركة أثناء الدرس بدلا من الامتحان التقليدى، فكان بيكر يكلف الطلاب كل أسبوع بقراءة أبحاث معينة وتلخيصها والتعليق عليها، ثم يستمع إليهم ويناقشهم ويمنحهم الدرجات بناء على استيعابهم واجتهادهم. ومنذ المحاضرة الأولى لحظ بيكر، ببعض القلق، أن أحمد دنانه يتكلم بعيدا عن موضوع الدرس. . وقد عزا ذلك إلى أنه، ربما، لم يفهم المطلوب منه، فاستدعاه إلى مكتبه بعد المحاضرة وأعطاه بحثا جديدا قائلا بلطف:

- اقرأ هذا البحث جيدا. . وفى الأسبوع القادم سأطلب إليك فى الفصل تلخيصه والتعليق عليه.

وفى المحاضرة التالية عندما حان دور دنانه، وقف ببدلته الكاملة وتنحنح وسعل، ثم بدأ فاصلا طويلا من الكلام. . أخذ يحرك يديه وهو يصول ويجول بإنجليزيته الركيكة، كما جعل يرفع صوته ويخفضه ليؤثر فى السامعين وكأنه يلقى خطابا فى الحزب الوطنى. أخذ الطلاب يتابعونه بدهشة وهو يقول:

- أيها الزملاء الأعزاء. . صدقونى. . المشكلة ليست فى مناهج البحث. . مناهج البحث كثيرة ومتوفرة والحمد لله. . ما أحب أن نناقشه اليوم. . الفكرة من وراء منهج البحث. . فى داخل كل واحد منا فكرة معينة عن المنهج. . يجب. . وأكرر هنا «يجب» أن

نتكاشف بصراحة . . من أجل مستقبل العلم . . من أجل أولادنا وأحفادنا!

كان بيكر كعادته يسجل كل ما يقال فى الفصل حتى يقيّم كل طالب بدقة . . وقد أصابته حيرة بالغة من كلام دنانه حتى خيل إليه لوهلة أنه معتوه، لكنه استبعد ذلك واضطر إلى مقاطعته بحسم :

ـ مستر دنانه . . أحب أن ألفت انتباهك إلى أن كلامك خارج عن موضوع الدرس تماما!

كانت هذه العبارة من بيكر كفيلة بإسكات أى طالب فورا . . لكن دنانه، المدرب جيدا على الكر والفر فى الندوات السياسية، لم يطرف له جفن وقال بصوت مرتفع :

ـ بروفسور بيكر . . أرجوك . . أنا أدعو زملائى إلى أن نتصارح . . أن يتحدث كل واحد فينا عن الفكرة التى يحملها لمناهج البحث .

وهنا احْمَرَّ وجه بيكر من الغضب وصاح :

ـ اسمع . . يجب أن تكف عن هذا الكلام . . لن أسمح لك بالشوشرة على زملائك . . إما أن تتكلم فى الموضوع أو تسكت، أو تخرج من الفصل .

سكت دنانه وتنهد، واتخذ وجهه هيئة الرجل الكبير الذى أهين بقسوة . . لكنه لاعتبارات نبيلة لا يعرفها سواه قرر أن يتجاوز الإهانة وينساها . استمرت المحاضرة كالمعتاد . . ولما

انتهت، حدق بيكر فى وجه دنانه وسأله بمزيج من الاستغراب والحنق:

- هل تعانى من مشاكل نفسية؟

- لا بالطبع.

هكذا أجاب دنانه بابتسامة لا مبالية.

- لماذا إذن لم تقرأ البحث؟

- بل قرأته.

- لكنك لم تُشرْ إليه بكلمة واحدة.. لقد أضعت وقت الدرس فى كلام بلا معنىً.

وضع دنانه يده على كتف بيكر وكأنه صديق قديم وقال بلهجة من ينصحه:

- أنا أفضّل دائما تقديم المعلومة العلمية مع لمسة إنسانية تقرب بين الطلاب.

نظر إليه بيكر متفحصا ثم قال بهدوء:

- أنا الذى أحدد طريقة التدريس فى هذا الفصل وليس أنت!

ثم فتح ملفا يحمله فى يده وأخرج رزمة كبيرة من الأوراق، ناولها لدنانه قائلا:

- سأعطيك فرصة أخيرة.. خذ.. اقرأ هذا البحث جيدا. أريدك أن تقدم لى تلخيصا خلال يومين على الأكثر.

- ليس لدىَّ وقت هذا الأسبوع.

- كيف تكون طالبا ولا تجد وقتا لدروسك؟

- لست طالبا عاديا . . أنا رئيس اتحاد الدارسين المصريين فى أمريكا كلها .

- وما علاقة هذا بالبحث؟

- وقتى ليس ملكى ، لكنه ملك زملائى الذين منحونى المسئولية .

سكت بيكر وراح ينظر إليه وقد تملكته حيرة حقيقية أمام هذا النوع من البشر الذى لم يره من قبل فى حياته . . واستطرد دنانه بلهجة رسمية :

- بروفسور بيكر . . أتوقع منك أن تراعى منصبى السياسى!

وهنا انفجر بيكر صائحا بغضب :

- إن ما تقوله هراء . . أتفهم؟! أنت هنا طالب لا أكثر ولا أقل . . إذا لم يكن لديك وقت للدراسة اتركها .

استدار بيكر منصرفا ، وركض دنانه وراءه وأخذ يسترضيه ، لكنه صرفه بإشارة من يده . ومنذ ذلك اليوم تحول دنانه إلى عبء نفسى ثقيل على بيكر الذى لم يعرف - برغم خبرته الطويلة - كيف يتعامل معه ، فهو ينتظم فى الدراسة أياما قليلة ثم ينقطع ويهمل دروسه ، ويعود فى كل مرة بحكاية عن مشكلة لأحد الطلبة اضطرته إلى السفر إلى واشنطن ، أو طالب مرض فجأة فنقله إلى المستشفى! . . ولابد أن نفهم هنا أن المشكلة أعمق من انشغال دنانه أو إهماله ، فمستواه العلمى الذى جاء به من مصر متواضع

للغاية ؛ لأن علاقته بمباحث أمن الدولة - التي بدأت وهو طالب - هي التي دفعت به إلى الترقي وليس عمله، ففي كل عام كانت أجهزة الأمن تمارس ضغوطا رهيبة على الأساتذة في طب القاهرة حتى يمنحوا دنانه درجات مرتفعة لا يستحقها، ثم استمرت الضغوط حتى تم تعيينه معيدا وحصل على درجة الماجستير . . وأخيرا أوفد في البعثة . . لكن مستواه الحقيقي انكشف في إلينوي وعجز عن متابعة الدراسة، حتى إن البروفسور بيكر كثيرا ما أذهله جهله بمعلومات أساسية في الطب، حتى قال له ذات مرة باستغراب :

- لا أفهم كيف تخرجت مع طارق حسيب وشيماء محمدي في نفس الكلية ! . . إن مستواهما العلمي يفوقك بكثير .

مر عامان كاملان ولم ينجز دنانه إلا أقل القليل في البحث . . وكان يُفترض أن يقدم النتائج هذا الأسبوع، لكنه تغيب عن الدراسة ثلاثة أيام متوالية، وفي صباح اليوم الرابع كان بيكر يعمل في معمله عندما طُرق الباب ثم انفتح وظهر دنانه . تجاهله بيكر تماما واستمر في عمله . ولما بدأ دنانه أنشودة أعذاره المعتادة، قاطعه بيكر دون أن يلتفت إليه . قال بهدوء وهو ينظر بعين واحدة داخل أنبوبة اختبار زجاجية وكأنه يفحص ماسورة بندقية :

- إذا لم تقدم نتائج البحث هذا الأسبوع، فسوف أطلب إعفائي من الإشراف على رسالتك .

هم دنانه بالكلام، لكن بيكر أسكته بإشارة من يده، وقال وهو يبتعد إلى داخل المعمل :

ـ ليس لدىَّ ما أقوله لك . . هذه فرصتك الأخيرة .

* * *

« .. ابتسم كرم دوس وقال:

ـ آسف لإزعاجك يا ناجى.

ـ أهلا وسهلا.

ـ تسمح لى أدعوك إلى فنجان قهوة فى أى مكان؟

رأيت وجهه فى ضوء الردهة الخافت مـرهقا شاحبا، وبدا أنه لم ينم منذ الأمس ولم يغير ملابسه حتى إنها بدت مجعدة ومتسخة قليلا.. قلت له:

ـ إذا كان الأمر يتعلق بما حدث بالأمس، فقد نسيته.

ـ لا.. الموضوع أكبر!

كنت متعبا .لم أكن مستعدا للمزيد من الجدل والمشاكل، فقلت:

ـ هل يمكن أن أقبل دعوتك فى وقت آخر؟.. ما زلت مريضا من أثر الشراب.

ـ أرجوك.. لن أؤخرك طويلا.

ـ حسنا.. تفضل بالداخل حتى أرتدى ملابسى.

ـ خذ راحتك.. سأنتظرك فى الاستقبال.

بعـد حـوالى ربع السـاعـة، كنـت أجلس بجـواره فى سيـارته الجاجوار الحمراء، اضطجـعـت فى المقعد الوثير وأنا أحس أننى بطل فى فيلم أجنبى عن سباق السيارات.. وقلت:

ـ سيارتك رائعة.. أظنها غالية جدا.

ابتسم ورد بهدوء:

ـ أنا أكسب جيدا.. نشكر ربنا.

كانت لوحة السيارة الداخلية مملوءة بالعدادات المختلفة وكأنها في طائرة، أما عصا الفتيس فكانت على شكل قبضة معدنية عريضة، أمسك بها كرم ثم حركها، فزمجر المحرك بعنف وانطلقت السيارة بسرعة فائقة.. سألته:

ـ هل تحب سباق السيارات؟

ـ أعشقه.. كنت أحلم وأنا طفل بأن أكون قائدا لسيارات السباق.. وهكذا أحقق الآن بعض أحلامي القديمة!

ثمة شيء عميق في نبرة صوته اختلف عن الأمس، وكأنه كان يؤدي دورا على المسرح وهو الآن يتحدث إلى صديق بعد انتهاء التمثيل. سألني بود:

ـ هل رأيت رش ستريت؟

ـ لا.

ـ رش ستريت هو الشارع المفضل للشباب في شيكاجو.. فيه أهم البارات والمطاعم والديسكوتيك.. في عطلة نهاية الأسبوع يخرج الشباب إلى الشارع يرقصون ويشربون حتى الفجر.. نوع من الاحتفال الجماعي بنهاية أسبوع من العمل.. انظر..

تطلعت إلى حيث أشار بيده، فرأيت مجموعة من رجال الشرطة يمتطون الخيول.. بدا منظرهم غريبا على خلفية ناطحات السحاب العملاقة.. قال كرم ضاحكا:

ـ في ساعات الليل المتأخرة، عندما يشتد السُّكْر والصخب وتبدأ المشاجرات، يلجأ بوليس شيكاجو إلى الخيالة لتفريق السكارى.. عندما كنت شابا علمني صديق أمريكي كيف أستفز

الحصان.. كنا نشرب ونخرج إلى الشارع، وعندما يأتى الخيالة لتفريقنا، كنت أتسلل خلف الحصان وأنخزه بطريقة معينة، فيصهل ويهيج ويركض بالجندى بعيدا.

أوقف السيارة فى مكان الانتظار وأغلقها أوتوماتيكيا. مشيت بجواره وأنا مبهور بأضواء النيون التى تتلألأ وتنطفئ بلا انقطاع فتجعل الشارع كله أشبه بملهى ليلى كبير.. فجأة سمعنا صوتا خلفنا:

ـ لحظة واحدة يا سيدي.

توقفت لألتفت إلى مصدر الصوت، لكن كرم أمسك بذراعى وهمس فى أذنى:

ـ استمر فى السير.. لا تنظر خلفك ولا تتحدث مع أحد.

كانت نبرته صارمة فانصعت له، مد خطوته وتقدم للأمام وأنا أتبعه، ولم يلبث أن ظهر بجوارنا شاب أسود طويل ونحيف، شعره مسترسل على كتفيه فى ضفائر متشابكة على الطراز الإفريقى.. كان يرتدى أساور فى يديه وسلاسل على صدره.. مما جعله يصدر صليلا كلما تحرك.. بادرنا قائلا:

ـ هاى يا رجل.. هل تريد ماريجوانا؟

ـ لا.. شكرا.

هكذا رد كرم بسرعة، لكن الشاب ألح:

ـ لدىّ قطعة ممتازة.. ستجعلك ترى العالم على حقيقته.

ـ شكرا.. نحن لا نحب الماريجوانا.

توقف كرم فجأة عن السير فتوقفت.. ظللنا واقفين فى مكاننا على الرصيف، فى حين مشى الشاب أمامنا وهو يصدر صليله

حتى اختفى فى طريق جانبى.. عندئذ استأنف كرم السير وقال:

ـ يجب أن تَحْذَر هؤلاء.. عادةً ما يكونون غائبين عن الوعى.. ربما يخدعك بموضوع الماريجوانا حتى تُخرج المال من جيبك فيخطفه منك، وقد يؤذيك!

ظللت صامتا، فسألنى:

ـ هل توترت مما حدث؟

ـ طبعا.

ضحك عاليا وقال:

ـ ما حدث أمر عادى يتعرض له الناس هنا كل يوم.. أنت فى شيكاجو يا صديقى.. ها قد وصلنا.

دخلنا إلى مبنى أنيق من دورين عليه لافتة كهربائية مضيئة مكتوب عليها «بيانو بار». كان المكان يسبح فى إضاءة خافتة، وقد انتشرت فى أنحائه موائد مستديرة عالية، وفى أقصى القاعة رجل أسود يرتدى بدلة سهرة ويعزف على البيانو.. جلسنا على منضدة قريبة، وقال كرم:

ـ أرجو أن يعجبك المكان.. أنا أفضّل البارات الهادئة.. لم أعد أتحمل صخب الديسكوتيك.. هذه علامات الشيخوخة.

جاءت إلينا نادلة شقراء جميلة، ولما طلبت منها كأسا من النبيذ، سألنى بدهشة:

ـ ألا تزال لديك رغبة فى الشراب؟ أنا متعب جدا من سَكْرَة الأمس.

ـ وأنا أيضا.. لكن كأسا واحدة أو اثنتين ستجعلانى على ما

يرام.. هذه طريقة معروفة للقضاء على صداع الخمر.. أن تشرب قليلا فى اليوم التالي. قال أبو نواس: «وداونى بالتى كانت هى الداء».

سحب الدكتور كرم ورقة من على المائدة وأخرج من جيبه قلما ذهبيا وقال:

- أليس أبو نواس هو الشاعر الذى اشتهر بالخمر فى العصر العباسى؟

- بالضبط.

- هل يمكنك تكرار هذا البيت؟ أريد أن أكتبه.

دوَّنه بسرعة ثم قال وهو يضع القلم فى جيبه:

- سآخذ كأسا مثلك حتى أتخلص من الصداع.

كنا نتحاشى النظر إلى بعضنا وكأننا فجأة تذكَّرنا المشاجرة.. أخذ رشفة كبيرة من الويسكى وتنهد قائلا:

- أنا آسف يا ناجى!

- بل أنا الذى أخطأت فى حقك.

- كنا مخمورَيْن وتشاجرنا وانتهى الأمر.. لكننى جئت الليلة لسبب آخر.

كان يحمل حقيبة صغيرة فى يده، رفعها ووضعها بيننا على المنضدة الرخامية المستديرة، ثم ارتدى نظارته ذات الإطار الذهبى وأخرج مجموعة أوراق.

- تفضل.

- ما هذا؟

- شىء أريدك أن تقرأه.

كانت الإضاءة خافتة وكنت أعانى من الصداع، فقلت:

- أستأذنك فى قراءته فيما بعد.

- بل الآن.. من فضلك.

تزحزحت إلى اليمين قليلا حتى أقترب من الضوء.. كانت الأوراق مكتوبة بالعربية.. بدأت أقرأ:

«مشروع مقدم من الدكتور كرم دوس أستاذ جراحة القلب المفتوح بجامعة نورث ويسترن إلى كلية الطب بجامعة عين شمس».

لم يتركنى أكمل القراءة.. استند بمرفقيه على المائدة و قال:

- قدمت هذا المشروع العام الماضى لجامعة عين شمس.

طلب كأسا أخرى واستطرد بحماس:

- أنا الآن اسم كبير فى جراحة القلب، أتعابى عن العملية الواحدة كبيرة جدا.. ومع ذلك عرضت على المسئولين فى طب عين شمس أن أجرى العمليات مجانا لمدة شهر كل عام.. كنت أريد أن أساعد المرضى الفقراء وأنقل إلى مصر تقنيات الجراحة المتقدمة.

- عظيم!

- أكثر من ذلك.. قدمت لهم مشروعا لإنشاء وحدة جراحة حديثة، لم يكن سيكلفهم شيئا تقريبا.. كنت سأحصل لهم على دعم مالى عن طريق علاقاتى الجيدة بالجامعات ومراكز الأبحاث الأمريكية.

- فكرة ممتازة!

هكذا هتفت وإحساسى بالذنب يتزايد.

ـ هل تعلم ماذا كان ردهم؟

ـ طبعا رحبوا بك.

ـ ضحك وقال:

ـ لم يردوا عليّ. وعندما اتصلت بعميد طب عين شمس، شكرني وقال إن فكرتي غير قابلة للتنفيذ في الوقت الحالي.

ـ لماذا؟

ـ لا أعرف!

رشف من الكأس وبدا لي أنه يركز تفكيره بصعوبة.. كنت أعلم أن استئناف الشراب صبيحة السُّكْر، كما يزيل الصداع، يستعيد مفعول الخمر بقوة.

ـ لم أحك هذه القصة لأحد، لكنك يجب أن تعرفها.. لأنك بالأمس اتهمتني بالهروب من مصر.

ـ أعتذر مجددا.

أطرق وقال بصوت خافت وكأنه يكلم نفسه:

ـ أرجوك، كُفَّ عن الاعتذار.. أريدك فقط أن تعرفني على حقيقتي.خلال ثلاثين عاما عشتها في أمريكا لم أنس مصر يوما واحدا.

ـ ألست سعيدا بالحياة هنا؟

تطلع إليَّ وكأنه يبحث عن العبارة المناسبة، ثم ابتسم وقال:

ـ هل أكلت الفاكهة الأمريكية؟

ـ ليس بعد.

ـ إنهم هنا يستعملون الهندسة الوراثية حتى تصل الفاكهة إلى

أحجام كبيرة جدا، وبالرغم من ذلك فإن طعمها ليس لذيذا.. الحياة في أمريكا يا ناجي مثل الفاكهة الأمريكية، مغرية وبراقة من الخارج، لكنها بلا طعم!

ـ أتقول هذا بعد كل ما حققته؟

ـ كل نجاح خارج الوطن يظل ناقصا.

ـ لماذا لا ترجع إلى مصر؟

ـ من الصعب أن تلغي ثلاثين عاما من حياتك.. القرار صعب، لكني فكرت فيه.. كان المشروع الذي قدمته خطوتي الأولى للعودة.. لكنهم رفضوه!

نطق الكلمة الأخيرة بمرارة، فقلت:

ـ من المحزن حقا أن تفقد مصر أمثالك!

ـ ربما تجد صعوبة في فهم ذلك لأنك ما زلت شابا.. عندما يعشق رجل امرأة ويتعلق بها بشدة ثم يكتشف أنها تخونه، هل تفهم هذا النوع من العذاب؟.. أن تلعن المرأة وفي نفس الوقت تحبها ولا تستطيع أبدا أن تنساها! هكذا أحس نحو مصر.. أحبها وأتمنى أن أقدم كل ما لديَّ من أجلها.. لكنها ترفضني!

لمحت عينيهْ تترقرقان بالدمع فاندفعت نحوه، أحطته بذراعي وانحنيت لأقبّل رأسه، لكنه أبعدني برفق قائلا وهو يحاول الابتسام:

ـ ما رأيك لو ننهي هذه الدراما؟

شرع في تغيير الموضوع وسألني عن دراستي، وقضينا نحو نصف ساعة نتحدث في أمور متنوعة.. وفجأة، انتبهنا على صوت نسائي ينبعث بجوارنا:

ـ هاي.. آسفة للمقاطعة.. لديَّ سؤال.

ـ تفضلي.

هكذا رددت بسرعة.. كانت فتاة في العشرينيات، شقراء وممتلئة، وكنت قد لمحتها أثناء الحديث تدخل من باب البار وتجلس على المائدة المجاورة لنا.

ـ بأية لغة تتحدثان؟

ـ العربيـــة.

ـ هل أنتما عربيان؟

ـ نحن من مصر.. الدكتور كرم جراح قلب وأنا أدرس الطب في إلينوي.

ـ أنا وندي شور.. موظفة في بورصة شيكاجو.

ـ أنت محظوظة إذن.. لديك أموال كثيرة.

ضحكت وقالت:

ـ أنا أمسك بالنقود فقط ولا أملكها.. للأسف!

ساد جو من المرح بيننا، وفجأة نهض الدكتور كرم وربت كتفي قائلا:

ـ سأنصرف الآن.. لم أنم منذ الأمس، ولديَّ عملية غدا في السابعة صباحا.

ثم التفت إلى وندي وصافحها قائلا:

ـ سعيد بالتعرف إليك ميس شور.. أتمنى أن أراك مرة أخرى.

ظللت أتابعه بنظري حتى اختفى عبر باب البار.. أحسست أنني أحبه، وقلت لنفسي: يجب أن أتروى بعد ذلك في الحكم على

الناس حتى لا أقفز إلى نتائج خاطئة كما حدث!.. انتبهت على صوت وندى المرح:

ـ هيا.. حدثني عن مصر.

حملت كأسي وانتقلت إلى مائدتها..كانت جميلة، شعرها الأصفر لمته إلى أعلى فبان عنقها الرائع، وثمة نمش خفيف على خديها يمنحها طابعا طفوليا تؤكده عيناها الزرقاوان المتسعتان وكأنها مندهشة دائما. تذكرت نصائح جراهام، فقلت:

ـ لن أحكي لك عن مصر حتى تقبلي دعوتي إلى شراب.

ـ هذا لطيف منك.

ـ ماذا تشربين؟

ـ جين تونيك لو سمحت.

١٧

منذ أنشئت شيكاجو لم تنقطع هجرة الزنوج إليها. مئات الألوف هربوا من العبودية فى ولايات الجنوب، جاءوا إلى شيكاجو يدفعهم حلم أن يكونوا مواطنين أحرارا لهم كيان وكرامة. التحقوا بالعمل فى المصانع، وعملت زوجاتهم خادمات فى البيوت وجليسات أطفال، وسرعان ما اكتشفوا أنهم استبدلوا قيود العبيد الحديدية بقيود أخرى غير مرئية لا تقل قسوة.. فمنذ عام ١٩٠٠ لم يُسمح قَطّ للسود بالحياة إلا فى جنوب المدينة، حيث تعمدت السلطات إنشاء المساكن الرخيصة للفقراء، وقد عجز السود عن الانتقال إلى أحياء أفضل لأنهم فقراء، ولأنه لم يُسمح لهم مطلقا بالخروج من الجيتو؛ فعلى مدى أكثر من مائة عام لم يفتر لحظة ذلك النفور الراسخ كالعقيدة لدى البيض من مساكنة السود، والذى يصفه علم النفس الأمريكى بمصطلح NEGROPHOBIA «الخوف من الزنوج».. وقد باءت بالفشل كل المحاولات العفوية والمتعمدة لاختراق الحاجز.. ففى يوم ٢٧ يوليو من عام ١٩١٩، بلغ الجو فى شيكاجو درجة من الحرارة دفعت صبيا أسود فى السابعة عشرة يدعى يوجين ويليامز إلى قضاء اليوم على الشاطئ فى شارع ٢٩. كان الشاطئ منقسما،

كأى شيء آخر فى المدينة، إلى مكان للبيض وآخر للسود، وقد أحس يوجين بانتعاش رائع وهو يلقى بجسده فى المياه الباردة، وظل يسبح ما يقرب من ساعة. . ثم خطر له، لسوء الحظ، أن يختبر قدرته على الغطس، فبدأ يحتجز الهواء في رئتيه و يغوص تحت السطح. . ولأن الإنسان إذا غطس لا يستطيع تحديد اتجاهه بدقة، أخرج يوجين رأسه من تحت الماء وفتح عينيه فاكتشف أنه قد عبر الحاجز وأصبح فى المكان المخصص لسباحة البيض! . . سمع صياحا غاضبا يتصاعد حوله، وقبل أن يتمكن من الفرار من حيث أتى، أمسك به السابحون البيض وقد أعماهم الغضب من جراء تدنيس مياههم الإقليمية. . ظلوا يشتمونه ويضربونه، لكموه فى بطنه ووجهه بكل ما أوتوا من قوة، ثم استعمل بعضهم مجاديف خشبية انهالوا بها على رأسه حتى مات، فألقوا به على الشاطئ. . وازداد الأمر سوءا عندما رفض رجال البوليس البيض بإصرار أن يلقوا القبض على القتلة أو حتى يحققوا معهم! . . وشهدت شيكاجو على مدى ستة أيام صراعات عنصرية مروعة بين البيض والسود أدت إلى مقتل ٣٨ شخصا وإصابة وتشريد المئات. . وظلت ذكرى الصبى يوجين ويليامز بمثابة عبرة قوية لكل من تسول له نفسه كسر الحاجز.

وفى عام ١٩٦٦، فى خضم حركة الحقوق المدنية التى اندلعت ضد العنصرية وحرب فيتنام، وصل إلى شيكاجو الزعيم الأسود الشهير مارتن لوثر كينج وقاد مسيرة كبيرة من عشرات الألوف من السود، اخترق بها أحياء البيض. كان مارتن لوثر كينج يريد أن يبعث برسالة حب وإخاء مسيحية، ويعلن فى نفس الوقت أن

الأوضاع العنصرية لم تعد تُحتمل، لكن النتيجة كانت عنيفة ومحبطة، فقد تصدى السكان البيض للمسيرة بوحشية . . ألقوا على المتظاهرين بكل ما وجدوه فى متناول أيديهم، بدءا من البيض النيئ والطماطم الفاسدة وحتى الحجارة والهراوات، ثم أطلقوا الرصاص بغزارة مما أدى إلى إصابة الكثيرين من السود . . ولم يلبث الزعيم مارتن لوثر كينج نفسه، بعد ذلك بشهور، أن لقى مصرعه برصاص المتعصبين.

وفى عام ١٩٨٤ استطاع زوجان من السود أن يحققا ثروة، فاشتريا منزلا فى ضاحية للأثرياء البيض، وجاءتهما الإجابة فورا . . تحرش بهما البيض وألقوا عليهما الحجارة مما أدى إلى إصابتهما بجروح بالغة، ثم تمادى الجيران الغاضبون فأحرقوا الجراج ثم المنزل الجديد بأكمله مما أدى بالزوجين إلى الفرار. وتكررت نفس الحادثة مع زوجين آخرين من السود فى نفس العام، وكانت النتيجة أكثر مأساوية! . . وهكذا، على مدى تاريخ شيكاجو، ظل الحاجز العنصرى بمثابة صخرة الحقيقة الصلبة، لا يمكن تجاهلها أو تفاديها . . شمال المدينة يضم أحياء وضواحى راقية تسكنها نخبة من البيض يحققون واحدا من أعلى معدلات الدخل فى أمريكا . . أما الجنوب الأسود فيصل فيه الفقر إلى مستويات يصعب تخيل وجودها فى أمريكا: تنتشر البطالة والمخدرات وحوادث القتل والسرقة والاغتصاب، وتتدهور مستويات التعليم والصحة، ويتشوه كل شيء حتى مفهوم الأسرة، فينشأ كثير من الأطفال السود فى كنف الأم بعد هروب الأب أو قتله أو سجنه . . هذا التناقض الصارخ بين عالمين هو ما

دفع عالم الاجتماع الشهير جريجورى سكايرز إلى استعمال لغة الأدب فقدم أبحاثه عن شيكاجو بالعبارة التالية:

«ليست التناقضات العديدة التى تحملها شيكاجو ما يميزها، لكن ما يجعلها مدينة متفردة أنها تحمل تناقضاتها دائما إلى الذروة..».

* * *

أول ما دخل رأفت ثابت بسيارته إلى حى أوكلاند هاله المنظر: البيوت مصنوعة من الطوب الأحمر وكثير منها متهدم، الأفنية الخلفية مملوءة بالأشياء القديمة والنفايات، شعارات العصابات مكتوبة باستعمال الاسبراى الأسود والأحمر على الحوائط، جماعات من الزنوج الشباب واقفون على النواصى يدخنون الماريجوانا، وبعض البارات تنبعث منها أصوات موسيقى وصخب عنيف.. ازداد إحساس رأفت بالجزع وسأل نفسه: كيف تعيش ابنته فى هذا المستنقع؟.. كان عازما على رؤيتها بأية طريقة.. لم يفكر ماذا سيقول لها عندما يطرق الباب ويوقظها فى الثانية صباحا.. سيراها الآن وليكن ما يكون.. هكذا قال لنفسه وهو يبطئ بسيارته ويتطلع إلى أرقام المنازل. كان يحفظ عنوان جيف، ولما وصل قرب منزله دخل إلى ساحة الانتظار المقابلة، أغلق السيارة بمفتاح التحكم ومد خطوته ليخرج إلى الشارع، كانت العتمة كاملة وثقيلة، وانتابه فجأة إحساس غير مريح.. وما إن اجتاز الصف الأول من السيارات حتى أحس بأن أحدا يتبعه. حاول أن يطرد هذا الخاطر، لكنه سمع - بوضوح هذه المرة - شيئا

يتحرك فى الظلمة بجواره . . توقف والتفت حوله ، وشيئا فشيئا بدأ يميز جسما ضخما يقترب فى الظلام :

ـ لماذا لم يأوِ العجوز إلى فراشه حتى الآن؟

أصابت المفاجأة رأفت بالشلل فلاذ بالصمت . أطلق الرجل ضحكة عالية وبدا من صوته الناعم المسترخى أنه تحت تأثير المخدر :

ـ لماذا جئت إلى أوكلاند يا عجوز؟ هل تبحث عن امرأة أم تريد أن تملأ دماغك؟

ـ جئت أزور ابنتي .

ـ وماذا تفعل ابنتك فى أوكلاند؟

ـ تعيش مع صديقها .

ـ لا بد أن يكون صديقها رجلا حقيقيا . . أوكلاند لا تنجب إلا الرجال . . ماذا تريد من ابنتك يا بابا؟

ـ جئت لأطمئن عليها .

ـ يا لك من أب حنون! . . اسمع يا بابا . . أنا ماكس . . من رجال أوكلاند . . وأحتاج الآن إلى ملء دماغى يا بابا .

ساد الصمت لحظة ، ثم قال ماكس وقد غير صوته إلى نبرة جادة عميقة :

ـ أريد منك خمسين دولارا يا بابا حتى أشترى أعشابا وأملأ دماغى .

لم يرد رأفت، فمد ماكس يده الضخمة ووضعها على كتفه قائلا:

ـ أعطنى خمسين دولارا.. لا تكن بخيلا عفنا.. هيا هيا.

وبحركة خاطفة، أخرج من جيبه مطواة وفتحها، فأصدرت صوتا مكتوما وظهر نصلها الطويل لامعا فى الظلمة.

ـ هيا يا بابا.. ليس لدىَّ وقت أضيعه.. هل ستدفع، أم تريدنى أن أخلصك من قسوة هذا العالم؟

مد رأفت يده ببطء إلى جيبه وأخرج محفظة نقوده، ثم انتبه إلى أنه لن يرى شيئا فى الظلام الدامس.. وكأنما أدرك ماكس ذلك فأضاء بطارية صغيرة فى يده.

ـ ها أنا أساعدك لترى النقود التى تحملها.. أريد خمسين دولارا فقط يا بابا.. أنت محظوظ لأنك قابلت ماكس الطيب.. لو كنت شريرا لأخذت المحفظة كلها.. لكننى لست لصا يابابا.. أنا رجل شريف لا يجد عملا فى شيكاجو اللعينة.. رجل شريف مفلس يحتاج إلى ملوة دماغ.. هذا كل ما فى الأمر.

أخرج رأفت ورقة بخمسين دولارا، فاختطفها منه ماكس وتراجع خطوة وهو لا يزال شاهرا المطواة وقال:

ـ اذهب الآن إلى ابنتك.. ونصيحة يا بابا.. إياك أن تتجول فى أوكلاند فى الليل.. ليس كل الناس هنا طيبين مثل ماكس!

كان رأفت، خلال إقامته الطويلة فى شيكاجو، قد تعرَّض إلى مواقف مشابهة، وكان يعرف الطريقة الصحيحة لمواجهتها: «إياك

أن تتجاهل مهاجمك، وإياك أن تقاومه، من يسرقك بالإكراه غالبا لا يعى من فرط السكر أو التخدير، وقد يقتلك فى أية لحظة. . أعطه ما يطلب. . لا تناقش. . لا تحمل معك نقودا كثيرة لأنه سيأخذها كلها، ولا تمش دون نقود لأنك لو خيبت أمله قد يقتلك».

مد رأفت خطوته مبتعدا وسمع خلفه ماكس يتحدث إلى شخص آخر خمن أنه كان مختبئا فى الظلام. كان منزل جيف يبعد نحو مائة متر عن موقف السيارات قطعها رأفت بسرعة وهو يفكر بغضب متزايد: «كيف تركت سارة الضاحية الراقية التى نشأت فيها وجاءت لتعيش بين المجرمين؟!. . إن حياتها فى خطر حقيقى بسبب تعلقها بهذا الأفاق، وواجبه كأب أن ينقذها بأقصى سرعة. . هذا ما سوف يفعله. . الآن». دفع بقدمه بوابة السور الحديدى، فأصدرت صريرا عتيقا وكئيبا. قطع الحديقة الصغيرة السابحة فى الظلام على عجل، وصعد درجات ثلاثا ووقف أمام باب البيت. . كان يلهث من فرط المجهود والانفعال. . مد يده ليضغط الجرس، لكنه لم يلبث أن أرخى ذراعه بجانبه. «ماذا سيقول لها؟!. . هل يوقظها من النوم فى الثانية صباحا ليطلب منها أن ترجع معه إلى البيت؟!. . وهل توافق بهذه البساطة؟».

وقف لحظات مترددا أمام الباب، ثم قرر أن يعطى لنفسه فرصة للتفكير، فاستدار وبدأ يطوف على مهل حول المنزل. كان الممشى الجانبى ضيقا، ولمح فى آخره نافذة صغيرة ينبعث منها الضوء، «لا يزالان مستيقظين إذن». . هكذا قال لنفسه، وسيطرت عليه رغبة

غريبة، فتسلل بخطوات حذرة حتى وصل إلى النافذة. . كانت ثمة ستارة كالحة تحجب ما بالداخل، لكنه اكتشف فرجة صغيرة بين طرف الستارة وزجاج النافذة تسمح له بالرؤية من زاوية جانبية ضيقة. ألصق وجهه بزجاج النافذة حتى أحس ببرودته تسرى إلى أذنه، وتطلع فرأى أريكة يجلس عليها جيف ببنطلونه الجينز وقد ترك صدره عاريا. . بدا هزيلا وشاحبا وثمة هالات سوداء تحوط عينيه الجميلتين. . كان يضحك ويلوح بيديه متحدثا إلى شخص غير ظاهر خمن رأفت أنها سارة. استمر الحديث بضع دقائق، واستسلم رأفت إلى رغبته فى التلصص فظل ثابتا فى مكانه، ولم تلبث سارة أن ظهرت. . كانت ترتدى قميص نوم أزرق قصيرا جدا يكشف عن ثدييها وفخذيها تماما. . ألقت بنفسها بجوار جيف الذى انحنى فجأة فخرج من مجال الرؤية. شب رأفت على أطراف قدميه حتى يتمكن من متابعة المشهد. رأى أمام الحبيبين منضدة صغيرة عليها طبق أبيض ممتلئ بما يشبه الرمل الأبيض الناعم. . لف جيف قطعة من الورق المفضض فى حجم سيجارة على هيئة قمع، رفعه وأدخله فى فتحة أنفه وجذب من المسحوق عدة مرات متتابعة، تطلع ببطء إلى السقف وأغمض عينيه وتقلصت ملامحه وكأنما دهمه ألم مفاجئ، ثم أعطى القمع إلى سارة فجذبت مرة واحدة وغاصت فى الأريكة وقد بدا عليها الاسترخاء. . كررا الشم مرة أخرى، وفجأة التفت جيف نحو سارة واحتضنها بقوة. . أخذا يتبادلان القُبَل ببطء ولذة، راح يلعق أذنها وهوى إلى عنقها يقبّله بنهم، ففتحت فمها وكأنها تتأوه. . أدخل يديه فى قميصها ببطء متلذذ مثير ثم أخرج نهديها وأخذ يدعكهما براحتيه. . كان يوجه إليهما كلاما وهو يبتسم

وكأنه يهدهد طفلا . . في حين ظلت هي تصرخ من فرط اللذة . . بدا الاثنان في حالة حادة من الانفعال، وكأنهما يريدان أن ينعما بالجنس قبل أن ينسحب أثر المخدر، أو كأنهما على نحو غامض لا يمكن تفسيره يشعران بأنهما مراقبان فيتعمدان استعراض أقصى ما لديهما من غرام . . استمر جيف يعض نهديها ويلعقهما ويمتص حلمتيها حتى دفعته هي برفق، فاستلقى على ظهره، وبديا في تلك اللحظة وكأنهما يتحركان وفقا لإيقاع راسخ متفق عليه . . انحنت عليه، مدت يدها وفكت سوستة البنطلون، ثم أخرجت عنقوده وتأملته بشهوة، أدارت لسانها حوله عدة مرات، ثم بدأت تمتصه وقد أغمضت عينيها باستمتاع . . لم يشعر رأفت بنفسه إلا وهو ينطلق بسرعة نحو الباب . . دق الجرس بعنف وبلا انقطاع، وأخذ يخبط الباب بكفيه وقدميه بأقصى ما يستطيع . مرت لحظة طويلة وسُمع صوت أقدام تقترب، أضيء النور الخارجي ثم فُتح الباب، وظهرت سارة وقد ارتدت روبا حريريا على قميص النوم . . تطلعت إليه بعينين مفزوعتين وكأنها لا تصدق . . فتحت فمها لتقول شيئا ما، لكنه عاجلها بصفعة قوية على وجهها أتبعها بركلة من قدمه أصابت بطنها، فصرخت بألم، وعلا صوته كالرعد وهو يقتحم البيت :

ـ يا مدمنة، يا عاهرة . . سأقتلك!

١٨

خبطت شيماء الصينية على المائدة بقوة، فأحدثت دويا وتناثرت قطرات من «أم على» خارج الطبق. . تطلعت نحو طارق بتحفز، وقالت وهى تلهث من فرط الانفعال:

ـ كيف تسمح لنفسك بأن تلمسنى؟

امتقع وجهه تماما . وتمتم بصوت خافت:

ـ أنا آسف!

ـ اسمع يا طارق. . إذا كنت تعتقد أننى فتاة سهلة فأنت مخطئ. . لو تكررت قلة أدبك هذه فلن ترانى بعد ذلك أبدا. . فاهم؟!

ظل صامتا، أطرق وبدا وكأنه طفل مذنب كسر آنية باهظة الثمن. . استأذن وانصرف، وتابعته هى بنظرة لائمة حتى أغلق الباب خلفه. ظل جسدها يرتعد وهى تستشعر ملمس يديه على يديها وأنفاسه الحارة على وجهها. . كانت حركته المفاجئة قد أذهلتها، فاستغرقت لحظة حتى استوعبت وانتفضت مبتعدة عنه، لكن تلك اللحظة دفعت بها إلى مجال لم تطأه من قبل. . منطقة سرية مختلسة محملة بأحاسيس شائكة لذيذة لم تعرفها إلا فى

أحلامها المحرمة . . انطلقت فى ذهنها فورا تحذيرات أمها وكأنها صفارات الإنذار، كلماتها الصارمة التى سمعتها ألف مرة منذ فاجأتها الدورة الشهرية أثناء حصة الجغرافيا فى الصف الأول الإعدادى :

«الرجال يا شيماء لا يريدون إلا جسد المرأة، وهم يفعلون كل شىء من أجل الحصول عليه . . الشبان يغوون البنات بكلمات معسولة، يوهمونهن بالحب حتى يقضوا وطرهم منهن . . جسمك شرفك يا شيماء وشرف أبيك، جسمك كرامتنا جميعا، إذا فرطت فيه سنعيش طوال العمر أذلاء منكسى الرؤوس . . جسمك أمانة وضعها ربنا سبحانه وتعالى فى يديك لتحافظى عليه سليما طاهرا حتى تسلميه لمن يتزوجك على سنة الله ورسوله . . اعلمى يا شيماء أن الرجل لا يتزوج أبدا من تمنحه أى شيء من جسدها . . الرجل لا يحترم المرأة السهلة ولا يمكن أن يأتمنها على شرفه وأولاده» .

بعد ما استعادت هذه القواعد التى نشأت عليها، أحست بالرضا لأنها أوقفت طارقًا عند حده . . بعد قليل فكرت بهدوء : «بالرغم من أنه ارتكب خطأ فاحشا وحاول أن يحتضنها، فإنه ـ من ناحية أخرى ـ قد صارحها بحبه، ومعنى ذلك أنه يحترمها ويريد أن يتزوجها» . .

جلست تستذكر وعزمت على التركيز بكل قوتها . . قالت لنفسها : « يجب أن يكون حبنا أنا وطارق دافعا إضافيا لكى نجتهد حتى نحصل على الشهادة ونعود إلى مصر ونتزوج» . . انتهت من الاستذكار وقامت إلى الحمام، توضأت وأدت صلاة العشاء

والشـفع والوتر، ثم أغلقت نور الحـجرة ودلفت فى الظلام إلى فراشها. . ظلت محدقة فى الظلمة، وعندئذ حدث ما أدهشها: استرجعت ما فعله طارق معها فلم تستنكره ولم تغضب منه، بل جرفها حنان غامر! . . إنه يحبها وأراد أن يحتضنها كما يفعل المحبون، هذا كل ما فى الأمر. . ألا يمكن أن تكون بالغت فى غضبها؟ . . عاودتها تحذيرات أمها بشراسة، لكنها وجدت نفسها لأول مرة فى حياتها تعيد النظر فيها: إذا كان ما تقوله أمها صحيحا، فالمفترض أن البنت التى تفرط فى جسدها ولو قليلا لا يمكن أن تتزوج أبدا، لكنها تعرف حكايات كثيرة تثبت عكس ذلك، تعرف بنات تساهلن مع الرجال ثم فزن بزيجات ممتازة. . زميلتها رضوى المعيدة فى قسم الباثولوجى فى طب طنطا، رافقت أستاذها وظلت علاقتهما غير البريئة حديث الكلية لفترة طويلة. . وفى النهاية طلق الأستاذ زوجته أم أولاده وتزوج من رضوى وأنجب منها. . ولُبْنَى جارتها فى طنطا؟ . . ألم تصاحب أكثر من شاب وحكت لها بنفسها عن علاقات جسدية معهم؟ . . قبلات وأحضان وأكثر من ذلك لا تقوى شيماء حتى على تخيله! . . ماذا حدث فى النهاية؟ . . هل ضاعت سمعة لبنى وانتهى مستقبلها؟ . . هل باءت باللعنة والاحتقار إلى الأبد؟ . . بالعكس، تزوجت من تامر ابن المليونير فرج البهتيمى صاحب مصانع الحلويات الشهيرة، وهو يتدله فى حبها ولا يرفض لها طلبا. . لبنى التى عبث الشبان بجسدها تعيش الآن كأميرة فى فيلا كالقصر على أطراف طنطا، وهى زوجة سعيدة وأم لطفلين! . . ولماذا تذهب بعيدا؟ . . هى نفسها. . ألم تحافظ على جسدها؟ . . ألم تتجاوز الثلاثين بغير أن يلمسها رجل؟ . . عاشت عمرها

ملتزمة ولم تسمح لأحد فى الكلية بأن يتجاوز حدود الزمالة، حتى أساتذتها تعودت أن تعاملهم بكثير من التحفظ.. إن سمعتها فى الحى والجامعة بيضاء من غير سوء، فلماذا تأخر زواجها؟.. لماذا لم يتهافت عليها الخاطبون من أجل أخلاقها العظيمة؟!.. كل هذه الشواهد تخالف كلام أمها! هل كانت أمها تبالغ فى تحذيرها، أم أنها تتكلم عن أخلاق زمن آخر؟.. ألا يمكن أن يكون تسامح الفتاة مع حبيبها (فى حدود) نوعا من الشطارة تجتذبه للزواج منها؟.. ألا يمكن إذا قبَّلها واحتضنها أن يزداد تعلقه بها؟ إنها بالرغم من دراستها الطبية لا تعرف شيئا عن أحاسيس الرجل.. ألا يمكن أن يكون حب الرجل للمرأة يدفعه رغما عنه للتفكير فى جسدها؟.. ثم.. إذا كانت كل علاقة خارج الزواج عيبا وحراما وذنبا عظيما تحيق اللعنة حتما بمرتكبيه، فلماذا لا يلعن الله هؤلاء الأمريكيين الذين يعيش معظمهم فى الحرام؟.. هؤلاء الشبان والفتيات الذين ينتشرون خلال عطلة نهاية الأسبوع فى محطات المترو والحدائق.. إنهم يتبادلون القبلات الحارة علنا ويتمادون أحيانا فيفعلون على الملأ ما تخجل هى من فعله مع زوجها الشرعى فى حجرة مغلقة.. لماذا لا يحيق سخط الله بهؤلاء الفاسقين؟!.. إن الشهور التى قضتها فى شيكاجو جعلتها تفكر فى حياتها بطريقة مختلفة.. الثوابت التى نشأت على تقديسها بدأت تساورها شكوك حولها.. هل سيحاسبنا الله نحن المسلمين بطريقة ويحاسب الأمريكيين بطريقة أخرى؟ هؤلاء الأمريكيون يقترفون الكبائر جميعا.. يزنون ويمارسون الشذوذ بأنواعه، يلعبون القمار ويحتسون الخمور.. لكن ربنا سبحانه وتعالى لا يبدو غاضبا عليهم.. لأنه بدلا من

عقابهم على المعصية منحهم الثروة والعلم والقوة حتى أصبحوا أكبر وأقوى دولة فى العالم . . لماذا يعاقبنا الله نحن المسلمين عندما نقترف الذنوب فى حين يتساهل مع الأمريكيين؟

«أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . . أستغفرك ربى وأتوب إليك!» .

هكذا رددت وقد فزعت من جموح خواطرها . . تقلبت على جنبها وضغطت بالوسادة على رأسها لتوقف تدفق الأفكار، لكنها عندما أغمضت عينيها تجلت لها حقيقة راسخة نهائية : إن طارقًا يحبها ويحترمها، وهو لم يرد بها سوءا، لقد أراد أن يحتضنها ليعبر لها عن مشاعره . . لا أكثر ولا أقل . . الأمر لم يكن يستحق كل ما فعلته . . كم كانت قاسية معه! . . تتذكر الآن وجهه الحبيب الممتقع وهو يتمتم معتذرا و يجرجر خجله . . نامت وهى تحس بإشفاق عميق نحوه . ولما استيقظت فى الصباح كان أول ما فعلته أن اتصلت به . بدا صوته مرتبكا وكأنه يتوقع أن تؤنبه من جديد، لكنها انطلقت تتحدث معه بمرح لتثبت له أنها نسيت الأمر . . خططا ليومهما كالعادة، ومر الأسبوع بطريقة عادية، لكن علاقتهما صارت أكثر حميمية وكأن ما حدث قد قرب بينهما . . ونشأ بينهما إحساس جديد : صارا إذا اقترب جسداهما ولو للحظة واحدة، دون قصد، انتصب بينهما فورا توتر مشدود كقوس السهم، عندئذ يرتبكان ويتلعثمان ويتضرج وجهها وكأنه فتح عليها الباب وهى عارية! . . ولما جاء يوم السبت خططا لقضائه معا كالعادة . . قال طارق :

ـ ما رأيك؟ نذهب إلى السينما، ثم أدعوك إلى العشاء في مطعم البيتساَ الذى اكتشفته.

لم يَبْدُ عليها الحماس، وقالت:

ـ بصراحة.. الجو برد، وأنا زهقت من ركوب المترو.. اسمع.. سنتعشى عندى فى الشقة.. سأعمل لك بيتسا أحسن من المطعم مائة مرة.. ما رأيك؟

بدا وكأنه لم يفهم. أخذ يحدق فى وجهها الذى تضرج فجأة وأطلقت ضحكة عصبية.. ماذا تريد بالضبط؟.. لقد حاول أن يحتضنها فعملت له فضيحة.. لماذا تدعوه إلى بيتها من جديد؟! ارتبك طارق وتشتت ذهنه تماما حتى إنه فشل فعلا فى فهم درس الكيمياء العضوية الجديد.. والغريب أنه لم ينزعج كثيرا من ذلك!.. قال لنفسه وهو يغلق الكتاب: «سأحاول أن أفهمه فيما بعد».. ألقى بنفسه على الفراش ووضع ساقا على ساق (وضعه المفضل للتفكير).. ثم تساءل: ماذا سيفعل مع شيماء؟ وأجاب فورا: سأذهب إلى بيتها طبعا وليكن ما يكون!.. وفى الموعد تماما وقف أمام بابها وهو يرتدى طقم الخروج الأكثر أناقة: بنطلون كحلى وفانلة صوف بيضاء برقبة وجاكت أسود من الجلد الطبيعى، وما إن خطا إلى الداخل حتى انبعثت فى أنفه رائحة العجين فى الفرن.. جلس يتفرج على التليفزيون حتى انتهت شيماء من الطهى، أعدت المائدة ونادت عليه بصوت رن فى سمعه مؤثرا وناعما.. كانت ترتدى عباءة مغربية زرقاء مطرزة بالقصب، وقد خفق قلبه بشدة عندما لاحظ أنها مغلقة بسوستة طويلة تمتد من الصدر إلى أسفل.. كان جسدها مغطى بالكامل،

لكن فكرة أن جذبة واحدة للسوستة ستجعلها عارية أخذت تنقر ذهنه كما ينقر العصفور ورقة الشجرة حتى يأتى عليها! . . دهمته خيالات جنسية جامحة (كلها تبدأ بفتح العباءة) قوضت أعصابه! . . كانت البيتسا لذيذة . . جلسا يأكلان ويتكلمان فى موضوعات مختلفة، لكن نبرة صوتها كانت منغمة وعميقة . . ثمة إشارات دافئة غامضة انبعثت منها وشحنت الأثير بينهما، فتشتت ذهنه أكثر وأكثر حتى إنه لم يسمع معظم ما قالته . . وبعد ما فرغا من الطعام أصر على أن يحمل الصحون بنفسه إلى المطبخ، غسلها جيدا وجففها وأعادها إلى الرفوف، ثم شطف البراد وملأه بالماء ووضعه على النار ليصنع الشاي، لكنه فوجئ بها تدخل إلى المطبخ . . اقتربت منه وقالت بصوت خافت محشرج استغربه :

ـ تحب أساعدك؟

لم يرد . كان يحس بخفقان قلبه كدوى الطبول . اقتربت أكثر، وقفت بجواره حتى أحس بملمس العباءة الناعم على ظهر يده وملأت أنفه رائحة عطرها القوى، فبدأ يلهث وضاع تركيزه تماما، وأحس بانقباض فى فم المعدة وخطر له أنه سيغشى عليه . .

* * *

شربنا وتحدثنا، حكت لى ويندى عن أسرتها.. أمها تعمل اختصاصية اجتماعية، وأبوها طبيب أسنان، كانت تعيش معهما فى نيويورك حتى حصلت على عمل فى بورصة شيكاجو.. تقيم وحدها فى ستوديو قريب من رش ستريت.. قالت إنها تحب شيكاجو، لكنها تحس أحيانا بالوحدة والاكتئاب وتفكر أن

حياتها بلا معنى.. سألتنى:

ـ هل تظن أننى بحاجة لاستشارة طبيب نفسى؟

ـ لا أعتقد.. هذه أحزان عادية تصيب الناس جميعا، خصوصا أنك تعيشين وحدك.. أليس لديك حبيب؟

ـ عشت قصة حب واحدة حقيقية رائعة.. لكنها انتهت للأسف فى الصيف الماضى!

أحسست براحة من إجابتها، وبدأت أحكى لها عن نفسى وحبى للشعر، فقالت على استحياء:

ـ للأسف أنا لا أقرأ الأدب.. ليس لدىَّ وقت.

ـ أنت نفسك قصيدة جميلة.

ـ أشكرك.

التقطت حقيبتها من جانبها وقالت:

ـ يجب أن أنصرف.. لدىَّ عمل فى الصباح.

ـ هل يضايقك أن أحدثك فى التليفون؟

ـ إطلاقا.

تحدثت إليها مرتين خلال الأسبوع، ثم دعوتها يوم الجمعة إلى القهوة فى كافيتريا الجامعة (ضغطا للنفقات).. وفى السبت التالي، تطبيقا لتعاليم الحكيم جراهام، دعوتها إلى العشاء.. بدت هذه المرة أكثر ألفة واهتماما بأناقتها.. ارتدت بنطلونا أسود من الحرير، وبلوزة بيضاء بلا أكمام، وجاكت موهير أحمر يحمل على ياقته «بروش» متلألئًا.. بدت لى محاولتها البسيطة للتأنق مؤثرة وصادقة.. تعشينا فى مطعم إيطالى فى وسط شيكاجو، صرنا نتكلم ونضحك بحميمية صديقين قديمين. كنت

فعلا أحس براحة بالغة فى صحبتها، فحكيت لها كل شيء.. عن أمى وأختى ومشكلتى فى جامعة القاهرة وحبى للشعر.. سألتنى:

ـ هل تحلم بأن تكون يوما ما شاعرا مشهورا؟

ـ الشهرة ليست مقياسا لنجاح الأديب.. هناك أدباء مشهورون بلا قيمة، وأدباء عظام لا يعرفهم الناس.

ـ لماذا تكتب إذن؟

ـ أكتب لأن لدىَّ ما يجب أن أقوله.. وما يهمنى ليس الشهرة، وإنما التقدير.. أن يصل ما أكتبه إلى عدد من الناس، حتى ولو كان قليلا، فيغير أفكارهم وأحاسيسهم.

ـ كنت أحلم منذ الطفولة بأن ألتقى يوما شاعرا حقيقيا.

ـ ها هو أمامك.

أمسكت بيديها عبر المائدة، رفعتهما ببطء إلى شفتىَّ وقبلتهما، فتطلعت إلىَّ بابتسامة فاتنة.. خرجنا إلى الشارع ونحن فى نشوة الشراب.. كان وقع خطواتها بجوارى يفرحنى.. سألتنى فجأة:

ـ إلى أين نذهب الآن؟

تسارعت دقات قلبى وقلت:

ـ لدىَّ فيلم تسجيلى عظيم عن مصر.. أتحبين أن نشاهده معا؟

ـ طبعا.. أين هو؟

ـ فى منزلى.

ـ لا بأس.

مشينا إلى محطة المترو. كنت أمد خطوتى متعجلا وكأننى أخاف

أن تعدل عن رأيها. أخذنا مترو الخط الأزرق، جلست فى المقعد المواجه لها، تأملت ملامحها على مهل فبدت لى رقيقة وعذبة للغاية. فكرت أن انجذابى القوى نحوها ربما يرجع إلى المشاكل التى أعانيها منذ وصولى إلى شيكاجو. بالتأكيد أحتاج إلى حنان امرأة! لما وصلنا إلى الشقة جلسنا متلاصقين على الأريكة فى الصالة ورحنا نحتسى النبيذ ونتكلم.. كنت قلقا، أخشى أن أتسرع فى أية حركة فأفسد المناسبة.. أحطتها بذراعى وهى تتكلم، فاربد وجهها للحظة وأحسست بجسدها حارا ومضطرما.. كنت على بعد خطوة واحدة من السعادة، وكنت أعرف بخبرتى أنها لحظة حاسمة، لو أفلتت من يدى سيضيع كل شيء.. انقطع الكلام فجأة وأحسست بحرارة أنفاسها المتلاحقة تلفحنى وكأنها تلهث، وخُيل إلىّ أنها على وشك البكاء.. أخذتها بين ذراعىّ ورحت أقبّلها بنهم على وجهها وعنقها، وأحسست بجسدها ينقبض ثم يسترخى شيئا فشيئا.. مددت يدي، بطريقة تلقائية، إلى ظهرها لأفك مشد الصدر، فجذبت نفسها بنعومة وطبعت قبلة خاطفة على خدى.. ثم همست برقة وهى تنهض:

ـ سأدخل الحمام وأعود بسرعة.

ما إن ظهرت عارية حتى انقضضت عليها فى عناق حار.. مارسنا الحب مرة أولى، قوية عنيفة، وكأننا نتخلص من عبء مشاعرنا المتراكمة، أو كأننا اكتشفنا فجأة إمكانات اللذة فاندفعنا نلتهمها ونحن غير مصدقين.. بعد أن فرغنا استلقيت لاهثا بجوارها على الفراش، والغريب أننى أحسست بدبيب الرغبة يناوشنى من بعيد!.. كان هذا حدثا نادرا. مشكلتى المزمنة مع النساء ذلك السأم الثقيل الذى يجثم على أنفاسى بعد الغرام، ما

إن أبلغ النشوة حتى ينقشع ضباب الشهوة وأفقد إحساسى بالجمال.. مع ويندى كان الأمر مختلفا.. تطلعت إلى جسدها العارى فبدا قادرا على إغوائى بلا نهاية، أحسست بالدم يتدفق فى عروقى وكأنى لم أشبع رغبتى من لحظات.. أراحت رأسها على صدرى وقالت بصوت رخيم مشبع:

ـ تعرف.. منذ أن رأيتك أول مرة كنت متأكدة أننا سننتهى فى الفراش.

ـ ذلك أنى محظوظ!

ـ كنت عازمة ألا آتى إلى شقتك إلا بعد أن نخرج معا مرة أخرى، لكنى فقدت مقاومتى فجأة.

طبعت قبلة على جبينها وقلت:

ـ أنت أميرتى الرائعة!

ـ لديك خبرة كبيرة فى الفراش مع أنك غير متزوج.. هل من المسموح لكم فى مصر ممارسة الجنس خارج الزواج؟!

ـ نحن نسمح لأنفسنا بذلك.

كان الرد ركيكا، لكنى فى تلك اللحظة لم أكن مستعدا لأى نقاش جاد. أسندت ويندى ذقنها على صدرى وتطلعت إلىّ.. مدت أصبعها تداعب شفتى وكأنى طفل، ثم هتفت بمرح:

ـ هيا.. احك لى عن غرامياتك مع المصريات.

أحسست بثدييها على صدرى ينبعث منهما دفء ناعم لا يحتمل. جذبتها من ذراعيها برفق، فتحركت حتى صارت تنام فوقى تماما. قبَّلتها هذه المرة بعناية وتمهل ثم مارسنا الحب من جديد. كنت قد عرفت تضاريس جسدها، فأدرت نوبة الغرام الثانية بتؤدة وتركيز حتى توهجنا معا، احترقنا. غابت فى النشوة

طويلا ثم انتبهت وقفزت بمرح من الفراش.. أخرجت من حقيبتها كاميرا صغيرة، وقالت وهى تعدها للتصوير:

ـ سألتقط لك صورة.

ـ انتظرى حتى أستعد.

ـ أحب أن أصورك عاريا.

هممت بالاعتراض، لكنها كانت أسرع. لمع ضوء الكاميرا عدة مرات، أخذت لى عدة صور من زوايا مختلفة، ثم ضحكت وقالت:

ـ سوف أبتزك يوما ما بهذه الصور.

ـ سيكون أجمل ابتزاز فى حياتى.

ـ أرجو أن تحتفظ بهذا الرأى للنهاية.. لابد أن أنصرف الآن.

ـ ألا يمكن أن تنتظرى قليلا؟

ـ للأسف لا.. سأعد نفسى المرة القادمة لنقضى معا وقتا أطول.

دخلت إلى الحمام، ولم تلبث أن عادت وقد ارتدت ثيابها وبدا وجهها متوردا، مشرقا بابتسامة أقرب للامتنان.. كنت أنتظرها وقد ارتديت ثيابى، فبادرتنى قائلة:

ـ لا تزعج نفسك بتوصيلى.

ـ سأستمتع بذلك.

ـ الأفضل أن أذهب وحدى.

هكذا قالت بهدوء حاسم.. اندهشت قليلا لكنى احترمت رغبتها.. عانقتها بحرارة وقلت:

ـ ويندى.. أنا سعيد بعلاقتنا.

ـ وأنا أيضا.

هكذا همست وهى تتأمل وجهى وتعبث فى شعرى بأناملها، ثم قالت:

ـ أين الفيلم التسجيلى الذى وعدتنى به؟

ارتبكتُ، فضحكَتْ عاليا وقالت وهى تغمز بعينها:

ـ فهمتُ ألعابك من البداية، لكنى تظاهرت بتصديقها!

ـ متى أراك مرة أخرى؟

ـ الأمر يتوقف عليك.

ـ لا أفهم.

ـ هناك أمر لابد أن أخبرك به ولا أعرف وقعه عليك.

كانت قد فتحت الباب وتركته مواربا استعدادا للانصراف. قالت ببساطة:

ـ أنا يهودية!

ـ يهودية؟!

ـ هل أصابك الخبر بالذهول؟

ـ لا.. أبدا.

ـ ربما أخطأت لأنى لم أخبرك من البداية.. لكنك كنت ستعرف على أى حال.. لا يستطيع الإنسان أن يخفى دينه.

ظللت صامتا، فجذبت الباب لتغلقه خلفها وقالت وقد بدت على وجهها ابتسامة غامضة:

ـ فكر فى علاقتنا جيدا.. تستطيع أن تتصل بى فى أى وقت.. وإذا لم تتصل فأنا أشكرك على الوقت الرائع الذى قضيته معك!

١٩

عندما عرف المعيد كرم عبد الملاك دوس برسوبه للمرة الثانية فى امتحان الماجستير، توجه من فوره لمقابلة الدكتور عبد الفتاح بلبع، رئيس قسم الجراحة فى طب عين شمس.. كان ذلك فى يوم قائظ من صيف عام ١٩٧٥ . دخل كرم إلى المكتب غارقا فى عرقه من أثر الحر والانفعال، ولما سأله السكرتير عن غرض المقابلة أجاب:

- موضوع شخصى.

- الدكتور عبد الفتاح بك ذهب لأداء صلاة العصر فى المسجد.

- سأنتظره.

هكذا قال كرم بتَحَدٍّ وجلس فى المقعد المواجه للسكرتير الذى تجاهله وعاد يقرأ فى أوراق أمامه. مرت نصف ساعة كاملة قبل أن ينفتح الباب ويظهر الدكتور بلبع بقامته الضخمة وصلعته الفسيحة وملامحه الضخمة الصارمة ولحيته الخفيفة والمسبحة الكهرمان التى لا تفارق يده.. هب كرم واقفا، واقترب من أستاذه الذى تفحصه بنظرة مستريبة ثم سأله بما يشبه الانزعاج:

- خيرًا يا خواجه؟.

كان الدكتور بلبع يستعمل لقب «خواجه» فى الحديث إلى الأقباط جميعا، من الأساتذة حتى الفَرَّاشين، وكانت هذه الدعابة الظاهرة تخفى احتقاره العميق لهم! . . استجمع كرم شجاعته وقال:

- أرجو أن يتسع وقت سيادتك لبضع دقائق من أجلِ موضوع يخصنى.

- تعـــال.

سبقه الدكتور وجلس إلى مكتبه وأشار إليه بالجلوس.

- طلباتك؟

- أريد أن أعرف لماذا رسبت فى الامتحان؟

- درجاتك ضعيفة يا خواجه.

هكذا أجاب الدكتور بلبع على الفور وكأنه يتوقع السؤال.

- ولكنْ كل إجاباتى صحيحة!

- وكيف عرفت؟

- تأكدت بنفسى. . ممكن نراجع ورقة الإجابة؟ إذا سمحت.

عبث الدكتور بلبع بأصابعه فى لحيته ثم ابتسم وقال:

- حتى لو كانت إجاباتك كلها صحيحة. . فلن يغير ذلك نتيجتك!

- لا أفهم.

- كلامى واضح. . أداء الامتحان لا يكفى وحده للنجاح.

ـ لكن هذا مخالف للائحة الجامعة!

ـ لائحة الجامعة لا تُلزمنا يا خواجة . . ليس كل من يجيب على سؤالين نسمح له بأن يكون جراحا يتحكم فى حياة الناس . . نحن نختار من يستحق الدرجة العلمية .

ـ على أى أساس؟

ـ على أسس مهمة لن أقولها لك . . اسمع يا كرم . . لا تُضيِّع وقتى . . سأكلمك بصراحة . . لقد تم تعيينك فى القسم قبل أن أرأسه ، ولو كان الأمر بيدى لما وافقت على تعيينك . . فكر جيدا فيما أقوله ولا تغضب . . أنت لن تكون جراحا . . أنصحك بتوفير وقتك ومجهودك . . حاول فى قسم آخر وسأتوسط لك بنفسى .

ساد صمت ثقيل ، وفجأة صاح كرم بمرارة :

ـ سيادتك تظلمنى لأنى قبطى!

رمقه الدكتور بلبع بنظرة صارمة وكأنه يحذره من التمادى ، ثم نهض قائلا بهدوء :

ـ المقابلة انتهت يا خواجه .

* * *

تلك الليلة لم يَذُقْ كرم طعم النوم ، أغلق على نفسه حجرته وفتح زجاجة ويسكى ابتاعها من محل فى الزمالك . . ظل يشرب بلا توقف . . كلما أفرغ كأسا جديدة فى جوفه ازداد توتره ووقف وظل يذرع حجرته ذهابا وإيابا وهو يفكر . . كيف يترك

الجراحة؟! . . لقد التحق بكلية الطب واجتهد سنوات من أجل حلم واحد ملأ حياته: أن يكون جراحا . . لا يمكن أن يتحول إلى تخصص آخر . . لن يتنازل عن الجراحة أبدا و ليكن ما يكون! . . كان يعرف أن سلطة الدكتور بلبع مطلقة وكلمته قدر لا راد له . . قال له بوضوح: «وفر وقتك ومجهودك . . لن تكون جراحا» . إذا أصر على المحاولة سيتسبب فى رسوبه مرارا حتى يفصله من الجامعة . . وقد فعل ذلك أكثر من مرة مع أطباء آخرين! . . يايسوع المسيح . . كيف يسمح بلبع لنفسه بأن يقضى على مستقبل الآخرين بهذه البساطة؟ . . ألا يشعر بظل من تأنيب الضمير عندما يقترف هذا الظلم؟ . . كيف يستطيع بعد ذلك أن يقف بين يدى الرب وهو يصلى؟!

طلع الصبح على كرم، فأخذ حمّاما دافئا واحتسى عدة أقداح من القهوة حتى يتخلص من الإرهاق والسُكْر، ثم ارتدى ثيابه وتوجه إلى السفارة الأمريكية حيث تقدم بطلب الهجرة . . ولم تمض بضعة أشهر حتى كان يجتاز بوابة مطار أوهير ليطأ شيكاجو لأول مرة . . ومنذ الأيام الأولى تكشفت له عدة حقائق: أولها أن كونه مسيحيا لا يضيف إليه شيئا فى المجتمع الأمريكى، فهو بالنسبة للأمريكيين أولا وأخيرا عربى ملون . . وثانيا أن أمريكا بلاد الفرص المتاحة والمنافسة الضارية أيضا، وبالتالى إذا أراد أن يكون جراحا كبيرا، فعليه أن يبذل مجهودا مضاعفا ليكون أفضل من أى زميل أمريكى مرتين على الأقل . . لذلك، ولسنوات طويلة وعصيبة، قاتل كرم باستماتة: اجتاز امتحانات عديدة وتفانى فى الدراسة . . تعوَّد أن يعمل منذ الصباح الباكر وحتى

منتصف الليل بغير أن يشكو أو يتذمر . . عوّد نفسه على أن يكتفى بأربع أو خمس ساعات من النوم ويصحو منتبها ونشيطا . . كان يبيت لأيام متصلة فى المستشفى ولا يتوقف عن العمل أبدا حتى اشتهر بين زملائه وأساتذته بلقب «الطبيب المستعد» DOCTOR READY لأنه كان يقبل فورا أية مهمة تسند إليه، فى اليوم الواحد كان يحضر العمليات والمحاضرات ويستذكر دروسه . . كانت طاقته الجبارة على العمل تثير دهشة أساتذته وإعجابهم . . وعندما يغلبه التعب، فى اللحظة التى يحس فيها أنه لم يعد قادرا على المزيد، تعوَّد كرم دوس أن يغلق باب الحجرة ويركع أمام الصليب الذى يحتفظ به فوق فراشه . . يغمض عينيه ويردد بصوت ضارع : «أبانا الذى فى السماوات»، ثم يدعو الله أن يمنحه القوة والصبر . . كان يناجى الرب وكأنه يراه أمامه . «أنت تعلم كم أحبك وأومن بك . . لقد ظُلمت وأنت ستنصفنى . . باركنى ولا تخذلنى» .

واستجاب له الرب فانتقل من نجاح إلى نجاح، حصل على الماجستير والدكتوراه بتفوق ساحق، ثم عُين فى وظيفة جراح، حتى سنحت له أهم فرصة فى حياته عندما عمل على مدى خمس سنوات كاملة مساعدا لواحد من أساطين جراحة القلب فى العالم، البروفسور ألبرت لينز . . كانت هذه هى الدرجة الأخيرة قبل القمة . . وقد اجتازها كرم دوس وصار بعدها، كما تمنى، جراحا قديرا وشهيرا يُجرى عملياته ثلاثة أيام فى الأسبوع بمستشفى نورث ويسترن الشهير .

فى السادسة والنصف صباحا، بالضبط، عندما يدخل الدكتور

كرم إلى بهو المستشفى . . عندما يحيى العمال المنهمكين فى تنظيف الأرض ويتبادل حديثا مرحا مع عاملة المصعد السوداء العجوز . . عندما يرسم على وجهه ابتسامة مطمئنة مدربة وهو يجيب على أسئلة أهل المريض القلقة ، عندما يخلع ثيابه ويرتدى بدلة الجراح ، عندما يدهن ذراعيه وأصابعه وأظافره بالفرشاة والسائل المعقم . . عندما يقف منتصبا على حين تلف الممرضة جسده برداء العمليات وتربطه من الخلف ثم يبسط يديه أمامها لتدخلها فى القفاز . . عندئذ ، بمعنى الكلمة ، يتخلص كرم دوس من حضوره اليومى العادى ويكتسب بعدا أسطوريا وكأنه شخصية خيالية أو بطل فى ملحمة . . يصير متفردا ، شامخا ، قويا لا يُقهر ، يصنع بإرادته كل ما يحدث حوله ، تتحقق فيه العبارة المأثورة «الجراح الحقيقى هو الذى يمتلك قلب أسد وعين صقر وأنامل عازف بيانو» . . الجو فى حجرة العمليات بارد ، والكشافات ساطعة على بطن المريض النائم الذى ينتظر مصيره ، وصوت تردد أنفاسه فى الجهاز ووقع دقات قلبه المكبرة عشرات المرات يضاعف من رهبة الموقف .

الفريق الجراحى يتكون من الممرضات وأطباء التخدير والمساعدين . . يحييهم الدكتور كرم ويبادرهم بدعابة يضحكون لها بشكل مبالغ فيه ليخفوا توترهم . . يتابعهم وهم يعملون بنظرة متفحصة صارمة لا تخلو من حنان ، وكأنه مايسترو يرقب أداء عازفيه وينتظر وفقا لإيقاع داخلى غامض لحظة اشتراكه فى العزف . تحين اللحظة ، فيمد الدكتور كرم يده بالمشرط إلى الأمام كأنه يفتتح العرض . . يدير يده بالمشرط فى الهواء يمينا ويسارا ثم

يهبط إلى جلد المريض فيلامسه برقة عدة مرات وكأنه يعاينه . . وفجأة، ينقض عليه، يخترق النصل النسيج بضربة واحدة عميقة تكاد تكون شهوانية، تكاد لا تصدق، يتفجر الدم بغزارة، وتهرع أيدى المساعدين بخراطيم الشفط والضمادات . . يعمل الدكتور كرم بتؤدة وثقة وهدوء ودرجة مذهلة من التركيز تجعله أول من يحذر طبيب التخدير من ازرقاق خفيف لا يكاد يُرَى على وجه المريض، أو يلمح انبثاق نقطة متناهية الصغر من الدم قبل أن يلاحظها مساعدوه بعشر ثوان كاملة . . وأثناء الجراحة، يَجرى كل شىء وفقا لنظام صارم : يتم إخراج القلب الطبيعى وإحالة المريض إلى جهاز القلب الصناعى، يستبدل الدكتور كرم شرايين المريض التالفة بأخرى جديدة يقطعها من الساق ويختبرها جيدا خارج الجسم ثم يزرعها بعناية، وفى النهاية يعيد ضخ الدم إلى القلب الذى أصلحه بيديه . . تستغرق العملية ساعات طويلة لا تكف خلالها يداه عن العمل، فى حين تتعلق أنظار المساعدين به، يترقبون أدنى إشارة منه ليلبوها فورا، وكثيرا ما يفهمون ما يريد قبل أن ينطق . . صاروا بخبرتهم يقرءون وجهه من خلف القناع : ما دام يعمل فى صمت فكل شىء على ما يرام، أما إذا توقفت يداه عن العمل فمعنى ذلك أن ثمة خَلَلاً قد حدث، ولن يلبث صوته الأجش أن يجلجل فى الحجرة بنبرة درامية منذرة، وكأنه قبطان سفينة على وشك الغرق . . «شغل الشفاط الإضافى» . . «أعطوه شيئا يرفع الضغط» . . «سأحتاج لساعة أخرى» . . يطيعونه جميعا، فورا؛ فهو الأستاذ . . الجراح . . القائد المحنك الماهر الذى يتحمل مسئولية إعادة هذا المريض النائم إلى الحياة . . مصير أسرة بأكملها يتعلق الآن بين أصابعه التى لا تكف عن الحركة . .

كان كرم دوس جراحا عظيما بحق، وهو مثل عظماء كثيرين لا يخلو من غرابة الأطوار؛ فهو مثلا يخلع ملابسه الداخلية دائما ويرتدى ملابس الجراحة على جسده العارى مباشرة، فيحس عندئذ بالحرية التى تمنحه صفاء الذهن والتركيز! . . وهو منذ أن تولى رئاسة الفريق الجراحى منذ عشرة أعوام، تعوَّد أن يُجرى عملياته وهو يستمع إلى أغانى أم كلثوم، يصدح صوتها فى حجرة العمليات من خلال ميكروفون، أمر الدكتور كرم بتثبيته فى الجدار وتوصيله بجهاز تسجيل في الحجرة المجاورة. . وصار المشهد على غرابته مألوفا: يصفق المستمعون ويهللون لتعيد أم كلثوم مقطعا من «أنت عمرى» أو «بعيد عنك» . . يصيحون «عظمة على عظمة يا ست»، أو يصرخون من فرط الطرب عندما يتجلى محمد عبده صالح في واحدة من تقاسيمه الرائعة على القانون، فيندمج الدكتور كرم مع الموسيقى وهو منهمك فى نفس اللحظة فى خياطة شريان أو قطع المزيد من الجلد والعضلات بالمشرط ليوسع المجال الجراحى أمامه. . يقول الدكتور كرم: إن صوت أم كلثوم يساعده على الاحتفاظ بهدوء أعصابه وهو يعمل، والمدهش أن أعضاء فريقه الأمريكيين صاروا يستسيغون أم كلثوم، أو ربما يتظاهرون بذلك إرضاء له.

مرة واحدة، منذ عامين، التحق بالفريق مساعد جراح اسمه چاك، وما إن رآه الدكتور كرم حتى أدرك بخبرته الأمريكية الطويلة أنه متعصب. . وسرعان ما حدثت بين الاثنين مشاحنات صامتة، مشاجرات أثيرية بلا كلمة واحدة! . . لم يكن چاك يضحك أبدا لدعابات الدكتور كرم، وكان يرمقه بنظرة باردة

طويلة متفحصة تكاد تكون مهينة، كما كان يطيع تعليماته على مضض، ينفذها ببطء متعمد وكأنه يريد أن يقول له: «صحيح أنا أعمل تحت رئاستك. . أنا مجرد مساعد وأنت جراح كبير. . لكن إياك أن تنسى أننى أمريكى أبيض وصاحب هذه البلاد، أما أنت فمجرد عربى ملون جاء من إفريقيا فعلمناه ودربناه وصنعنا منه شخصا متحضرا».

تجاهل الدكتور كرم حركات چاك المستفزة وحرص على أن يعامله بطريقة رسمية محايدة، حتى فوجئ به ذات صباح، قبل بداية العملية بدقائق، يدخل عليه وهو يعقم يديه وذراعيه. . وقف بجواره وحياه بسرعة، ثم قال بصوت مختنق بالاضطراب والكراهية:

- بروفسور كرم. . أرجو أن تتوقف عن إذاعة هذه الأغنيات المصرية الكئيبة أثناء الجراحة لأنها تمنعنى من التركيز فى عملى!

ظل كرم دوس صامتا وأكمل التعقيم بعناية، وعندما استدار نحو چاك وذراعاه مرفوعتان لأعلى، بدا وجهه المربد المحتقن بالغضب أشبه بكاهن قبطى حكيم على وشك إفحام الأشرار بالحقيقة. . قال بهدوء:

- اسمع يا ولدى. . لقد عملت بضراوة على مدى ثلاثين عاما متصلة حتى يصبح من حقى أن أسمع ما أريده فى حجرة العمليات.

تقدم بضع خطوات أصدرت وقعا محملا بالمعانى، ثم دفع بقدمه الباب المفضى إلى العمليات وقال قبل أن يختفى وراءه:

ـ تستطيع أن تجد مكانا فى فريق جراحى آخر لو أحببت!

* * *

ليس فى حياة كرم دوس سوى الجراحة، فهى عمله ومتعته العظيمة فى آن واحد.. وهو بالتعبير الأمريكى؛ WORKAHOLIC أى مدمن عمل.. أصدقاؤه قليلون نادرا ما يتسع وقته لرؤيتهم.. والمتعة الوحيدة التى يمارسها بجوار الجراحة، بضع كئوس من الويسكى وكتاب جيد.. وقد جاوز الستين ولم يتزوج لأنه ببساطة لم يجد وقتا لذلك؛ فقد أدت الجراحة إلى إفساد علاقاته الغرامية جميعا.. وهو يقص على تلاميذه (عندما يتضررون من كثرة العمل) حكايته مع الإيطالية الجميلة التى تعرَّف إليها منذ عشرين عاما، خرج معها أكثر من مرة، ومضت علاقتهما على ما يرام.. وتصادف أنه كلما هم بالنوم معها كان يستدعى إلى الطوارئ، حتى لاحت الليلة المأمولة أخيرا: ذهب معها إلى شقتها حيث تعشيا وشربا وتجردا من ملابسهما وبدءا بالفعل فى ممارسة الحب.. وفجأة أصدر جهاز الاستدعاء طنينه الرهيب.. انتفض كرم فورا وقام من فوقها، ثم أسرع بوضع ملابسه كيفما اتفق وأخذ يعتذر إليها بعبارات حاول أن تكون مؤثرة عن واجبه فى إنقاذ حياة إنسان يحتاج إليه الآن.. لكنه فوجئ بها تلقى بكل قاموس الشتائم الإيطالية عليه وعلى أبويه، ثم فقدت صوابها من فرط الغضب وبدأت فى مطاردته كنمرة هائجة، مما دفعه إلى الفرار من أمامها وهى تقذفه بكل ما طالته يدها من محتويات الحجرة.. يضحك الدكتور كرم من قلبه كلما حكى

هذه الواقعة، لكن وجهه لا يلبث أن يستعيد الجد وهو ينصح شباب الجراحين:

ـ إذا أحببت الجراحة فلن يكون بمقدورك أن تحب شيئا آخر!

على أن حياة كرم دوس، بالرغم من وحدة موضوعها، لم تَخْلُ من وقائع مثيرة، أغربها ما حدث من سنوات قليلة. ذلك المساء كان يستعد لمغادرة مكتبه بعد يوم شاق عندما سمع فجأة صوت جهاز الفاكس. . مد يده ليغلق باب المكتب وعزم على أن يقرأ الفاكس فى الصباح، لكنه عاد وغيَّر رأيه وأضاء المصباح ونزع الورقة من الجهاز، فقرأ ما يلى:

«من مكتب وزير التعليم العالى فى مصر

إلي البروفسور كرم دوس مستشفى نورث ويسترن شيكاجو. .

لدينا أستاذ جامعى مريض يحتاج على وجه السرعة والضرورة إلى إجراء عملية لتغيير عدة شرايين. . برجاء الإفادة إن كان يمكنكم قبوله لديكم فى أقرب فرصة. . برجاء سرعة الرد حتى نتمكن من اتخاذ الإجراءات اللازمة. . اسم المريض: الدكتور عبد الفتاح محمد بلبع»!

حدق كرم فى الفاكس ما يقرب من دقيقة، ثم دسه فى جيبه وخرج. . قاد سيارته إلى البيت وهو يبذل مجهودا كبيرا ليحتفظ بتركيزه. وفى الشرفة المطلة على حديقة منزله الشاسعة، صنع لنفسه كأسا ثم فتح الفاكس أمامه وأعاد قراءته ببطء. . ما هذا الذى يحدث؟. . يا لها من مصادفة استثنائية وكأنه يشاهد

مسلسلا تليفزيونيا مصريا! . . الدكتور عبد الفتاح بلبع نفسه يمرض بالقلب ويحتاج إلى عملية ويطلب منه، هو بالذات، إنقاذ حياته! . . ابتسم ساخرا، وشيئا فشيئا وجد نفسه يضحك بصوت مسموع. لكنه عاد وفكر. . من قال إن هذه مصادفة؟! . . إن الرب لا يصنع شيئا على سبيل الصدفة. . ما يحدث الآن عادل ومنطقى تماما. . ألم يُظلم؟ . . ألم يُضطهد؟ . . ألم يشعر بأنه بلا قيمة ولا كرامة؟ . . ألم يَبْكِ ويركع أمام يسوع المخلص؟ ها هو الرب يرد إليه حقه. . الرجلَ الذى قال له يوما ما «أنت لا تصلح للجراحة»، الذى قضى على مستقبله فى مصر وحكم عليه بأن يعيش حياته كلها منفيا. . نفس هذا الرجل يمرض ويتوسل إليه أن ينقذ حياته!

حسنا يا سيد بلبع. . إذا أردتنى أن أجرى العملية فيجب أولا أن نصفى حسابنا القديم. . كم مرة يجب أن تعتذر عما فعلت؟ . . مائة مرة؟ . . ألف مرة؟ وماذا يفيد الاعتذار الآن؟ . . عندما فرغ من الكأس الثالثة كان قد اتخذ قراره. . لن يجرى العملية لبلبع. فليبحث عن جراح آخر أو حتى فَلْيَمُتْ. . كلنا سنموت فى النهاية! . . سوف يعتذر عن إجراء العملية، ويجب أن يكون اعتذاره باردا ومتعاليا إلى أقصى حد.

«البروفسور كرم دوس لن يستطيع إجراء العملية للمريض بلبع لأن جدوله مزدحم بالحالات الحرجة لشهور قادمة وليس لديه مكان لمريض جديد».

بدأ يكتب الخطاب على الكمبيوتر، لكنه فجأة نهض من مكانه

وكـأنما تذكـر شيئا مـا . . وقف مترددا فى وسط الحجرة، ثم تقـدم بخطى بطيـئـة نحـو الصليب . . ركع وأخـذ يرتل «أبانا الذى فى السـمـاوات»، ثم تـلا صلواته بخـشـوع صـادق، همس بصـوت متهدج : «يا أبتاه، ليس كـمشيئتى بل كـمشيئتك، لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد . آمين» .

ظل راكعا مغمض العينين فترة، ثم قام وفتح عينيه وكأنما صحا من النوم . . جلس أمام الكمبيوتر ووجد نفسه يمحو ما كتبه ويبدأ صيغة أخرى :

«من : كرم دوس

إلى : مكتب وزير التعليم العالى

البروفسور عبد الفتاح بلبع كان أستاذى خلال دراستى فى كلية طب عين شـمس . سأبذل كل مـا بوسعى لإنقـاذ حياته . اتخذوا الإجراءات ليأتى إلى هنا فى أقرب فرصـة . التكاليف ستقـتصر على أتعاب المستشفى لأننى متنازل عن أجرى عن العـملية تقديرا لأستاذى . . . . . » .

طبع الخطاب، ثم قـام وأرسله بالفـاكس، وعندما رن الجـهـاز وأخـرج إشـعـار الوصـول، وضـع الدكـتـور كـرم رأسـه بين يديه وأجهش بالبكاء كطفل . ويقـول مساعدوه، جميعا، إنه ربما لم يُجْـر قَطّ عمليـة كتلك التى أجراها للدكـتـور بلبع، وكـأن كل مـا تعلمَه فى الجراحة قد تركز فى يديه ذلك الصباح! . . كان متألقا، فى القـمـة، يتـحـرك من خطوة إلى أخرى برشـاقة وإتقـان وسيطرة كـاملة، لدرجة أنه دار أكثر من مرة حول مـائدة العمليات ليتأكـد

بنفسه من كفاءة بعض التفاصيل . وقد قالت له كاترين ، أقدم ممرضة فى فريقه ، وهى تهنئه بعد العملية :

«لم تكن ناجحا فقط يا سيدى . . كنت ملهما . . لقد أحسست اليوم أنك تُجرى الجراحة بحنان بالغ . . وكأنك تعالج قدم أبيك المصاب أو تعدل من وضع رأسه وهو نائم ! » .

فى الأيام التالية تابع الدكتور كرم أستاذه السابق كما يفعل مع مرضاه جميعا ، وعندما تفحص الأشعة بعد أسبوع من العملية ضحك بسعادة وقال جملته المأثورة التى يستعملها دائما لطمأنة المرضى :

ـ خلال بضعة أشهر سيكون بمقدورك الاشتراك فى مباراة كرة لو أحببت .

قام لينصرف ، لكن بلبع أمسك بيده فجأة وقال بصوت واهن :

ـ لا أعرف كيف أشكرك يا دكتور كرم . . أرجوك . . سامحنى !

كانت هذه أول إشارة لماضيهما المشترك . ارتبك كرم قليلا ، ثم أمسك بيد أستاذه برفق وكاد أن يقول شيئا ، لكنه اكتفى بابتسامة مرتبكة وأسرع خارجا من الحجرة .

٢٠

اتصلت مروة يوم الجمعة بأبويها، وما إن سألتها أمها عن أحوالها حتى أجهشت بالبكاء. . تأثرت الأم للغاية وأخذت تهدئها وتستوضح الأمر، فحكت لها مروة كل شيء: بخل دنانه وأنانيته وطمعه المؤكد في ثروتها، كما ألمحت إلى مشكلتهما الخاصة. . ولما قالت إنه صفعها على وجهها بلغ غضب الأم مداه، فصاحت:

- قُطعت يده. . يجب أن يتعلم كيف يحترم بنات الناس!

استراحت مروة لثورة الأم تضامنا معها. وبعد فاصل طويل من الشكوى والمواساة، قالت مروة إنها مصرة على الطلاق من دنانه، وعندئذ، لدهشتها، انقلب موقف الأم إلى النقيض. . استنكرت الحديث عن الطلاق «لأنه ليس لعبة». . قالت: لو كانت كل مشكلة زوجية تنتهي بالطلاق لما استمرت امرأة واحدة متزوجة. . أكدت أن البيوت كلها حافلة بالمشاكل، وأن العام الأول هو الأصعب في أي زواج، والزوجة العاقلة هي التي تصبر على عيوب زوجها وتسعى إلى إصلاحها حتى تستمر الحياة. . وضربت مثلا بنفسها: في أول زواجها تحملت عصبية الحاج نوفل الشديدة (وطباعًا أخرى سيئة ألمحت إليها دون تفصيل) حتى هداه

الله أخيرا وصار زوجا صالحا يُضرب به المثل وتحسدها عليه كل النساء. لكن مروة قالت:

ـ لا يمكن إطلاقا أن تقارنى دنانه بأبى.

ـ اسمعى.. ماذا تريدين؟

ـ الطلاق!

انفجرت الأم فى مواجهة أنثوية غريزية عنيفة:

ـ لا أريد أن أسمع هذه الكلمة.. فاهمة؟

ـ لكنى أكرهه.. لم أعد أطيق أن يلمسنى.

ـ لا أحب اللف والدوران.. سأسألك سؤالا واحدا: هل زوجك رجل؟

ـ......

ـ أجيبينى.. هل هو رجل؟

ـ نعم.

ـ إذن.. أى مشكلة ستحل بالعِشْرَة.

ـ لكنه..

ـ عيب يا مروة.. بنات الأصول لا يتكلمن فى هذه الموضوعات أبدا!.. هل جننت، أم أن الحياة فى أمريكا قد أنستك تربيتك؟.. هذا الموضوع بالذات معظم الزوجات تعمله قضاء واجب، وغدا يرزقك الله بأطفال وتنسينه تماما.

لم تجد مروة جدوى من الاستمرار فى الحديث، فأنهت المكالمة بعبارات غائمة. . ثم جلست تفكر بعمق فى كلام أمها، لكن التليفون رن من جديد وفوجئت بصوت أبيها. . تحدث إليها بطريقة أهدأ وأكثر ودا، لكنه مع ذلك ردد كلام الأم. . وفى النهاية قال يرجوها:

- مروة. . طول عمرك عاقلة. . إياك تتسرعى. . لا يوجد أسوأ من خراب البيوت!

تلك الليلة لم تنم، ظلت تتقلب على الأريكة فى الصالة حتى انتبهت على صوت دنانه وهو يتوضأ لصلاة الصبح. . استعادت ما حدث وتأملته: إن أباها وأمها أكثر من يحبانها فى هذه الدنيا، وبالرغم من ذلك فإنهما يرفضان بشدة فكرة الطلاق. . ألا يمكن أن تكون مخطئة؟. . ألا يمكن أن تتسرع فتهدم بيتها ثم تندم بعد ذلك فلا ينفعها الندم؟. . استرجعت كلمة «مطلقة» فوجدتها لأول مرة غريبة على سمعها ومخيفة. . بدا الطلاق لها لأول مرة أمرا مبهما ومأساويا كالموت أو الانتحار. . تدافعت على ذهنها صور المطلقات اللاتى رأتهن فى حياتها. . المطلقة هى المرأة التى فشلت فى الاحتفاظ بزوجها، التى تعانى الضياع والحسرة، العبء على أهلها وصديقاتها، التى يطمع فيها أى رجل لأنها ليست بكرا فليس لديها ما تفقده، التى يلقاها الناس بنظرات العطف والإشفاق واتهامات كثيرة لا يفصحون عنها. . إنها لا تريد لنفسها هذه الصورة، ويجب عليها أن تحترم نصيحة أبويها لأنهما أكثر خبرة منها ولا يريدان إلا خيرها وسعادتها. . كما أنها لم تتزوج من قبل وخبرتها

بالرجال منعدمة (باستثناء استلطاف خفيف عابر جمعها أحيانا ببعض زملاء الدراسة لم يتعد مكالمات تليفونية طويلة) . . ثم من أدراها، ألا يمكن أن تكون معظم النساء يعانين مثلها ويتحملن من أجل استمرار الأسرة؟ ألم تَقُلْ أمها بوضوح: «هذه العلاقة الخاصة نعتبرها نحن النساء قضاء واجب وبعد الإنجاب قد ننساها تماما»؟ . . ألا يمكن أن تكون أمها قد عانت مثلها في الفراش وبالرغم من ذلك استطاعت أن تحب أباها وتنجب له وتعاشره سنوات طويلة؟ . . أليس الأجدر بها أن تراجع موقفها من دنانه؟ . . صحيح أنه طماع وحريص على المال ولا يعنيه سوى مصلحته . . لكن . . أليست له مزايا؟ . . هل كل ما يفعله شر مطلق؟ من الإنصاف أن تعترف أنه متدين وخفيف الظل، وفي ساعات الرضا النادرة بينهما كثيرا ما أضحكها بتشبيهاته وتعليقاته الساخرة. ثم أليس زوجا طموحا يجتهد ليل نهار ليصنع مستقبله؟ إن زوجها لديه مزايا وعيوب مثل أي شخص في الدنيا، وعليها أن تذكر مزاياه كما تذكر عيوبه.

قضت مروة الليلة تفكر على هذا النحو، وفي الصباح قامت وأخذت حماما وتوضأت وصلت، وعندما تطلعت إلى وجهها في المرآة أحست بأنها تغيرت . . بأن ملامحها قد تحولت إلى ما يشبه العزم. انتابها شعور بأنها تبدأ فاصلا جديدا مختلفا من حياتها. سمعت وقع خطوات زوجها، فتعمدت أن تقف في طريقه وبادرته قائلة بابتسامة:

- صباح الخير.

- صباح النور.

هكذا رد دنانه بفتور وقد أدرك أن زوجته عادت إلى الحظيرة، وقرر أن يتأنى فى قبولها حتى يلقنها درسا لا تعاود بعده. استطردت بنبرة مسترضية شبه معتذرة:

ـ تحب أحضر لك إفطارا؟

ـ سأفطر فى الكلية.

ـ أعمل لك طبق بيض بالبسطرمة بسرعة؟!

ـ شكرا.

تَمَنَّع دنانه عليها لمدة يوم كامل، ثم استجاب وألقى خطبة صغيرة:

ـ لقد اتصل بى والدك بالأمس.. الحمد لله أنه رجل ملتزم وتقى ولا أزكى على الله أحدا.. وقد حكيت له ما حدث منك، وقلت إننى استعملت حقى الشرعى فى تأديبك على أضيق الحدود.. عموما يا مروة، إكراما لخاطر الحاج نوفل أنا سامحتك هذه المرة، لكنى أحذرك يا بنت الناس من وسوسة الشيطان.. استعيذى بالله من الشيطان الرجيم وواظبى على صلواتك واتقى الله فى زوجك وبيتك.

عادت الحياة بينهما إلى طبيعتها السابقة، بل وأفضل بكثير.. صارت مروة تعامله باهتمام وعذوبة، تطهو له أطباقه المفضلة وتنتظر لتأكل معه، وتهتم به وتتبادل معه أحاديث طويلة. كان تغيرها كبيرا حتى أدهش دنانه نفسه وأكد له فكرته عن المرأة ككائن غامض مملوء بالتناقض، يستحيل التكهن بردود أفعاله أو رغباته

الدفينة! . . بذلت مروة كل ما لديها للتواؤم مع زوجها، وبدت وكأنها تؤدى دور الزوجة الراضية بإتقان. . حتى لقاؤهما فى الفراش الذى طالما تعذبت به، توصلت إلى حل مبتكر له. . صارت بمجرد أن ينقض عليها دنانه بانتصابه، فى اللحظة التى تستشعر لهاثه المحموم على وجهها ويسعى لتقبيلها فيتسرب إلى فمها لعابه المختلط بمرارة التبغ، عندما تحس بكرشه الثقيل يضغط على بطنها حتى يكاد نفَسها ينقطع وينتابها الغثيان. . فى تلك اللحظة التى طالما عذبتها، تعلمت مروة أن تغمض عينيها وتنسى دنانه، تركز تفكيرها أولا حتى تحذف صورته من مخيلتها، ثم تتصور أنها تعانق شخصا آخر، رجلا وسيما جذابا مثيرا. . ومرة بعد مرة تكونت لها مجموعة سرية من العشاق نامت معهم جميعا فى خيالها: رشدى أباظة وكاظم الساهر ومحمود عبد العزيز. . حتى الدكتور سعيد الدقاق، أستاذ المالية العامة فى تجارة القاهرة الذى كان مثار إعجاب الطالبات جميعا، حظيت مروة به فى الفراش أكثر من مرة! . . وهكذا قدم لها الخيال حلا مبتكرا وفعالا لمشكلتها الجسدية، بل تحول الأمر إلى ما يشبه اللعبة السرية اللذيذة، فكانت ما إن تستشعر بوادر الهجوم من دنانه حتى تتساءل: «مع من أنام الليلة؟ رشدى أباظة كفاية عليه مرَّتان سابقتان. . كم أوحشنى كاظم». . صارت مع تكرار الأمر، تندمج تماما لدرجة خافت معها أن يفلت لسانها مرة باسم عشيقها المتخيل أمام زوجها فتكون فضيحة كبرى، وما إن تحس بدنانه يقذف شهوته الدافئة المقززة حتى تهرع إلى الحمام وهى شبه مغمضة حتى لا يطير الخيال، ثم تكمل إثارة نفسها لتحصل على

النشوة!.. هكذا اجتهدت مروة لتتأقلم وتتحمل وتعيش، وبدأت تتقبل حياتها مع دنانه كما هي وليس كما تتمناها.. وهنا، ربما، يثور سؤال: أليس غريبا أن تنقلب مروة هكذا من النقيض إلى النقيض بهذه السرعة؟! هل تكفى نصائح أبويها لتدفع بها إلى أحضان دنانه الذى لم تكن تطيق رؤيته منذ أيام قليلة؟.. الإجابة بـ«نعم» غير مكتملة.. ثمة إحساس عميق خفى كان يدفعها لاسترضاء دنانه بكل طاقتها.. ليس حبا فيه بالطبع وليس فقط لخوفها من مصير المطلقة، لكن لأن تحذير أبويها قد سبب لها اضطرابا عميقا، فأرادت أن تعطى زواجها أفضل فرصة ممكنة.. إذا نجحت ستكون سعيدة، وإذا فشلت فلن تلوم نفسها، ولا يستطيع أبواها أن يلوماها.. من هنا فإن محاولاتها لاسترضاء زوجها، بالرغم من قوتها وإلحاحها، كانت تحمل طابعا احتفاليا زائفا، مثل المصافحة بين محاميَيْن خصمين أو لاعبىْ تنس انتهيا لتوهما من مباراة حامية الوطيس!.. كانت تعامله بلطف زائد وكأنما تُشهد أبويها حتى لا يتهماها فى المستقبل بأنها تسرعت وخربت بيتها.. إن سلوكها الجديد برغم ما فيه من حنان ورقة يحمل أيضا نعومة الفخ.. ولقد أحس دنانه بذلك على نحو غريزى وأدرك أن المعركة بينهما ما زالت مضطرمة وإن اتخذت شكلا جديدا، فصار يتحسب جيدا لكل ما يقوله و يفعله معها.. على أنه فى الحقيقة لم يكن لديه فائض طاقة لأن الإنذار الأخير الذى وجهه إليه الدكتور دنيس بيكر أدى إلى اضطراب حياته.. لقد وضع العجوز بيكر العقدة فى المنشار، وصار عليه أن يقدم نتائج البحث خلال أيام وإلا فسوف يطلب إعفاءه من الإشراف

عليه. لو حدثت هذه المصيبة فسوف تقضى على مستقبله العلمى والسياسى معا. يجب أن يتصرف بسرعة وإلا ضاع كل شىء.. يالشماتة أعدائه لو تم إلغاء البحث.. كم من حاقد عليه سيجد فى ذلك خبر الموسم!

ـ «هل سمعتم؟ أحمد دنانه ألغوا بعثته لتأخره فى البحث.. ألم أقل لكم؟.. طول عمره فاشل..».

قضى دنانه عدة أيام فى مكتبه فى الكلية.. كان يغلق على نفسه من الصباح حتى المساء فلا يفتح لأحد ولا يحضر محاضرات أو فصولاً دراسية.. مرت ثلاثة أيام على هذه الحال حتى كان الأربعاء الماضى عندما حدثت واقعة فريدة فى تاريخ قسم الهيستولوجى تناقلها الناس بروايات مختلفة، بعضها بالطبع مبالغ فيه. لكن المؤكد أنه فى حوالى الساعة الواحدة، بعد استراحة منتصف النهار، كان الدكتور بيكر منهمكا فى إجراء بعض التجارب وهو يدندن بصوت خافت من أثر زجاجة النبيذ الأبيض الصغيرة التى تناولها مع الغداء، وقد عكف بمنتهى التركيز على اختبار صورة جديدة التقطها بالميكروسكوب الإليكترونى لبعض الخلايا العصبية.. ولم يلبث أن انتبه على طرق الباب، فقال بصوته الأجش بغير أن يرفع رأسه:

ـ ادخـــل.

انفتح الباب وظهر دنانه ومعه أوراق يحملها بعناية.

تطلع بيكر إليه وقد استعاد ما بينهما، فاربد وجهه وقال بلهجة غير ودية:

ـ كيف أستطيع مساعدتك؟

ضحك دنانه وكأنما تلقى دعابة من صديق وقال:

ـ دكتور بيكر . . لماذا تعاملنى بهذه القسوة؟

ـ قل ماذا تريد . . ليس لدىَّ وقت أضيعه معك .

تنهد دنانه واقترب خطوتين، ومد يده بالأوراق نحو بيكر وقد اتخذ وجهه هيئة من يتأهب لإلقاء مفاجأة .

ـ تفضل .

ـ ما هذا؟

ـ النتائج التى طلبتها منى .

ـ معقول! . . هل انتهيت منها؟

هكذا صاح بيكر بصوت غير المُصَدِّق وهو يتصفح النتائج بشغف . . ولم يلبث أن تحول وجهه إلى الرضا وقال لدنانه الذى جلس أمامه :

ـ حسنا يا صديقى . . ها أنت أخيرا تعمل بجدية .

ـ كان لابد أن أبذل جهدى بعد أن طردتنى من مكتبك الأسبوع الماضى .

هكذا قال دنانه بعتاب أنثوى قريب من الدلال، فبدا على بيكر الاضطراب وقال بصوت المعتذر :

ـ أرجو أن تقدّر أن الأبحاث التى أشرف عليها أتحمل مسئوليتها . . أى إهمال فيها يمسنى شخصيا .

ـ دكتور بيكر . . هل كان طردى ضروريا فعلا؟ . . أنا أيضا عندى كرامة!

ـ آسف إذا كنت قد جرحت شعورك!

لم يَبْدُ على دنانه أنه غفر الذنب، بل أشاح بيده وكأنه سينسى ما حدث مؤقتا . . ثم اتخذ هيئة الرجل الكريم الذى يبدأ صفحة جديدة قائلا :

ـ دعنا نتكلم فى العمل، فهذا ما يهمنى أكثر .

جذب بيكر ورقة وقلما من أمامه وقال بحماس :

ـ بعد الحصول على هذه النتائج، علينا أن نبدأ مرحلة الإحصاء . . كل هذه الأرقام سنُدخلها إلى الحاسب لنعرف إذا كانت لها دلالة إحصائية .

وهنا سأل دنانه ممتعضا :

ـ بعد كل هذا المجهود الذى بذلته، بعد الساعات الطويلة التى قضيتها فى العمل، هل يمكن أن تكون النتائج بدون دلالة إحصائية؟

ـ لا أعتقد .

ـ لكنه احتمال قائم . . أن يضيع تعبى وتكون النتيجة لا يعتد بها إحصائيا .

ـ فى هذه الحالة سأكون المسئول لأنى وضعت خطة البحث . . ولكن دعنا نتوقع الفرض الإيجابى . . ستكون النتائج ذات دلالة . . أنا واثق .

وقف دنانه وعَنَّ له قبل أن ينصرف أن يلقى بكلمة مؤثرة، فقال:

- بروفيسور بيكر.. برغم كل شيء.. أنا سعيد وفخور بالعمل معك.

- وأنا أيضا يا دنانه.. أكرر اعتذاري.

هكذا رد بيكر وصافحه بقوة.. ثم جلس وبسط أمامه النتائج وبدأ في دراستها. وبعد حوالي نصف ساعة كان دنانه جالسا في مكتبه عندما دخل عليه بيكر وهو يحك صلعته بأصبع يده اليمنى كعادته عندما يفكر بعمق، ثم قال ببطء وعيناه تلمعان:

- أهنئك مرة أخرى يا دنانه.. النتائج منطقية وقوية.

- شكرا.

- لقد طرأت لي فكرة ستدعم نتائجك.. أرني أي شريحة من شرائحك.

نهض دنانه على مهل وفتح الدولاب المجاور للمكتب وناول بيكر شريحة، فأمسك بها بعناية وارتدى النظارة ثم فحصها تحت الميكروسكوب، ولم يلبث أن رفع رأسه وقال:

- عدد النقاط السوداء في هذه الشريحة ١٦٧!

هز دنانه رأسه وظل صامتا.. وتفحص بيكر النتائج ولم يلبث أن صاح بدهشة:

- شيء غريب.. العدد الذي سجلْتَهُ أكبر من ذلك!

تطلع إلى دنانه وكأنه لا يفهم، ثم ذهب بنفسه إلى الدولاب وأخرج شريحتين أخريين وأخضعهما لنفس الاختبار، ثم تطلع نحو دنانه الذى نكس رأسه ببطء. . بعد ذلك، للحظات، ساد سكون عميق مشحون بطاقة غامضة حتى إن الأزيز الخافت الصادر عن ثلاجة المعمل بدا وكأنه صوت القدَر. وفجأة. . قذف الدكتور بيكر بالشرائح على الأرض فانكسرت وتناثرت شظاياها. . ثم زأر بصوت غاضب مجلجل لم يسمعه منه أحد من قبل:

- يا لك من وغد! . . النتائج التى قدمتها مغشوشة. . أنت شخص بلا شرف. . سألغى رسالتك وأفصلك من القسم فورا.

٢١

ـ صباح الخير . . أنا أتصل بخصوص الوظيفة التى أعلنتم عنها .

ـ الوظيفة شُغلت .

هكذا رد الرجل باقتضاب ثم أغلق السماعة . طنت الصفارة فى أذن كارول وأحست بمرارة . . لم يكن ثمة شىء جديد . كان ذلك برنامجها اليومي : كل صباح بعد أن ينصرف جراهام إلى الجامعة ومارك الصغير إلى مـــدرسته ، تصنع لنفسها كوبا كبيرا من القهوة السوداء وتجلس فى الصالة وتبسط أمامها صفحات الوظائف الخالية فى صحف شيكاجو : التريبيون والصن تايمز والريدر ، ثم تبدأ فى إعداد نفسها للاتصال . . تنفق كثيرا من تركيزها حتى تضبط نبرة صوتها ليبدو الأمر وكأنها تستطلع أمر الوظيفة باهتمام مترفع . . إنها ليست زنجية متعطلة تتلقى الإعانة . . إنها لا تتضور جوعا ولا تتوسل ولا تريد من أحد أن يشفق عليها . . إنها فقط تستفسر عن وظيفة أعجبتها ، لا أكثر ولا أقل ، وكأنها تسأل عن تذاكر حفلة موسيقية أو مواعيد إغلاق مطعمها المفضل . . لو وجدت ما تريده ستكون سعيدة ، ولو حدث العكس فلن تكون نهاية العالم . . كانت هذه هى الطريقة

التى ابتكرتها لمقاومة المهانة : كل مرة تلقى نفس الأسئلة وتتلقى نفس الإجابات . . وفى نهاية اليوم تتراكم أمامها العناوين . على مدى شهور ذهبت إلى معظم أنحاء شيكاجو وأجرت مقابلات لوظائف متنوعة : سكرتيرة وموظفة استقبال وجليسة أطفال ومشرفة حضانة ، لكنها لم تَحْظَ بالعمل قَطّ . . قال لها مدير المستخدمين فى فندق «هايات» وهو يبتسم بحرج :

ـ ستجدين وظيفة فى مكان آخر ، ولكن عليك بالصبر ؛ فالبطالة فى أعلى معدلاتها . عشرات ، وأحيانا مئات الأشخاص ، يتقدمون للوظيفة الواحدة . . المنافسة مرعبة!

منذ شهرين تقدمت لوظيفة عاملة تليفون فى شركة مصاعد ونجحت فى المقابلة الأولى ، فصار عليها أن تجتاز اختبار الصوت . قال لها المسئول فى الشركة :

ـ ستحصلين على هذه الوظيفة لو عرفت كيف يكون صوتك ناعما أنثويا مغريا ، وفى نفس الوقت غير مبتذل . . يجب أن ينقل صوتك إحساسا بالمرح والتفوق . . يجب أن يبدو الأمر وكأنك تتقاضين عشرة أضعاف مرتبك . . صوتك هو الذى يقدم شركتنا للزبائن!

تمرنت كارول بجدية ، سجلت صوتها عشرات المرات وهى تقول نفس العبارة : «شركة هاندريكس للمصاعد . . صباح الخير . . تسمح لى أساعدك؟» . . فى كل مرة كانت تستمع لنفسها وتكتشف عيبا جديدا . . الصوت خافت . . مهتز قليلا . . متلعثم . . أسرع مما يجب . . الحروف مدغومة . . يجب أن تنطق اسم الشركة بطريقة أفضل .

بعد أيام من التدريب توصلت أخيرا إلى إلقاء جيد وذهبت إلى الاختبار، كان معها خمس متسابقات أخريات، جلسن جميعا فى نفس الحجرة أمام مسئول الشركة. . كان رجلا أبيض بدينا جاوز الخمسين، أصلع تماما، له فَوْدان عريضان جعلا هيئته غير مريحة، وقد بدا من أجفانه المنتفخة وعينيه المحتقنتين ومزاجه المتعكر أنه أفرط فى الشراب بالأمس ولم يأخذ قسطا كافيا من النوم. بدأ يشير إلى متسابقة بعد الأخرى لتلقى الجملة بطريقتها، ثم يفكر لحظات ويتطلع إلى السقف كأنما يقيّم أداءها فى ذهنه، وفى النهاية ينحنى على الورق ويسجل شيئا. . أعلنت النتيجة آخر النهار ولم تحظ كارول بالوظيفة، فتلقت الخبر ببرود. كانت قد اعتادت خيبة الأمل ولم يعد هناك ما يصدمها. . أكثر ما آلمها معاملة بعض أصحاب العمل البيض لها، لم يكن الواحد منهم يصرح برفضه تعيين السود لأن ذلك مخالف للقانون، لكنه ما إن يراها حتى يبدو على وجهه تعبيرٌ باردٌ مُتَعَال وينهى المقابلة واعدا باتصال تعلم جيدا أنه لن يحدث. تعاقَبت هذه المواقف المهينة مثل صفعات على وجهها. كانت تبكى أحيانا فى طريق عودتها إلى البيت، وأحيانا تقضى ليالى بأكملها مستيقظة، تتخيل نفسها تنتقم من صاحب العمل العنصرى. . تلقنه درسا. . تؤكد له أنها هى التى ترفض أن تعمل مع شخص عنصرى حقير مثله. . وقد بلغت الدراما ذروتها عندما أجرت مقابلة من أجل وظيفة «مرافقة كلب» مقابل ١١ دولارا فى الساعة. . كانت المهنة وضيعة لدرجة أنها استغرقت ثلاثة أيام حتى أقنعت نفسها بالذهاب. إنها تحتاج إلى المال بشدة. . لا يمكن أن تتحمل المعاناة التى تسببها لجراهام أكثر من ذلك. ما ذنبه حتى يعيش فى هذا الضنك من أجل الإنفاق

عليها وابنها؟ أكثر ما يؤلمها أنه يتحمل الأزمة بغير تذمر. لو أنه اشتكى أو عاملها بجفاء لأحست ببعض الراحة، لكنه على العكس يعاملها بلطف زائد ويداعبها ولا ينقطع عن المرح والضحك. إنه رقيق لدرجة لا تحتمل. ستحصل على هذه الوظيفة من أجله. أليست العناية بالكلاب مهنة مثل أى مهنة أخرى فى النهاية، حتى لو كانت لا تحبها، فهل لديها الآن اختيار آخر؟! فلترع الكلاب مؤقتا حتى تجد فرصة أفضل.

كانت المقابلة فى قصر فخم فى ضاحية شمال شيكاجو، وخيل إليها من فرط الأناقة والبذخ أنها جزء من فيلم سينمائى، لقيها خادم وقور بملابس رسمية سوداء وقادها إلى قاعة كبيرة.. جلست على مقعد وثير من طراز لويس السادس عشر وراحت تطالع اللوحات الزيتية الكبيرة المعلقة على الجدران، وبعد قليل جاءت سيدة عجوز ورحبت بها بفتور.. جلست أمامها وبدأت حديثا متقطعا عن الطقس والمواصلات فى شيكاجو.. وطال هذا الحوار الفارغ حتى قطعته كارول وهتفت بمرح مصطنع بائس:

ـ أين الكلب الذى سأصحبه؟.. ما اسمه؟.. كم أتوق إلى رؤيته!.. أنا أحب الكلاب جدا!

صمتت العجوز وأجفلت قليلا، ثم قالت وهى تتحاشى النظر إلى وجهها:

ـ حسنا.. أحب أن أكون صريحة معك.. لا أعتقد أن الوظيفة تناسبك.. اتركى رقم التليفون وسوف أجد لك وظيفة أخرى فى أقرب وقت.

عاشت كارول أياما حزينة وازداد إحباطها حتى فقدت حماسها تماما، ولم تعد تطالع الصحف بحثا عن وظيفة . . تقضى الصباح مستلقية على فراشها، تحتسى عدة أقداح من القهوة وتتطلع إلى السقف . . تفكر فى حياتها . . لقد بلغت السادسة والثلاثين ولم تَعشْ قَط كما أرادت . . لم ينصفها أحد، ولم تَلْقَ معاملة عادلةَ على الإطلاق. طالعتها الوجوه التى قررت مصيرها . . أمها الطيبة المسالمة، وزوج أمها السكير الذى كان يضربها بقسوة، وعندما كبرت أراد أن ينام معها (وقد استنجدت مرارا بأمها التى تلقت الأمر بفتور بسبب خضوعها الجنسى له لدرجة الإذلال) . . حبيبها توماس الذى عاشت معه عشرة أعوام وأنجبت منه مارك ثم هرب وتركها تحمل كل شىء على كاهلها . . العجوز الطيب جراهام الذى أحبته، وبدلا من أن تسعده حولت حياته إلى معاناة . . لقد ظُلمت دائما . . هذه حقيقة . . كانت دائما مجتهدة ومنظمة وطموحة . . فماذا كانت النتيجة؟ . . بؤسا كاملا! . . لقد فقدت وظيفتها فى المول لأنها سوداء، وها هى عاجزة عن إيجاد عمل آخر . . حتى رعاية الكلاب استكثرتها العجوز عليها. ربما لا تريد لكلبها المحبوب أن يطالع وجوه الزنوج! . . ذلك الصباح كانت كارول مستلقية على فراشها غارقة فى أحزانها عندما رن جرس التليفون . . استغربت أن يتصل بها أحد فى مثل هذه الساعة! . . تقلبت على السرير وعزمت على تجاهل المكالمة . . لكن جرس التليفون ألح مرة بعد أخرى حتى نهضت فى النهاية لترد . . جاءها صوت صديقتها إميلى، صديقة سوداء كانت معها فى المدرسة الثانوية، لكنها أكملت الجامعة لأن أباها المحامى كان قادرا على دفع المصروفات . . لم تكن قد رأتها

من شهور، ففرحت بها ورحبت بدعوتها للإفطار فى مطعم لافاييت الفرنسى فى وسط شيكاجو. منذ أيام المدرسة، كانت إميلى تعشق الأكل فى المطاعم الفخمة وتصطحب معها كارول التى كانت تفرح لأنها لم يكن باستطاعتها ارتياد هذه الأماكن وحدها.. كان مطعم لافاييت رائعا: موائد أنيقة ونافورات مياه، وموسيقى فيفالدى تصدح فى الأرجاء فتزيد من الإحساس بالترف.

طلبت كارول «كرواسون» بالسبانخ و«باتيه» باللحم مع قهوة باللبن، وتأملت وجه صديقتها قليلا ثم هتفت تداعبها:

ـ أستطيع أن أؤكد من تَوَرُّد وجهك أن حياتك العاطفية على ما يرام.

ضحكتا من القلب، وحكت لها إميلى عن حبها الجديد.. حاولت كارول أن تجاريها فى سعادتها، لكن شيئا ثقيلا راسخا ظل جاثما على قلبها. لاحظت إميلى ذلك، وما إن سألتها حتى أجهشت بالبكاء وحكت لها كل شىء. كانت بحاجة لأن تتخفف من أحزانها مع صديقة قديمة مثل إميلى، التى سرحت بنظرها بعيدا وقالت بحزن:

ـ لو كانت هناك وظيفة شاغرة فى مكتب أبى لكنت ألحقتك بها فورا.. لكنى سأحاول فى مكان آخر.

برغم ذلك كانت أمسية جميلة، عادت كارول منها وقد استعادت قدرتها على النضال. وفى الصباح التالى شرعت من جديد فى البحث عن وظيفة.. وعلى مدى أسبوع تكرر كل شىء

تقريبا بنفس الطريقة . . التليفونات والمقابلات وكلمات الاعتذار والصفاقة العنصرية . كانت الساعة تقترب من الواحدة ظهرا عندما تلقت اتصالا مفاجئا من إميلى . . رحبت بها ، فسألتها على الفور بصوت جاد :

- ماذا تفعلين الآن؟

- أطهو الطعام .

- اتركى كل شيء وتعالى حالا .

- لا أستطيع . . سيأتى جون ومارك فلا يجدان ما يأكلانه !

- اتركى لهما رسالة .

- هل يمكن أن أمر عليك فيما بعد؟

- الأمر لا يقبل التأجيل .

ألحت عليها ورفضت بإصرار أن تخبرها بالسبب ، وخمنت كارول أن الأمر يتعلق بوظيفة ، فكتبت بضع كلمات وعلقتها على باب الثلاجة وارتدت ملابسها على عجل وذهبت . كان الطريق إلى بيت إميلى يستغرق نصف ساعة بالمترو . . فتحت لها الباب فورا وكأنها كانت تنتظرها خلفه ، وسمحت لها بتحية أمها العجوز بسرعة ثم جذبتها من يدها إلى حجرتها وأغلقت عليهما الباب بالمزلاج .

- إميلى . . ماذا دهاك؟

هكذا سألت كارول وهى ما زالت تلهث . ابتسمت إميلى بغموض ، ثم وجهت إليها نظرة متفحصة غريبة وقالت :

ـ أرينى صدرك؟

ـ مــاذا؟ !

ـ اخلعى ثيابك لأرى صدرك .

ـ هل جننت؟ !

ـ افعلى ما أقوله لك .

ـ لا أفهم .

ـ سأشرح لك بعد أن تخلعى هذه .

مــدت يدهـا إلى أزرار البلوزة ، لكـن كــارول أمــسكت بيــدها وصاحت فيما يشبه الغضب :

ـ لا . . لن تفعلى هذا .

تنهدت إميلى بقوة وكأن صبرها قد نفد ، ثـم تطلعت إليها مليا وقالت :

ـ اسـمـعى . . أنا لم آت بكِ إلى هنا لكـى نمزح . . لا بد أن أرى صدرك .

٢٢

بعد أن صارح الدكتور صلاح زوجته كريس برغبته فى الانفصال، أحس بالراحة وقال لنفسه: هذه خطوة تأخرت وكان يجب اتخاذها من زمان! . . لن يعانى بعد اليوم من مطاردتها له، من مطالبها الجسدية ولحظات عجزه المشينة المرهقة، التوقعات وخيبة الأمل، ذلك التوتر العنيف الرابض دائما تحت حوارهما الهادئ . . معيشتهما تحت سقف واحد وهما يتحاشيان النظر إلى بعضهما . . لن يضطر بعد اليوم للتظاهر والكذب . . لقد انتهت علاقتهما . . هذه الحقيقة . . لا شك أنه أحبها فى فترة من حياته وساعدته هى كثيرا . . إنه يحس نحوها بامتنان، بنوع من التقدير الهادئ العميق كذلك الذى يحمله المرء لزميل عمل معه سنوات . . سيفترقان بهدوء، وهو على استعداد لتلبية كل طلباتها. سيدفع أى مبلغ تطلبه، سيتنازل لها عن الأثاث والسيارة، حتى البيت سيتركه لها لو أرادت، يستطيع أن يستأجر مكانا صغيرا لنفسه . . كل ما يريده هو أن يكون وحده، أن ينعم بشيخوخة هادئة مريحة، أن يتمكن من اجترار حياته مرة بعد مرة بلا انقطاع . . يا الله! . . كيف بلغ الستين؟ . . كم مرت السنوات سريعا، مضى العمر قبل أن ينتبه، قبل أن يبدأ! . . إنه لم يعش . . ماذا فعل فى حياته؟ . . ماذا

أنجز؟ هل يستطيع أن يحصى أوقاته السعيدة؟ كم عددها؟ . . عدة أيام؟ . . بضعة أشهر على أقصى تقدير؟ . . ليس من العدل أن نتقدم فى السن بغير أن ندرك قيمة الزمن . . من الظلم ألا ينبهنا أحد إلى الوقت الذى يتسرب من أيدينا كل لحظة . . إنها خدعة متقنة : أن ندرك قيمة الحياة فقط قبيل نهايتها . خرج الدكتور صلاح وترك زوجته فى حجرة النوم ، أغلق الباب برفق وفكر أنه سيقيم من الآن فصاعدا فى حجرة المعيشة حتى يتم الانفصال . لم تكن به رغبة للنوم . . قال لنفسه : سأحتسى كأسا فى هدوء وأقرأ قليلا فى رواية إيزابيل الليندى الجديدة . مشى بطريقة عادية تماما ، لكنه بعد أن اجتاز الصالة ، بالضبط قبل أن يدخل إلى الردهة الصغيرة المؤدية إلى حجرة المعيشة ، توقف فجأة وانحنى ونظر إلى الأرض وكأنه يبحث عن شىء ما . . دهمه إحساس غريب ، خاطف ، حاد كنصل . . تجلت له رؤية غامضة بعيدة كحلم ، لن يصدقه أحد لو حكى عنها ، لكنها فى نفس الوقت حقيقية . . تملكه إحساس كذلك الذى ينتابنا عندما ندخل إلى مكان أو نرى شخصا لأول مرة فيخطر لنا ، على نحو مؤكد ، أننا كنا هنا من قبل وأن ما نعيشه الآن قد عشناه بأحداثه فى زمن سابق . وجد نفسه يستدير إلى اليسار ويتوجه إلى القبو ، نزل درجات السلم ببطء وكأنه منوم ، وكأنه محمول ، كأن شخصا آخر يحرك قدميه فى حين يكتفى هو بالنظر إليهما وهما يحملانه للأمام . . فتح الباب ودخل إلى القبو ، فلفحته الرطوبة . . كان الهواء عطنا ثقيلا ، فأحس ببعض الضيق فى التنفس . . تحسس مفتاح النور وضغط عليه . . كان القبو خاليا إلا من بعض الأشياء التى خزنتها كريس تمهيدا للتخلص منها :

جهاز تليفزيون قديم وغسالة أطباق لا تعمل وبضعة مقاعد استعملت فى الحديقة لسنوات قبل أن تشترى طاقما جديدا فى الصيف الماضى . . وقف صلاح يتفحص المكان بنظرة غائبة . ما الذى أتى به إلى هنا؟ ماذا يريد؟ ما هذه الأحاسيس الغامضة التى تضطرم داخله؟ . . ظلت الأسئلة تطن فى أذنيه بلا إجابة حتى وجد نفسه يتحرك من جديد . أيقن أنه مدفوع بقوة قاهرة لا قبَل له بمقاومتها . . اتجه مباشرة إلى الركن وفتح الدولاب المدفونَ فى الحائط وجذب بكلتا ذراعيه الحقيبة الزرقاء القديمة . . وجدها أثقل مما توقع ، فتوقف لحظة ليلتقط أنفاسه ثم جذبها من جديد إلى تحت المصباح . . انحنى وبدأ يفك السيور التى تحزمها ، وما إن رفع الغطاء حتى انبعثت فى أنفه رائحة الدواء المضاد للحشرات النفاذة . . أحس بالغثيان ، واستغرق نحو دقيقة حتى تمالك نفسه وبدأ فى إخراج محتويات الحقيبة . . ها هى ملابسه التى جاء بها من مصر منذ ثلاثين عاما . . كان يعتبرها أنيقة ، لكنه اكتشف من أول يوم أنها لا تلائم أمريكا . . كان يبدو بها كأنه قادم من كوكب آخر أو كأنه شخصية خرجت من مسرحية تاريخية! . . اشترى ثيابا أمريكية ، لكنه لم يجرؤ على التخلص من ملابسه المصرية ، فجمعها فى هذه الحقيبة وخبأها فى القبو وكأنما يعلم أنه سيعود إليها يوما ما . . أفرغ الحقيبة أمامه على الأرض : حذاء أسود لامع بكعب عال وطرف مدبب على طراز الستينيات ، بدلة من الصوف الإنجليزى لونها رصاصى كان يذهب بها إلى مستشفى قصر العينى ، مجموعة من أربطة العنق الرفيعة على طراز تلك الفترة . . ها هى الثياب التى لقى بها زينب لآخر مرة : القميص الأبيض المخطط بالأحمر والبنطلون

الكحلى والجاكت الجلدىّ الأسود التى اشترتها معه من محل «لابورصا نوفا» فى شارع سليمان باشا . . يا الله! . . لماذا يتذكر كل شيء بهذا الوضوح؟! . . مد يده وتحسس الثياب، وسيطرت عليه رغبة عنيفة حارقة جعلته يلهث ويتصبب عرقا، حاول أن يقاومها لكنها جرفته كأنها إعصار! وقف مكانه وخلع الروب المنزلى الذى يرتديه ثم خلع البيجاما . . وقف بملابسه الداخلية وسط القبو وخطر له أنه جُنَّ فعلا! . . ما هذا الذى يفعله؟ إنه الجنون بعينه . . ألا يمكنه السيطرة على هذه الرغبة الشاذة؟ ماذا تقول كريس لو فتحت الباب ورأته؟ . . «فلتقل ما تشاء . . لم يعد هناك ما أخشاه . . ستتهمنى بالجنون؟ . . فليكن . . حتى لو كان ما أصنعه جنونا . . سأفعله . . حان الوقت لكى أفعل كل ما أريده كاملا» . . بدأ يرتدى ثيابه القديمة، قطعة قطعة . . كان جسده قد امتلأ ولم تعد تناسبه . . لم يستطع أن يغلق حزام البنطلون على بطنه، والتصق القميص بجسده لدرجة كادت تؤلمه، أما الجاكت فقد أدخل ذراعيه فيها بصعوبة ولم يعد بمقدوره أن يحركهما . . وبرغم غرابة الموقف انتابه إحساس مريح . . غمرته سكينة رائعة، احتوته طمأنينة رطبة مظلمة وكأنه ارتد إلى حضن أمه! . . تأمل شكله فى المرآة الموضوعة فى ركن القبو واستغرق فى الضحك . . تذكر المرايا المقعرة التى كان يلهو أمامها فى الملاهى وهو طفل، ثم خطرت له فكرة، فأسرع عائدا إلى الحقيبة المفتوحة البارزة أحشاؤها على الأرض . كان يتحرك بصعوبة، يعرج وكأنه مصاب فى قدمه من فرط ضيق الملابس . . أقعى أمام الحقيبة ومد يده إلى الجيب الداخلى . . هناك وجدها، فى المكان الذى

توقعه، تماما حيث وضعها بيده منذ ثلاثين عاما . . أخرجها ببطء إلى الضوء، نوتة تليفون خضراء عريضة كان يحملها فى حقيبته الطبية، وطالما سخرت زينب من حجمها الكبير . . كانت تصيح بمرح طفولى:

- يا بنى هذه ليست نوتة تليفون، لكنها دليل تليفونات القاهرة! . . عندما يسمح وقتى سأشرح لك الفرق بينهما .

ابتسم لما تذكر كلامها وفتح النوتة برفق . . كانت الورقات مُصْفَرَّةً والحروف مهتزة قليلا من القدَم، لكن الأسماء والأرقام لم تزل واضحة .

* * *

رأيت مشهدا غريبا وكأننى أحلم!

أظلمت السماء فى عز النهار، ثم هبت ريح شديدة خيل إلىَّ أنها ستقتلع الأشجار.. وفجأة، تطايرت فى أنحاء الجو آلاف القطع البيضاء الطرية وكأنها ندف من القطن، هطلت متفرقة ثم تكاثفت شيئا فشيئا حتى غطت كل شىء.. البيوت والطرقات والسيارات.

وقفت منبهرا، أرقب ما يحدث من خلف النافذة المغلقة وأنا أرتدى الروب على جسدى العارى. كانت التدفئة الداخلية قوية لدرجة كدت أشعر معها بالحر، وقد تلبد الزجاج من الداخل بقطرات ثلجية تفصدت كالعرق نتيجة الفرق بين برودة الخارج ودفء الداخل. احتسيت كأسى ببطء، ومددت ذراعى وضممت ويندى.. كانت عارية تماما وقد انتهينا لتونا من نوبة حب رائعة جعلت وجهها، مع الدفء والنبيذ، أشبه بوردة

مشرقة.. همست فى أذنى:

ـ هل يعجبك منظر الجليد؟

ـ رائـــــع!

ـ للأسف لم يعد يثيرنى لأنى تعودت عليه منذ الطفولة.

بعد قليل، أعدت ويندى العشاء وأطفأت الأنوار، ثم أشعلت شمعتين فى شمعدان جلبته معها.. رحنا نأكل فى جو ساحر.. قالت:

ـ هذا حساء الدجاج على الطريقة اليهودية.. هل يعجبك؟

ـ لذيذ جدا!

تطلعت إلىَّ وعيناها تلمعان فى ضوء الشموع، كان وجهها الجميل تتغير تعبيراته أحيانا على نحو غامض، يربد وتتقلص عضلاته فتبدو حينئذ وكأنها تذكرت ما يؤلمها.. وكأنها ورثت حزنا قديما يظل مخبوءا داخلها ويظهر فجأة، يعبر صفحة وجهها ثم يختفى!

ـ ناجى.. أنت حدث استثنائى فى حياتى.. كنت أتوقع أن تكون علاقتنا عابرة.. مجرد وقت ممتع.. لم أتخيل قَطّ أن أحبك.

ـ لمـــــاذا؟

ـ لأنك عربى!

ـ ما المشكلة فى ذلك؟

ضحكت وقالت:

ـ أنت العربى الوحيد الذى لا يحلم بإبادة اليهود!

توقفت عن الأكل وقلت:

- هذا غير صحيح.. العرب يكرهون إسرائيل ليس لأنها دولة اليهود، ولكن لأنها اغتصبت فلسطين وارتكبت عشرات المذابح ضد الفلسطينيين.. لو كان الإسرائيليون بوذيين أو هندوسًا لما تغير الأمر بالنسبة إلينا.. صراعنا مع إسرائيل سياسى وليس دينيا.

- هل أنت واثق من هذا؟

- اقرئى التاريخ.. لقد عاش اليهود تحت الحكم العربى قرونا طويلة دون مشاكل أو اضطهاد.. بل إنهم كانوا محل ثقة العرب؛ بدليل أن الطبيب الخاص للسلطان العربي، على مدى ألف عام، غالبا ما كان يهوديا.. وسط المؤامرات والدسائس التى لا تنتهى على العرش، كان السلطان يثق فى طبيبه الخاص اليهودى ربما أكثر من أولاده وزوجاته!.. فى الأندلس الإسلامية عاش اليهود كمواطنين لهم حقوق كاملة، وعندما سقطت الأندلس فى أيدى المسيحيين الإسبان، اضطهدوا المسلمين واليهود معا، خيَّروهم بين اعتناق المسيحية أو الذبح. ثم بلغ بهم التطرف أنهم اخترعوا محاكم التفتيش لأول مرة فى التاريخ من أجل التخلص من اليهود والمسلمين الذين تنصروا حديثا!.. كان القساوسة يوجهون إليهم أسئلة فى اللاهوت، وعندما يخفقون فى الإجابة عليها يخيرونهم بين الموت غرقا أو حرقا!

أغلقت ويندى عينيها بألم، فقلت محاولا استعادة المرح:

- وهكذا يا عزيزتى.. تعرَّض أجدادى وأجدادك إلى الاضطهاد معا.. ممكن جدا أن نكون، أنا وأنت، حفيدين لرجل مسلم وامرأة يهودية تحابا فى الأندلس.

- ياله من خيال رائع!

ـ بل حقيقة.. أحس بأنى عرفتك من قبل فى أزمان قديمة، وإلا فكيف تفسرين هذا الانجذاب بيننا منذ اللحظة الأولى؟

انحنيت وقبَّلت يديها، وخطرت لى فكرة، فنهضت مسرعا وبحثت عن شريط الأندلسيات حتى وجدته، ولم يلبث صوت فيروز أن حلق فى أنحاء المكان.

«ارجعى يا ألف ليلة غيمة العطر..

فالهوى يروى غليله من ندى الفجر».

قلت:

ـ هذه موسيقى الأندلس.

ـ لا أفهم الكلمات، لكن الموسيقى تحرك قلبى!

رحت أترجم لها ما استطعت من المعاني.. كان كل شيء حولى خلابا، الثلج والدفء والحب والشموع والنبيذ والموسيقى.. وحبيبتى ويندى.. استبد بى الطرب فنهضت، أمسكت بها من كتفيها وجذبتها برفق، أوقفتها فى وسط الحجرة وقلت وأنا أعود إلى مكاني:

ـ هذا الفراش الذى أجلس عليه هو عرش الأندلس.. أنا الأمير.. سأجلس الآن لتصريف شئون الإمارة.. وعندما أصفق مرة واحدة.. تبدئين الرقص.. أنت أكثر راقصات الأندلس موهبة وجمالا.. لذلك اختارك الأمير لترقصى له وحده.

أطلقت ويندى صيحة فرح، ووقفت على أهبة الاستعداد وقد بدا على وجهها تعبير عابث وكأنها طفل يتوق إلى بدء اللعب.. وكان صوت فيروز يتردد على إيقاع راقص:

«يا غصن نقا مكللا بالذهب

أفديك من الردى بأمي وأبي
إن كنت أسأت في هواكم أدبي
فالعصمة لا تكون إلا لنبي».

صفقت فبدأت ويندي ترقص.. كانت تتحرك وفقا لفكرتها عن الرقص الشرقي.. أخذت تهز ذراعيها وصدرها بعصبية وكأنها ترتجف، بدت كطفل يقلد الكبار فيبعث على الضحك والعطف!.. تطلعت إليَّ وهي ترقص وأرسلت قبلة في الهواء، عندئذ صارت فتنتها لا تقاوم.. احتضنتها وأمطرتها بالقبلات، مارسنا الحب وصوت فيروز يصدح في المكان وكأنه يباركنا، وبعد ما فرغنا ظللنا راقدين عاريين تماما وملتصقين.. قبَّلت أنفها وهمست:

ـ سأظل مدينا لك دائما.

ـ إذا لم تخفف من رقتك سوف أبكي من الحنان!

ـ أنا فعلا مُمْتَنّ لك.. لقد أعدت إليَّ الشعر بعد عام كامل من الضياع.. هذا الصباح بدأت قصيدة جديدة.

ـ رائع.. عَمَّ تدور قصيدتك الجديدة؟

ـ عنك.

احتضنتني بشدة، فهمست في أذنها:

ـ ويندي.. لقد أنقذتني من التعاسة.. صنعت لي حلما جميلا.

ظللنا متعانقيْن وأنا أحس بأنفاسها تلفح وجهي، حتى تراجعَتْ برفق وقالت وهي تنهض:

ـ حتى الأحلام الجميلة تصل إلى نهايتها، لابد أن أنصرف.

طبعت على جبيني قبلة سريعة وكأنها تعتذر، ثم دخلت إلى

الحمام وخرجت وقد ارتدت ملابسها.. كنت قد استغرقت في نوبة من التأمل، فقفزت قائلا:

ـ انتظرى.. سأصحبك إلى محطة المترو.

ـ لا داعى.

ـ لماذا ترفضين دائما أن أوصلك؟

بدا على وجهها الارتباك، ترددت قليلا ثم قالت:

ـ هل تذكر هنرى.. حبيبى القديم الذى حدثتك عنه؟ انه يعمل موظف استقبال هنا فى سكن الطلبة.. لا أحب أن يرانا معا..

ـ لماذا تهتمين به إذا كانت علاقتكما انتهت؟

ـ أرجوك لا تغضب.. لو كنت ما زلت أحبه لما استطعت أن أحبك.

ـ لماذا تخشين إذن من أن يرانا معا؟!

ـ سأخبرك بصراحة.. هنرى يهودى، وموضوع أنك عربى سيعطيه فرصة لكى يسبب لنا المشاكل.

ـ ما دخله بنا؟

ـ أنا أعرفه جيدا.. لن يتسامح فى ذلك أبدا.

ـ لا أصدق أننا يجب أن نخفى علاقة حب فى أمريكا!

تقدمت نحوى وقبلتنى وقالت:

ـ كل ما أريدك أن تتأكد منه.. أننى أحبك.

* * *

لم أصر على توصيلها حتى لا أضايقها.. كنت أعرف صديقها السابق.. تعاملت معه أكثر من مرة فى مكتب الاستقبال، وكان

يتصـرف معى بطريقـة طبيعـية أقرب إلى الود.. لـكننى، بعد أن ترددت ويندى على شقتى أكـثر من مرة، لاحظت أنه يتطلع إلىَّ بنظرة عدوانيـة. سألتـه مرة إن كانت هناك خطابـات باسمى فلم يرد علىّ، وعندمـا كـررت السـؤال قال بخـشـونة دون أن يرفع رأسه عن الأوراق التى يقرأها:

ـ عندمـا ترد خطابات سنبعـث بها إليك.. لا داعى لأن تسـألنى كل يوم مائة مرة!

انصرفت صـامتا، إذ لم أكن راغبـا فى معركـة ولا مستعـدا لها. سألت نفسى: كيف عرف هنرى بعلاقتى مع ويندى؟.. تذكرت أن لديه فى مكتب الاستـقبال شاشة تكشف أمـامه المبنى كله من الداخل.. هكذا إذن!.. ويندى صـديقـتـه السـابقة وطبـيـعى أن يراقبـها ليـعرف الشقـة التى تصعـد إليها. تعـمدت أن أتحـاشاه تماما.. قـصرت تعاملى على مـوظفة الاستقـبال السوداء الطيـبة التى تعمل فى الصباح.. لكن الأمر لم يتوقف عند هنرى.. يبدو أنه نشر خبر علاقتى بويندى بين أوساط اليـهود فى الجامعة؛ فقد بدأ بعض طلاب السنة الثانية يتحرشون بى.. كنت أحضر معهم فصل الهيستـولوجى العام.. كنت أكبرهم فى السن، وكانوا فى السابق يعـاملوننى باحترام، لكنهم انقـلبوا فجأة.. صـاروا كلما مررت بجوارهم يتـهامسون ويضحكون.. تجـاهلتهم فى البداية، قلت لنفســى: ربما يضحكون لأى سبب بينـهم.. يجب أن أقاوم هذا التـفكير السلـبى حتى لا تصـيبنى عـلاقـتى بويندى بعقـدة الاضطهـاد!.. لكن تحرشـهم ازداد حـدة.. صاروا كلمـا رأونى يمشون خلفـى ويرددون عبارات مـستفـزة.. كان أجـرأهم شاب نحيل وطـويل، شعره أحـمر وأسنانه العلوية بارزة قلـيلا، يضع طاقـية سوداء صـغيـرة على رأسه.. كـان يلعب لأصدقـائه دور

المهرج.. وكلما رآني يصيح بصوت عال: «السلام عليكم»، ثم يستغرقون جميعا في الضحك.. ظللت أتجاهلهم، حتى فوجئت به عقب انتهاء الدرس يوم الجمعة يستوقفني بيده وحوله أصدقاؤه، ثم يسألني باستهزاء:

ـ من أين جئت؟

ـ أنا مصري.

ـ لماذا تدرس الهيستولوجي؟.. هل تظنه مفيدا في تربية الجمال؟

انفجروا جميعا ضاحكين.. ولكنْ هذه المرة لم أتمالك نفسي.. وجدتني أشده من ياقة قميصه وأصيح:

ـ تكلم بأدب وإلا حطمت رأسك.

كنت أمسكه بيدي اليسرى، أما اليمنى فكانت طليقة.. وكان ذلك من حسن حظي؛ لأنه لكمني في بطني فقفزت إلى الوراء مما خفف من أثر الضربة.. شددته نحوي، ثم وجهت بيدي اليمنى لكمة إلى وجهه.. قطعت قبضتي المسافة بسرعة مناسبة فجاءت اللكمة قوية، أصدرت طنينا مكتوما وفجرت الدم من أنفه.. ولما تأكدت هزيمته بدأ فاصلا من العويل:

ـ أنت همجي.. لا بد أن تُفصل فورا من الجامعة!

انقسم أصدقاؤه، بعضهم يتحدثون معه وبعضهم ينظرون إليَّ شزرا.. لا أعرف حتى الآن كيف ظهر بوليس الجامعة.. اقتادونا جميعا إلى مكتب الأمن.. وأمام رجل البوليس العجوز، الأشيب تماما، قال غريمي إنني أتعقبه وأتحرش به منذ فترة.. وأكد تمسكه بحقه القانوني لأني اعتديت عليه.

ظللت صامتا حتى سألني الضابط، فحكيت ما حدث، وقلت بهدوء:

ـ لقد ضربته فعلا.. لأنه أهان بلادى وسخر منها.

ـ ماذا قال عن بلادك؟ حاول أن تتذكر الكلمات بدقة.

انحنى وسجل على الورق كل ما قلته.. ثم بان على وجهه التفكير وقال بصوت هادئ:

ـ الآن اسمعا.. وفقا للائحة الجامعة فقد ارتكبتما مخالفتين.. أنت (أشار إليه) استعملت عبارات عنصرية للتحقير من شأن زملائك.. وأنت اعتديت بالضرب على زميل لك.. لو أكملت التقرير ضدكما سوف تحالان أنتما الاثنان إلى لجنة تأديب!

ساد صُمت عميق.. وجعلت أتخيل نفسى وأنا عائد فى الطائرة بعد أن فصلت من الجامعة.. وانتبهت على صوت الضابط الذى ابتسم وبدا لأول مرة أنه طيب:

ـ ممكن طبعا، لو أردتما، أن ينتهى الأمر بطريقة ودية.. لو تقدمتما باعتذار متبادل الآن.. فى هذه الحالة سأكتفى بتعهد منكما بعدم تكرار ما حدث.

لم يعطنى الآخر فرصة للتفكير لأنه اقترب منى وقال بصوت عال:

ـ أنا آسف!

كان اعتذاره خاليا من أى نبرة ندم.. نطق باعتذاره وكأنه يؤدى دورا فى تمثيلية.. وكأنه يريد أن يُفهمنى أنه فى الواقع غير آسف على ما فعله لكنه مضطر لأن يعتذر خوفا من لجنة التأديب!.. نظرت إليه لحظة وقلت:

ـ أنا أيضا أعتذر عما فعلته معك.

* * *

ضايقتنى حوادث التحرش هذه لكنها لم تشغلنى كثيرا.. كنت قد ألفت حياتى الجديدة وتحسنت حالتى المعنوية، وانتظمت فى الدراسة وكدت أنتهى من قصيدتى الجديدة، كما كانت لقاءاتى بويندى تغسل أحزانى.. والأهم من ذلك أننى وجدت صديقا عظيما.. سأظل دائما مدينا للدكتور كرم دوس بالأوقات الرائعة التى قضيناها معا، نلتقى أثناء عطلة نهاية الأسبوع فى منزل جراهام، وأثناء الأسبوع كثيرا ما يتصل بى لنشرب كأسا معا فى رش ستريت.. اكتشفت فيه إنسانا رائعا، متواضعا وحساسا للغاية، فنانا حقيقيا.. كنا نستمع معا لأم كلثوم.. كان خبيرا بها، يعرف حكاية كل أغنية ومتى أذيعت لأول مرة.. وهو يحب مصر لدرجة أنه يتابع كل ما يجرى فيها باهتمام بالغ.. قضينا ساعات طويلة نناقش الأوضاع فى مصر.. كان يتكلم بحماس، مما جعلنى بمجرد أن توصلت إلى الفكرة أسارع بعرضها عليه.. مساء الأحد كنا نشرب كالعادة فى منزل جراهام، انتظرت حتى تناولنا بضع كئوس بعثت فينا الحرارة، ثم سألت الدكتور كرم:

- هل سمعت عن المظاهرات فى القاهرة؟

- رأيتها بالأمس فى قناة الجزيرة.

- ما رأيك؟

- هل تعتقد أن بضع مئات من المتظاهرين بمقدورهم أن يغيروا النظام؟

- لولا حصار الأمن المركزى حول المتظاهرين لانضم إليهم المصريون جميعا.

- يبدو أنك متفائل!

ـ طبعا.. أن يخرج المصريون فى الشارع ليطالبوا بتنحية رئيس الجمهورية.. علامة مؤكدة على أن شيئا ما قد تغير ولن يعود كما كان أبدا.

ـ الذين يتظاهرون هم أفراد النخبة.. الجماهير العريضة لا تشغلها قضية الديمقراطية!

ـ كل الثورات فى تاريخ مصر بدأت بتحرك النخبة.

ـ سوف نرى.

ـ لا يكفى أن ننتظر ونرى.

ـ ماذا بمقدورنا أن نفعل؟

ـ بمقدورنا الكثير، ولكن الأمر يتوقف عليك.

ـ علىَّ أنا؟

ـ هل أنت مستعد لأن تتخذ موقفا مما يحدث فى مصر؟

ـ هل تخطط لانقلاب عسكرى؟

ـ أنا لا أمزح.

ـ ماذا يدور بذهنك؟

ـ اسمع.. الرئيس سوف يزور شيكاجو بعد أسابيع.. هذه فرصة لا يجب أن نضيعها.

كان جراهام يتابع الحديث، فصاح ضاحكا وهو يصب لنفسه كأسا جديدة:

ـ أوه.. إلا هذا.. لن أكون شاهدا على اتفاق جنائى.. هل تخططان لقتل الرئيس المصرى؟!.. ما رأيكما أن نبدأ بقتل جورج بوش؟

انتظرتُ حتى انتهى الضحك واستطردتُ بجدية:

ـ سيلتقى الرئيسُ المبعوثين المصريين فى شيكاجو.. وقد فكرت فى إعداد بيان نلقيه أمامه.

ـ بيـــــان؟!

ـ نعم.. سنطالبه بالتخلى عن السلطة وإلغاء قانون الطوارئ وتطبيق الديمقراطية.

ـ وهل تعتقد أنه سيسمع كلامك؟

ـ لست ساذجا إلى هذه الدرجة.. إنها مجرد خطوة، لكنها ستكون مؤثرة.. المظاهرات تعم مصر من أجل الحرية.. المتظاهرون يُضربون ويُعتقلون والمتظاهرات تُنتهك أعراضهن بواسطة البوليس.. أليس من واجبنا أن نفعل شيئا من أجل هؤلاء؟.. لو كتبنا البيان ووقّع عليه المصريون فى شيكاجو ثم ألقيناه فى مواجهة الرئيس أمام الصحفيين وكاميرات التليفزيون.. سنوجه بذلك لطمة شديدة على وجه النظام المصرى.

ـ هل تعتقد أن المصريين هنا سيوقّعون معك على البيان؟

ـ لا أعرف بالطبع.. لكنى سأحاول.

ظل صامتا، فقلت له:

ـ أراك مترددا؟

ـ أبـــدا!

ـ ألم تحاول دوما أن تقدم شيئا لبلادك؟

ـ فى مجال الجراحة وليس السياسة.

ـ النظام الفاسد هو السبب الرئيسى لتدهورنا. عميد طب عين

شمس الذى رفض مشروعك تم تعيينه فى موقعه لأنه مُوَال للنظام، بغض النظر عن كفاءته الإدارية أو الطبية. وهو فى الغالب شخص فاسد منافق يتجسس على زملائه لحساب أمن الدولة. لو كان اختيار العميد بالانتخاب لجاء إلى المنصب شخص أفضل وأكفأ، وبالتأكيد كان سيسعد بالتعاون معك. إذا كنا نحب مصر فعلينا أن نبذل أقصى جهدنا لتغيير هذا النظام.. وأى شىء آخر سيكون مضيعة للوقت.

تطلع الدكتور كرم نحوى ثم شرب ما تبقى من كأسه دفعة واحدة وقال:

ـ دعنى أفكر فى الأمر.

٢٣

كل مـا حـدث لطارق حـسيب تلك الليلة كـان خـارجـا عن إرادته. لـم يكن يملك أن يقـبل أو يـرفض، ولـو تكـرر مـا حـدث مـائـة مـرة لفـعل نفس مـا فـعله! . . وجـد نفـسـه فـجأة ملتـصـقـا بشيماء. . رفعت يدها لتلتقط البرطمان من فوق الرف فاستشعر ثديها كاملا بجواره. . مد ذراعه بحركة عفوية واحتضنها. . لم تقـاومـه. . أحس بجسـدها البض يملأ كـيـانه. . غـاص بيديه فى ظهرها وانهال عليها تقبيلا. . شفتاها ووجهها وشعرها ثم عنقها وذقنها. . كـان لبشـرتـهـا النضـرة ملمس ناعـم زاد من هيـاجـه، استمر يقبّل عنقها ولعق أذنها الصغيرة ثم التقمها بين شفتيه (كما رأى فى أفـلام البـورنو). . عندئذ ندت عنهـا آهة خـافـتـة حـارة وتمتمت ببضع كلمات خافتة لم يميزها، كأنها تسجل اعتراضا شكليا ضعيفا هى أول من يعلم أنه لن يغير شيئا، أو كأنها تتبرأ مرة أخيرة قبل أن يجرفها طوفان الشهوة. بعد لحظات من العناق الحار مد يده وفتح السوستة التى تتوسط العباءة فأصدرت أزيزا خاطفا. . لم تعترض شيماء وراحت ترقب يديه وكأنها منومة. . انكشف صدرها رابضا فى مشد قطنى وردى اللون. . ضغط على الثديين فأبرزهما وكأنهما ثمرتان ناضجتان تدلتا من فوق الغصن. . شهق طارق، ثم زفر بقوة ودس وجهه كاملا فيما بين

نهديها . . تمرغ فى نعومة لا تصدق ، وانتابته فجأة رغبة ملحة فى أن يبكي ، كأنه حزين على أنه لم يفعل ذلك من قبل ، كأنه طفل تاه طويلا وضاع حتى تملكه اليأس ثم وجد أمه فجأة ، كأن الدفء المنبعث من صدرها أصله القديم الذى عرفه فى زمن سابق ثم انتُزع بعيدا عنه وها هو يعود إليه! . . أغرق ثدييها بالقبلات وعضهما برفق ، فأطلقت صرخة خافتة متألمة ومائعة ، فتأكد له عندئذ أن جسدها صار ملك يديه ، يطيع ويستجيب ويناديه أن يتقدم . . فك سوستة البنطلون والتصق بها بشدة . . لم يجرؤ على أن يخلع عنها العباءة ، لكنهما تعانقا وتقلصت عضلات جسديهما على نحو غريزى متلاحق حتى اجتازا معا بوابة اللذة . . ارتجف جسده بنشوة عظمى ، نشوة حقيقية من لحم ودم وليست مصطنعة كالتى يستحلبها كل ليلة فى الحمّام ، خطر له أنه الآن يولد ، يُبعث من الموت ، يترك للأبد حياته القديمة الكالحة إلى حياة أخرى حقيقية رائعة . . أغمض عينيه واحتضنها بقوة وكأنه يتشبث بها ، يلوذ بها لئلا تتركه . . راح يستنشق رائحتها بنهم ويقبّلها من جديد . . كان على استعداد لأن يفعل معها الحب مرة بعد أخرى ، إلى الأبد ، لكنه انتبه لما أحس بدموعها تبلل وجهه . . فتح عينيه وأبعد رأسه وكأنه يصحو . . ربت خدها ، فانخرطت فى بكاء حار وقالت بصوت متقطع :

- كم أحتقر نفسى!

- أنا أحبك .

هكذا همس وهو يقبّل يديها .

- أنا الآن امرأة بلا أخلاق!

- من قال ذلك؟

- لقد أصبحت ساقطة!

- أنت أجمل إنسانة فى الدنيا.

تطلعت إليه من خلف الدموع وقالت:

- لا يمكن أن تحترمنى بعد ما فعلته معك!

- أنت زوجتى، فكيف لا أحترمك؟!

- لست زوجتك!

- ألسنا سنتزوج؟

- نعم.. لكنى الآن محرمة عليك.

- نحن لم نَزْن يا شيماء.. وهناك أحاديث شريفة، كلها صحيحة، أجمعَت على أن الله سبحانه وتعالى يغفر ما دون الزنى لمن يشاء.. نحن نحب بعضنا ونيتنا الحلال إن شاء الله.. وربنا غفور رحيم!

تطلعت إليه مليا كأنما تختبر صدقه.. ثم همست:

- ألن تتغير نظرتك لى بعد ما فعلته معك؟

- لن تتغير.

- احلف أنك ستظل تحترمنى.

- والله العظيم سأظل أحترمك!

- وأنا أقسم لك برحمة أبى يا طارق أننى لم أفعل ذلك مع أى شخص قبلك.. وأننى فعلته معك لأننى أحبك.

- طبعا!

- هل ستتركنى؟

- لن أتركك أبدا.

خرجا من المطبخ، وبدت خطوتها ممتلئة ورشيقة وكأنها تخففت أو تحررت من عبء ما. أجلسها بجواره على الأريكة وتبادلا حديثا هامسا تخللته قبلات رقيقة وصادقة منه على شعرها ويديها، وشيئا فشيئا تلاشى الكدر من وجهها وحلت نعومة دافئة.. وفى لحظة، كأنه تلقى إشارة ما، مد ذراعه واجتذبها ناحيته، متئدا وواثقا هذه المرة، تحسس عنقها وشفتيها بأصابعه ثم رفع وجهها نحوه وغابا فى قبلة طويلة.

٢٤

عندما فتحت سارة الباب كان جيف يقف خلفها، مخدرا تماما، وقد أخذ يحدق فيما يحدث بنظرة غائمة، انهال الدكتور رأفت بالضرب عليها، والغريب أنها لم تقاومه.. صرخت مرة واحدة مع الصفعة الأولى، ثم استسلمت بعد ذلك وكأنها تتلقى عقوبة قانونية إلى أن ركلها بقوة فسقطت على الأرض. عندئذ انتبه جيف لما يحدث واندفع نحو رأفت ليمسك به، لكنه دفعه بيده فترنح من ثقل المخدر وصاح في وجهه بصوت كالزئير:

- أما أنت أيها المدمن القذر.. فسوف أضعك الليلة في السجن.

ظل رأفت واقفا وسط الصالة وكأنه لا يدرى ماذا يصنع بعد ذلك، ثم استدار وهرع إلى الخارج، وسرعان ما علا صوت سيارته وهي تبتعد. ظل الباب الخارجي مفتوحا وأنوار المدخل مضاءة. أخذ جيف يذرع المكان ذهابا وإيابا وهو يدمدم بشتائم غاضبة.. توقف فجأة وبدا للحظة شارد الذهن وكأنه يستيقظ من حلم، مشى ببطء وأغلق باب الخروج والأنوار، ثم مد يده ليساعد سارة على النهوض، اصطحبها إلى الداخل وجلسا متجاورين

على الأريكة التى شهدت توهج لذتهما منذ قليل . . تطلع إلى وجهها فى الضوء فلاحظ لأول مرة كدمة حول عينها اليسرى وخيطا رفيعا من الدم ينز من جانب فمها . . مد يده وتحسس وجهها بحنان ثم قال بصوت أجش :

ـ تعرضنا لاعتداء حقير !

ظلت صامتة وكأنها لم تسمعه ، فاستطرد :

ـ لقد أسفر أبوك عن وجهه الهمجى . . يريد أن يتحكم فى حياة ابنته البالغة وكأنه ما زال يعيش فى الصحراء !

بدأت تبكى فى صمت . . مد يديه نحوها بالطبق الذى كان يحتوى على المخدر وهمس بنبرة مضطربة :

ـ اغسلى الطبق جيدا . . يجب أن نتحرك بسرعة . . سأخفى المخدر عند صديق فى الشارع المجاور . . وبعد ذلك نبلغ الشرطة .

ـ لن أبلغ الشرطة .

نظر إليها مليا وقال :

ـ سارة . . الأمر جد . . يجب أن نبلغ عن أبيك قبل أن يبلغ عنا .

ـ لن يبلغ عنا .

ـ أنت فعلا مستفزة . . من أين لك بهذه الثقة ؟

ـ لأنه أبي .

ـ كيف تثقين فيه بعد ما فعله؟

ـ اسمع يا جيف . . أنا أعرف أبى جيدا، وهو لن يبلغ الشرطة . . خلاص؟! . . أليس هذا كل ما يقلقك؟ . . اتركنى الآن فى سلام .

ـ ماذا تقصدين؟

ـ اتركنى وحدى . . أريد أن أجلس فى هدوء قليلا . . من فضلك .

أسندت رأسها إلى الحائط ، كانت فعلا تحتاج إلى السكون . برغم التعب والآلام كان ذهنها يفور بصور متلاحقة مدهشة فى قوتها وصفائها . كان وجه أبيها الغاضب يظهر ويده ترتفع فى الهواء وتصفعها المرة تلو الأخرى . ظلت تستعيد ما حدث بتفاصيله ، كأنها لم تستوعبه أو كأنها تريد أن تؤلم نفسها أكثر . انسالت على صفحة مخيلتها مشاهد قديمة راحت تسطع وتختفى كومضات من ظلمة الماضي : رأت نفسها وهى طفلة فى حضن أبيها ، وطالعها وجه أمها . . تذكرت كيف ظلت لسنوات ، كلما دخلت إلى فراشها الصغير كل ليلة ، تغمض عينيها وتدس رأسها تحت الوسادة وتدعو الله بحرارة ألا يتشاجر أبوها وأمها أثناء الليل فتستيقظ مفزوعة على صياحهما كما كان يحدث كثيرا . . استعادت ليلتها الأولى مع جيف ، ارتعاشة اللذة الأولى وفزعها من نقاط الدم التى لوثت الفراش وصوت جيف وهو يهمس :

ـ الآن صرت امرأة حقيقية!

أول مرة رأت جيف يشم، نهرته بشدة، رددت عليه كل ما تلقته فى المدرسة عن مخاطر المخدرات، لكنه ضحك وقال ببساطة:

ـ من لم يجرب المزاج ليس من حقه أن يتحدث عنه.. إنه وسيط رائع.. لولاه ما رأيت العالم كما أرسمه فى لوحاتى!

ظل يلح عليها حتى تشاركه الشم، لكنها رفضت بإصرار. وذات ليلة كانت معه فى الفراش فشدد من إلحاحه.. قال وكأنما يتوسل:

ـ اسمعى كلامى.. أنا أحب لك الخير.. المخدر لا يُغَيِّب وعيك وإنما يضيف إليك وعيا جديدا.. جربى مرة واحدة، وإن لم يعجبك فلا تقربيه بعد ذلك أبدا.

لن تنسى النشوة الأولى.. ما إن شمت المسحوق حتى أحست أنها تطير، تحلق بين السحاب، لا أحزان ولا قلق ولا خوف من المستقبل، سعادة عارمة متألقة وصافية.. ثم مارست الجنس معه فوصلت إلى الذروة. فى المرة التالية ناولها المخدر فلم تمانع.. ولما طلبت منه فى المرة الثالثة أطلق ضحكة عالية ممطوطة وقال وهو يناولها القمع:

ـ أهلا بك فى نادى السعادة!

صارت ممارسة الحب مرتبطة بالتعاطي.. كان الشم يحلق بها إلى أعلى درجة من الأورجازم، يجعلها تنتفض بقوة عدة مرات، تصرخ بشدة ثم يهمد جسدها.. تموت وتُبعث من فرط الحب..

الآن يحاول جيف أن يعيد ما انقطع . . اقترب أكثر حتى التصق بها وهمس :

ـ اللعنة على أبيك الأحمق . . أفسد علينا مفعول المزاج !

كان يتكلم بطريقة عادية وكأنه يعلق على سوء الجو أو ازدحام الطريق، صوت محايد وأسف خفيف عابر . . لم ينتظر ردها وكأنه مفروغ منه . . مد يده إلى الزجاجة التى كانت فى الأصل تحتوى على أقراص فيتامينات، رفعها فى مواجهة المصباح ونظر إليها، ثم رجها بعناية وأفرغ قليلا من المسحوق فى الطبق، واستعمل موسى صغيرا ليفصل خطا رفيعا، ولما بدأ يشد من طرف القمع نهضت سارة فجأة، ابتعدت، تقدمت نحو النافذة بسرعة وكأنها تهرب، كانت تحاول . . محاولة هينة خافتة تعلم فى قرارة نفسها أنها محكوم عليها بالفشل قبل أن تبدأ . . أشاحت بوجهها وراحت تتطلع عبر النافذة، وبدا جيف كالعادة واثقا من استجابتها . . تطلع إليها مبتسما وكأنه يسخر من تمنعها الطفولى ومد يده نحوها بالقمع . . كانت عيناه الزرقاوان تعكسان سيطرة مطلقة، ولما أحس بترددها قال بصوت واثق كأنما ينهى أمرا معلقا :

ـ هيا يا صغيرتى . . كفى لعبا فى الخارج . . عودى إلى الحديقة .

خفضت نظرها ومضت نحوه، مطرقة، مذعنة، محملة بكل اليأس الذى سيتحول بعد لحظات إلى شهوة قاهرة صاخبة . . ألقت بنفسها إلى جواره على الأريكة، تناولت القمع ورفعته ببطء إلى أنفها، ثم أغمضت عينيها وشدت بقوة .

٢٥

منذ أن كان اللواء صفوت شاكر طالبا فى كلية الشرطة، تنبأ له معلموه بمستقبل باهر بسبب قوة شخصيته وانضباطه وكفاءته الذهنية والجسمانية. وقد عمل بعد تخرجه معاونا لمباحث الأزبكية، فاستطاع برغم حداثة عهده أن يطور نظام العمل هناك. كان عمل ضابط المباحث آنذاك ينحصر فى القبض على المتهمين وتعذيبهم حتى يعترفوا، وكانت وسائل التعذيب تقليدية تتلخص فى ضرب المتهمين وتعليقهم على الفلكة وجلدهم بكرابيج ضخمة، وإذا أصر المتهم على الإنكار يتم هتك عرضه بواسطة إدخال عصا غليظة فى فتحة الشرج وإطفاء السجائر المشتعلة فى عضوه التناسلى وتوصيل شحنات كهربائية إلى جسده العارى.. ويستمر التعذيب حتى يستسلم المتهم ويعترف بما هو منسوب إليه.. هذه الطرق التقليدية كانت مفيدة بالطبع، لكنها تسببت فى موت العديد من المتهمين ووضعتهم فى بعض المواقف المحرجة.. وكان ضابط المباحث يلجأ عندئذ إلى حل من اثنين: إما أن يستخرج تقريرا طبيا يفيد أن المتهم توفى إثر هبوط حاد فى الدورة الدموية، ثم يأمر بدفنه سرا بعد تهديد أهله بالاعتقال والتعذيب لو فتحوا أفواههم.. أو يأمر المخبرين بإلقاء جثة المتهم من شرفة القسم ثم يكتب تقريرا بعد ذلك يفيد

انتحاره! . . وقد استحدث الضابط الشاب صفوت شاكر، بعد استئذان رئيسه، نهجا جديدا فى العمل . . فبدلا من الضرب والكهربة، كان يلقى القبض على زوجة المتهم (أو أمه أو أخته إذا كان أعزب) ثم يأمر جنوده فيخلعون ثياب المرأة قطعة قطعة حتى تصير عارية تماما، ويبدءون فى العبث بجسدها أمام زوجها الذى سرعان ما ينهار ويعترف بكل ما يُطلب منه . .
وقد أدت الطريقة الجديدة إلى نتائج باهرة، فأصبح استيفاء القضايا يتم فى نصف الوقت المعتاد، وتلقى مأمور قسم الأزبكية لأعوام متوالية خطابات شكر من السيد وزير الداخلية على سرعة الإنجاز ودقة العمل فى القسم . . مرة واحدة حدثت مشكلة عندما لم يتحمل أحد المتهمين مشهد أمه العجوز العارية والجنود يعبثون فى عورتها، فأطلق صرخة عالية محشرجة وكأنه يحترق ثم فقد وعيه، وتبين بعد ذلك أنه أصيب بشلل نصفي . إلا أن صفوت شاكر ظل كعادته رابط الجأش وعالج الأمر بحكمة، فأمر بنقل المتهم المشلول إلى المستشفى واستخرج تقريرا يفيد أنه كان يعانى من ضغط مرتفع أدى إلى جلطة فى المخ . . وفيما عدا هذه الواقعة العابرة، حقق الأسلوب الجديد نجاحا باهرا جعل أقسام الشرطة الأخرى تأخذ به . . وترددت أصداء نبوغ صفوت شاكر بقوة فى أوساط الوزارة، مما أدى إلى نقله إلى مباحث أمن الدولة، حيث استعمل طريقته مع المعارضين السياسيين فحققت نفس النجاح، مما دفع رؤساءه للاستعانة به فى محافظات أخرى . .
ومع التكرار والخبرة، جَوَّد صفوت شاكر طريقته وأدخل عليها بعدا مسرحيا جعلها أكثر فاعلية . . فأصبح - مثلا - عندما يتم

تجريد زوجة المتهم أو أمه من ثيابها، يتفحص المرأة العارية بنظرة متأنية ويقول للمتهم بلهجة محايدة:

- يخرب عقلك.. امرأتك حلوة جدا.. أليس حراما أن تتركها جائعة للجنس وتعمل بالسياسة!

أو يقول:

- صحيح أمك كبيرة فى السن.. لكننا لما قلّعناها وشفناها عريانة اكتشفنا أنها تنفع فى الجنس.. الدهن فى العتاقى!

قد يبكى المعتقل عندئذ أو يصرخ لاعنا أو مسترحما.. وقد تعلم صفوت، مثل ممثلى المسرح المخضرمين، كيف يسكت حتى ينتهى المتهم من رد فعله، ثم ينتظر لحظة ويقول بصوت خافت يتردد فى أذن المعتقل كوسوسة الشيطان:

- آخر كلام عندى.. يا إما تطاوعنى وتتكلم.. يا إما أخلى العساكر يناموا مع مراتك قدامك.. المفروض تشكرني، سأفرجك على فيلم بورنو مجانا!

خلال سنوات طويلة لم يصمد معتقل واحد أمام صفوت شاكر، بل كان كثيرون منهم يعترفون بانضمامهم إلى عدة تنظيمات فى نفس الوقت، أو حتى يوقّعون ورقة على بياض ثم يتولى صفوت بك كتابة الاعتراف الذى يريده. وإضافةً إلى كفاءته النادرة، اشتهر صفوت شاكر بتشجيعه للضباط الأحدث سنا.. كان يعلمهم بصبر ويحاول مخلصا أن يفيدهم بخبرته.. يمسك بورقة وقلم ويرسم منحنى هندسيا يبدأ من نقطة عالية ويظل

ثابتا على شكل خط مستقيم ثم يهبط بسرعة إلى الصفر . . ويشرح لتلاميذه الضباط :

ـ «هذا المنحنى يمثل مقاومة المتهمين . . تلاحظون من الرسم أن المقاومة تبدأ دائما عالية وتظل ثابتة لفترة، ثم تنهار فجأة نهائيا فى نقطة معينة . . الضابط الكفء هو الذى يعجل بنقطة الانهيار . . لا تعتمدوا على الضرب فقط . . بعد درجة من الألم الجسمانى قد يفقد المتهم الإحساس، كما أن الصعق بالكهرباء قد يقتله فيسبب مشكلة بلا داع . . جربوا طريقتى وسوف تعرفون قيمتها . . أشد المتهمين صلابة وشراسة لا يمكن أن يتحمل هتك عرض زوجته أو أمه أمام عينيه!» .

ظل صفوت شاكر فى أمن الدولة حتى حصل على رتبة عقيد، ثم أرادت الدولة أن تستفيد بنبوغه فى مجال جديد، فتم نقله إلى المخابرات العامة حيث اختلفت طريقة العمل بالطبع، فصارت مهمته متابعة شبكات التجسس واتجاهات الرأى العام والسيطرة على عملاء الجهاز من أساتذة جامعة وإعلاميين ومسئولين فى الحزب والحكومة وتكليفهم بمهمات محددة، وسوف تذكر المخابرات العامة، فى تاريخها الحافل، إنجازا عظيما لصفوت شاكر، عندما اشتدت معارضة النظام عن طريق بعض المثقفين المصريين المقيمين فى باريس، وكان يترأسهم كاتب معروف يتمتع باحترام الأوساط الفرنسية . . طلب صفوت شاكر من رئيس الجهاز أن يطلق يده فى العملية فأذن له، عندئذ سافر إلى باريس وبعد استئذان المخابرات الفرنسية استأجر امرأة ساقطة مقابل ربع مليون فرنك ودربها، فأقامت

علاقة مع الكاتب المصرى ودست له منوما فى الويسكى، ثم استدعت صفوت ورجاله فحقنوه بمخدر قوى وشحنوه فى صندوق أعدوه خصيصا بعناية، وأفاق الكاتب بعد ساعات فوجد نفسه في مبنى المخابرات بكوبرى القبة!.. كانت ضربة باهرة، ولم ينته التحقيق الفرنسى إلى شيء، فقيد ضد مجهول!.. أما المعارضون المصريون فقد خفتت أصواتهم بعد ذلك لفترة طويلة خوفا من مصير مماثل. الحق أن تسجيل الإنجازات المهنية للواء صفوت شاكر يحتاج إلى كتاب كبير منفصل. ولقد ظل يحرز النجاح تلو الآخر حتى عين مستشارا فى الخارجية (وهو الاسم الرسمى المعلن لمسئول المخابرات فى السفارات المصرية). عمل صفوت شاكر فى سفارتنا فى غانا ثم طوكيو، وأخيرا فى أهم عاصمة بالنسبة للنظام المصرى.. واشنطون!.. كان يدرك جيدا أن هذا المنصب معبره الأخير للمجد، فبذل مجهودا خارقا وأحرز نجاحا مشهودا حتى جاءت زيارة الرئيس المرتقبة إلى أمريكا بمثابة فرصة العمر.. لو رآه الرئيس وأعجب به فسيدفع به فى أقرب تعديل كوزير للداخلية أو الخارجية أو حتى التعاون الدولى، أما لو ارتكب خطأ واحدا فى الإعداد للزيارة فسوف يحال إلى المعاش فى الحركة القادمة!

هل عرفنا كل شيء عن صفوت شاكر؟! بقى جانبان من حياته: السطوة والنساء.. فبعد سنوات طويلة كان خلالها الآمر الناهي، المتحكم فى مصير آلاف المعتقلين، تكونت لديه قوة كامنة راسخة غامضة من الصعب شرحها تماما.. إن طبيعة عمله التى جعلته يرى الناس فى أضعف أحوالهم، التى أتاحت له أن

يهتك أخص الأسرار بين الزوج وزوجته، التى علمته كيف يسحق رجولة أكثر المناضلين صلابة حتى ينحنوا باكين متضرعين يقبّلون قدمه حتى لا يأمر بهتك أعراض زوجاتهم أمام أعينهم . . تلك الخبرة الإنسانية الشاذة العميقة قد منحته سطوة غريبة على من حوله، وكأنه كسر المجال غير المنظور الذى يتحرك فى حدوده الناس جميعا، فامتلك عندئذ قوة استثنائية لا قبَل لأحد بها! . . لم يعد بحاجة لأن يتكلم كثيرا، ولم يعد هَناك ما يدهشه أو يجعله يتردد . . ملامح وجهه الصخرية الصارمة كالقدر، نظرته القوية الرهيبة التى تنفذ إلى القلب، حركاته المهيبة المتأنية دوما وفقا لإيقاع خاص يستخف بأى توتر حوله، كلماته القليلة التى يلقيها ببطء وهو يضغط مخارج الحروف، بل وجوده ذاته الذى يسبب حالة كثيفة مقلقة فى المكان . . كل ذلك ضاعف من سطوته إلى حدود قصوى، شبه إلهية! . . إنه يقضى فلا يُرد قضاؤه، يُنَفّذ القدر ولا يخضع له . . إنه يقرر، بكلمة أو إشارة، مصير أسرة بأكملها لأجيال قادمة . . إن السطوة المذهلة التى يتمتع بها تدفعنا للتساؤل: هل بمقدور رغباتنا أن تغير سير الأحداث؟ . . هل إذا رغبنا بقوة فى أمر ما فإننا ندفعه إلى التحقق على نحو ما؟ . . إذا كان هذا صحيحا فإن سطوة صفوت شاكر تعود بالأساس إلى إحساسه العارم بها . . بدليل أنه يفرض إرادته فورا حتى مع الذين لا يعرفون منصبه. على أن هذه السطوة تأخذ مَنْحًى مختلفا مع النساء اللاتى ورث الولع بهن عن أجداده . . معظم الرجال فى أسرته جمعوا بين امرأتين أو أكثر (زوجات أو عشيقات)، وهو يذكر فى طفولته مشاجرات كثيرة بين أمه وأبيه بسبب علاقاته النسائية . . بل ويذكر، أثناء دراسته

فى كلية الشرطة، أن علاقة ربطته بخادمة تعمل فى بيتهم، وعندما كان يضاجعها كل خميس، بعد عودته من السهرة مع أصدقائه، كان يحس بجسدها ممتلئا متخما بالراحة، مما خلق لديه شكا قويا، أيدته بعض الإشارات، فى أنها كانت تجمع فى فراشها بينه وأبيه! . . هذا العنفوان الجنسى الوحشى رغبةً وأداءً، المشتعل لم يزل فى جسد صفوت شاكر برغم بلوغه الخامسة والخمسين، لا يرجع فقط إلى الوراثة وإنما أيضا إلى طبيعة عمله . . فالذين يعيشون على حافة الخطر، مثل الجنود المقاتلين ومصارعى الثيران ورجال العصابات المطارَدين، تشتعل رغباتهم الجنسية ولا تشبع أبدا . . وكأنهم يغترفون بنهم من اللذة التى قد يفقدونها مع الحياة فى أى وقت، أو كأنهم بالجنس يعمقون إحساسهم بكل لحظة من عمرهم المهدد!

على أن واحدة من غرائب صفوت شاكر الكبرى طريقته فى مضاجعة النساء: فبعد سنوات من الاعتقال بدون محاكمة، تفقد زوجة المعتقل الأمل فى الإفراج عن زوجها، وينحصر همها فى تحسين أحواله بقدر الإمكان، أو نقله إلى معتقل قريب، أو إدخال الأدوية بانتظام لعلاجه . . وهنا لا تجد زوجة المعتقل بدا من التوسل إلى ضباط أمن الدولة الذين يملكون، وحدهم، أن يجعلوا حياة زوجها أقل بؤسا . . وهكذا فإن من المشاهد المألوفة أمام مبنى مباحث أمن الدولة، وقوف جمهرة من النسوة المتشحات بالسواد منذ الصباح الباكر أمام الباب، ينتظرن ساعات طويلة فى صمت، أو يثرثرن بصوت خافت أو يستسلمن للبكاء، حتى يُسمح لهن أخيرا بالدخول . . عندئذ يبدأن فورا فصولا من

التضرع الحار المصحوب بالبكاء والدعاء للضباط من أجل تحقيق طلباتهن الصغيرة الخاصة بأزواجهن . . وقد تعوَّد الضباط فحص هذه الطلبات ببرود وسأم يشوبه الحنق ، وغالبا ما يرفضونها ويهددون النساء بالاعتقال والتعذيب إذا لم ينصرفن . . فقط إذا كانت زوجة المعتقل جميلة فعندئذ تختلف المعاملة ، فيطلبون منها مقابلة صفوت بك شاكر ، يقولُون لها ذلك على حين يلمع فى عيونهم تعبير ساخر مستتر . كانوا يعرفون عن رئيسهم حبه للنساء ويتندرون بذلك سرا فيما بينهم ، لكنهم مع ذلك يبعثون إليه بالجميلات مجاملةً له و طلبا لرضاه . . وهكذا تدخل زوجة المعتقل الجميلة إلى مكتب صفوت شاكر وهى تتعثر فى خوفها وبؤسها ، ومنذ النظرة الأولى يكون بمقدوره أن يدرك أى نوع من النساء هى . . هل تقبل أم ترفض؟ وهو يقيّم استجابتها بنظرة واحدة طويلة متأنية تتفحص جسدها بشهوة واضحة ، وفى نفس الوقت تقيس رد فعلها . . تقف المرأة أمامه ملتاعة ، تشكو وتبكى وتتوسل لكى يحقق مطالبها . . فإذا أدرك صفوت بخبرته أنها ستمتنع عليه ، أعاد أوراقها إلى مرؤوسيه لاتخاذ اللازم . . أما إذا أحس بأنها ممكنة فإنه يلبى طلباتها فورا . . ووسط عاصفة الشكر والدعاء التى تجتاح المرأة ، يسدد صفوت نظرته من جديد إلى مفاتنها و يقول ببطء :

ـ أنت حلوة يا بنت . . كيف تصبرين على حالك؟

تكون هذه النقلة المكشوفة المفاجئة ضرورية لاستبعاد آخر احتمال للاستنتاج الخاطئ . . فإذا ابتسمت المرأة أو لاذت بصمت محرج خالٍ من الغضب ، أو أطرقت وتضرج وجهها أو حتى

همست بصوت خافت لكنه متلون رنان . . يتأكد صفوت عندئذ من خلو الطريق، فيتحدث معها هذه المرة عن الجنس بطريقة مكشوفة . . وفي النهاية يخرج ورقة ويكتب عنوان شقته الخاصة في شارع الشواربي، ويتمتم كأنه يفصل في أمر عمل:

- غدا . . الساعة الخامسة مساء سأنتظرك في هذا العنوان.

لم يحدث أن تخلفت امرأة واحدة عن المجيء . . والأسباب عديدة: فزوجة المعتقل في النهاية إنسانة لها شهوة ضارية تلتهم أعصابها بلا أمل في إشباع قريب، وقد يرضيها في أعماقها أن ضابطا كبيرا مثل صفوت شاكر يريدها، أي أنه فضلها - وهي المرأة الفقيرة - على سيدات المجتمع الراقي المتاحات أمامه، كما أنها بقبولها العلاقة مع صفوت تؤمّن لزوجها ظروفًا أفضل في المعتقل . . على أن استسلام زوجات المعتقلين يعود أساسا إلى سبب أعمق ذي علاقة بالمنحنى البياني الذي يرسمه صفوت شاكر لتعليم تلاميذه الضباط . . فالمرأة التي انكسرت من الفقر والمحنة، التي أنهكها القتال على أكثر من جبهة، التي يئست تماما من استئناف حياتها الطبيعية، التي اجتمع عليها الحرمان وطمع الرجال وكفاحها اليومي البائس لإطعام أطفالها . . هذه المرأة تكون كالجندي المحاصر المنهك قبيل استسلامه بلحظات . . عندئذ تدفعها رغبة داخلية عميقة إلى السقوط . . نعم، إن سقوطها يحقق لها ما يشبه الراحة، لأنه يخمد للأبد صراعها الداخلي الذي طالما عذبها! . . إنها الآن ساقطة بالفعل، فلم يعد ثمة مجال للتردد أو التفكير أو المقاومة . . ومنذ اللحظة الأولى لدخولها إلى الشقة يأخذها صفوت شاكر إلى الفراش، ويكتشف

كل مرة من عنايتها بتفاصيلها الداخلية أنها توقعت واستعدت. . الغريب أنه لا يقبّلهن أبدا، وكثيرا ما يضاجعهن بلا كلمة واحدة، يمعن فى مداعبة أجسادهن الملتهبة أصلا بالرغبة، يشعل شهوتهن حتى الجنون. . وفى لحظة ما يدركها بالحدس، تماما كما يشهر مصارع الثيران سيفه ليجهز على غريمه الضخم، يقتحم صفوت جسد المرأة بعنف بالغ، لا حنان ولا رقة، يضاجعها بلا رحمة، يخترقها مرة تلو الأخرى وكأنه يجلدها بالسوط كما فعل مع زوجها من قبل. . وتصرخ هي كأنها تستغيث، تختلط فى صرخاتها اللذة بالألم، أو ربما تنتج اللذة عن الألم. . إن اعتداءه عليها بهذا الشكل يحقق لها لذة عميقة، لا تنبع من الجنس بقدر ما تنبعث من تحررها النهائى من الكرامة. . إنه يمعن فى إذلالها، يضاجعها ويحتقرها، فيصل احتقاره إلى أعمق أعماقها لأنها تستحقه. . إنها ساقطة لا تستحق أن يعاملها أحد برقة أو احترام، وهو يضاجعها كما تضاجع الساقطات. . وبعد أن يبلغا الذروة تتعلق المرأة بصفوت، لا تجرؤ أبدا على تقبيله (فالقبلة تنطوى على ندية) لكنها تحتضنه، تتشبث بجسده، تتحسسه وتتشممه، وأحيانا تلعقه بلسانها، وكثيرا ما تنحنى وتقبّل يديه وهى تبكى. . على حين يظل هو راسخا ممددا فى استرخاء، يدخن وقد شرد بذهنه بعيدا، وكأنه إله يتلقى القرابين من عبيده بغير اكتراث كبير. .

ها هو اللواء صفوت شاكر يجلس فى مكتبه بالسفارة المصرية فى واشنطن، غارقا فى قراءة تقارير أمنية وصلت لتوها من القاهرة. . ساد السكون الحجرة حتى قطعه صوت سكرتيره حسن عبر جهاز الاتصال الداخلي:

ـ آسف لإزعاجك يا فندم!

ـ قلت لك لا أريد أى اتصال.

ـ دكتور أحمد دنانه جاء من شيكاجو لمقابلتك.. وهو يؤكد أن الأمر عاجل ومهم.

صمت صفوت لحظة، ثم قال بصوت أجش:

ـ أدخله.

بعد لحظة، اندفع دنانه إلى الحجرة، لاهثا والعرق يتصبب منه، وكأنه جاء من شيكاجو عَدْوًا.. ألقى بجسده على الأريكة المواجهة للمكتب، وقال بصوت مبحوح وكأنه يستغيث:

ـ آسف لإزعاج سيادتك، لكن حدثت مصيبة يا فندم.. مصيبة!

ظل صفوت يرقبه صامتا، واستطرد دنانه بصوت متهدج:

ـ الدكتور دنيس بيكر، المشرف على رسالتى للدكتوراه، اتهمنى بالتزوير فى نتائج البحث وأحالنى للتحقيق.

لم ينطق صفوت.. جذب سيجارة من العلبة الذهبية المفتوحة أمامه وأشعلها بتَأَنٍّ ثم جذب نفَسا وجعل يحدق فى دنانه الذى هتف بصوت ضارع:

ـ لو تمت إدانتى فى التحقيق سيتخذون قرارا بفصلى!

أجاب صفوت ببطء وهو يخترقه بنظرة كالرصاص:

ـ وماذا تريدنى أن أفعل؟

ـ مستقبلى سيضيع يا فندم . . سيفصلوننى من الجامعة!

ـ من قال لك أن تزوّر فى نتائج البحث؟!

ـ أنا لم أزوّر يا فندم . . لقد تأخرت فى البحث نتيجة المهمات التى كلفتنى بها سيادتك . . وظل الدكتور بيكر يضغط علىَّ حتى أقدم له النتائج . . فقلت لنفسى: سأعطيه نتائج وبعد ذلك أعمل التجارب على مهلي!

ـ يا لك من حمار! . . ألم يَدُرْ بذهنك أنه سيراجع النتائج؟

ـ فى الرسائل الأخرى، كثيرا ما كان يكتفى بمراجعة الأرقام . . وقد اقتنع بالأرقام التى قدمتها له.

هكذا تمتم دنانه وأطرق، ثم استطرد بصوت خافت وكأنه يكلم نفسه:

ـ كادت المسألة تمر . . لكنه أراد لسوء حظى أن يطبق فكرة جديدة على البحث، ففحص الشرائح واكتشف ما فعلته!

ظل صفوت صامتا، وبدأ دنانه فاصلا من التضرع:

ـ أنا فى عرضك يا صفوت بك . . لقد خدمت الدولة منذ أن كنت طالبا فى الكلية . . لم أقصّر يوما ولم أتوانَ عن تنفيذ كل ما أمرتمونى به . . ألا أستحق أن تقفوا بجوارى فى هذه المحنة؟!

ـ نحن لا نقف بجوار المزوّرين!

ـ أبوس يدك!

ـ إذا لم تفصلك الجامعة سنفصلك نحن . . لا يمكن أن تظل فى منصبك وأنت مزوّر.

فتح دنانه فمه ليقول شيئا، لكن وجهه اختلج بشدة وانخرط فى البكاء . . بكى فعلا بدموع غزيرة حقيقية، ثم بدأ فاصلا آخر من العويل :

- يا خسارة تعبى . . يا خسارة سهر الليالى . . آخرتها فضيحة وفصل!

- اسكت .

هكذا نهره صفوت وقد بدا على وجهه الضيق . . واستشعر دنانه من ذلك بصيص أمل فألح من جديد :

- أستحلفك بذكرى والديك رحمهما الله . . أرجوك ياصفوت بك . . أنت رئيسى وأستاذى وأنا تلميذك . . من حقك أن تشد أذنى عندما أخطئ . . افعل فىَّ أى شيء تريده سيادتك لكن لاتتركنى .

ربما كانت هذه الحالة هى التى ينتظرها صفوت؛ لأنه عاد إلى الخلف فى مقعده الوثير ورفع رأسه وظل يحدق فى السقف، فساد صمت عميق لم يلبث أن قطعه قائلا :

- سأساعدك . ليس من أجلك، وإنما من أجل زوجتك المنكوبة بك!

- ربنا يخليك يا فندم .

- متى التحقيق؟

- غدا .

- اذهب إليهم .

ـ ممكن أحصل على شهادة مرضية أؤجل بها الأمر لمدة أسبوع . .

ـ لا . . اذهب غدا كما طلبوا .

ـ يا فندم . . الدكتور بيكر كلمته مسموعة فى القسم وسوف يفصلوننى حتما .

ـ دعهم يفصلوك . . لا بد أن يبعثوا لنا بقرار فصلك . . بمقدورنا أن ندفن القرار هنا فلا تعرف به البعثات .

ـ ربنا يخليك يا فندم . . لكنى سأنقطع عن الدراسة !

ـ بعد أن يهدأ الموضوع ، سأسعى لإلحاقك بجامعة أخرى .

كان ذلك أكثر مما تمناه دنانه ، حتى إنه ظل يحدق قليلا فى وجه سيده وقال بصوت متردد :

ـ سأعتبر سيادتك وعدتني .

عاجله صفوت بنظرة مستهجنة كادت تجمده فى مكانه ، ثم قال بصوت من أصابه سأم :

ـ ارجع الآن إلى شيكاجو وأكمل المهام التى كلفتك بها . . زيارة سيادة الرئيس اقتربت . . ليس لدينا وقت .

حاول دنانه أن يلقى مقطعا ولو صغيرا من عبارات الشكر والامتنان ، لكن صفوت عاد يقرأ فى التقارير المتناثرة أمامه على المكتب وقال :

ـ لا تعطلنى . . أمامى عمل كثير .

تنهد دنانه وقد انفرجت أساريره واستدار لينصرف، لكنه قبل أن يبلغ الباب جاءه صوت صفوت وقد اكتسب إيقاعا مختلفا:

ـ على فكرة.. لى طلب عندك.

ـ تحت أمرك.. رقبتى يا فندم.

٢٦

من فرط الرعب بدت كارول ممتقعة، تسارعت دقات قلبها واضطربت أنفاسها، وكادت تفقد الوعى وهى تدخل مع صديقتها إميلى المصعد المزدحم فى ناطحة سحاب شاهقة تطل على ميتشجن أفنيو. همست إميلى لعامل المصعد، فضغط زر الدور الثلاثين، وأصدر المصعد جرسا موسيقيا قبل أن ينطلق. ظلتا صامتتين، كانتا قد تحدثتا طويلا حتى لم يعد لديهما ما يقال، طرحت كارول أسئلة كثيرة، ترددت طويلا وكادت تتراجع أكثر من مرة، لكن إميلى كانت تطمئنها، تتطلع إليها بابتسامة أم وتقول:

- هذه فرصة عمرك.. لو كنت مكانك لما ترددت.

- لا أستطيع منع نفسى من الإحساس بالعار!

- ليس فى الأمر ما يشين إذا نظرت إليه من ناحية جمالية بحتة!

خرجتا من المصعد، ومضت إميلى وكارول تتبعها إلى نهاية الردهة إلى اليمين. وقفت أمام باب زجاجى معتم لا يكشف ما وراءه، تعلوه لافتة مكتوبة بخط أنيق: «وكالة فرناندو

للإعلان» . . ضغطت إميلى زر الجرس ونطقت باسمها فى جهاز الديكتافون، ولم يلبث الباب أن انفتح عن رجل أربعينى يربط شعره فى عدة ضفائر طويلة رفيعة ومتشابكة على الطراز الإفريقي، ويبدو من ليونة حركاته والماكياج الخفيف على وجهه أنه شاذ جنسيا. كان يدخن سيجارة منتفخة انبعثت منها رائحة ماريجوانا قوية . . تبادل صيحة ترحاب مع إميلى التى احتضنته بحرارة وقبّلته على وجنتيه ثم قالت بمرح :

ـ صديقتى كارول . . صديقى فرناندو .

ـ سعيدة برؤيتك .

صافحته كارول، وجاهدت لتنتزع ابتسامة .

كانت الشقة متسعة وقد أثثت بطريقة حديثة فخمة، وعلى الحائط لمحت كارول لقطات فوتوغرافية مكبرة لوجوه ومناظر طبيعية خمنت أنها من تصوير فرناندو الذى اقتادهما عبر ممر طويل لمحت كارول على جانبه بابا مفتوحا لحجرة نوم تسبح فى إضاءة حمراء خافتة . . فى النهاية دخل الثلاثة إلى الأستديو: قاعة صغيرة مستديرة سقفها شاهق، ثبتت فى أركانها الأربعة كاميرات بأحجام مختلفة، وفى الوسط مقعد ومنضدة صغيرة وأريكة من نوع الصوفا، وقد تدلت من السقف كشافات إضاءة بألوان صفراء وزرقاء وحمراء. دعاهما فرناندو إلى الجلوس على الأريكة، وجلس أمامهما على الكرسى ثم قال بود :

ـ آسف على هذه الفوضى ؛ فأنا شخص غير منظم!

ـ هكذا الفنانون جميعا!

ـ هل تريدان وصلة ماريجوانا من نوع ممتاز؟

ـ لا . . شكرا .

هكذا تمتمت إميلى ، فى حين ظلت كارول فاقدة النطق .

ـ ماذا تشربان؟

ـ أى شيء مثلج .

فتح الثلاجة وأحضر علبتى بيبسى . . ثم قال بنبرة عملية :

ـ حسنا يا كارول . . لا أريد أن أضيع وقتك . . أظن إميلى أخبرتك بالموضوع .

هزت كارول رأسها ، فاستطرد فرناندو :

ـ لابد أن أرى صدرك أولا . . حتى يكون لدينا قاعدة بناءة للنقاش .

أطلق ضحكة عالية ، ثم هز رأسه ولَمَّ ضفائره بيديه ونهض من مكانه بخطوة شبه راقصة . وقف أمام الكاميرا ، ومد يده بالريموت فأضاء كشافا أبيض صنع بقعة مستديرة من الضوء الساطع على خشب الأرضية ، ثم أشار بيده يستدعى كارول ، فنهضت ببطء ، وخطر لها فعلا فى تلك اللحظة أن تهرب ، أن تفتح باب الشقة وتركض بأقصى سرعة ، تترك كل شيء وتعود إلى بيتها ، إلى مارك وجراهام . . لكنها برغم ذلك تقدمت نحوه وكأن قدميها تتحركان خارج سيطرتها . ابتسم لها فرناندو برقة كأنما أدرك حالتها وقال بصوت هادئ :

- اخلعى هذا القميص من فضلك.

كان ذلك فوق طاقتها، فظلت واقفة أمامه مطرقة، ساكنة تماما، فقال ببساطة:

- سأساعدك.

اقترب منها وبدأ يفك الأزرار بتأن وكأنه يستمتع. ارتجفت وأحست بغثيان، وخيل إليها أن روحها تنسحب منها، لكنها مع ذلك استسلمت ليديه.. فك مشد الصدر من الخلف وألقى به على المنضدة فانسدل ثدياها وكأنهما تحررا من القيد.. ثم استدار وقد اكتسى وجهه بتعبير مهنى تماما، واتخذ مكانه خلف الكاميرا وحدق فى العدسة بعناية، ثم عاد إليها وعدل من وقفتها أكثر من مرة ليفحص صورة صدرها فى الكاميرا من زوايا مختلفة.. ولم يلبث أن تنهد وصاح كمن ينهى أمرا معلقا:

- لا بأس.. هيا نتكلم قليلا.

مدت يديها وغطت صدرها بالقميص، لكنها - لدهشتها - تركته مفتوحا ولم تغلق الأزرار. جلس أمامها وأشعل سيجارة ماريجوانا جديدة توهج طرفها بشدة ولم تلبث أن أصدرت دخانا كثيفا.. سعل بشدة وقال:

- صديقتى العزيزة.. ها هى الحكاية: توجد شركتان تنتجان الملابس الداخلية النسائية فى شيكاجو: شركة دبل إكس وشركة روكى.. أظنك سمعت بهما. المنافسة بينهما شديدة، بقطع الرقبة كما يقولون.. وهما تتنافسان على ترويج مشدات الصدر بالذات لأنها الأعلى مبيعا.. مستوى الأداء فى الشركتين

متقارب، مما يضاعف من أهمية الإعلان . . منذ شهور ابتكرت شركة روكى حملة إعلانية جديدة فبدأت فى استعمال سيدات حقيقيات . . تظهر المرأة على التليفزيون بجوار اسمها الحقيقى ومهنتها . . ويشاهدها المتفرجون وهى تخلع ملابسها وترتدى مشد الصدر من نوع روكى، ثم تبدأ فى الحديث عن مزاياه. هل رأيت هذه الإعلانات فى التليفزيون؟

ـ نعم .

ـ لا بد أن نعترف أنها كانت حملة إعلانية عبقرية لشركة روكى . . مما أدى إلى انخفاض مبيعات شركة دبل إكس من مشدات الصدر بنسبة ٢٠٪، وهذا يعنى خسارة ملايين الدولارات! . . لقد كلفتنى شركة دبل إكس بتنظيم حملة إعلانية مضادة . . هذه فرصة مهنية كبرى بالنسبة إلىّ . . لو نجحت سوف تنتقل وكالة الإعلان الصغيرة التى أملكها إلى الصدارة . . وقد فكرت طويلا حتى توصلت إلى فكرة إعلان مبتكرة تماما .

ـ لقد أكدت لى إميلى أن وجهى لن يظهر فى الإعلان!

هكذا هتفت كارول وتطلعت إلى صديقتها كأنما تستنجد بها، فقال فرناندو :

ـ اهدئى يا صغيرتى . . لا يمكن أن نقلد إعلان شركة روكى . . ستكون طريقتنا مختلفة تماما . . سوف أصورك فقط وأنت تخلعين مشدا من نوع روكى وترتدين مشد دبل إكس . لن تكشف الكاميرا وجهك . . سأظهر للمشاهدين بواسطة حركة جسدك إلى أى مدى تحسين بالراحة وأنت تستعملين مشد دبل إكس . . هذا هو

التحدى الصعب! أمامنا الكثير من العمل . سنجرى بروفات كثيرة حتى أعلمك كيف تعبّرين عن نفسك بواسطة جسدك .

ـ ولماذا اخترتنى أنا بالذات؟

هكذا سألت كارول وقد تحول اضطرابها إلى شعور عميق بالاستغراب وكأنها جزء من مشهد خرافى قد ينتهى فى أية لحظة فتعود إلى الحقيقة .

جذب فرناندو جرعة كبيرة من دخان الماريجوانا ثم أغلق شفتيه وابتلعها وسعل ، وقال وقد احمرت عيناه :

ـ فى هذا الإعلان لا يجب أن يكون الصدر رائع الجمال لأنه سوف يبعد السلعة عن إحساس الزبونة . . كنت أبحث عن صدر عادي ، صدر شائع كالذى تملكه معظم المشاهدات ، صدر أمريكى أسود متوسط ليس تحفة فى الجمال ولا قبيحا جدا . . وقد وجدت صدرك ملائما . . هل أخبرتك إميلى بالأجر؟

ـ ألف دولار عن كل ساعة تصوير .

ـ ذاكرتك الرقمية ممتازة .

ضحك عاليا ، ثم نهض وخرج من القاعة ، ولم يلبث أن عاد وهو يمسك بكأس صغيرة وقال :

ـ سنجرى الآن أول تجربة . . أرجو أن تسلمى لى نفسك تماما . . اشربي .

ـ ما هذا؟

ـ كأس كونياك صغيرة ستمنحك الشجاعة أمام الكاميرا .

أحست بالسائل يحرق حلقها، وما إن وضعت الكأس على المائدة حتى جذب فرناندو يدها قائلا:

- هيا إلى العمل.

* * *

«نحن الموقعون أدناه، المصريون المقيمون فى مدينة شيكاجو بالولايات المتحدة، نشعر بقلق بالغ من أجل ما آلت إليه الأوضاع فى مصر من فقر وبطالة وفساد وديون داخلية وخارجية نحن نؤمن بأن بلادنا تستحق نظاما سياسيا ديمقراطيا. نؤمن بحق المصريين جميعا فى العدل والحرية.. وننتهز فرصة زيارة الرئيس إلى الولايات المتحدة لنطالبه بما يلى:

أولا: إلغاء قانون الطوارئ.

ثانيا: تطبيق إصلاح ديمقراطى وكفالة الحريات العامة.

ثالثا: انتخاب جمعية وطنية لصياغة دستور جديد يكفل ديمقراطية حقيقية للمصريين.

رابعا: تخلى الرئيس عن منصبه الذى شغله لفترة طويلة، وعدم توريث الرئاسة لابنه وإتاحة الفرصة لمنافسة حقيقية على الرئاسة تخضع لانتخابات تحت إشراف دولي».

جلسنا نصوغ البيان أنا والدكتور كرم فى بيت جراهام الذى اشترك معنا بحماس الثورى القديم.. ترجمنا له النص فأعطانا بعض الأفكار المهمة.. قال:

- يجب أن تكون لغة البيان منضبطة ومحددة، إذا كانت أدبية عاطفية فلن تؤخذ بجدية.. وإذا كانت متشددة وكأنها إعلان حرب ستبدو كاريكاتورية.

أضفنا بعض المطالب عن الإفراج عن المعتقلين وإلغاء المحاكم الاستثنائية ومنع التعذيب.. وتوصلنا إلى الصيغة النهائية فى ساعة متأخرة من ليل الجمعة، استيقظت مبكرا فى الصباح و طبعت البيان، ثم صورت منه عشرين نسخة و بدأت رحلتي.. كان عليّ أن أقابل المبعوثين المصريين وأقنعهم بالتوقيع. خلال النهار التقيت خمسة مبعوثين أرهقونى بالجدل العقيم ثم رفضوا جميعا التوقيع.. وكان أغرب رد فعل من طارق حسيب وشيماء محمدي، زميلان فى قسم الهيستولوجى لا يفترقان أبدا (وأظن أن بينهما علاقة غرام). طارق هذا شخص غريب الأطوار.. متفوق جدا، لكنه انطوائى وعدواني، يبدو دائما معتكر المزاج وكأن أحدا أيقظه للتو من النوم!.. استمع إلىّ فى صمت وشيماء بجواره.. استعرضت الأوضاع فى مصر وقلت إن واجبنا أن نفعل شيئا من أجل التغيير.. لمحت تعبيرا ساخرا على وجهه.. وما إن ذكرت البيان حتى قاطعنى متهكما:

ـ هل تمزح؟ أتريدنى أن أوقع على بيان ضد رئيس الجمهورية؟!

ـ نعم.. من أجل بلادك.

ـ لست مهتما بالسياسة.

ـ عندما تعود إلى مصر.. ألست ستتزوج وتنجب أطفالا؟

هكذا سألته وأنا أنظر نحو شيماء.

ـ إن شاء الله.

ـ ألا يهمك مستقبل أولادك؟

ـ أولادى سيكون مستقبلهم أفضل عندما أتفرغ لدروسى وأعود إلى مصر بالدكتوراه.

ـ لماذا تقبل أن يعيشوا فى كل هذا الظلم والفساد؟

ـ وهل ستتحسن أحوالهم باعتقالي؟

ـ من سيعتقلك؟

ـ طبعا.. كل من يوقع هذا البيان سيتعرض للأذى.

هكذا قالت شيماء فى أول جملة تنطقها، تحليت بالصبر وحاولت أن أشرح لهما المزيد.. لكن طارقًا نهض وقال:

ـ لا تُضيِّعْ وقتك يا ناجى.. لن نوقع على بيانات، ولا أعتقد أن مصريا واحدا فى شيكاجو سيفعل ذلك.. نصيحة لوجه الله.. ابتعد عن هذا الطريق لأن نهايته سيئة.. التفت إلى دروسك.. خليك فى حالك ولا تحاول إصلاح الكون!

هكذا قال باستهزاء، ثم جذب شيماء من ذراعها وتركانى وحدي. عندما قابلت كرم فى المساء كنت محبطا. قلت له:

ـ صرتُ قريبا من التراجع عن الفكرة!

ـ لماذا؟

ـ كل المبعوثين الذين قابلتهم رفضوا التوقيع.

ـ هل كنت تتوقع إقناعهم بسهولة؟

ـ لقد تعاملوا معى وكأننى مجنون!

ـ شيء طبيعي.

ـ لماذا؟

ـ المبعوثون جميعا فى قبضة الحكومة.. لو وقعوا على البيان سيتعرضون فعلا للعقاب.

ـ لكننى مبعوث مثلهم.

- أنت شخص استثنائى، كما أنك لا تعمل فى الجامعة.. وبالتالى ليس لديك ما تفقده.

- إذا حسب كل شخص الأمر بهذه الطريقة فلن نفعل أى شيء.

- يا لك من حالم!

- لست حالما.. لكننى أجد موقفهم أنانيا وحقيرا.. أمثال هؤلاء هم السبب فيما وصلنا إليه.. إنهم لا يرون فى الدنيا إلا مصالحهم الضيقة.. من بين هؤلاء يختار النظام وزراءه وخبراءه الذين يسكتون عن الحق وينافقون الرئيس مقابل الاحتفاظ بمناصبهم.

قال الدكتور كرم:

- لا تيأس.

- لم أعد أرى فائدة فيما نفعله.

ابتسم وربت كتفى، ثم أخرج من جيبه ورقة مطوية، طالعتها فوجدتها صورة من البيان عليها توقيع أسماء عديدة. ضحك عاليا وقال:

- اعترف أننى تفوقت عليك!

أخذت أطالع الأسماء.. كانوا أقباطا ومسلمين . استطرد وهو لا يخفى سعادته:

- فى البداية لم أكن متحمسا لفكرة البيان، لكننى بعد ذلك وجدتها ممتازة.. وقد تجاوب معها معظم الذين قابلتهم.. سوف ننجح يا ناجى، لكن علينا أن نبحث فى المكان المناسب.. لا تضيع وقتك مع المبعوثين.. لقد أحضرت لك كشفا بأسماء المصريين المهاجرين فى شيكاجو.. مع عناوينهم وأرقامهم.. سوف نقتسم الأسماء بيننا.. ونتصل بهم.

خلال الأيام التالية، بمجرد عودتى من الكلية، كنت آخذ التليفون بجوارى وأبدأ فى الاتصال بأرقام المصريين.. كنت أقدم نفسى باعتبارى مبعوثا يسعى إلى إنشاء رابطة جديدة للمصريين ثم أطلب من محدثى موعدا للقائه.. تباينت ردود الفعل.. بعضهم قال لى بصراحة إن علاقته بمصر انقطعت من زمان ولا يهمه ما يحدث فيها.. لكن كثيرين منهم تحمسوا.. طُفْتُ بعدة أحياء فى شيكاجو.. معظم المصريين الذين قابلتهم كانوا ساخطين على الأوضاع.. فى نهاية حديثى كنت أوجه لكل واحد منهم سؤالا مباشرا:

ـ هل تريد أن تفعل شيئا من أجل بلادك؟

كنت أدرك الإجابة من نظرته.. إذا كانت غير مبالية أو محرجة سيرفض.. وإن ظلت ودية فمعنى ذلك أنه سيوقع معى. فى الأسبوع التالى، فى الساعة الرابعة من مساء الأحد، عندما ركبت المترو الأزرق عائدا إلى السكن، كنت قد حصلت على توقيعات عشرة أشخاص بالإضافة إلى تسعة وعشرين توقيعا جمعهم كرم، فيكون المجموع تسعة وثلاثين اسما، بالإضافة إلى خمسة أشخاص طلبوا مهلة للتفكير.. كان ذلك إنجازا فوق التوقع خلال أيام قليلة. أمامنا شهر كامل، لو استمررنا على هذا المعدل سنحصل على مئات التوقيعات.

تذكرت مقالا قرأته من سنوات عن طبيعة غامضة يحملها المصريون تجعل من الصعب التكهن بردود أفعالهم . أكد المقال أن الثورة تندلع دائما فى مصر على غير توقع، وأن ثمة تفاعلا يحدث تحت السطح الهادئ للمصريين يجعلهم فى اللحظة التى يبدون فيها وكأنهم أذعنوا للظلم، ينفجرون بالثورة على نحو

مفاجئ. هذه النظرية يبدو أنها صحيحة!.. انتابني إحساس بالفرح والزهو، فها أنا أفعل شيئا صغيرا من أجل زملائي الذين يضربون ويسحلون وتنتهك أعراضهم في شوارع القاهرة.. الذين يعتقلون ويعذبون ببشاعة لمجرد أنهم عبّروا عن آرائهم.. غدا سوف نحرج النظام المصرى أمام العالم أجمع!.. أمام كاميرات المصورين ومندوبي الصحافة العالمية سيقف شخص يتحدث باسم المصريين في شيكاجو يطالب الرئيس بالتنحي عن الحكم وتطبيق الديمقراطية.. لن يوجد خبر أهم من ذلك في وكالات الأنباء!

وأنا أجتاز مدخل السكن، لمحت هنري صديق ويندي السابق جالسا إلى مكتبه.. رمقني بنظرة استخفاف فتجاهلته تماما.. أبطأت في مشيتي ليعرف أنني لا آبه له.. أحسست فجأة بأنني قوي.. لم أعد أخشاه.. فليذهب إلى الجحيم.. من الآن فصاعدا إذا تجاوز حدوده أو نطق بكلمة مهينة سألقنه درسا لن ينساه. خرجت من المصعد وأدرت المفتاح في باب الشقة، وما إن خطوت إلى الداخل حتى لاحظت شيئا غريبا.. كانت الأنوار مضاءة مع أنني أذكر جيدا أنني أغلقتها قبل خروجي!.. تقدمت ببطء وحذر.. وفجأة رأيت شخصا جالسا في المقعد في الصالة.. تجمدت مذهولا في مكاني ثم صحت بأعلى صوتي:

ـ من أنت، وكيف دخلت إلى هنا؟

نهض بثبات وتقدم نحوي، ابتسم ومد يده مصافحا وقال:

ـ مساء الخير يا ناجي.. آسف لأني جئت بهذه الطريقة، لكني فعلا أريدك لأمر مهم.. اسمي صفوت شاكر.. مستشار السفارة المصرية في واشنطن.

٢٧

ذلك الصباح، استجابت كريس لدافع داخلي غير مفهوم فارتدت ثيابا محافظة، تايير أخضر داكن بكم طويل ونظارة شمسية سوداء. . بدا مظهرها كسيدة متخفية في مسلسل بوليسي وقد وجدت المحل على بعد خطوات من فتحة المترو، تماما كما قرأت في الجريدة، الواجهة الزجاجية مغطاة بقماش أسود وثمة لافتة مضاءة بالنيون عليها عبارة: «مكسيم لأدوات البهجة». . وقفت أمام المحل مترددة لحظات حتى فوجئت بالباب يفتح وتظهر فتاة في العشرينيات. . حيتها بابتسامة ودودة ودعتها للدخول فدخلت وراءها وقالت لنفسها من الطبيعي في مكان كهذا أن يراقبوا المدخل بكاميرات سرية. . أجالت نظرها في المكان فأحست بدوار وانقباض في معدتها. . رأت عشرات الأنواع من أدوات الجنس لكل الأغراض. . للرجال والنساء والشواذ والسحاقيات. . وفي الخلفية ثبتت شاشة كبيرة تعرض فيلما إباحيا وبدا شكل البائعة غريبا وهي تبتسم بأدب وتتحدث بهدوء بينما تنبعث من خلفها آهات اللذة في الفيلم:

- كيف أستطيع أن أساعدك؟

- أريد أن أشتري فيبريتور VIBRATOR .

هكذا هتفت كريس بنبرة خارجية حاولت أن تكون محايدة غير مكترثة، لكن صوتها ارتفع رغما عنها فضاعف من حرجها. . سألتها البائعة ببساطة:

- أى نوع من الفيبريتور تريدين؟

اقتربت كريس من البائعة وهمست بصوت مهتز:

- فى الحقيقة. . أنا أستعمل الفيبريتور لأول مرة ولا أعرف أى نوع أختار؟

اتسعت ابتسامة البائعة وقالت:

- إذا أردت نصائح خبيرتنا الجنسية. . فإن ذلك سيكلفك ٥٠ دولارا فى الحصة.

ازداد اضطرابها فاستطردت البائعة:

- إذا كنت تريدين معلومات وافية عن الفيبريتور. . فإن حصة واحدة تكفيك. . أما إذا كان لديك مشاكل جنسية أو تريدين تحسين أدائك فى الفراش فستحتاجين إلى مجموعة حصص تحدد عددها الخبيرة بعد أن تجلس معك.

- أنا مهتمة بالفيبريتور فقط.

- حصة واحدة إذن. . ٥٠ دولارا.

أخرجت ورقة بخمسين دولارا التقطتها البائعة ووضعتها فى الدرج ثم أشارت إليها أن تتبعها، قادتها عبر ردهة طويلة حتى وصلا إلى باب قرأت عليه لافتة «جين ديهان. . خبيرة جنسية مرخصة».

دخلت البائعة من الباب، غابت لحظات ثم عادت وقالت وهى تمد يدها مرحبة :

ـ تفضلي .

كانت الخبيرة التى جاوزت الخمسين تبدو، بنظارتها الطبية ومعطفها الأبيض وشعرها الرمادى المعقود على شكل كعكة على مؤخرة الرأس، أشبه بأخصائيات التغذية اللاتى تستعين بهن محطات التليفزيون لإعطاء وصفات الريجيم . . بعد كلمات التعارف وبعض الدعابات المتحفظة تنهدت الخبيرة وقالت بلهجة من يبدأ العمل :

ـ حسنا مسز كريس . . . . ماذا تعرفين عن الفيبريتور؟

ـ الذى أعرفه أنه جهاز يمكن المرأة من الوصول إلى النشوة بدون الاحتياج إلى رجل .

ـ وكيف يعمل الفيبريتور؟

ـ عن طريق دغدغة المهبل بطريقة معينة تصل بالمرأة إلى النشوة .

ابتسمت الخبيرة وقالت بمرح :

ـ هذه بداية جيدة . . لكن الواقع أن الفيبريتور أكبر بكثير من مجرد جهاز لممارسة العادة السرية . . الفيبريتور خلاصة تقدم علمى وتغير أفكار المجتمع عن المرأة .

تطلعت كريس إليها صامتة فقالت :

ـ على مدى التاريخ الإنسانى . . كانت المعلومات الجنسية عن المرأة قليلة وغير كافية والسبب فى ذلك نظرة المجتمعات القديمة للمرأة باعتبارها وسيلة الشيطان لإغواء الرجل . . وقد أدى هذا التابو إلى جهلنا شبه الكامل بطريقة وصول المرأة إلى النشوة . . ظلت الفكرة المستقرة لقرون طويلة، إن المرأة تصل إلى النشوة عن طريق دغدغة البظر حتى عام ١٩٥٠ عندما استطاع عالم ألمانى عظيم يدعى ارنست جرافنبرج أن يكتشف نقطة جى G SPOT .

ثم تأكد اكتشافها بواسطة أبحاث العالمين بيرى وويبلز عام ١٩٧٨ . . أصبحنا نعرف أن كل امرأة لديها نقطة جى وهى منطقة حساسة للغاية موجودة على الجدار الأمامى للمهبل . . تؤدى إثارتها إلى إحداث نشوة قوية مختلفة عن نشوة البظر . . هذه النشوة تبدأ بشعور المرأة برغبة فى التبول ثم تتحول بسرعة إلى أنواع قوية متتابعة من اللذة تؤدى إلى أن تقذف بعض النساء سائلا سميك القوام شبيها باللبن وعديم الرائحة . . هل جربت ذلك من قبل؟!

ـ لا . . فى الواقع لا أعرف . . حتى وقت قريب كنت أتمتع بحياة جنسية مرضية . .

ضحكت الخبيرة وقالت :

ـ طبعا لا تعرفين . . أنت غالبا لم تعرفى سوى النشوة البظرية . . هذا قدرنا نحن النساء أن يؤدى جهلنا بأجسادنا إلى عدم التمتع بها . . خذى هذا الكتيب . . ستجدين كل شيء عن

نقطة جى وهناك تمرينات مفيدة تعلمك كيف تكتشفينها بنفسك .

تناولت كريس الكتيب ووضعته فى حقيبتها واستطردت الخبيرة :

ـ اكتشاف نقطة جى ومساواة المرأة بالرجل وتحررها إلى الأبد من سيطرته . . كل ذلك أدى إلى التفكير فى طريقة تمكن المرأة من الاستمتاع بجسدها بنفسها . لقد تحولت المرأة من مجرد أداة للذة الرجل وتابعة جسدية له إلى إنسان مساو له فى الحقوق ومن أهمها حق الإشباع الجنسى . . لم يعد إشباع المرأة الجسدى متوقفا على رغبة الرجل أو قوة أدائه . . وهذه بالتحديد وظيفة الفيبريتور . . انه ليس مجرد أداة للعادة السرية لكنه ، فى الحقيقة ، جهاز علمى يضمن للمرأة إشباعها الجنسى بغض النظر عن كفاءة شريكها الجنسية أو حتى وجوده . . من بين زبوناتى كثيرات يستعملن الفيبريتور مع أزواجهن ليصلن إلى نشوة مضاعفة . . كما يوجد أزواج يشترون الفيبريتور لزوجاتهن ليستعملنه معهم أو أثناء سفرهم أو فى تلك الليالى التى يكون الزوج فيها قد أسرف فى الشراب فلم يعد قادرا على الانتصاب . . إن الفيبريتور قد غير من السلوك الجنسى بحيث صارت هناك ما يمكن تسميتها ثقافة الفيبريتور . . أرجوك . . إذا كان لديك أسئلة أحب أن أسمعها . .

ترددت كريس قليلا ثم اندفعت تسأل وقد استجابت إلى الروح التى أشاعها فى الجو كلام الخبيرة :

ـ ما الفرق بين النشوة البظرية والنشوة التى تحدثها نقطة جى؟

ابتسمت الخبيرة وقالت :

- نشوة جى أقوى بكثير وتحدث على موجات متصاعدة وطويلة حتى أن معظم النساء بعد أن يجربنها يندمن على أنهن لم يعرفنها من قبل . .

ساد الصمت من جديد وسألتها الخبيرة إن كان لديها أسئلة أخرى فأجابت بالنفي، فتنهدت وقالت وهى تنهض من مقعدها :

- عظيم . . تعالى الآن لتختارى صديقك الجديد .

اجتازت الخبيرة، وكريس خلفها، بابا صغيرا إلى حجرة جانبية، ووقفتا أمام واجهة زجاجية كانت مليئة بأنواع الفيبريتور المختلفة . . وضعت الخبيرة يدها على كتفها وقالت بلهجة ودودة :

- هل أستطيع أن أعرف الميزانية التى خصصتها لشراء الفيبريتور . . لدينا أنواع بدءا من ١٠ دولارات وحتى ٢٠٠ دولار .

- أستطيع أن أدفع . . المهم أن يكون من نوع جيد .

- هكذا تصير مهمتى سهلة . .

انحنت الخبيرة وأخرجت جهازا كبيرا على شكل قضيب ضخم طويل يتفرع منه جزء منحن يشبه غصن شجرة وفى قاع الجهاز جزء أبيض مستدير استنتجت كريس أنه يحتوى على بطارية التشغيل . . قالت الخبيرة وهى تشير إليه فيما يشبه الزهو :

ـ هذا النوع اسمه الأرنب جاك المعدل . . وهو فى رأيى أفضل طراز فى العالم . . سترين كيف يقودك إلى الجنة . . سيكلفك ١٥٠ دولارا . . بخلاف ٢٠ دولارا ثمن علبة تحتوى على سوائل التنظيف . . هل يناسبك الثمن؟

هزت كريس رأسها فقامت الخبيرة بشرح مكونات الجهاز وطريقة تشغيله ثم أخرجت قرصا مضغوطا وقالت :

ـ قبل أن تستعمليه أنصحك بمشاهدة هذا القرص . . هل تدفعين نقدا أم ببطاقة؟!

أدخلت الخبيرة بطاقة كريس فى الجهاز وناولتها الإيصال لتوقيعه ثم لفت الجهاز والعلبة والقرص بعناية ووضعتهم فى كيس أنيق يحمل شعار المحل ، ناولته لها و قالت :

ـ أتمنى لك السعادة مع الأرنب جاك المعدل . . تستطيعين الاتصال بى فى أى وقت إذا أردت الاستفسار عن أى شيء . . الاستشارة مجانية لمدة شهر . . سأعتبر نفسى نجحت معك ليس فقط عندما تستمتعين بالجهاز ولكن عندما تتخلصين من أدنى إحساس بالحرج من ذلك . . تذكرى دائما أنك تمارسين حقك فى الإشباع الجنسى . . أرجو أن تعتبرى الفيبريتور مثل ماكينة الحلاقة أو مجفف الشعر . . مجرد جهاز علمى يجعل حياتنا أجمل وأسهل . .

* * *

لكن كريس لم تتخلص بسهولة من الحرج . . ليس حرجا بالضبط ولكنه إحساس بالغرابة ، ركبت المترو ومعها الأرنب جاك

المعدل قابعا فى كيسه الأنيق . . أحست فى البداية بأن يدها التى تمسك بالكيس خارجة عن جسدها على نحو ما ثم ألح عليها هاجس بأن الكيس قد يسقط على الأرض أو يتمزق فجأة فيخرج منه الفيبريتور ويكتشف ركاب المترو أن السيدة الوقورة ذات التايير الأخضر الداكن والنظارة السوداء قد اشترت جهازا بغرض العبث فى مهبلها . . قاومت كريس وساوسها وأكدت لنفسها أن الكيس متين ومستحيل أن يتمزق ثم حاولت أن تسترجع أفكار الخبيرة فقالت لنفسها :

«أنا لا أفعل ما يستدعى الخجل . . إن جسدى ملكى ومن حقى أن أستمتع به على النحو الذى يرضينى . . ليس من العدل أن أعانى من الحرمان لأن صلاح غير راض عن حياته . . لن أبتلع رغباتى وأدفن نفسى لأنه اكتشف بعد ثلاثين عاما أنه أخطأ بالهجرة إلى أمريكا . . من حقى أن أستمتع بالجنس كما أشاء» .

كان المنطق الذى يتردد فى ذهنها مقنعا لكنه لا يعكس الحقيقة كلها . . ثمة جملة ناقصة تعرفها وتتجاهلها . . ليست مشكلتها الجنسية إلا قشرة الجرح . . ثمة أحزان عميقة تثقل قلبها . . صلاح يطلب الطلاق؟! . . بعد كل السنوات التى عاشاها معا يريد أن يتركها . . . هكذا ببساطة، يصافحها ويمضى . . يتحول إلى شخص من الماضى . . من الذاكرة . . مجرد صورة فى ألبوم تتأملها أحيانا ثم ترجعها إلى مكانها فى الدرج . . لماذا توقف عن حبها؟ هل وقع فى حب امرأة أخرى؟ أم زهد فيها بعد ما تقدمت فى السن؟ هل تحولت بدون أن تدرى إلى عجوز ثرثارة مملة؟ أم

أنها قصرت فى العناية بمظهرها؟ هل يحتاج الرجل العربى دائما إلى امرأة شابة ولذلك يتزوج أكثر من واحدة؟ هل يحتفظ صلاح داخله بعقلية الرجل الشرقى على الرغم من السنوات التى قضاها فى أمريكا؟ أم أنه فى الحقيقة لم يحبها قط؟ هل كان يخدعها طوال هذه السنوات؟ . . هل تزوجها من أجل جواز السفر؟ من أجل استكمال الشكل الاجتماعي؟ . . ليكون أستاذ الجامعة المهاجر الناجح المتزوج من أمريكية . . لو كان هذا صحيحا فلماذا استمر معها طوال هذا العمر؟ . . لو أنه تركها بعد ما حصل على الجنسية الأمريكية لكان الأمر أسهل . . كان بمقدورها عندئذ أن تنساه بل وتغفر له . . كانت لا تزال شابة تستطيع أن تبدأ من جديد . . أما الآن . . فكأنه استعملها كل هذه السنوات ثم قرر أن يلقى بها فى سلة المهملات . . كيف يقوى على إيذائها إلى هذه الدرجة؟ . . حتى لو لم يحبها، فقد عاشا معا حياة كاملة لا يمكن أن يلغيها هكذا فى لحظة . . ليس هذا من حقه . . ظلت هذه الأفكار تنخزها كنوبات ألم مزمن . . كان إحساسها بالتعاسة يضاعف احتياجها إلى اللذة . . كانت مدفوعة، على نحو غريزي، لكى تحصر وعيها فى جسدها هربا من وطأة الأحزان . . أخذت حماما دافئا ثم عادت وهى عارية تماما إلى حجرتها التى صارت تنام فيها وحدها بعد ما هجرها صلاح . . فتحت اللاب توب وأدخلت فيه القرص المضغوط وتابعت تعليمات التشغيل بانتباه، استلقت على الفراش وأخرجت الأرنب جاك المعدل وتحسسته بأناملها، كان رأسه ناعم الملمس للغاية بينما تحيط بالقضيب نتوءات كالخرز المدبب . . لماذا سمى بالأرنب؟ هل لأنه يشبه الأرنب أم لأنه مطيع وأليف؟ . .

اندست تحت الغطاء ودهنت الأرنب جاك المعدل بالسائل المرطب كما جاء فى التعليمات ثم وضعته برفق بين ساقيها . . أحست لأول مرة بمدى ضخامته وصلابته وما أن ضغطت زر التشغيل حتى انتابتها رغبة ملحة فى التبول تلاشت شيئا فشيئا وأسلمتها إلى أحاسيس مثيرة قوية متصاعدة . . موجات من قشعريرة شيطانية اجتاحت جسدها بلا هوادة ، عضت بشدة على الوسادة لكى تمنع نفسها من الصراخ ، كانت اللذة وحشية ضارية . . بلا خيال ولا مودة ولا شريك . . لذة صرفة خبيثة حارقة ، ظلت تضربها بقسوة كأنها سوط أو صاعقة حتى قذفت بها فى النهاية إلى نشوة جبارة زلزلتها فى موجات متتابعة ثم تركتها وقد أنهكتها البهجة . . فى الصباح ، تحت رذاذ الحمام الساخن ، أحست بجسدها عفيا منتعشا وكأنه بعث من جديد ، صفا ذهنها وتحررت عضلاتها من التوتر وكأنها نامت بعمق يوما كاملا . . لقد دفع بها الأرنب جاك المعدل إلى مدارات شاهقة من اللذة لم تعرفها حتى فى أكثر لياليها جموحا مع صلاح . . يوما بعد يوم صارت تحتفى بقدوم الليل . تعتنى بجسدها ثم تحمل إليه الأرنب وكأنه عشيق حقيقى . . وكأنها تحبه . . من يمنحها كل هذه السعادة سوف تحبه حتى لو كان جهازا يعمل بالبطارية . . إنها تعامله بحنان ، تنظفه بعناية ، تدعكه بالسائل بحرص بالغ ، تمرر أصابعها عليه بنعومة كأنها تخشى أن تجرحه أو تؤلمه . . صارت تترك لنفسها العنان ، تصرخ عاليا من اللذة حتى يبح صوتها ، لم تعد تعبأ بأن يسمعها صلاح . . كانت على يقين بأن حياتهما قد انتهت . . كان يتناول الإفطار وحده ويتغدى فى

الخارج ويغلق على نفسه مكتبه ليتحاشى رؤيتها . . ماذا يهمها لو سمع صراخها الليلي؟ . . أو حتى لو رآها تضاجع الأرنب جاك المعدل؟ . . لم يعد يهمها في شيء بل إنها، في الحقيقة، كانت تمعن في الصراخ مدفوعة برغبة داخلية عميقة في أن يسمعها . . تريد أن تقول له:

«ها أنذا أحصل على اللذة التي حرمتني منها . . هاهو جسدي الذي هجرته وزهدت فيه وعذبته بعجزك ينتشي ويتحرر مرة بعد الأخرى . .».

على أن الدكتور صلاح لم يسمعها، ليس فقط لأن قبو المنزل منعزل وبعيد، بل لأنه لم يعد هنا، لأنه اجتاز الحاجز إلى الجانب الآخر، اكتشف عالما مسحورا يقبع في نهاية سرداب من ألف ليلة وليلة، يدلف إليه بالليل ليختلس الجمال قبل أن يهاجمه النهار القبيح المعادي . . لم يعد يعبأ بالحياة اليومية . . لم يعد يفكر في كريس والطلاق وعجزه الجنسي ولا حتى عمله . . صار يمضي النهار بجسده، بنصف انتباه، بطريقة عابرة دونما اكتراث، يظل ينتظر لحظة الانطلاق، في منتصف الليل يبدأ الرحلة، يأخذ حماما ويتعطر وكأنه على موعد غرام، ثم ينزل إلى القبو ويرتدي ثياب السبعينيات، توصل إلى خياط جيد أعاد ملابسه القديمة إلى الحياة، قام بتوسيعها وضبطها على جسده وتقاضى أجرا كبيرا كان يكفي لشراء ملابس جديدة . . قبل أن يبدأ إبحاره الليلي، يحرص على إغلاق باب القبو من الداخل ربما ليحس بانفصاله الكامل عن العالم الخارجي أو خوفا من أن تفتح كريس الباب فتراه على هذه

الحالة . . عندئذ سيتأكد لها جنونه . . لن يكون بمقدوره أن يفسر لها ما يفعله . . هو نفسه لا يفهم . . رغبته القاهرة أقوى من فهمه ومقاومته . . هذه الثياب تحمل فى طياتها تاريخه ، رائحة أيامه الحقيقية . . كل قطعة ثياب تنقل له ذكرى مختلفة : قمصان الشوربجى القطنية الخفيفة التى كان يشتريها من محل سويلم فى وسط البلد . . البدلة البيضاء الشركسكين التى كان يحضر بها السهرات الصيفية . . البدلة الزرقاء المخصصة لنزهة يوم الخميس وهذه البدلة السوداء المخططة اشتراها خصيصا للاحتفال بعيد ميلاد زينب ، تعشيا فى مطعم الأونيون أمام دار القضاء العالى ثم ذهبا إلى سينما ريفولى ليتفرجا على فيلم «أبى فوق الشجرة» . . فى الجيب الداخلى للسترة وجد ورقة مطوية ظلت قابعة فى مكانها ثلاثين عاما . . عقب تذكرة لحفل أم كلثوم حضره فى عام ١٩٦٩ . . عندئذ خطرت له فكرة فغادر القبو بسرعة وعاد وهو يحمل جهاز التسجيل ، أدار أغنية الأطلال وجلس يستمع إليها وهو يرتدى البدلة التى ارتداها عندما استمع إليها لأول مرة . . هاهو يعود أخيرا إلى نفسه ، يستقل آلة الزمن التى وصفها اتش . جي . ويلز فى روايته . . أخذ يدندن مع أم كلثوم ويصيح طربا ويصفق فى القفلات تماما كما فعل فى الحفلة . . صار يستمع كل ليلة إلى أم كلثوم وعندما تقترب الساعة من الثانية صباحا فى شيكاجو ، التاسعة صباحا بتوقيت القاهرة . . يغلق الدكتور محمد صلاح جهاز التسجيل ويرتدى نظارته الطبية ويفتح أجندة التليفونات ويبدأ فى الاتصال بمعارفه وأصدقائه القدامى . . تغيرت أرقام القاهرة كلها : كل الخمسة الأرقام تحولت إلى

سبعة. . الأرقام التى تبدأ بـ ٣ أصبحت ٣٥ أو ٧٩. . فى كل مرة تحدث له مفارقات وكأنه من أهل الكهف، نام ثلاثين عاما ثم صحا وعاد إلى مدينته، وجد أرقاما كثيرة خطأ استنتج منها أن الشخص الذى يعرفه غير مكانه، أحيانا يجد الرقم الصحيح ثم يكتشف أن صاحبه قد مات، وأحيانا يجد من يسأل عنه فيبادره قائلا بحماس:

ـ ألا تذكرني؟ أنا محمد صلاح. . زميلك فى طب القاهرة دفعة ١٩٧٠.

يتذكرونه جميعا، بعضهم فورا وبعضهم بعد تفكير قليل. . تعلو صيحات الترحاب والضحكات فيستطرد:

ـ أنا الآن أستاذ فى كلية الطب فى شيكاجو. .

ـ أهلا وسهلا. .

بعد المفاجأة والتهليل وتذكر الأيام الخوالى لابد أن تأتى لحظة تفتر فيها حرارة الحديث، وكأن من يحدثه يتساءل: «ما الذى ذكرك بى الآن؟ لماذا تكلمني؟!». . كان عليه أن يقدم إجابة، كان يكذب فيتحدث عن مشروع وهمى لجمع خريجى دفعة ٧٠ طب القاهرة. . أو يزعم أن هناك مشروعا للتعاون بين أطباء الينوى ومصر. . يثرثر بسرعة ويكذب بحماس يدهشه. . يكون هدفه أن يشتت ذهن من يحدثه فلا يفكر فى غرابة المكالمة ولا يشعر بإشفاق عليه، لا يجب أن يعرفوا إن وطأة الحنين قد سحقته، أنه اكتشف بعد الستين أنه أخطأ لما ترك بلاده، أنه نادم حتى الموت على الهجرة. . لا يجب أن يطلعهم على ضعفه وأحزانه. . كل

ما يريده منهم أن يتكلموا معه قليلا عن الماضى . . أن يتذكر معهم حياته الحقيقية . . صار يقضى الليل فى الاتصال حتى يطلع الصبح فيأخذ حماما ويحتسى عدة أقداح من القهوة ويتوجه إلى الكلية . . كل يومين أو ثلاثة ينهار جهازه العصبى فيسقط نائما كالمقتول إلى صباح اليوم التالى ثم يصحو فيستأنف الإبحار فى الماضى . . وقد وقع على كنز حقيقى عندما اكتشف على الانترنت دليلا كاملا لتليفونات القاهرة . . استغنى عن المفكرة القديمة وأصبح يستعمل الدليل ، بمقدوره الآن أن يصوب ضربات محكمة ، يتذكر الاسم بالكامل ثم يبحث عنه فى دليل الانترنت حتى يجد الرقم ويتصل . . استعاد مجموعة من معارفه القدامى حتى وصل إلى نقطة الهدف . . نهاية الرحلة . . الاسم الذى ألح عليه من البداية وظل يتهرب منه . . الاسم الذى بذل مجهودا مضنيا ليصرفه عن ذهنه ثم استسلم أخيرا . . جلس أمام الكمبيوتر وفتح الدليل ثم نقر على اللوحة : «زينب عبد الرحيم محمد رضوان» . . تطلع إلى الشاشة وهو يكاد يلهث من فرط الانفعال . . مرت لحظات ثم ظهرت الإجابة . . . «نأسف لعدم وجود هذا الاسم» . . تطلع إلى الحروف على الشاشة وقد دهسته خيبة الأمل . . فكر أن زينب تصغره بخمس سنوات ولابد أنها تزوجت من زمان ولابد أن التليفون مسجل باسم زوجها ، هذا إذا كانت على قيد الحياة أصلا . . أحس بغصة . . هل ماتت؟ . . فلنفرض أنها ماتت ماذا يضيره؟ . . ألا يبعث على السخرية أن يحزن لموتها بعد ما تركها ثلاثين عاما؟ . . تذكر أن هناك دليلا مهنيا يعطى أرقام تليفونات العمل ، فبحث عنه ودخل عليه ونقر

على اللوحة اسمها الرباعى ثم ضغط على زر البحث . . بعد لحظات كاد قلبه يقفز من الفرحة . . ظهر اسمها مكتوبا تحته : «مراقب عام التخطيط بوزارة الاقتصاد» ثم أرقام مكتبها . . هل أصبحت يا زينب من كبار موظفى الدولة؟ . . ألا زلت تحتفظين بأفكارك الثورية أم أنك تحولت إلى امرأة عادية ، موظفة حكومة توقع فى كشف الحضور ، تنافق الرؤساء وتحيك الدسائس لزملائها ثم تسرع إلى البيت لتطهو قبل أن يعود الزوج والأولاد؟!

«كيف تبدين الآن يا زينب؟ هل كان الزمن رقيقا معك فترك لك قليلا من السحر القديم؟! أم أنك تحولت إلى سيدة بدينة محجبة كعشرات الألوف اللاتى تعج بهن شوارع القاهرة ويراهن فى التليفزيون؟ كم يحزننى أن يحدث ذلك؟ لازلت أحتفظ بك يازينب كما أنت فى ذاكرتى . . كما كنت تجلسين بجوارى فى حديقة الأورمان؟ ما كان أجملك! . . هل يمكن أن نرجع كما كنا يا زينب؟ . . لابد أن هناك طريقة لكى نرجع . . ».

الساعة العاشرة صباحا بتوقيت القاهرة . . موعد مناسب للاتصال . . ربما تذهب متأخرة قليلا كعادة كبار الموظفين . . انتظر نصف ساعة أخرى ليتأكد من وجودها ثم اتصل . . كان يبذل مجهودا خارقا ليسيطر على انفعاله . . ردت عليه السكرتيرة بصوت ناعم . . سألها عن الأستاذة زينب فسألته عن اسمه . . خرج صوته مختنقا بالانفعال . .

- أنا زميل قديم لها وأتكلم من أمريكا . .

ـ لحظة واحدة . .

هكذا هتفت ثم تركته مع نغمة انتظار موسيقية ظلت تتكرر بلا نهاية وأخيرا انقطعت وجاءه صوتها . .

ـ صباح الخير . .

ـ صباح النور . . أنا صلاح يا زينب . .

٢٨

لا يمر يوم بغير أن ينهل طارق حسيب من نبع السعادة . . ينهى مذاكرته على عجل ويأخذ حمّاما دافئا ، وما إن ينظر إلى جسده العارى فى المرآة ويتخيل ما سيفعله بعد لحظات حتى تتأجج شهوته ، يصفف شعره من اليمين إلى اليسار ليغطى صلعته ، ويرش من عطر «بينو سيلفيستر» الغالى على رقبته وأعلى صدره ، ثم يهرع خارجا من شقته . . يكاد يعدو ، يقفز . . يستقل المصعد إلى شقة شيماء ، يضغط الجرس فتفتح فورا حتى يهيأ إليه أنها كانت تنتظر خلفه ، ينقض عليها ، يحتضنها ويغمرها بقبلاته . . تهمس بصوت ناعم لائم :

ـ كفاية يا طارق .

ـ لا .

ـ ضرورى نتقابل كل يوم؟

ـ طبعا .

ـ ألا يكفيك ما نفعله يوم السبت؟

ـ أريدك كل دقيقة .

ـ لابد أن ننتبه لنفسيْنا . . امتحان التيرم اقترب .

- ستكون نتيجتنا أفضل من أى مرة سابقة.

- إن شاء الله.

لا تستغرق نوبة الحب اليومية أكثر من نصف ساعة.. يسميها طارق «تحية الحب السريعة»، ويعود بعدها إلى بيته فيأخذ حمّاما جديدا وينام نوما عميقا كالأطفال.. يوم السبت لا تكون التحية سريعة، بل يعيشان كزوجين حقيقيين.. يشتريان مستلزمات الأسبوع ويذهبان إلى السينما، ثم يعودان إلى شقة شيماء حيث يرتدى البيچاما التى تركها خصيصا لديها ويسبقها إلى الفراش، يشاهد التليفزيون حتى تنتهى من حمّامها، يلهث بالرغبة وهو يراها تتهادى وقد تورد وجهها من أثر الماء الساخن.. تتجرد فى الفراش من ثيابها جميعا ما عدا لباسها الداخلى (الذى اتفقا على اعتباره خطا أحمر لا يمكن تجاوزه بأى حال)، تذوب فى أحضانه كزوجة حريصة على إرضائه، وبعد أن يفرغا من نوبة الحب يتبادلان حديثا دافئا لذيذا مشبعا بالراحة.. لا يحسان بالوقت، وأحيانا يقضيان اليوم كله فى الفراش، ينامان عاريين ملتصقين ويستيقظان، يتناولان الطعام ويشربان الشاى ويمارسان الحب أكثر من مرة.. فى البداية تعرضت شيماء لنوبات عميقة متلاحقة من تأنيب الضمير، اضطربت صلاتها ثم انقطعت نهائيا، وطاردتها كوابيس مزعجة: تراءى لها أبوها أكثر من مرة يصرخ فى وجهها ويضربها ضربا مبرحا، على حين وقفت أمها فى خلفية المشهد تبكى بحرقة، ولكنها لا تصنع شيئا لحمايتها من الضرب. وشيئا فشيئا توصلت إلى منطق مريح: ذهبت إلى القسم العربى فى مكتبة شيكاجو العامة واستوثقت

من وجـود الأحـاديث الشـريفـة التى يتـحـدث عنهـا طـارق فى البـخـارى . . العقوبة الشـرعية على الزنى فقـط . . معنـى الزنى دخـول اللحم فى اللحم كـالمرْوَد فى المُكْحلَة . . ثمـة قصـة مـوثقة عن رجـل زنى وذهـب إلى رَسـول الله (صَلى الله عليـه وسـلم) ليقيـم عليه الحد، فتغـافل عنه الرسول رحمة به، حتى يـراجـع نفسـه أو يهرب، لكن الزانى ألح على الرسـول ليعـاقبـه فسـأله (صلى الله عليه وسلم):

«هل زنيت فـعـلا؟ لعلك قـبَّلت . . لعلك لامـست . . لعلك فـاخـذت . . » . . كل هذه درجـات من الاتصـال الجنسى أقل من الزنى ولا توجـد عـقـوبة شـرعـية عليـهـا . . إنما يغـفـرها الله لمن يشاء! . . إنهـا لا تزنى مع طارق، وبالتـالى فإن أملهـمـا كبـير فى مـغـفـرة الله؛ لأنه سبـحـانه وتعـالى يعلم بنيـتـهـمـا الصـادقـة فى الزواج . . لو استطاعا الآن أن يتزوجا لما تأخرا لحظة، لكن ما باليد حيلة . . لا يستطيعان أن يتزوجا فى شيكاجو بدون موافقة الأهل، وفى نفس الوقت لا يمكنهما قطع البعثة . . سوف يعقدان القران فى أول رحلة تسمح بها البعثات . . سيكون ذلك بعد عـامين، يكون هو قـد حصل على الدكتـوراه وتكون هى فى إجـازة نصف البعثة . . جعلته يقسم على المصحف أنه سيكتب الكتاب فور وصولهما إلى مصر، بل وجعلته يردد صيغة اخترعتها: «تزوجتك يا شيماء على سنة الله ورسوله، وسوف أعقد عليك أول ما نصل إلى مصر، والله على ما أقول شهيد» . . هكذا اطمأنت، لم تعد الكوابيس تطاردها، وعـادت إلى الصـلاة . . إنهـا الآن زوجـة شرعية كاملة (ما عدا الخط الأحـمر) ولا ينقصهـا إلا تسجيل الزواج.

بالمناسبة، إجراءات التسجيل ليست من أصول الإسلام، وإنما ضرورة فرضتها الحكومات مؤخرا. . أيام الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان الزواج شفاهيا. . بضع كلمات يقولها الرجل والمرأة فيصيران زوجين أمام ربنا سبحانه وتعالى. . وهذا بالضبط ما فعلته مع طارق. . أقنعت نفسها بأنها زوجته على سنة الله ورسوله، وعكفت على قراءة واجبات الزوجة المسلمة فى كتب الدين واجتهدت فى تطبيقها: أن تكون أمينة على عرضه وماله، أن تحفظه فى حضوره وغيابه، أن تكون له سكنا وملاذا آمنا. . أما طارق فقد انقلبت حياته، تغيرت تماما وكأنه اكتشف كنزا. . كل هذه اللذة؟!. . كل هذه السعادة؟! يستطيع الآن أن يفهم الحوادث التى يقرؤها فى الصحف: أن يسرق الرجل أو يقتل حتى يحتفظ بعشيقته. . فى لحظة ما قد تصبح هذه اللذة أهم من الحياة نفسها!. . كم هو نادم لأنه لم يعرفها من قبل!. . خمسة وثلاثون عاما جرداء قاسية كالصحراء. . عاشها كالجائع الذى يحاول أن يُشبع نفسه بتخيل الطعام. . إنه الآن شخص جديد. . مختلف. . لم يعد حانقا على الدنيا. . لم يعد يتعامل باستفزاز مع أحد. . لم يعد متأهبا للقتال فى كل لحظة. . أصبح هادئا وراضيا حتى إن وجهه تغير. . «والله العظيم تغير!». . هكذا يقسم وهو يتأمله فى المرآة. . اكتسبت بشرته نضارة رائقة وقل جحوظ عينيه، ولم تعد عضلاته تتقلص وفمه يعوج عندما يتكلم. . والأغرب، لم تعد تستهويه أفلام البورنو. . حتى المصارعة الحرة التى يعشقها منذ الطفولة نادرا ما يشتاق الآن إلى رؤيتها! إن الراحة التى يحس بها وهو مستسلم

لزخات الماء الساخن بعد الغرام لا يمكن وصفها بالكلمات،
ولكن . . هل ينوى الزواج من شيماء فعلا؟ سؤال صعب لا يمكن لأحد أن يقطع بإجابته، حتى طارق نفسه . . إنه يعشقها . . وقد قرأ مرة أن الرجل يستطيع أن يختبر مشاعره الحقيقية نحو المرأة بعد أن ينام معها . . إذا مَلَّهَا بعد اللذة وأراد أن يفارقها بسرعة فمعنى ذلك أنه لا يحبها، والعكس صحيح . . وهو لا يشبع من شيماء أبدا . . يظل ملتصقا بها فى الفراش، يشعر فى حضنها بسكينة وكأنها أمه، وأحيانا يستبد به الوَجْد فيقبّل كل جزء فى جسدها . . يلعقه . . يود لو يلتهمه . . ليست علاقته بها إذن مجرد شهوة يقضيها . . إنه يحبها ويفتقدها بشدة طوال النهار، ولكن هل يعنى كل ذلك أنه سيتزوجها؟ . . الإجابة تمتمة غير مفهومة . . لقد وعدها بالزواج وردد وراءها القسم على ذلك . . أكد لها ألف مرة أنه ما زال يحترمها وأنه واثق أنه رجلها الأول والأخير . . فهل فعل ذلك عن اقتناع أم عن إشفاق، أم أنه (يالها من فكرة شريرة) قد تمادى معها من البداية وهو يعلم أنه بذلك يقصيها نهائيا من خانة الزواج؟ . . أيكون عندما استشعر تعلقه بها تعمد أن يمارس الجنس معها ليفسد فكرة الزواج إلى الأبد؟ . . إنه لا يعرف الإجابة ولم يعد مشغولا بها . . لماذا يفسد سعادته بالوساوس؟ . . عَلامَ يتعجل الهم؟ . . أمامه عامان كاملان حتى يواجه لحظة اتخاذ القرار . . فلينهل الآن من السعادة وليكن ما يكون بعد ذلك . . هكذا قال لنفسه، فصفا ذهنه وقضى فى الجنة بضعة شهور هى أعذب ما عاش فى حياته .
ولكن . . متى دامت السعادة ولمن؟ . . بالأمس . . حوالى

الساعة الثالثة بعد الظهر، انتهى طارق من مراجعة عينات البحث كعادته وأغلق مكتبه واستعد للانصراف، لكنه فوجئ بالدكتور بيل فريدمان رئيس القسم واقفا أمامه.. حياه بإيماءة وقال بنبرة جادة:

- جئت لأراك يا طارق.. هل لديك بضع دقائق؟

- طبعا.

- تعال معي إذن.

٢٩

كان المبنى أنيقا: ثلاثة أدوار تحوطها حديقة جميلة. اجتاز الدكتور رأفت المدخل على عجل.. كان مكتب الاختصاصية النفسية إلى اليمين، نقر الباب ودخل، ثم ابتسم وقال:

ـ أنا رأفت ثابت.. آسف للتأخير.. وجدت مكانا لسيارتى بصعوبة.

ـ لا بأس.. تفضل بالجلوس.

كانت الاختصاصية النفسية عجوزا أشبه بجدة طيبة، شعرها أبيض تماما وقصير ينساب على جانبى رأسها الصغير، ووجهها المبتسم ينقل إحساسا بالألفة والحنان.. بدأت وكأنها تقدم بطاقة تعارف.. قالت:

ـ اسمى كاترين.. أنا هنا لمساعدتك.

ـ هل تعملين هنا منذ فترة طويلة؟

ـ فى الحقيقة أنا لا أعمل. أنا متطوعة لمساعدة المدمنين وأسرهم.

ـ أحييك على إحساسك النبيل!

كان رأفت يعمل على إدارة الحوار بعيدا عن الموضوع الذى جاء من أجله، ربما حتى يقرر كيف يبدأ.

ـ أشكرك. . لكن ما دفعنى للتطوع ليس بالضبط إحساسى النبيل. . لقد مات ابنى الوحيد «تيدى» من الإدمان!

هكذا قالت كاترين بهدوء وقد تلاشت ابتسامتها.

ـ أحسست بأننى المسئولة الأولى عن موته. . بعد انفصالى عن أبيه استغرقت تماما فى عملي. . على مدى عشرين عاما، أردت أن أثبت لنفسى أننى إنسانة ناجحة. . كنت أملك شركة لبيع المنظفات أعطيتها وقتى كله حتى أصبحت من أهم الشركات فى شيكاجو. . ثم أفقت عندما كان الوقت متأخرا لإنقاذ ابني!

ظل رأفت يتابعها صامتا. . جرعت جرعة من كوب ماء أمامها وقالت:

ـ أعتقد أنك كأب تحس تماما بمدى صدمتى لموته. . ظللت أتلقى علاجا نفسيا لعام كامل بعد وفاته! . . كان أول ما فعلته بعد خروجى من المستشفى أن قمت بتصفية شركتى. . صرت أكرهها وكأنها السبب فى موته. . أعيش الآن على إيراد يأتينى من مدخراتى فى البنك، وأقضى وقتى فى مساعدة المدمنين وأسرهم. . كلما ساعدت مدمنا على الشفاء أحس بأننى أفعل شيئا من أجل تيدي!

ساد الحجرة سكون عميق، وتطلع رأفت إلى الحائط ليهرب من قتامة الجو. كانت هناك شهادات تقدير لكاترين من مؤسسات

مختلفة، وصور لها مع شبان وشابات يضحكون، خمن رأفت أنهم مدمنون قامت بمساعدتهم.

تنهدت كاترين وابتسمت برقة وكأنها تطوى صفحة الأحزان وقالت:

ـ آسفة.. أنا هنا لأسمعك وليس لأتحدث عن نفسى.. تفضل.. احْكِ عن مشكلتك.. أنا منصتة تماما.

حكى لها كل شيء عن سارة، كأنه يعترف من وراء الستار لقس رحيم.. قال لها ما رآه وكيف أحس، ثم أنهى حكايته وهو يبذل مجهودا خارقا للسيطرة على مشاعره:

ـ لقد توقفت حياتى تماما.. لا أكاد أقوى على العمل.. أريد أن أفعل شيئا من أجلها!

أمسكت الاختصاصية بالقلم بين أصابعها وراحت تتفحصه وكأنها تزن ما تقوله:

ـ بناء على ما وصفته.. فإن ابنتك على الأرجح تتعاطى الكراك.. وهو مخدر مصنوع من الكوكايين.. علاج هذا النوع ليس سهلا.. الكراك يغرى الشبان بتجربته لأنه فى المرات الأولى يؤدى إلى زيادة مادة الدوبامين فى المخ، مما يسبب شعورا حادا بالبهجة والراحة.

ـ هل عالجت من قبل مدمنين من هذا النوع؟

رنت كلمة «مدمنين» غريبة على أذنه.

ـ أنا لا أعالج.. أنا اختصاصية نفسية.. تلقيت فصولا دراسية

فى مساعدة المدمنين . . عندما نبدأ العلاج سيكون معنا أطباء نفسيون، لكنى اشتركت من قبل فى مساعدة مدمنى الكراك . .

- كم تبلغ نسبة النجاح؟

- حوالى خمسين فى المائة .

- نسبة قليلة!

- أنا أعتبرها مرتفعة لأن نصف المدمنين تم شفاؤهم . . تذكَّر أن علاج الإدمان ليس سهلا . . يجب دائما أن نخفض توقعاتنا حتى لا نصاب بخيبة أمل .

أطرق رأفت صامتا، ولم تلبث كاترين أن قالت :

- الآن سنبدأ العمل . . اسمع . . بناء على خبرتى فى حالة ابنتك سارة، فإن فريق المحبة قد يكون بداية فعالة .

تطلع إليها متسائلا، فاستطردت :

- فريق المحبة طريقة لحث المدمن على تقبُّل العلاج . . نجمع له مجموعة من الذين يحبهم . . أقرباؤه أو جيرانه أو زملاؤه فى العمل أو الدراسة . . يبدءون فى زيارته بانتظام ويساعدونه على الاعتراف بأنه مدمن ويحتاج إلى المساعدة . . إذا نجح فريق المحبة فإن المدمن يكون جاهزا لبدء برنامج علاجى مكون من ١٢ خطوة . . اسمح لى أن أسأل سؤالا لا أحبه لكنى مكلفة به .

- تفضلي .

- بالنسبة لتكاليف البرنامج؟

ـ ستدفعه شركة التأمين . . لقد طلبت هذا الأسبوع إدخال الإدمان فى الوثيقة .

ـ حسنا . . خذ هذه الاستمارة . . املأها واتركها قبل انصرافك فى مكتب الاستقبال .

تناول رأفت الورقة ، وظلت تتأرجح بين أصبعيه ونظره متعلق بوجهها . . قالت :

ـ مهمتك الآن . . أن تقنع اثنين أو ثلاثا من أصدقاء سارة بأن يأتوا معنا إلى زيارتها . . هذا كتيب يشرح دور فريق المحبة فى علاج الإدمان .

خرج رأفت من مكتبها محملا بكتيبات ومنشورات عديدة عن الإدمان ونشاط الجمعية ، وفى البيت عكف على القراءة بعناية . . كان تحويل الموقف إلى إجراءات ومعلومات يساعده على الهرب من الفجيعة التى راحت شيئا فشيئا تترسخ أمامه كجبل شاهق . . سارة تحولت إلى مدمنة ! . . ليس من الإنصاف أن يلومها . . قالت الاختصاصية إن الكراك يحتاج إلى مرتين ليسبب الإدمان . . أكدت له أن ما حدث لسارة قد يحدث لأى شخص ، أن يجرب مرة ثم يستعيد المتعة مرة أخرى ، وفى المرة الثالثة يتحول إلى مدمن . . كيف يلومها؟ . . إنها ليست فى وعيها وليست مسئولة عن تصرفاتها . . الذنب ليس ذنبها ، وإنما المجرم جيف دفعها إلى الإدمان . . ياللبنت المسكينة ! . . كم يلوم نفسه لأنه ضربها ! . . بلغ ضيقه من ذلك أنه بدأ يحس بيده اليمنى وكأنها منفصلة عن جسده . . إنها اليد التى ضربت سارة . . لماذا ضربها؟ لماذا لم

يتمالك نفسه؟ كم كان قاسيا معها! . . قضى عدة أيام حتى استطاع أن يسيطر على أحزانه . . قال لنفسه : «هناك طريقتان للتعامل مع هذه المأساة : إما أن أكون أبا شرقيا متخلفا فأتبرأ منها وألعنها . . أو أتصرف كشخص متحضر فأساعدها حتى تجتاز محنتها» .

استعرض مع زوجته ميتشيل أسماء أصدقاء سارة الذين يمكن أن ينضموا إلى فريق المحبة . . وعندما اتصل بهم اكتشف أنهم جميعا يعرفون أنها مدمنة! . . قالت له صديقتها سيلفيا :

ـ جيف هو السبب فى إدمانها . . طالما حذرتُها منه ، لكنها انجرفت فى حبه .

وافقت سيلفيا فورا على الانضمام لفريق المحبة ، وكذلك شاب يدعى جيسى كان يجلس بجوارها فى الفصل . . بل وعملا على تطوير الفكرة فقالت سيلفيا إنها ستشترى لسارة فطيرة التفاح بالموز التى تعرف أنها تعشقها ، أما جيسى فعزم على أن يهديها قطا صغيرا لأنها تحب الحيوانات . . تحمست الاختصاصية كاترين وقالت :

ـ هذه أفكار إيجابية جدا . . تذكّرها لأطباقها المفضلة وتربية حيوان صغير . . كل ذلك من شأنه أن يمنحها مزاجا مضادا للإدمان .

أصبح كل شيء جاهزا . . وفى يوم الأحد التالي ، نحو العاشرة صباحا ، توجه فريق المحبة إلى بيت سارة فى أوكلاند . . ركبت ميتشيل بجوار رأفت ، وجلس جيسى وسيلفيا على

الأريكة الخلفية للسيارة الكاديلاك، تبادلوا فى الطريق أحاديثَ متنوعة، قصيرة مشوشة، وأطلقوا ضحكات بلا معنى ليهربوا من رهبة الموقف . . كان رأفت يقود بسرعة بالغة، مما جعل ميتشيل تسأله:

- هل تسعى للحصول على مخالفة سرعة؟

لكنه كان مدفوعا بطاقة غامضة ساخطة فلم يقلل من سرعته حتى وصل إلى أوكلاند، فأبطأ قليلا حتى يتذكر الطريق. كان شكل الحى مختلفا أثناء النهار، الشوارع خاوية وكأنها مهجورة، وعلى الجدران ظهرت نقوش بالسبراى الأسود والأحمر تمثل شعارات عصابات الشوارع. ركن رأفت السيارة فى ساحة الانتظار حيث تم السطو عليه من قبل . . وما إن نزلوا من السيارة حتى وقفوا جميعا أمام الاختصاصية كاترين وكأنهم لاعبون يتلقون توجيهات المدرب قبل المباراة! . . قالت كاترين وقد احتفظت بابتسامتها الهادئة:

- أرجو يا رأفت أن تنتظرنا فى السيارة . . آخر مرة رأيت سارة حدثت بينكما مشاجرة . . لا نريد أن نستفز مشاعرها السلبية، فمدمن الكراك يكون أقرب إلى التهيج العصبى . . ابق هنا، وبعد أن نتحدث معها قليلا سنسألها إن كانت تحب أن تراك.

انصاع رأفت، فأطرق وابتعد عنهم خطوة، على حين استأنفت كاترين نصائحها للفريق:

- أهم ما يجب أن ننقله إلى سارة هو أننا نحبها . . لا إشفاق ولا مواعظ . . تذكّروا ذلك جيدا . . من الوارد جدا أن نجدها فى حالة

لا نحبها . . ممكن أن تسيء استقبالنا أو تعاملنا بعدوانية أو حتى تطردنا . . أعدوا أنفسكم لأسوإ احتمال . . الفتاة التى سنراها بعد قليل ليست سارة التى نعرفها . . إنها الآن مدمنة مخدرات . . هذه هى الحقيقة . . لا يجب أن ننساها .

استمعوا إليها صامتين، لكن سيلفيا صاحت فجأة بصوت محشرج بدا وقعه غريبا :

«أوه يا يسوع المسيح . . أنقذ سارة المسكينة !» .

ثم أجهشت بالبكاء، فاحتضنتها ميتشيل، وخرج صوت الاختصاصية هادئا وحازما هذه المرة :

- سيلفيا . . تمالكى مشاعرك . . يجب أن ننقل لها مشاعرنا الإيجابية . . إذا لم يكن بمقدورك أن تكفى عن البكاء فالأفضل أن تنتظرى فى السيارة مع رأفت .

رجع رأفت ببطء وفتح باب السيارة وجلس أمام مقعد القيادة، على حين تقدَّم الآخرون نحو البيت، جيسى يحتضن القط الصغير، وسيلفيا تحمل علبة كعكة التفاح بالموز . . كانوا يمشون ببطء وخشوع كأنهم فى جنازة ! . . وجدوا باب الحديقة مفتوحا والأنوار الخارجية مضاءة مع أن الوقت نهار . . صعدوا درجات السلم الأمامى وضغطت ميتشيل جرس الباب . مرت دقيقة كاملة ولم يفتح أحد، فضغطت الجرس من جديد . . وبعد دقيقة أخرى انفتح الباب وظهر رجل أسود ضخم يرتدى بدلة عمال زرقاء .

- صباح الخير . . سارة موجودة؟

- من؟

- عفوا . . أليس هذا منزل جيف أندرسون وسارة ثابت؟

نظر العامل بعيدا وكأنه يتذكر ، ثم قال وهو يضغط على الحروف :

- أظن هذا اسم الساكن الذى رحل .

- هل رحلا؟

- نعم ، منذ أيام . . وقد بعث بى صاحب البيت من أجل طلائه . . أظنه سيؤجره إلى ساكن جديد .

ظلوا صامتين لحظة ، ثم قالت ميتشيل :

- أنا والدة سارة . . جئت لأطمئن عليها . . وهؤلاء أصدقاؤها . . هل يمكن أن تعطينى عنوانها الجديد من فضلك؟

- آسف يا سيدتى ؛ فأنا لا أعرفه .

* * *

- حتى لو كنتَ مسئولا فى السفارة المصرية، فليس من حقك أن تقتحم بيتى!

هكذا صحت فى وجه صفوت شاكر. تفحصنى بنظرة قوية متحدية، وتقدم خطوة إلى وسط الصالة، متمهلا كأنما يؤكد سيطرته على الموقف.

- لقد دعوت نفسى لفنجان قهوة معك.. اسمع يا ناجى.. أنت متفوق وذكى وأمامك مستقبل كبير..

- ماذا تريد بالضبط؟

ـ أريد أن أساعدك.

ـ و ما الذى يدفعك إلى مساعدتي؟

ـ إشفاقى عليك.

ـ مم؟

ـ من حماقتك!

ـ انْتَقِ ألفاظك.

ـ أنت تتعلم فى أمريكا، وبدلا من أن تنتبه لمستقبلك.. أدخلت نفسك فى مصيبة!

ـ ماذا تقصد؟

ـ تجمع توقيعات على بيان ضد سيادة الرئيس؟.. ألا تخجل من نفسك؟

ـ بل أنا فخور بما أفعله!

ـ المشكلة فى المثقفين أمثالك أنهم يعيشون أسرى الكتب والنظريات.. أنتم لا تعرفون شيئا عن حقيقة ما يحدث فى بلادكم.. أنا عملت ضابط بوليس عشرة أعوام فى محافظات مختلفة، طفت بالقرى والنجوع والحارات، وعرفت قاع المجتمع المصرى.. أؤكد لك أن المصريين لا تعنيهم الديمقراطية إطلاقا، كما أنهم ليسوا مؤهلين لها. المصرى لا يهتم فى الدنيا إلا بثلاثة أشياء: دينه ورزقه وأولاده. والدين هو الأهم.. الموضوع الوحيد الذى يدفع المصريين إلى الثورة أن يعتدى أحد على دينهم.. عندما جاء نابليون إلى مصر وتظاهر باحترام الإسلام، أيده المصريون ونسوا أنه استعمر بلادهم!

ـ يبدو أنك لم تقرأ التاريخ جيدا.. لقد ثار المصريون ضد الحملة الفرنسية مرتين خلال ثلاثة أعوام وقتلوا قائد الحملة!

رمقني بنظرة غاضبة، وأحسست ببعض الراحة لأني أهنته.. فاستطرد بنبرة متغطرسة:

ـ ليس لديَّ وقت أضيعه معك.. أردت مساعدتك ولكنك مُصرّ على حماقتك.. تأكد أن هذا البيان الذي تجمع عليه توقيعات مجرد لعب عيال!

ـ إذا كان البيان لعب عيال، فلماذا أزعجت نفسك بالمجيء إلى هنا؟

ـ أنت تلعب بالنار!

ـ هل تهددني؟

ـ بل أحذرك.. إذا لم تتراجع عن هذا البيان فإن ما سأفعله بك لا يمكن أن يصل إليه خيالك!

ـ افعل ما في وسعك .

هكذا صحت وقد تخلصت من تأثير المفاجأة، وراودتني لأول مرة فكرة أن أطرده.. نهض من مكانه وتراجع بضع خطوات نحو الباب وقال:

ـ أنت تحرث في البحر.. تظن أنك ستحرج النظام أمام أمريكا؟.. أؤكد لك أن النظام في مصر راسخ كالجبل ومرتبط عضويا بالنظام الأمريكي.. كل ما كتبته في البيان معروف للأمريكيين، ولا يهمهم في شيء ما دام النظام المصري يحقق مصالحهم!

ـ هذا اعتراف منك بأن النظام المصري مجرد خادم للأمريكيين!

ـ أحذرك لآخر مرة.. تخطئ لو اعتقدت أن وجودك في أمريكا يحميك من العقاب.. اعقل يا ناجي.. إن لم يكن من أجل مستقبلك فمن أجل أمك التي تعبت سنوات من أجلك.. من

أجل أختك نُهَى طالبة السياسة والاقتصاد.. البنت رقيقة، ولن تتحمل ليلة واحدة من الاعتقال فى أمن الدولة.. الضباط هناك فى منتهى السفالة، وهم يعشقون النسوان!

ـ اخرج من هنا.

ـ ستدفع الثمن غاليا.. ستعرف بعد فوات الأوان مدى قدرتنا على تأديبك!

نطق الكلمة الأخيرة وهو يفتح الباب، ثم استدار نحوى فجأة وقال:

ـ بالمناسبة.. تحياتى لعشيقتك اليهودية ويندى.. لقد وصلتنى شرائط فيديو لكما وأنتما تمارسان الجنس.. أشكرك لأنها ممتعة جدا!

أطلق ضحكة عالية ثم أغلق الباب واختفى.

جلست متهالكا على أقرب مقعد.. لا أستطيع وصف مشاعرى تلك اللحظة.. خليط من الذهول والغضب والمهانة.. فتحت زجاجة نبيذ وأشعلت سيجارة ورحت أدخن وأشرب. كيف حصل صفوت على صورة من البيان؟ كيف عرف كل شيء عني؟ والأخطر من ذلك: كيف دخل إلى الشقة؟!.. نهضت وفتحت الباب، فحصته بعناية، فلم أجد أى أثر للعنف.. لقد دخل بنسخة من المفتاح.. من أين حصل عليها؟ بالتأكيد يوجد تعاون بين المخابرات المصرية وإدارة الجامعة.. لابد أن أغير هذا السكن فى أقرب فرصة.. سوف أضغط نفقاتى حتى أوفر أجرة مسكن خاص. استولت علىَّ رغبة غريبة، فقمت إلى حجرة النوم وأضأت الأنوار ورحت أتفحص الجدران وكأننى سأجد الكاميرا الخفية التى صورتنى مع ويندى.. بعد قليل سخرت من

نفسي، فأطفأت الأنوار وعدت إلى الصالة.. ولم ألبث أن سمعت صوت مفتاح يدور في الباب.. قمت متحفزا، لكني رأيت ويندي.. بادرتني وهي تبتسم:

- هاللو.. كيف حالك!

قبّلتها كالعادة.. حاولت أن أبدو طبيعيا، لكنها صاحت بمرح:

- ناجي.. اسمع.. سأدخل إلى الحمام.. أرجوك.. أغمض عينيك ولا تفتحهما إلا إذا سمحت لك.

- هل يمكن أن نؤجل هذه الألعاب إلى وقت آخر؟

- لا يمكن.

هكذا هتفت بدعابة وطبعت قبلة سريعة على خدي، ثم انطلقت إلى الحمام. أفرغت الكأس في جوفي وصببت كأسا أخرى، وبدأت ألوم نفسي من جديد.. كيف سمحت لصفوت شاكر باقتحام بيتي وتهديدي.. لماذا لم أستدعِ البوليس؟ إن ما فعله يشكل جريمة في القانون الأمريكي.. حتى لو كانت له حصانة دبلوماسية، كنت سأتسبب له في فضيحة كبرى.. لماذا لم أفعل ذلك؟

- هل أغمضت عينيك؟

هكذا جاءني صوت ويندي من الحمام.. أغمضت عيني وأنا شارد الذهن.. وانتبهت على صوتها وقد أصبح قريبا.

- الآن.. افتح عينيك.

كان المشهد غريبا.. ويندي ترتدي بدلة رقص شرقي.. بدا نهداها منتفخين في مشد ضيق منخفض يكشف عن معظم صدرها وبطنها مكشوف تتوسطه نجمة تغطي سرتها، ووسطها

مشدود بحزام يبرز عجيزتها وتتدلى منه شراشف طويلة تغطى بالكاد ساقيها العاريتين.. كانت منفعلة وسعيدة.. دارت حول نفسها عدة مرات وصاحت:

ـ ما رأيك؟.. أنا الآن راقصة من الأندلس.. هل أطابق الصورة التى فى خيالك؟

ـ طبعا.

ـ لقد تعبت كثيرا حتى توصلت إلى محل يبيع ثياب الرقص الشرقى.. هل تعرف ماذا فعلت؟

ـ ماذا؟

ـ حضرت حفلة تنكرية فى العام الماضى ورأيت فتاة ترتدى بدلة كهذه.. ظللت أبحث عن تليفونها حتى عثرت عليها وأخبرتنى عن المحل.

كانت قدرتى على مجاراتها محدودة وهشة.. ظللت أتابعها بنظرى وأنا غائب الذهن.. وسرعان ما اكتشفت ذلك فانقبض وجهها. جلست بجوارى وسألتنى بانزعاج:

ـ ماذا بك؟

كان شكلها وهى جالسة بجوارى ببدلة الرقص غريبا، وكأنها ممثلة تجلس فى الكواليس بملابس التمثيل.. خطر لى أن أخفى عنها ما حدث، أن أصرفها أو أنصرف بأى عذر.. فجأة، وجدتنى أحكى لها كل ما حدث.. بانت على وجهها علامات التفكير العميق، ثم قالت بصوت خافت:

ـ إلى هذه الدرجة تعيشون فى دولة بوليسية؟

ـ لولا الدعم الأمريكى لما استمر النظام المصرى يوما واحدا!

أحاطتنى بذراعيها واقتربت منى حتى أحسست بأنفاسها.. همست:

ـ ماذا ستفعل؟

ـ سأستمر فى جمع التوقيعات.

ـ ألست خائفا؟

ـ الخوف إحساس طبيعى، لكننى أتغلب عليه.. لا يوجد موقف بلا ثمن.

ـ لكن الأمر لم يعد يتعلق بك وحدك.. إنهم سيؤذون والدتك وأختك.

طاف بذهنى وجه نهى وأمي، وتمثل لى مشهد الضباط والمخبرين وهم يقتحمون البيت ويقبضون عليهما.. قلت بصوت عال:

ـ فليفعلوا ما شاءوا.. لن أتراجع.

ـ أنت حر فى موقفك.. لكن ما ذنب أمك وأختك؟

ـ لسن أفضل من أمهات وأخوات عشرات الألوف من المعتقلين!

ـ ناجى.. أنا فعلا لا أفهمك.. لماذا تبحث عن المتاعب؟

ـ ماذا تقصدين؟

ـ ما الذى يربطك بمشاكل مصر بعد أن خرجت منها؟

ـ إنها بلادى.

ـ مصر مثل بلاد كثيرة فى العالم الثالث تعانى من مشاكل عميقة وكثيرة تراكمت على مدى قرون.. لا تكفى حياتك وحياتى لإصلاحها..

كان كلامـها غير مـتوقع بالنسبة إليّ.. أفـرغت الكأس فى فمى وأنا أرمـقهـا باستـغراب.. نهـضَتْ ووقفَتْ فى مـواجهـتى، ثم جذَبتْ وجهى نحو بطنها العارى وهمست:

ـ علاقـتنا رائعة.. أشعـر معك بأحاسـيس لم أعرفهـا من قبل.. أرجوك فكر فى مستقبلنا.

ـ لن أتخلى عن واجبى.

ـ لماذا لا تفكر بطريقـة أخرى.. لقـد قامت أمـريكا على أكـتاف شبان موهوبين طمـوحين مثلك، جاءوا من كل مكان فى العالم بحثا عن مـستقبل أفضل.. أمريـكا أرض الفرص.. لو بقيت هنا ستصنع شيئا عظيما.

ـ تتحدثين مثل صفوت شاكر!

ـ ماذا؟!

ـ بل وتستعملين نفس عباراته!

بدا صـوتى غـريبـا على سـمـعى، وخطر لى أنـنى ثمل.. كنت أعرف أن تأثير الشـراب يتضاعف عندما أكون مـتوترا.. انسقت لإحساس مُلِحّ غامض كالقدر، فسألتها:

ـ أليس غريبا أن يعرف صفوت شاكر بعلاقتنا؟

ـ والأغرب أن يحصل على نسخة من مفتاح الشقة!

ـ ويندى.. من الذى أخبره بكل هذه المعلومات؟!

حدقت فـى وجهى واتسعـت عيناها وكـأنها لا تصـدق.. قالت بصوت متهدج من فرط الانفعال:

ـ ماذا تقصد؟

ـ لا أقصد شيـئا محددا.. أنا فقط أتساءل: كـيف عرف صفوت

بتفاصيل علاقتنا؟.. وإذا كانت لديه شرائط فيديو لنا، فلاشك أن هناك كاميرا فى حجرة النوم.. من الذى وضعها؟

تطلعَتْ إليَّ لحظة، ثم استدارت وأسرعت إلى الحمام.. ظللت جالسا مكانى.. لم تكن لدىَّ القدرة أو الرغبة فى فعل أى شيء.. كنت أهوى بسرعة كبيرة إلى القاع ولم يعد بمقدورى أن أتوقف.صببت كأسا جديدة وتجرعت رشفة كبيرة.. بعد قليل ظهرت ويندى وقد ارتدت ملابسها ووضعت بدلة الرقص في الكيس الذى جاءت به.. كان وجهها مختلفا، تحاشت النظر إليَّ وانطلقت بخطوة عَجْلَى نحو الباب.. هرعت خلفها.

ـ ويندى!

لم تلتفت.. أمسكتُ بها، فتملصَتْ ودفعتنى بيدها، ولمحت وجهها فى تلك اللحظة مبللا بالدموع.. صحت بصوت متوسل:

ـ أرجوك.. استمعى إليّ.

لكنها مضت وأغلقت الباب بعنف.

٣٠

ـ الدكتـور بيكر معروف بتعصبه ضد المسلمين، وأنا والحمد لله مسلم أعتز بديني. . لقد حاول أكثر مرة أن يستهزئ بالإسلام أمامي، لكني أفحمته ونهرته. . عندئذ قرر أن ينتقم مني فلفق لي هذا الموضوع!

هكذا قال دنانه لزوجته مروة الجالسة أمامه على الأريكة، ثم أطرق وقد اتخذ وجهه هيئة القابض على الجمر الصابر على المكاره. . ولاحظت مروة بالطبع ثغرات كبيرة في كلامه، فقالت وهي تجاهد للاحتفاظ بابتسامة محايدة:

ـ حكاية غريبة!

ـ غريبة لماذا؟. . عدوك عدو دينك، وقد قال الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾.

ـ لكنك قلت لي من قبل إن الدكتور بيكر يحب المصريين!

ـ هكذا ظننت قبل أن تتكشف حقيقته القذرة. . تعرفين أني طيب وأنخدع في الناس بسهولة.

ـ ألا يمكن أن يكون في الأمر سوء تفاهم؟

ـ أقول لك سيفصلنى من القسم ، فتقولين لى سوء تفاهم؟!

هكذا صاح دنانه غاضبا ، فسكتت مروة لحظة ثم سألته :

ـ وماذا ستفعل؟

ـ لا أعرف .

ـ لماذا لا تذهب إلى التحقيق وتخبرهم بالحقيقة؟

ـ هل تظنين أن زملاء بيكر الأمريكيين سيكذّبونه ويصدقونني؟

أطرق قليلا ثم استطرد بصوت منكسر :

ـ أنا مظلوم ، لكن ربنا كبير . أرسل لى صفوت بك شاكر لينصفنى .

أحست مروة بأن الحديث يدخل فى منطقة غامضة محملة بالاحتمالات ، فلاذت بالصمت . . واستطرد دنانه وكأنه يكلم نفسه :

ـ وعدنى صفوت بك بتسوية الأمر مع البعثات ، وبعد ذلك سيلحقنى بجامعة أخرى .

ـ الحمد لله .

ـ هل رأيت فى حياتك أطيب وأكرم من هذا الرجل؟

ـ طبعا!

ـ بالله عليك هل يمكننى بعد ذلك أن أرفض له طلبا؟

تطلعت إليه مروة صامتة ، لكنه قال بحدة :

ـ ردى عليَّ.

ـ ماذا تريد بالضبط؟

ـ لا أريد إلا الخير. . نحن يا مروة زوجان. . شريكان في السراء والضراء. . وأنا الآن أمر بمحنة، وصفوت بك صاحب فضل عليّ.

ـ وما علاقتى بهذا الموضوع؟

ـ صفوت بك يريدك أن تعملى معه.

ـ أنا؟

ـ نعم. سيعيّنك سكرتيرة فى مكتبه.

ـ لكنى لم أعمل سكرتيرة من قبل!

ـ المسألة ليست صعبة. أنت ذكية وستتعلمين بسرعة. . باستطاعة صفوت بك لو أراد أن يعيّن عشر سكرتيرات أمريكيات. . لكن العمل فى مكتبه يخضع لاعتبارات خاصة.

ـ لا أفهم!

ـ من يعمل معه سيطّلع على وثائق خطيرة. . إنه يريدك لأنه يثق بك. . المخابرات الأمريكية والإسرائيلية ستسعى لتجنيد أية سكرتيرة تعمل معه حتى تكشف أسرار بلادنا. . عملك مع صفوت بك رد صغير لجميله الكبير. . لكنه أيضا عمل وطنى.

لاذت مروة بالصمت من جديد. . كان تدافع الأحداث قد أربكها وشَوَّش ذهنها.

ـ ما رأيك؟

ألقى دنانه السؤال بسرعة وتطلع إليها كمن يلقى بزهر الطاولة ويترقب النتيجة . . كان قد أعد نفسه لمواجهتها بكل الطرق . . لابد أن تعمل مع صفوت شاكر . . سيلح عليها، سيرجوها، سيتشاجر معها، سيستعين بأبيها لإقناعها إذا اقتضى الأمر . . جلس أمامها متحفزا . . مرت لحظات، ثم رفعت رأسها نحوه وقالت بهدوء وقد علت وجهها ابتسامة غامضة :

ـ موافقة .

٣١

كيف يتحول الشتاء إلى ربيع؟

يذوب الجليد أولا ، ثم تنبعث الحياة شيئا فشيئا فى الغصون الجافة وتبدأ الزهور فى التفتح . . هكذا تغيرت حياة كارول بعد عملها فى الإعلانات . . أقلعت عن سعيها البائس للحصول على وظيفة ، وسددت على دفعات المبالغ التى اقترضتها من صديقتها إميلى . . ابتاعت ملابس جديدة لمارك الصغير ، وحققت حلمه بالاشتراك فى نادى البولينج القريب من المنزل . أهدت جراهام ثلاثة أطقم من ملابس صيفية أنيقة وألحت عليه حتى عاد إلى تبغه الهولندى المفضل (ولم يستطع إخفاء سعادته بذلك) ، ثم اشترت سيارة بويك قديمة لتنقلاتها . . بعد ذلك قامت بطلاء البيت بالكامل ، وزرعت أشجارا جميلة فى الحديقة . . ذات صباح ، كانت تتناول الإفطار مع جراهام فى الشرفة وقد ارتدت كيمونو قطنيا أبيض أنيقا (اشترته من محل تيجورو الشهير) . . جلس بجوارها يدخن الغليون ويرشف القهوة ويقرأ موضوعا فى الشيكاجو تريبيون . . بادرته قائلة :

ـ جون . . ما رأيك؟ . . بيتنا ارتفع ثمنه بعد التجديد . . إذا

عرضناه للبيع الآن سيدر علينا مبلغا معقولا . أستطيع أن أضيف إليه مبلغا من مدخراتى ونشترى بيتا آخر .

بدا جراهام كأنه بوغت . ظل يعبث بأصابعه فى لحيته لحظات، ثم قال ببطء :

ـ هذه فكرة جيدة، لكننى ارتبطّت بهذا البيت يا كارول . . عشت فيه عشرين عاما . . كل ركن فيه يذكرنى بجزء من حياتى .

ـ سننتقل إلى بيت أكبر وأجمل .

ـ ربما تكون مشاعرى رومانسية حمقاء . . لكننى فعلا لا أتخيل نفسى فى بيت آخر !

بدت على وجهها خيبة أمل، فأمسك بيدها وهمس :

ـ عموما . . أعدك بالتفكير فى الموضوع .

ـ لا تفعل شيئا رغما عنك .

ـ سأفعل كل ما يجعلك سعيدة .

«تطلعت إليه وفاضت مشاعرها فجأة، فاندفعت نحوه، طوقته بذراعيها وغمرته بقبلاتها . . كانت تحبه فى تلك اللحظة أكثر من أى وقت مضى . . وقد وصلت أخيرا إلى توازن نفسى بخصوص عملها الجديد . . فى المرة الأولى عندما تجردت من ملابسها أمام فرناندو، عندما أحست بيده الباردة تلامس جسدها العارى وهو يعدها للتصوير، سحقتها المهانة، أحست بدوار وخُيل إليها أنها ستفقد وعيها . . مرة بعد أخرى تلاشى نفورها وبدأت تتأقلم . . قالت لنفسها : «فرناندو شاذ جنسيا،

لا يثيره جسد المرأة، وربما يقرفه . . لماذا أحس بحرج عندما أتعرى أمامه؟ أليس هذا عملي وعمله؟ . . هل كنت سأشعر بالخزى إذا كان يلتقط صورا ليدى أو قدمي؟ . . أليس هذا تناقضا؟ . . أليس صدرى جزءا من جسدى مثل بقية الأجزاء؟ . . إن شعورى بالعار ناتج عن بقايا أفكار قديمة موروثة تعتبر جسد المرأة ملكية خاصة لا يجوز استعمالها إلا بإذن أبيها أو زوجها . . هذه خزعبلات . . ليس لدىَّ ما أخجل منه . . أنا ممثلة، أعبّر بجسدى أمام الكاميرا لا أكثر ولا أقل . . ما العيب فى ذلك؟ . . ثم هل كان لدىَّ اختيار آخر؟ . . لم يكن باستطاعتى أن أرفض هذا العمل . . لم أكن لأتحمل أن أتسبب فى المزيد من التعاسة لجراهام . . لقد أحبنى وأحب ابنى وتحمل من أجلنا متاعب بلا نهاية . . لم أمنحه فى المقابل إلا البؤس! . . قد يتحمل الإنسان الفقر فى مقتبل العمر، أما أن يضطر إليه بعد الستين فهذه حقا مأساة! . . ثم ما ذنب مارك الصغير؟ . . أبوه يرفض الإنفاق عليه . . يجب أن أوفر له حياة كريمة . . لن أنسى سعادته بالملابس الجديدة وفرحته الطاغية وهو يمسك بكرة البولينج ويسددها نحو العساكر الخشبية . . لو عُرضت علىَّ هذه المهنة مائة مرة لقبلتها من أجل مارك وجراهام . . أكثر كائنين أحبهما فى الدنيا».

هكذا أقنعت نفسها واستراحت! . . وقد أخفت الحقيقة عن جراهام . . قالت إنها وجدت عملا فى إعلانات إذاعية، وأنهم أعجبوا بصوتها وطريقة إلقائها فمنحوها مرتبا كبيرا . . ولما سألها جراهام عن موعد إذاعة الإعلان كانت قد أعدت الإجابة . . تنهدت وقالت:

ـ الإعلانات التى أسجلها تشتريها محطة صغيرة فى بوسطن لا يمكن التقاطها فى شيكاجو.

ثم رسمت ابتسامة مصطنعة وهمست بنبرة حالمة:

ـ إذا نجحت،.. فربما أوقّع عقدا مع محطة كبرى فى شيكاجو.

طبع جراهام قبلة خاطفة على شفتيها وقال:

ـ علينا إذن أن نحافظ على حنجرتك لأنها ثروتنا القومية!

المدهش أنها نجحت فعلا.. أعجب بها المسئولون فى شركة دبل إكس وكلفوا فرناندو بتصويرها فى إعلان جديد، فأدته بطريقة أفضل لأنها اكتسبت خبرة فى التعبير بجسدها أمام الكاميرا.. وبعد أسبوعين اتصل بها فرناندو ودعاها لمقابلته، رحب بها بحرارة وقال وهو يشعل سيجارة ماريجوانا كعادته:

ـ عزيزتى كارول.. نحن نمضى من نجاح إلى نجاح.. اتصلوا بى هذا الصباح وطلبوك فى إعلان ثالث.

ـ عظيم!

ـ هذه المرة سنصور ساقيك وأنت ترتدين ملابس داخلية من صنع الشركة.

ـ لن أتعرى تماما أمام الكاميرا حتى لو دفعوا مليون دولار!

أطلق فرناندو ضحكته العالية وقال متهكما:

ـ لو عرضوا عليك مليون دولار لفعلت أى شيء!

تطلعت إليه صامتة وقد أحست بالإهانة . وكأنما أدرك هو فأطرق ووضع رأسه بين يديه ، وتمتم بصوت متعب :

ـ ما هذا الذى قلته؟ . . يبدو أننى أفرطت فى تدخين الماريجوانا . . آسف يا كارول!

هزت رأسها وانتزعت ابتسامة ، واستطرد هو بنبرة عملية :

ـ على كل حال . . لن يطلب أحد منك أن تتعرى تماما .

أجرى لها عدة بروفات حتى فهمت دورها وأتقنته . . سيُصَوِّر النصف الأسفل من جسدها وهى ترتدى الملابس الداخلية دبل إكس . . ويجب عليها ، على مدى ثلاثين ثانية ، أن تسترخى تماما أمام الكاميرا ، تتحسس ملابسها الداخلية بيديها ثم تمد ساقيها وتلف واحدة حول الأخرى على مهل لتعطى الانطباع بالراحة التامة . . عندئذ تنزل على المشهد عبارة : «الملابس الداخلية دبل إكس . . طراز حياتك المريح» .

حقق الإعلان نجاحا كبيرا ، وارتفع أجرها إلى ١٢٠٠ دولار فى ساعة التصوير . . وسرعان ما عرض عليها فرناندو إعلانا جديدا :

ـ هذه المرة سنعمل في منطقة وقورة من جسدك . . قدميْك : الإعلان القادم عن جوارب دبل إكس .

وعلى مدى أسبوع كامل استسلمت كارول لعاملة باديكير ظلت تعمل بعناية ودأب ، ساعتين كل صباح ، من أجل تشذيب أظافرها وتنعيم كعبيها وتطرية جلد قدميها لتبدوا منسابتين

ناعمتين . . كانت النتيجة باهرة، حتى إن فرناندو صاح بإعجاب وهو يجرى اختبار الكاميرا :

ـ يا لهما من قدمين رائعتين جديرتين بمحظية إمبراطور روماني !

هذه المرة كان عليها أن ترفع ساقها برشاقة أمام الكاميرا، تشد قدمها كراقصة باليه، ثم تتأود لحظة وترتدى الجوارب بطريقة مثيرة . . بعد إذاعة الإعلان قال لها فرناندو ووجهه ينضح بالسعادة :

ـ نحن نحقق نجاحا أسطوريا . . أنت ملهمتى يا كارول . . أنا أخرج معك أفضل ما عندى !

وكالعادة . . قدم لها عرضا جديدا .

ـ الإعلان الجديد مختلف عن كل ما سبق .

ـ ما فكرته؟

ـ سيرتفع أجرك إلى ١٥٠٠ دولار فى الساعة .

ـ شكرا . . ما فكرة الإعلان؟

ـ فكرته غير تقليدية، لكنى لن أتراجع عنه . إذا رفضت سأنفذه مع موديل أخرى .

ـ فرناندو . . تكلم .

ـ حسنا . . لقد أنتجت دبل إكس طرازا جديدا من مشدات الصدر شفافة تماما .

سكت لحظة، ثم استطرد بخشونة لكى يخفى حرجه :

ـ فكرة الإعلان كالتالى : سأصور صدرك عاريا ، ثم ترتدين المشد وتتعرضين للإثارة الجنسية حتى أصور حلمتيك منتصبتين .

ـ يا لك من وغد!

هكذا صاحت ونهضت غاضبة . . التقطت حقيبتها من فوق المقعد واتجهت إلى باب الخروج . . هرع فرناندو خلفها وأمسك بذراعها محاولا تهدئتها .

ـ كارول . . الأمر أبسط مما تتصورين . فكرى قليلا . . لقد صورنا ثدييْك العارييْن عشرات المرات . . ماذا يضيرك أن نصورهما وهما منتصبا الحلمتين؟ !

ـ لن أفعل ذلك أبدا!

نظر إليها بغيظ وقال :

ـ اسمعى آخر كلام عندى . . سأدفع لك أجرا استثنائيا . . ألفا دولار عن كل ساعة تصوير . . ستتقاضين هذا الأجر فقط فى الإعلانات التى تتضمن إثارة جنسية . . أما فى الإعلانات العادية فسيظل أجرك كما هو .

تطلعت إليه كارول صامتة وقد بدا أن الأحداث تتوالى بأسرع مما تستوعب . قال فرناندو بلهجة من ينهى المقابلة :

ـ لديك مهلة للتفكير حتى الصباح . . الشركة تتعجل الإعلان ، ويجب أن تمنحينى فرصة للعثور على بديلة لك إذا رفضت .

فى اليوم التالى . . جاءت كارول ووقفت فى مواجهته ، وقبل أن يسألها تمتمت وهى تتحاشى النظر إلى وجهه :

ـ حسنا . . متى نبدأ؟

أطلق فرناندو ضحكة عالية واحتضنها بقوة ورفعها من على الأرض .

ـ يا لك من امرأة رائعة ! . . لولا أننى غير مهتم بالنساء لسعيت بكل جهدى لإغوائك . . هيا إلى العمل .

دخلت معه إلى الأستديو وتجردت من ملابسها كالعادة ، وقضى هو وقتا طويلا فى ضبط الإضاءة والكاميرات ، وبعد عدة محاولات التقط المشهد الذى تظهر فيه عارية الصدر ، وبقى أمامهما الجزء الأصعب . . طلب إليها ارتداء المشد ، وأغلق بنفسه الزر الخلفى ، ثم أوقفها فى وسط الكادر الذى أعده وقال :

ـ كارول . . سأساعدك الآن على الانتصاب . . لا تتحرجى من ذلك . . سألمسك بطريقة مهنية تماما .

اقترب منها وأدخل يديه من خلال المشد ، احتوى ثدييها براحتيه وراح يدعكهما ببطء ، ثم التقط الحلمتين بين أصابعه وأخذ يفركهما برقة . . مرت دقيقة كاملة بغير استجابة ، فقال :

ـ يبدو أننى لا أثيرك بالقدر الكافى . . هل أستمر؟

لم ترد . . ظلت واقفة فى مكانها تنظر إلى يديه المنحشرتين بين المشد وصدرها . . أخرج يديه وقفز خلف الكاميرا ليتأكد من ضبطها ، ثم عاد إليها وهمس قائلا :

ـ لقد أعددت لك شيئا سيساعدك . . انظرى إلى الشاشة .

لاحظَتْ لأول مرة أنه وضع لاب توب على منضدة قريبة .

ضغط على زر التحكم فانبعثت أمام نظرها مشاهد من فيلم إباحي . . كانت هناك امرأة بيضاء تضاجع رجلا زنجيا وتصرخ من فرط اللذة . . صاحت كارول :

ـ أغلق هذا أرجوك!

ـ ماذا؟

ـ لا أطيق هذه الأفلام!

ـ لماذا؟

ـ لأنها مصطنعة وساذجة .

ـ هل تعانين من مشكلة في استجابتك؟

ـ بل أنا طبيعية تماما .

تطلع إليها بنظرة تنذر بالغضب . . وقال :

ـ اسمعي . . لابد أن أصور لقطة أو اثنتين اليوم . . لا تفسدي عملي .

ـ امنحني فرصة . . اتركني على سجيتي وسوف أنجح .

رمقها بنظرة متكدرة ، فهمست وهي تدفعه ليقف خلف الكاميرا :

ـ هيا . . من فضلك .

جرجر قدميه كطالب مشاغب طرده المدرس ، وأغمضت كارول عينيها وراحت تستحضر لحظاتها الحميمة مع جراهام ،

تلك اللذة الدافئة الحارقة التى تعتصرها معه، وشيئا فشيئا نسيت كل ما حولها واندمجت فى الإحساس الرائع الذى تجتره . . وعندما أدركت، على نحو خافت بعيد، أن الإضاءة تزيد فى مواجهة عينيها المغمضتين، تجاهلتها وظلت منسابة فى خيالها حتى أفاقت على صوت فرناندو وهو يضع يده على كتفها العاري :

- برافو . . لقطة رائعة!

امتد التصوير عدة جلسات، واستعملت كارول نفس الطريقة فى إثارة نفسها .

حقق الإعلان نجاحا كاملا (باستثناء مقالة وحيدة فى جريدة شيكاجو صن تايمز انتقده كاتبها لأنه غير أخلاقى وينتهك الحياة الخاصة للأمريكيين) . . وبعد أيام، دعاها فرناندو للعشاء . . وبعد كأسين من النبيذ الأحمر امتزجا بتأثير الماريجوانا الذى لا ينقطع عن رأسه . . دندن بأغنية «أوه كارول» القديمة الشهيرة، ثم قال لها وعيناه تلمعان بالحماس :

- أين كنت من زمان؟

- الفضل لموهبتك .

نظر إليها فرناندو قليلا وكأنه متردد، ثم قال بعفوية طفولية كانت تحبها :

- صاحب الشركة يريد مقابلتك .

- صحيح؟

- مَلَكُ الحظ الذى يرعاك يعمل بكفاءة منقطعة النظير . . هذه

المقابلة قد تغير حياتك . . هنرى ديفيز ، صاحب شركة دبل إكس ، واحد من أكبر الأثرياء فى أمريكا . . هل تعلمين أننى لم أره حتى الآن؟! . . طلبت مقابلته أكثر من مرة، لكنهم كانوا يعتذرون لأسباب مختلفة .

ـ وضعى أنا يختلف عنك . . أنت تطلب مقابلته فيرفض . . أما أنا فيسعى هو إلى مقابلتى ، ولا أعرف إن كنت سأقبل أم لا !

هكذا قالت بدعابة، لكنه لم يضحك . . نظر مباشرة فى عينيها وقال بلهجة جادة :

ـ أرجو أن تقدّرى أمانتى . . واحد آخر فى مكانى لم يكن ليسمح لك أبدا بمقابلة صاحب الشركة قبل أن يوقّع معك عقد احتكار !

ـ أنا أقدّر كل ما فعلته معى .

ـ عليك أن تبرهنى على ذلك . . سأعطيك أرقام مكتب هنرى ديفيز لتحددى معه موعدا . . وبالمقابل ، إياك أن توقّعى معه عقدا دون الرجوع إليّ .

ـ سأفعل ذلك .

ـ وعد؟

ـ وعد .

٣٢

ـ أنا صلاح يا زينب.

كان يلهث من فرط الانفعال. بدا صوته غريبا على سمعه وكأنه يصدر من شخص آخر، كأنه بعد فراق ثلاثين عاما لمحها فجأة فى الشارع وظل يركض خلفها حتى أدركها.. ما أغرب كل ذلك!.. لا يصدق أنه يتحدث معها.. كأنه لم يَغبْ عنها عمرا كاملا، كأنه لم يحاول أن ينساها ألف مرة.. كَأنه لم يَشْتَقْ إليها ألف مرة ويلعنها ألف مرة!.. كان صوته يعنى أكثر بكثير مما يقوله. «أنا صلاح يا زينب.. هل تذكريني؟.. أنا صلاح الذى أحبك كما لم يحبك أحد.. فقدتك يا زينب ففقدت حياتى!.. ثلاثون عاما عشتها ضائعا بعيدا عنك.. حاولت وفشلت يا زينب، وها أنا أعود إليك».

ـ صلاح.. لا أصدق؟

برغم السن ما زال صوتها محتفظا بحرارته القديمة.

ـ هل اتصلت بك فى وقت مناسب؟.. لا أريد أن أعطلك عن العمل.

ـ أنا أعمل فى الحكومة المصرية يا صلاح!.. عملنا هنا يتلخص فى الحضور إلى العمل.. لدينا دائما فائض من الوقت.

يا الله! . . هذه ضحكتها الرائعة كما هى . . قالت إنها لا تستطيع أن تصف سعادتها بالعثور عليه . . حكت له عن حياتها . . إنها تعيش وحدها بعد وفاة زوجها وزواج ابنتها الوحيدة . . تجنب الحديث عن زوجها . . سألها عن مصر ، فقالت بأسى :

ـ مصر فى أسوإ أحوالها يا صلاح . . كأن كل ما ناضلنا من أجله ، أنا وزملائي ، كان سرابا . . لم تتحقق الديمقراطية ، ولم نتحرر من التخلف والجهل والفساد . . كل شيء تغير إلى الأسوأ . . الأفكار الرجعية تنتشر فى مصر كالوباء . تصور أننى المسلمة الوحيدة فى إدارة التخطيط ، من بين خمسين موظفة ، التى لا ترتدى الحجاب!

ـ كيف تحولت مصر بهذه الطريقة؟!

ـ القمع ، الفقر ، الظلم ، اليأس من المستقبل . . غياب أى هدف قومي . المصريون يئسوا من العدل فى هذه الدنيا فصاروا ينتظرونه فى الحياة الأخرى! . . ما ينتشر فى مصر الآن ليس تدينا حقيقيا ، وإنما اكتئاب نفسى جماعى مصحوب بأعراض دينية! . . وقد زاد الأمر سوءا أن ملايين المصريين عملوا سنوات فى السعودية وعادوا بالأفكار الوهابية . . وقد ساعد النظام على انتشار هذه الأفكار لأنها تدعمه .

ـ كيف؟

ـ المذهب الوهابى يحرم الخروج على الحاكم المسلم حتى لو ظلم الناس . . أكثر ما يشغل الوهابيين تغطية جسم المرأة!

- هل يمكن أن ينحدر فكر المصريين إلى هذه الدرجة؟

- وأكثر . . في مصر الآن سيدات يرتدين قفازات حتى لا يستشعرن الشهوة إذا صافحن الرجال!

- أليس عبد الناصر مسئولا عن كل ذلك؟

أطلقت ضحكة حركت قلبه وقالت :

- هل تريد أن تستأنف مشاجراتنا حول عبد الناصر؟ . . ما زلت أعتقد أنه أعظم من حكم مصر . . لكن خطأه الفادح أنه لم يحقق الديمقراطية وخلف لنا حكما عسكريا ورثه من هم أقل منه إخلاصا وكفاءة .

سكتت لحظة ، ثم تنهدت وقالت :

- الحمد لله ، بقدر إخفاقي على المستوى العام وفقني الله في أسرتي . ابنتي مهندسة ناجحة في عملها وزواجها ، وقد أنجبت لي حفيدين رائعين . . وأنت ماذا فعلت؟

- حصلت على الدكتوراه وصرت أستاذا في الجامعة .

- هل تزوجت؟

- تزوجت وطلقت .

- والأولاد؟

- ليس لديّ أولاد .

أحس بأن إجابته أراحتها على نحو ما . . تكلما ما يقرب من ساعتين . . ومنذ تلك الليلة تغيرت حياته . . اكتمل عالمه

الليلى . . انبعثت مدينته المسحورة التى يتكتم أمرها لأن أحدا لن يصدقه . . لو حكى عنها سيتهمه الناس بالجنون . . احتفظ بالسر فى قلبه . . يعيش النهار بنصف انتباه، وما إن يهبط الليل حتى يتحول إلى مخلوق آخر مثل أبطال الأساطير، يحلق بجناحيه فى الماضى . . يرتدى ثيابه القديمة ويشاهد فيلما أبيض وأسود من الستينيات ويستمع إلى أغنيات أم كلثوم وعبد الحليم حافظ حتى يحين موعد ذهابها إلى المكتب فيطلبها، يحكى لها بصدق وحرارة كل ما حدث له وكأنه طفل عاد من المدرسة يلقى بنفسه فى حضن أمه، فتقبّله وتخلع ثيابه وتغسل وجهه ويديه من تراب الطريق! . ذات ليلة استرجعا الذكريات، فانسابت بينهما عذوبة صافية حتى قال لها فجأة:

ـ ما رأيك لو دعوتك إلى أمريكا؟

ـ لماذا؟

ـ ربما تبدئين حياة جديدة.

ضحكت وقالت:

ـ صرتَ تفكر كالأمريكيين يا صلاح . . أية حياة جديدة؟! فى مثل سننا نسأل الله حسن الختام!

ـ أحيانا يتملكنى الغضب نحوك.

ـ لماذا؟

ـ لأنك تسببت فى افتراقنا.

ـ ذلك تاريخ قديم.

ـ لا أستطيع منع نفسى من التفكير فيه .

ـ ما فائدة ذلك الآن؟

ـ لماذا تركتنى يا زينب؟

ـ أنت الذى قررت الهجرة .

ـ كان بوسعك إقناعى بالبقاء .

ـ حاولت ، لكنك أصررت .

ـ لماذا لم تأت معي؟

ـ لا أستطيع أن أترك مصر .

ـ لو كنت تحبيننى حقا لسافرت معى .

ـ من العبث أن نختلف الآن حول ما حدث منذ ثلاثين عاما!

ـ أما زلت تعتبريننى جبانا؟!

ـ لماذا تصر على اجترار الذكريات السيئة؟

ـ لا تتهربى . . هل أنا جبان فى نظرك؟

ـ لو اعتبرتك جبانا لما ارتبطت بك .

ـ آخر مرة قلت لى «يؤسفنى أنك جبان»!

ـ تشاجرنا فأفلت لسانى!

ـ آلمتنى هذه الجملة سنوات .

ـ أنا آسفة!

- لا أعتقد أنها فلتة لسان!

- ماذا تريد بالضبط؟

- رأيك الحقيقى . . هل أنا جبان فى نظرك؟

- الواجب كان يحتم عليك البقاء فى مصر .

- أنت بقيت ، فماذا كانت النتيجة؟

- لم أكن أنتظر نتائج .

- لم يتحقق هدف واحد مما ناضلت من أجله .

- لكنى أديت واجبى .

- بلا فائدة!

- على الأقل لم أهرب .

كان وقع الكلمة ثقيلا . ساد الصمت ، ولم تلبث أن همست بنبرة معتذرة :

- آسفة يا صلاح . . أرجوك لا تغضب مني . أنت الذى أصررت على الحديث فى هذا الموضوع .

٣٣

كأن عضلة ما فى وجه الدكتور رأفت ثابت قد انقبضت إلى الأبد فأضفت على ملامحه طابعا من المرارة لا يزول . . كأنه بات ينوء بحمل ثقيل جعل خطوته بطيئة وظهره مقوسا بدلا من مشيته الرياضية المنطلقة المرحة . . كأنه فقد قدرته على التركيز فبدا معظم الوقت وكأنه يحدق فى الفراغ! . . لم يعد يشغله إلا سؤال واحد: «أين اختفت سارة؟» . . بحث عنها فى كل مكان بلا جدوى . . هل هربت مع جيف إلى بلد آخر؟ هل هاجمتهما عصابة فى أوكلاند؟ . . ثمة جرائم فى أحياء شيكاجو السوداء لا يُكشف عنها إلا بالصدفة، وقد لا يُكشف عنها أبدا . . «ماذا أصابك ياسارة؟ . . لن أسامح نفسى أبدا لو حدث لك مكروه! . . كم كنت قاسيا معك! كيف جرؤت على إهانتك بهذا الشكل؟!» .

بعد أيام من البحث المضنى قرر أن يبلغ الشرطة . . لقيه ضابط أسود مهذب، استمع إلى حكايته باهتمام ثم تنهد وقال:

ـ آسف يا سيدى . . أنا أب مثلك وأقدّر مشاعرك . . لكن ابنتك جاوزت سن الرشد وصارت فى نظر القانون الأمريكى مواطنة حرة لها حق التنقل كيفما تشاء، وبالتالى لا يوجد إجراء قانونى للبحث عنها إذا تغيبت .

عاد رأفت حزينا إلى البيت، فوجد ميتشيل زوجته ممددة على الأريكة فى حجرة المعيشة. . تطلعت إليه بنظرة فارغة وسألته:

- ماذا فعلت؟

أخبرها بصوت خافت، ثم جلس بجوارها وأمسك بيدها. . بديا فى تلك اللحظة كزوجين عجوزين جعلتهما العشرة الطويلة يتواصلان بدون كلام. . كانت المحنة قد وحدت بينهما فأقلعا عن التشاجر. . جمع بينهما تضامن غريزى كذلك الذى يجمع الناس عندما يواجهون حريقا أو كارثة طبيعية. أبعدت يده برفق وقالت وهى تنهض:

- هل لديك أفكار جديدة؟

- سأنشر إعلانا.

- هل تعتقد أنها ستقرؤه؟

- أذكر أنها كانت تطالع إعلانات الصحف. . أحيانا.

نظرت إليه مليا ثم احتضنته، وأحس بجسدها يرتجف فأخذ يواسيها ويهدئها وأوصلها إلى الفراش، ثم عاد ببطء وألقى بنفسه على الأريكة. . كان يعانى من صداع قاتل وإحساس ثقيل بالكآبة يجثم على أنفاسه. منذ اختفاء سارة لم يعد باستطاعته أن ينام بدون منوم، ولم يعد قادرا على عمل أى شيء، لا بالليل ولا بالنهار. . تكرر غيابه عن المحاضرات، فاستدعاه الدكتور فريدمان رئيس القسم وقال وهو يبتسم:

- رأفت. . نحن جميعا فى القسم نتفهم الموقف. . اسمح لنا

أن نفعل شيئا صغيرا لمساعدتك. . إذا وجدت نفسك غير راغب فى إعطاء المحاضرة، ما عليك إلا أن تتصل بى قبلها وسأتدبر الأمر.

كانت لفتة رائعة من زملاء عمل بجوارهم عشرين عاما، لكنه يعلم أن هذا التسامح لن يستمر إلى الأبد. . عقده مع الجامعة ينتهى فى أبريل، ولو استمر على هذه الحال فلن يجددوا عقده مهما يكن تعاطفهم. . العمل عمل، ومنصبه فى القسم يتطلع إليه أساتذة كثيرون لديهم شهادات وخبرة مثله وربما أفضل منه. . نهض ببطء وابتلع حبة المنوم. . أمامه أربعون دقيقة حتى ينام. . ماذا يفعل؟ كان فى قرارة نفسه يعلم أنه سيفعل مثل كل ليلة، سيصنع لنفسه كأسا مزدوجا (متحديا بذلك تحذير الطبيب من الجمع بين المنوم والخمر). . سيُخرج ألبوم الصور الكبير الذى تحتفظ به ميتشيل فى الصالون بجوار البيانو. . سيشرب ويتطلع إلى الصور القديمة. . ها هى أيام السعادة تتبدى أمام عينيه. . أيام الحب والشباب. . صوره مع ميتشيل وهما متعانقان فى لنكولن بارك، وهما يمضيان سهرة رأس السنة فى ديفيز كلوب. . كان ذلك فى أى عام؟ سيجد التاريخ مكتوبا على ظهر الصورة. . بعد قليل تظهر سارة فى الصور. . أولا وهى رضيعة، ثم وهى طفلة ببدلة البحرية الزرقاء التى اشتراها لها فى عيد ميلادها الخامس، ثم صورة رائعة لها وهى تلهو بدراجتها فى حديقة البيت. تطلع إلى وجهها الضاحك. . كم كانت جميلة! . أين هى الآن؟ . طرأت له فكرة غريبة وهو يتأمل صورتها. . هل يحمل الإنسان مصيره على ملامحه منذ

الطفولة؟ هل نستطيع بدرجة ما من التركيز أو الشفافية أن نقرأ مستقبل الأطفال على وجوههم؟ . . أن نعرف من البداية أن هذه الطفلة سوف تموت مبكرا أو تشقى فى حياتها؟ أو أن هذا الطفل الذى يبدو عاديا وكسولا سيحقق نبوغا مهنيا أو ثروة طائلة؟ . . تبدو سارة فى الصور طفلة ضاحكة وجهها مشرق بالفرحة، لكنه فعلا يستطيع أن يرى على نحو ما كل ما يحدث لها الآن مطبوعا على وجهها الصغير . . ثمة غمامة مقبضة بين ابتسامتها ونظرتها البريئة المندهشة . . ثمة انكسار لا يكاد يُلحظ فى نظرتها . . إشارة إلى مصير حزين ليس بإمكانها تجنبه . . وضع الألبوم جانبا ونهض . . كعادته كل ليلة تتكاثف أحزانه فلا يعود قادرا على مطالعة المزيد من الصور . . يتجرع كأسا جديدة أمام النافذة حتى يتحالف المنوم مع الويسكى على ذهنه فيسقط فى نوم ثقيل مظلم كالموت. خُيل إليه فجأة أنه يستمع إلى أصوات قادمة من الدور الأرضي، صوت باب يُفتح ويُغلق، ثم أزيز خطوات على خشب الأرضية . . أصاخ السمع . . يا الله! . . هل تحقق تحذير الطبيب؟ . . هل اختلط الخمر بالمنوم فانبعثت فى ذهنه هلاوس؟ . . ها هو يسمع الصوت من جديد . . لا . . ليست هلاوس . . إنه متأكد هذه المرة . . هناك شخص يتحرك فى الدور الأرضى . . هل صحت زوجته ميتشيل ونزلت لتصنع شيئا؟ وضع الكأس على المنضدة وهرع إلى حجرة النوم . . فتح الباب برفق، واستطاع أن يميز فى الظلام هيئة ميتشيل وهى نائمة . . انتبه الآن تماما . . قوة إحساسه بالخطر أعادت إليه التركيز . . ها هو الصوت يتجدد . . يتحداه . . الشخص الذى اقتحم البيت لا يهتم حتى بإخفاء حركاته . لا يتسلل خلسة

كاللصوص . . ربما يكون مخمورا أو مخدَّرا ، أو ربما يحمل سلاحا يجعله مطمئنا إلى قدرته على حسم الموقف فى أية لحظة ! . . من قال إنه شخص واحد؟ . . الأرجح أنهم مجموعة من المسلحين . . ماذا يريدون منه؟ . . للأسف ليس لديه مسدس مثل صلاح . . رفض دائما أن يمتلك سلاحا . . بدت له فكرة إطلاق الرصاص على شخص ، مهما تكن الظروف ، غريبة ومروعة ! . . فتح تليفونه المحمول وضبطه على رقم طوارئ الشرطة . . سينزل إلى الدور الأرضي ، سيواجه المقتحمين ، وفى اللحظة المناسبة يستدعى البوليس . . أمسك بدرابزين السلم الخشبى ونزل الدرجات بحرص بالغ . . توقف ، استغرق لحظات حتى استوعب ما رآه . . كان باب الحجرة مفتوحا على مصراعيه . . فى الضوء الخافت للردهة لمح شخصا يقف بظهره . . إنه يعرف تلك الهيئة ، يحفظها عن ظهر قلب .

ـ سارة !

هكذا هتف وهو يندفع نحوها . . ضغط زر المصباح فكشف الضوء تفاصيل المشهد . . التفتت نحوه لحظة ، رمقته بنظرة غائبة ، ثم استدارت من جديد وكأنها لا تراه . . كانت تبحث عن شيء ما بلهفة . . أخذت تفتح أدراج المكتب وتغلقها بعنف واحدا بعد الآخر . . اقترب منها رأفت وتطلع إليها . . كان مظهرها غريبا : صار جسدها نحيلا ووجهها شاحبا للغاية ، وثمة هالات سوداء تحيط بعينيها . . العرق يتصبب منها ، شعرها مشعث ومترب ، وثيابها متسخة وكأنها قضت ليلتها على الرصيف !

ـ سارة؟ أين كنت؟

هكذا اندفع يسألها، لكنها لم ترد، لم تلتفت إليه، كأنها لا تحس بوجوده. . استمرت تفتح الأدراج وتغلقها بعنف، ثم انتقلت لتبحث في الدولاب. . جذبت الضلفة بقوة وأخذت تلقى بالمحتويات على الفراش: مجموعة من القمصان مطوية، غيارات داخلية ومناشف ملونة. . أمسك رأفت بذراعها وسألها:

ـ عم تبحثين؟

دفعته بعيدا وصاحت بصوت محشرج:

ـ اتركني!

ـ ماذا بك يا سارة؟

ـ ليس هذا من شأنك.

أخذت تتطلع إلى داخل الدولاب الذى صار خاويا، ثم ألقت بنفسها فجأة على الفراش ووضعت يديها على رأسها، وقالت كأنما تحدث نفسها:

ـ اللعنة!. . أين ذهبت النقود. . أنا متأكدة أننى تركتها هنا؟

ـ سارة!. .

ـ دعنى وشأنى. .

ـ أعرف أنك غاضبة منى. . سامحينى. . لقد عاملتك بقسوة. . ثقى أننى أكثر شخص يحبك فى هذا العالم.

ـ كُفّ عن ابتزازى بعواطفك التى أفسدت حياتي.

كان صوتها مشروخا ونظراتها غريبة. . أخذ وجهها يتقلص

وتصبب منها عرق غزير، وبدأت تشهق وكأنها تتنفس بصعوبة. . اقترب منها ومد يده ليحتضنها، فهبت واقفة وابتعدت خطوتين، ثم استدارت ووقفت فى مواجهته وهى ترمقه بنظرة متحفزة. . قال بصوت خافت:

- أريد أن أتكلم معك قليلا.

- ليس لدىَّ وقت.

- أنا أريد مساعدتك.

- وأنا لا أريد مساعدتك.

- أين تسكنين الآن؟

- فى مكان أفضل من بيتك ألف مرة.

- لماذا تعاملينني بهذه الطريقة؟ أنت فى مشكلة كبيرة؟ . . لابد أن تقلعى عن المخدرات.

تطلعت إليه بغضب وصاحت:

- ماذا تعرف أنت عن المخدرات؟ . . أنت لا تعرف عن الدنيا سوى شرائح الأنسجة التى قضيت معها حياتك.

- أرجوك يا سارة. . سأصحبك إلى الاختصاصية النفسية.

- لم أعد أطيق هذه السخافات. . أنا لا أحتاج إلى اختصاصية نفسية، وإذا كانت فى حياتى مشاكل فأنت السبب فيها.

- أنا؟!

- كالعادة أنت لا ترى بشاعة ما تفعله!

- سارة!

- كفاك أكاذيب . . لقد تسببت في شقائي . . لا يوجد شيء واحد حقيقي في هذا البيت . . أمي لا تحبك . . لم تحبك قط . . وأنت أيضا لا تحبها . . وتستمران في التظاهر بأنكما زوجان رائعان. آن الأوان لكي تسمع رأيي فيك. أنت شخص مزيف . . ممثل فاشل يؤدي دورا سخيفا لا يقنع أحدا. من أنت؟ هل أنت مصري أم أمريكي؟ عشت حياتك وأنت تريد أن تكون أمريكيا . . وفشلت .

- كل هذه المصائب بسبب ذلك الوغد جيف!

هكذا صاح رأفت فجأة، لكنها صرخت :

- لا تشتمه . . إنه أفضل منك . . هو فقير وعاطل لكنه صادق . . إنه يحبني وأنا أحبه . . لسنا مزيفين مثلكما!

استدارت فجأة ومضت نحو الباب، لكنه تبعها وأمسك بيدها ليستبقيها، فدفعته بعيدا عنها . . على أنه خطا بسرعة واحتضنها من الخلف وصاح بصوت عال :

- لن أسمح لك بتدمير نفسك .

- اتركني .

هكذا صاحت وهي تدفعه بكل قوتها، لكنه ظل متشبثا بها، تحمَّل ضرباتها على جسده . . بذلت محاولات عنيفة متوالية للتملص منه، وفجأة تقلصت عضلاتها بشدة وبدأت تبكي . . ضمها إليه بقوة وهدأت في حضنه، ظلا متلاصقين، صامتين

تماما . . بعد لحظات قالت بصوت مختلف، هادئ عميق، كأنها أفاقت من حلم أو عادت إلى وعيها بعد نوبة عصبية :

ـ يجب أن أنصرف الآن .

ـ هل تريدين مالا؟

بان عليها التردد، وقالت بصوت خافت :

ـ أعطنى مائة دولار وسأرجعها لك بعد أسبوع .

أخرج محفظة النقود وناولها الورقة المالية، فالتقطتها بسرعة ودستها كيفما اتفق فى جيب البنطلون . ابتسم وقال :

ـ تريدين المزيد من المال؟

ـ لسنا فى أزمة . . بعد أيام قليلة سيتسلم جيف عمله الجديد . . لقد وجد وظيفة ممتازة فى مكتب سمسرة .

كان واثقا أنها تكذب . . تطلع إليها بحنان وقال :

ـ هل يمكن أن تخبرينى بعنوانك الجديد؟

ـ لا أستطيع .

ـ أريد فقط أن أطمئن عليك . . لن أزعجك . . لن أزورك إلا إذا طلبت مني .

ـ سأتصل بك أنا . . أعدك بذلك .

بدت وكأنها استعادت رقتها القديمة فجأة . . احتضنها من جديد وانهال بقبلاته على وجهها وشعرها حتى أبعدته برفق . . تطلعت إليه بابتسامة باهتة، ثم طبعت على خده قبلة سريعة وهرعت إلى الخارج .

٣٤

جلس الدكتور فريدمان خلف مكتبه ودعا طارقًا للجلوس . . أطرق ونظر إلى يديه المتشابكتين أمامه، ثم تضرج وجهه قليلا كعادته عندما يبدأ الحديث . . وقال :

ـ منذ أن توليت رئاسة القسم تحمست دائما لقبول الطلبة المصريين لأنهم أذكياء ومجتهدون . . طبعا من حين لآخر قد يوجد مصرى سيئ مثل أحمد دنانه، لكن ذلك استثناء وليس قاعدة . . أنت مثلا طالب عظيم . . حصلت على نتائج مبكرة وجيدة فى البحث، واحتفظت بتقدير ممتاز فى كل المواد التى درستها .

ـ أشكرك .

هكذا تمتم طارق ممتنا . تنحنح دكتور فريدمان وفتح درج المكتب وأخرج بعض الأوراق وبسطها أمامه، ثم استطرد وهو لا يزال يتفادى النظر إلى طارق :

ـ إنجازك العملى المتميز يجعل من واجبى أن أحدثك بصراحة . . لقد اهتز مستواك بشدة خلال الأشهر الماضية . . هذا رابع اختبار تحصل فيه على درجة سيئة بعد أن كنت تحصل دائما على الدرجات النهائية!

ظل طارق يتطلع إليه وقد امتقع وجهه وبدا كأنه فقد القدرة على النطق . . في حين أمسك فريدمان بورقة الامتحان وقال بنبرة غاضبة :

ـ لقد ذهلت وأنا أراجع نتائجك الأخيرة . . أنت ترتكب أخطاء بدائية لا يمكن أن تصدر منك . . ألا يجعلك هذا تفكر قليلا في أسباب تدهورك؟

ظل طارق صامتا ووجهه يزداد شحوبا ، فابتسم فريدمان وقال بصوت مشفق :

ـ اسمع يا طارق . . أمامك فرصة كبيرة لتصنع مستقبلك . . الحياة في أمريكا لها عيوب ، لكن ميزتها الكبرى أنها تمنح الفرصة لكل إنسان . . إذا عملت بجد ستحرز هدفك . . هذا هو السر في عظمة هذا البلد . . ما تستطيع أن تنجزه هنا لن تنجزه في مكان آخر في العالم . . نصيحتي لك ألا تجعل حياتك الخاصة تشوش على عملك .

ـ ولكن . .

ـ لا أريد أن أتطفل على حياتك ، لكني أحاول أن أنقل إليك تجربتي . . أظنك تفهمني جيدا . كنت شابا مثلك يوما ما ، وخلال مشواري العلمي تعرضت لهزات عاطفية . . علاقات سعيدة وتعيسة كثيرا ما أثرت على أدائي . . لكني تعلمت كيف أسيطر على مشاعري وأستأنف العمل . . لا يوجد في الحياة أصعب على النفس من العمل ، لكنه القيمة الوحيدة التي تبقى .

نهض فريدمان من مكانه وشد على يد طارق بحرارة :

ـ انتبه إلى عملك يا طارق واعتبرني مثل والدك . . إذا أردت أية مساعدة لا تتردد في طلبها مني . . حتى إذا احتجت أن تتحدث عن مشاكلك ، سأجد دائما الوقت لكي أسمعك .

ـ أشكرك يا دكتور .

هكذا قال طارق بامتنان . . وضع فريدمان يده على كتفه وقال وهو يوصله إلى الباب :

ـ للأسف ، إن تدهور نتائجك يحتم على إدارة القسم أن تنذرك . . هكذا تنص اللائحة . . سيصلك الإنذار خلال يومين . . هذا أمر سيئ بالطبع ، لكنه ليس نهاية العالم . . لو عملت بجدية واستعدت مستواك نستطيع إلغاء الإنذار وكأنه لم يكن .

تطلع طارق صامتا إلى الدكتور فريدمان . . لم يَقْوَ على الكلام . . انصرف من عنده وهو فاقد التركيز ومشوش . . مشى في الردهة بخطى ثقيلة ، كاد يترنح كأنه تلقى ضربة عنيفة على رأسه . . راحت صور غائمة متضاربة تظهر وتختفي على صفحة ذهنه . . تابع المشي وهو غارق في أفكاره حتى إنه تجاوز مبنى سكن الطلبة بغير أن ينتبه . . كان يعلم أن مستواه قد اهتز في الفترة الأخيرة ، لكنه لم يعتبر ذلك ظاهرة . . كلما حصل على درجة سيئة كان يقول : «لم أكن موفقا في هذا الامتحان لكنني سأتدارك الأمر في المرة القادمة» .

لقد جعله الدكتور فريدمان ينظر في المرآة ويرى الحقيقة . . إنه يهوى إلى الحضيض . . مستقبله العلمي مهدد . . اليوم وجهوا له

إنذارا قانونيا، وغدا يفصلونه مثل دنانه. . الفرق أن دنانه تقف وراءه الحكومة المصرية، أما هو فلو فصلوه سيضيع إلى الأبد. . ياالله! . . ماذا حدث؟ . . كيف أصبح طارق حسيب النابغة، أسطورة التفوق، يخشى الرسوب ويتوقع الفصل؟! . . أغلق باب الشقة بهدوء، وألقى بنفسه على السرير بملابسه الكاملة، حتى الحذاء لم يخلعه. . ظل صامتا يحدق فى السقف ما يقرب من نصف ساعة، ثم قام وخرج من شقته واستقل المصعد إلى الدور السابع. . وقف أمام شقة شيماء مترددا، ثم ضغط الجرس مرتين متتابعتين. . كانت هذه هى الطريقة المتفق عليها، تعرفها شيماء فتهرع إليه، تفتح الباب فورا وكأنها تنتظر خلفه. . لكنها هذه المرة لم تفتح. . فكر أنها خرجت لسبب ما. . اتصل بها فوجد التليفون مغلقا. . دق الجرس من جديد. . مرت فترة طويلة حتى إنه فكر فى الانصراف. . أخيرا فتحت. . كانت ترتدى ملابس البيت وتربط شعرها بإيشارب، ولم تتزين للقائه كعادتها. . لم تنطق بكلمة، استدارت وأفسحت، له فدخل. . ثم جلست أمامه على الأريكة فى الصالة. . رأى فى الضوء عينيها محتقنتين ووجهها مبللا من أثر الدموع. .

- خيراً؟

ظلت صامتة، تحاشت النظر إليه، مما ضاعف جزعه. . اقترب ووضع يده على كتفها، فأبعدتها بعنف!

- ما لك يا شيماء؟

أطرقت قليلا، ثم أجهشت بالبكاء وقالت بصوت متقطع:

- مصيبة يا طارق!

- ماذا حدث؟

- أنا حامل!

ظل واقفا يتطلع إليها، كأنه لا يفهم، كأنه تجمد فى مكانه.. لم يعد قادرا على التفكير، تشتت وعيه، انكسر إلى آلاف الشظايا الصغيرة.. بدأ يلاحظ الأشياء حوله كمشاهد منفصلة لا يربطها شيء. المصباح الجانبى على المنضدة، والثلاجة التى تصدر أزيزا، والأرضية المغطاة بموكيت وثير لونه بني غامق.. هبت شيماء من مقعدها فجأة وبدأت تلطم وجهها بيديها وتصرخ:

- عرفت يا طارق المصيبة؟! أنا حامل فى الحرام يا طارق.. فى الحرام!

اندفع نحوها وأمسك بيديها، وبعد جهد تمكن من منعها من اللطم، لكنها ألقت بنفسها على المقعد وانخرطت فى بكاء مزق قلبه.. تكلم للمرة الأولى، فخرج صوته عميقا كأنما ينبعث من بئر.

- أنت مخطئة!

- ماذا تقصد؟

- لا يمكن أن تكونى حاملا!

- أجريت الاختبار مرتين.

- أؤكد لك أن هذا مستحيل!

تطلعت نحوه بنظرة متنمرة وقالت:

- أنت طبيب، وتعرف جيدا أن ما حدث ممكن.

ساد صمت عميق وبدأت تبكى من جديد، ثم قالت بصوت متهدج:

- فكرت هذا الصباح فى الانتحار.. لكنى أخاف من ربنا سبحانه وتعالى.

نهضت فجأة، اقتربت منه، أمسكت بيديه وهمست بصوت مجروح:

- استر علىَّ يا طارق.. أبوس رجلك!

ظل يحدجها بنظرة صامتة.. قالت بصوت متضرع:

- لقد سألت عن الإجراءات.. ممكن أن نتزوج هنا فى القنصلية.

- نتزوج هنا؟

- سيغضب أهلنا لأننا لم نستأذنهم، لكن ليس لدينا اختيار.. لقد سألتهم فى القنصلية.. الإجراءات بسيطة لا تستغرق نصف ساعة.. بعد ذلك يتم إرسال صورة من وثيقة الزواج إلى السجل المدنى فى القاهرة.

قالت الجملة الأخيرة بنبرة عملية وكأنه وافق على الزواج وبقيت مشكلة الإجراءات.. لكنَّ صمتا ثقيلا جثم بينهما.. أشاح بوجهه حتى لا ينظر إليها، وقال بصوت خافت كأنه يكلم نفسه:

- أنا أيضا فى مشكلة كبرى.. تلقيت إنذارا قانونيا من الجامعة.. متوسط درجاتى انخفض بشدة!

ـ يجب أن نحسم موضوعنا أولا . . متى نذهب إلى القنصلية؟

ـ لماذا؟

ـ لنتزوج .

ـ ظروفى لا تسمح بالزواج الآن!

ساد الصمت من جديد . . بدأت تلهث بصوت مسموع ، واستطرد هو بصوت متوسل :

ـ أرجوك يا شيماء . . افهمينى . . لن أتخلى عنك أبدا . . سأبذل كل ما بوسعى لمساعدتك . . لكنى لا أستطيع أن أتزوج بهذه الطريقة .

حدقت فى وجهه ، حاولت أن تقول شيئا ، لكنها فجأة زفرت بقوة ثم دفعته بيديها وهى تصيح :

ـ اخرج من هنا . . اخرج . . لا أريد أن أرى وجهك .

❋ ❋ ❋

قضيت واحدة من أسوإ الليالى فى حياتي.

لم أنم لحظة.. اتصلت بويندى عدة مرات، لكنها لم ترد ثم أغلقت تليفونها. فى الصباح الباكر ارتديت ملابسى واستقللت المترو إلى بورصة شيكاجو، كنت قد أوصلتها إلى هناك عدة مرات.. وقفت أنتظرها فى تقاطع الشارع.. كان الثلج الذى هطل أثناء الليل قد غطى كل شيء.. أحكمت حولى المعطف الثقيل وشددت غطاء الرأس والكوفية على وجهي.. تذكرت كيف اختارت لى ويندى هذه الملابس.. كنت لقلة خبرتى بشتاء شيكاجو قد اشتريت معطفا للمطر وأنا أظنه يصلح لمقاومة

الصقيع، ضحكت ويندى لما رأته ثم تمالكت نفسها وقالت بصوت خافت وكأنها تعتذر:

ـ هذا المعطف خفيف. الشتاء فى شيكاجو يحتاج إلى معاطف ثقيلة مبطنة بالفرو.

أخذتنى إلى محل مارشل فيلد الشهير، وقالت لى والمصعد الزجاجى يحملنا إلى أعلى:

ـ هنا يبيعون الأزياء الفاخرة من تصميم أكبر المصممين فى العالم.. لكنهم والحمد لله لم ينسوا الفقراء أمثالنا، فتركوا لهم الطابق الأخير حيث الملابس التى بها عيوب، أو التى صار طرازها قديما.. تباع بثمن زهيد.

كم أحبتنى واعتنت بى!.. بقدر ما كانت رقيقة معى عاملتها بفظاظة.. بالأمس جاءت لتحتفل معى ببدلة الرقص التى اشترتها من أجلي، أرادت أن تبدو فى نظرى كالراقصة الأندلسية التى أتخيلها.. كل هذا الحب قابلته بقسوة لا تصدق.. اتهمتها بالتجسس.. بالخيانة.. سأعتذر لها بمجرد أن أراها.. سأقبّل يديها وأتوسل لها حتى تسامحنى.. كيف استطعت أن أقسو عليها إلى هذا الحد؟.. لم أكن فى وعيى.. كنت متوترا وتعيسا فأفرغت إحباطى عليها.. مداهمة صفوت شاكر لى فى البيت ومعرفته بكل تفاصيل حياتى وتهديده لى بأمى وأختى.. كل ذلك قوض أعصابى.. أختى نهى.. لا أتصور أبدا أن يقبضوا عليها.. لو مسوها بسوء سوف أقتل هذا الصفوت شاكر.. ياالله!.. هل هؤلاء بشر مثلنا؟.. هل كانوا يوما ما أطفالا أبرياء؟ كيف ينحصر عمل إنسان ما فى ضرب الناس وتعذيبهم؟ كيف يستطيع من يعذب إنسانا أن يأكل وينام

ويمارس الحب مع زوجته ويداعب أطفاله؟!.. الغريب أن كل ضباط أمن الدولة لهم نفس السحنة.. الضابط الذى عذبنى عندما اعتُقلت فى الجامعة كان يشبه صفوت شاكر.. نفس اللمعة اللزجة الباردة للبشرة، وتلك العينان القاسيتان الميتتان، والوجه المربد المتقلص الذى يفيض بالمرارة!

هبت ريح ثلجية شديدة، فأغمضت عينى ورحت أمشى على الرصيف بخطوة سريعة حتى يندفع الدم إلى أطرافى.. هذه الطريقة لدرء البرد أيضا تعلمتها من ويندى.. بيننا عشرات التفاصيل والمواقف.. لا يمكن أن أنساها. تطلعت إلى الساعة.. السابعة والنصف.. لماذا لم تأت؟ هذا طريقها اليومى.. لابد أن تعبر من هنا.. هل غيرت طريقها لتتحاشى رؤيتى؟.. أحسست بالحزن يثقل قلبي، ومع البرد والإرهاق بدأت أنفصل عما حولى.. كأننى انتقلت فجأة إلى مجال آخر بعيد.. وكأن ما أراه يحدث لأشخاص آخرين أشاهدهم من خلف الزجاج!.. كانت هذه طريقة يلجأ إليها ذهني، لا إراديا، لتقليل إحساسى بالألم، وشيئا فشيئا غشى الضباب مجال الرؤية أمامي، وكأنى أرى الشارع والمارة من خلف نظارة غائمة!.. لا أعرف كم من الوقت قضيته فى هذه الحالة.. لكنى ـ فجأة ـ انتبهت على صورتها.. رأيتها قادمة.. ها هي، بمشيتها المتهادية التى أحبها.. تتقدم وفقا لإيقاع متكرر رشيق كأنما تؤدي رقصة.. سألتها مرة: لماذا لا تمشين بسرعة مثل الأمريكيين؟.. أجابتنى ضاحكة: لأنى أحمل دماء جدتى الأندلسية التى أحبت جدك!.. اندفعتُ نحوها بكل قوتى.. توقفَتْ وتطلعَتْ إليَّ.. بدا على وجهها أنها لم تنم مثلى.

ـ ويندى!

ـ لديَّ عمل الآن.

ـ أرجوك.. دقيقة واحدة.

هبت ريح عاتية أغرقت وجهينا برذاذ الثلج، وأشرت إليها فترددت قليلا، ثم تبعتنى إلى مدخل المبنى القريب.

احتوانا الدفء.. كنت ألهث من فرط الانفعال..ـ أرجوك.. سامحينى.. لا أعرف كيف فعلت ذلك؟.. كنت محبطا ومخمورا.. لم أكن فى وعيى.

أطرقت لتتحاشى النظر إلىَّ وقالت:

ـ لقد كشفَتْ مشاجرة الأمس عن الحقيقة.

ـ سأفعل أى شيء حتى تنسى ما قلته بالأمس.

ـ لن أنساه.. لا يمكن أن أخدع نفسى!

ـ ماذا تقصدين؟

ـ علاقتنا رائعة، لكنها بلا مستقبل!

ـ لماذا؟

ـ لأننا من عالمين مختلفين.

ـ ويندى.. لقد أخطأت وجئت أعتذر.

ـ ليس فى الأمر خطأ.. أنا فى النهاية أنتمى إلى أعداء بلادك.. مهما أحببتنى فلن تنسى أبدا أننى يهودية.. مهما أخلصت لك ستظل ثقتك بى دائما هشة.. سأظل أول المتهمين فى نظرك.

ـ هذا ليس صحيحا.. أنا أثق فيك وأحترمك.

ـ لقد انتهت حكايتنا يا ناجى.

هممت بأن أسجل اعتراضا يائسا أخيرا، لكنها ابتسمت

بغموض وتجلى فى وجهها فجأة ذلك الحزن القديم الذى يعتريها.. تقدمت نحوي، احتضنتنى وقبّلتنى على خدى بسرعة، ثم قالت بصوت خافت وهى تناولنى مفتاح الشقة:

ـ أرجوك لا تتصل بى.. أحب أن تنتهى علاقتنا بطريقة جميلة كما بدأت. أشكرك على الأحاسيس الرائعة التى عرفتها معك.

استدارت ومضت بهدوء.. ظللت أرقبها وهى تعبر البوابة الزجاجية إلى الشارع حتى اختفت فى الزحام.

* * *

بدا القلق على وجه كرم دوس. تنهد وقال:

ـ إذن فقد بدأت الحرب!

ـ لا أفهم كيف عرف صفوت شاكر كل شيء عنا؟

ـ التلصص على الناس مهنته.. تذكّر أننا قابلنا مصريين كثيرين لنقنعهم بالتوقيع على البيان.. من الطبيعى أن يكون أحدهم قد وشى بنا!

ـ وكيف حصل على مفتاح شقتي؟

ـ التعاون بين أجهزة المخابرات الأمريكية والمصرية وثيق وقديم.. إنهم يبعثون بالمشتبه فيهم إلى مصر، حيث تقوم مباحث أمن الدولة بتعذيبهم وانتزاع الاعترافات منهم ثم إرجاعهم إلى أمريكا!

ـ كنت أعتقد أن حقوق الإنسان لها حصانة هنا.

ـ بعد تفجيرات ١١ سبتمبر أعطت الإدارة الأمريكية أجهزة الأمن الحق فى أن تفعل كل ما تراه ضروريا، بدءا من التجسس على الناس حتى اعتقالهم لمجرد الاشتباه.

ـ والعمل؟

ـ أما زلت مصرا على البيان؟

ـ ماذا تقول؟

ـ أعرف أنك شجاع ووطني.. لكنني أقدّر أيضا أن خوفك على أسرتك قد يدفعك إلى إعادة التفكير.

حدجته بنظرة يبدو أنها كانت حاسمة؛ لأنه رفع يده قائلا:

ـ لا تغضب.. كان لابد أن أسألك.

كنا جالسين في البيانو.. البار الذي التقينا فيه لأول مرة مع ويندي، كنت أجاهد لأوقف تيار الذكريات.. صورة ويندي لم تفارق ذهني.. ها أنا أفقد واحدة من أجمل التجارب في حياتي!.. استعدت لقاءنا الأخير.. هل كانت على حق؟ هل ننتمي فعلا إلى عالمين مختلفين؟!.. إن عداءنا نحن العرب يجب أن ينصب على الحركة الصهيونية وليس الديانة اليهودية.. لا يمكن أن نعادي أتباع ديانة معينة.. هذا السلوك الفاشي غريب عن تسامح الإسلام، كما أنه يعطي الآخرين الحق في معاملتنا بنفس العنصرية.. هذا رأيي الذي قلته وكتبته عشرات المرات، ولكن يبدو أنني فشلت في تطبيقه!.. لو لم تكن ويندي يهودية هل كنت اتهمتها بالخيانة؟! لماذا شككت فيها بهذه السهولة؟ لكن من ناحية أخرى، ألا تعتبر ويندي يهودية استثنائية؟ ألا يؤيد معظم اليهود في العالم إسرائيل بكل قوتهم؟.. ألا ترتكب إسرائيل كل مذابحها ضد العرب باعتبارها دولة اليهود؟ ألم تتسبب علاقتي بويندي في غضب اليهود في الكلية؟.. ألم يتحرشوا بي ويهينوني؟.. كم من اليهود مثل ويندي، وكم منهم مثل الطالب الذي سخر مني؟

تجرعت بقية النبيذ وطلبت كأسا جديدة.. انتبهت على وجه الدكتور كرم، قطب جبينه وقال بجدية:

ـ يجب أن نحلل الموقف جيدا.. ما دام صفوت شاكر قد عرف كل شيء، فسوف يمنع بالتأكيد كل الموقعين على البيان من مقابلة الرئيس.

ـ هل يملك هذا الحق؟

ـ طبعا.. زيارة الرئيس يشرف عليها رجال أمن مصريون وأمريكيون، ومن حقهم منع أي شخص من دخول القاعة..

ـ حتى لو منعونا من الدخول، سوف نتظاهر في الخارج ونقرأ البيان على الصحفيين.

ـ المظاهرات مهمة بالطبع، لكن قوة الفكرة تكمن في أن يفاجئ أحد المصريين رئيس الجمهورية ويلقي البيان في مواجهته.

ـ عندك حق، لكن.. كيف؟

ـ لا يزال أمامنا أسبوعان.. علينا أن نجد أحد المصريين الذين لم يوقّعوا على البيان ونقنعه بإلقائه.. يجب أن نختار شخصا لا يتوقعه صفوت شاكر إطلاقا.

ـ هل تعرف أحدا يصلح لهذه المهمة؟

ـ لديَّ بضعة أسماء سنستعرضها معا.

٣٥

لماذا وافقت مروة على العمل مع صفوت شاكر؟

الإجابة فى تفاصيل صغيرة . .

نظرتها المتفحصة المستريبة لزوجها وهو يعرض عليها الأمر، ابتسامتها المتوترة المشوبة بالتحدى وهى تتزين أمام المرآة قبل أن تذهب إلى القنصلية، الفستان الأزرق الضيق الذى اختارته ليبرز انحناءات جسدها، العطر القوى الذى ضمخت به خلف أذنها وما بين نهديها، حركة يدها الخاطفة المختلسة التى فكت بها الزر الأعلى للفستان قبل أن تدخل إلى المكتب . . تأودها وتنهداتها وصوتها الناعم الرخيم . . إن رغبة داخلية قاهرة تدفعها لأن تشجع صفوت شاكر، أن تفتح له المجال لكى يعلن نواياه، ليس لأنه يعجبها أو لأنها منحرفة أو عابثة، وإنما لأنها تريد أن تكمل الخط على استقامته، أن تدفع أحداث القصة إلى نهايتها، أن ترسو على بر ينقذها من تلاطم أمواج حياتها الذى يستنزفها بلا توقف . . تعبت من ترددها وهواجسها، بين خوفها من الطلاق ونفورها من دنانه . . لم تعد تتحمل الحياة فى المنطقة الرمادية . . إما أن تتحقق المخاوف أو تتبدد . . مهما تكن قسوة الحقيقة فهى أرحم من الأوهام . . وقد أدركت منذ اليوم الأول أنها بلا عمل

حقيقى فى مكتب صفوت شاكر؛ لأن المهام الرئيسية يقوم بها السكرتير حسن. بدا واضحا أن صفوت يتحرق رغبةً فيها. . أكثر من مرة على مدى النهار يستدعيها ويطلب منها إغلاق الباب، يدعوها إلى الجلوس أمامه ويحدثها محاولا التودد إليها وهو يخترقها بنظراته. . كان صوته يضطرم برغبة جامحة تكاد تلسعها. . أحيانا تجيش شهوته وتفيض فتملأ الأثير حتى يلوذ بالصمت، لا يعود لديه ما يقوله. . فكرت مروة أنه لن يصمد طويلا، سيكشف قريبا عن وجهه. . ماذا سيفعل معها؟ هل يمسك بيدها؟ هل يلتصق بها ويحاول تقبيلها عنوة؟. . مر اليوم الأول والثانى، وفى نهاية الثالث استبقاها صفوت بعد ساعة الانصراف. قام إلى البار الصغير خلف البارافان، وأعد لنفسه كأسا وعصير برتقال لها، ثم عاد إلى مقعده وأرجع ظهره، وقال وقد غامت عيناه قليلا:

- أريد أن أحدثك عن نفسى.

- هذا شرف لي!

- أنا الآن فى قمة حياتى العملية. . قد يتم اختيارى وزيرا فى أى وقت.

- مبروك.

هكذا قالت بصوت مرح، ثم تحرك دافعها الداخلي. . اهتزت ووضعت ساقا على ساق، فانحسر الثوب عن تفاصيل جسدها. . استطرد بصوت جاد:

- لقد وصلت إلى أقصى ما يمكن أن يصل إليه رجل أمن. .

لعلك لا تعرفين معنى الأمن فى بلدنا . . الأمن هو الذى يحكم مصر وليس أية جهة أخرى . . بكلمة واحدة منى أستطيع أن أحرك رئيس الجمهورية كما أشاء . . أستطيع أن أجعله يغير خط سيره من مكان، إلى مكان أو يترك قصره وينام فى قصر آخر أحدده له . . تقرير واحد منى بإمكانه تدمير مستقبل أى مسئول فى الدولة!

- بدأت أخاف منك!

- بالعكس . أريدك أن تعتمدى عليّ .

- أشكرك .

- زوجك جاء إليَّ فى واشنطن وبكى وتوسل حتى أنقذ مستقبله من الضياع .

- أعرف .

- سأنقذه من أجلك .

- شكرا جزيلا .

- أريدك أن تشكرينى بطريقة أخرى .

- ما هي؟

- أنا أكبر منك فى السن والتجربة . . وقد علمتنى الحياة أن الفرصة تأتى مرة واحدة، إما أن نستغلها أو نضيعها إلى الأبد .

- لا أفهم!

- بل تفهمين تماما .

ـ ماذا تريد؟

ـ أريدك أنت!

نهض من خلف المكتب ومشى إليها بتؤدة، ثم أمسك بيدها وجذبها فنهضت. . مد ذراعه وأحاط بخصرها، فتململت لكنها لم تبتعد. . همس ورائحة عطره تملأ أنفها:

ـ أنت جميلة.

تأودت، وكأنها تعترض، فتضاعف هياجه وشدد قبضته على ذراعها، وقال بصوت مبحوح:

ـ سأجعلك أسعد إنسانة في الدنيا.

ـ وإذا رفضت؟

ـ لن ترفضي.

ـ من أدراك؟

ـ لأنك ذكية.

ـ أحتاج إلى التفكير.

تطلع إليها صفوت وقد اربد وجهه وبدأ يلهث من فرط الشهوة، لكنه استجمع نفسه وقال وهو يبتعد عنها:

ـ سأعطيك مهلة حتى الغد.

* * *

لم تُصدم مروة ولا ارتبكت ولا استنكرت، بل وحتى لم تحس

بغضب بالغ . . بل على العكس ، داخَلَها نوع من الراحة وكأنها محقق وجد أخيرا دليلا قاطعا على الإدانة . . ها هى تقبض على الحقيقة ، لا شكوك ولا تردد بعد اليوم . صفوت شاكر يريدها عشيقة له ، هكذا بوضوح ! . . انطلقت عائدة إلى بيتها ، جلست فى الصالة تنتظر دنانه ، الذى ما إن دخل من الباب ولمحها حتى أدرك أن شيئا ما قد حدث . . حياها ، ثم قال وهو يبالغ فى التثاؤب تمهيدا للهرب :

- قضيت النهار كله فى عمل مُضْنٍ .

- أريد أن أتكلم معك .

- فلنؤجل ذلك إلى الغد .

- الأمر لا يقبل التأجيل .

حكت له ما حدث على مهل . . ضغطت مخارج الحروف وهى تستعيد كلمات صفوت شاكر . . سددت إليه نظرة قوية وقالت :

- تَصَوَّر الحقارة . . هذا الذى كنت تعتبره صديقك يريد أن يعتدى على شرفك !

كان دنانه جالسا أمامها بملابس الخروج . . ظل يحدق فيها من خلف النظارة ، ثم خبط كفا بكف وقال :

- لا حول ولا قوة إلا بالله . . يا له من رجل عايب !

لم ترتح مروة لطراوة التعبير ، فسألته بصوت مرتفع :

- ماذا ستفعل معه؟

ـ سأحاسبه بالطبع . . وسيكون حسابه عسيرا .

مرت لحظات من الصمت . . نهض فجأة وجلس بجوارها ، ووضع يده على كتفها وقال :

ـ سأجعله يدفع ثمن سفالته كاملا . . سأعرف كيف أوصل الأمر إلى رؤسائه . . ولكن علينا أن نتروى قليلا لأن زيارة الرئيس بعد أيام ، وصفوت وعدنى بإلحاقى بجامعة دو بول !

ـ ماذا تقصد؟

ـ لا نريده أن يعند معنا .

ـ لقد قال لى بوضوح إنه يريد أن يقيم معى علاقة . . هل تفهم؟

ـ طبعا أفهم . . سألقنه درسا لن ينساه . . سترين بنفسك . . كل ما أطلبه منك أن ننتظر شهرا واحدا لا أكثر . . لو أغضبته الآن يستطيع أن يضيعنى بجرة قلم . . سأصبر عليه فقط حتى تنقضى زيارة الرئيس ويلحقنى بالجامعة الجديدة ، بعد ذلك يبدأ الحساب !

حدجته بنظرة متأنية عميقة كأنها تسجل ما يحدث ، تطبعه فى أعماق وعيها مرة واحدة إلى الأبد . . لم تنطق ، نهضت ببطء ، دخلت إلى حجرة المعيشة وأغلقت الباب .

٣٦

بدا مبنى القنصلية المصرية ذلك الصباح مختلفا وكأنه اكتسب بعدا أسطوريا، كأنما لمسته عصا الساحر، فتحول من مجرد مبنى دبلوماسى أنيق على بحيرة ميتشجن إلى مسرح لأحداث كبرى سيسجلها التاريخ!.. بدأت إجراءات التأمين مبكرا: تم فحص المبنى بأجهزة متطورة اخترقت الجدران بأشعة إكس للتأكد من خلوها من أية أجسام غريبة مدفونة، بعد ذلك ظهرت عشرة كلاب بوليسية ضخمة أخذت تذرع المبنى وتتشمم فى كل اتجاه بحثا عن أية مفرقعات مخبوءة.. فى تلك الأثناء صعدت إلى سطح المبنى مجموعة من القناصة المصريين حاملين بنادقهم ذات المواسير الطويلة والعدسات المكبرة، تصحبهم مجموعة أخرى من الحرس الجمهورى المسلح ببنادق أوتوماتيكية سريعة.. تمركزوا جميعا فى مواقع متفرقة تكشف المنطقة المحيطة بالقنصلية من كل اتجاه، وبعد قليل نصبت أربع بوابات إليكترونية، وضعت بوابتان أمام كل مدخل بحيث يتم فحص الداخلين مرتين متتابعتين.. قبلها بنحو عشرة أمتار أقيمت نقاط تفتيش وقف عليها ضباط أمريكيون تابعون لمكتب التحقيقات الفيدرالى ومعهم ضباط مصريون من المخابرات وأمن الدولة.. مع توافد المدعوين بدأ

فحصهم بمنتهى الدقة . . الأمريكيون أدخلت بطاقات دعواتهم فى جهاز الليزر للتأكد من أنها ليست مزورة ، أما المصريون فقد خضعوا بطبيعة الحال لإجراءات إضافية . . تم تصوير جوازات سفرهم على لاب توب متخصص للتأكد من أنهم غير مسجلين فى ملفات الأمن ، بعد ذلك يسألهم ضابط الأمن المصري ، بابتسامة رسمية ونظرة مدققة ثاقبة ، عن تفاصيل حياتهم . . إذا لاحظ أدنى ارتباك أو تناقض فى الإجابة يصطحبهم فورا إلى مكتب جانبى لاستجوابهم بشكل موسع . . كانت إجراءات الأمن صارمة عمياء كالعدالة ، فُرضت بنفس القوة على الجميع بغض النظر عن مهنهم أو مكانتهم الاجتماعية . . حتى إن مسئول البوفيه فى القنصلية ، وهو أمريكى أسود عجوز يدعى جاك ماهوني ، منعوه من الدخول لأنه نسى التصريح الخاص به . وعلى مدى نصف ساعة كاملة ، أصم الضباط آذانهم عن محاولاته المتوسلة لإثبات شخصيته وشهادة العاملين المتضامنين معه ، حتى اضطر فى النهاية للعودة إلى بيته البعيد لإحضار التصريح ! . . كان رجال الأمن المصريون فى أعماقهم يستشعرون جلال مهمتهم وخطورتها : التأمين الشخصى لسيادة رئيس الجمهورية . . كانوا يحبونه من أعماق قلوبهم ، وينطقون اسمه بتبجيل وخشوع ؛ فلولا قربهم منه لما نعموا بحياتهم الرغدة ونفوذهم البالغ على كل أجهزة الدولة ! . . لقد ارتبطوا به حتى صار مصيره يحدد مستقبلهم . . لو أصابه مكروه لا قدر الله ، لو اغتيل كمن سبقه ، فمعنى ذلك ضياعهم التام . . سيحالون إلى الاستيداع ، وربما يحاكُمون ويُسجنون إذا انتقلت السلطة إلى أعداء الرئيس . . وما أكثرهم !

كل هذه الهواجس كانت توخزهم كالإبر إذا تسرب إليهم تراخ أو ملل، فيستعيدون حماستهم فورا! ولقد تمثل الولاء المطلق لسيادة الرئيس فى شخص اللواء محمود المناوي، قائد الحرس الجمهورى الذى قضى ربع قرن كاملا بقرب سيادته، مما جعله واحدا من القلائل الذين يتمتعون بثقته المطلقة، بل وشرف تلقى دعاباته الفاحشة أحيانا . . يكون سيادة الرئيس رائق المزاج، فيربت كرشه البارز، ويقول بصوت ضاحك يسمعه الجميع :

ـ يا ولد يا مناوى بَطَّلْ أكل . . بقيت عامل زَىّ العجل أبيس!

أو يصيح ساخرا :

ـ باين عليك سلّمت النِّمَر يا ولد يا مناوى!

(فى إشارة شعبية إلى ضعفه الجنسى مع تقدمه فى السن) .

عندئذ يتضرج وجه اللواء المناوى زهوا من الشرف الكبير الذى ناله؛ فهذا التبسط السامى علامة ثقة ومحبة من سيادته يحسده عليها كثيرون! . . ينحنى ويتمتم بصوت ضارع :

ـ تحت أمر سيادتك يا فندم . . ربنا يخليك لمصر يا فندم!

وبينما إجراءات التأمين جارية على قدم وساق، تجمَّع على الجانب المقابل للقنصلية، فى المساحة الخضراء الملاصقة للبحيرة، عدة مئات من المصريين، يقودهم ناجى عبد الصمد وكرم دوس ومعهما جون جراهام، الذى أدى ظهوره وسط الجمع بجاذبيته الطبيعية وهيئته كأمريكى عجوز يحارب من أجل حقوق المصريين

إلى إلهاب حماس المتظاهرين، فراحوا يرددون الهتافات ويلوحون باللافتات المكتوبة بالإنجليزية والعربية:

«أفرجوا عن المعتقلين».. «أوقفوا التعذيب».. «أوقفوا اضطهاد الأقباط».. «يسقط الطاغية».. «الديمقراطية للمصريين».

كانت المظاهرات ضد الرئيس أثناء زياراته للغرب شيئا مألوفا لضباط الحرس الجمهورى، لكنهم لاحظوا هذه المرة كثرة عدد المتظاهرين الذين لم يلبث هتافهم أن دوى فى الأنحاء، مما أقلق اللواء المناوى.. فتوجه إلى قائد الأمن الأمريكى وطلب منه أن يسمح له بتفريق المظاهرة، فأجابه:

- القانون الأمريكى يمنع تفريقهم.

ابتسم اللواء المناوى وقال:

- نستطيع أن ننجز المهمة بدون أدنى مسئولية علينا.. أفراد من عندى سيندسون بملابس مدنية بين المتظاهرين ويؤدبونهم.. سيبدو الأمر أمام الصحافة وكأنها مشاجرة عادية!

رمقه القائد الأمريكى بنظرة متفحصة وابتسامة مستخفة، ثم أشار بيده علامة الرفض ومضى بعيدا. أحس اللواء المناوى بغضب بالغ من غطرسة القائد الأمريكى، لكنه بالطبع لم يكن ليثير مشكلة معه أبدا.. تعلَّم بخبرته أن لا شيء فى الدنيا يقلق سيادة الرئيس مثل مشكلة مع مواطن أمريكى مهما كان منصبه بسيطا، ثمة جملة مأثورة تعوَّد سيادته أن يرددها:

«الحاكم الذى يتحدى الإدارة الأمريكية كالأحمق الذى يضع رأسه فى فم الأسد»!

ما زالت قصة سكرتير الرئيس للمعلومات، الدكتور نائل الطوخي، ماثلة في الأذهان. . فقد تشاجر مع موظف فى السفارة الأمريكية على أسبقية المرور بالسيارة فى أحد شوارع المعادى. . مجرد مشادة عادية تحدث فى القاهرة كل يوم عشرات المرات، لكنها تطورت إلى شتائم متبادلة بالإنجليزية فقد الدكتور الطوخى على أثرها أعصابه، فدفع خصمه بيديه فى صدره، مما جعل الموظف الأمريكى يقدم شكوى إلى سفيره الذى اتصل برئاسة الجمهورية وأبلغها بالواقعة. . وفى اليوم التالى تلقت السفارة الأمريكية ردا رسميا يفيد بأن السيد الرئيس قد انزعج بشدة مما حدث وأمر بالتحقيق فى الواقعة فورا، ثم قرر الاستغناء عن خدمات سكرتيره للمعلومات عقابا له على تصرفه غير المسئول!

اشتعل حماس المتظاهرين، وتوحدت أصواتهم فى هتاف واحد كالرعد يدعو إلى سقوط الرئيس بالعربية والإنجليزية على التوالى. . راح اللواء المناوي، من الضفة الأخرى للشارع الفسيح، يرمقهم بغيظ. . ثم أمر ضابطا يرتدى الملابس المدنية بالعبور إليهم وتصويرهم بكاميرا فيديو تحمل شعار محطة تليفزيونية وهمية، وقد عزم أن يرسل الفيلم إلى أمن الدولة للكشف عن شخصياتهم وتعقبهم. . كان إيقاع الهتاف المتصاعد يتزامن مع اقتراب موعد وصول الرئيس الذى لم يلبث موكبه أن لاح من بعيد ثم اقترب شيئا فشيئا فاتضحت تفاصيله. . سيارته

المرسيدس السوداء العملاقة المحصنة ضد طلقات الرصاص، تحرسها سيارتان مصفحتان أمامها وخلفها . . أطلق اللواء المناوى صيحة عالية ترددت فى الهواء كصفارة إنذار مولولة كئيبة: «انتبااااه» . . شد ضباط الحرس جميعا أجسادهم واتخذوا مواقعهم المحددة شاهرين أسلحتهم فى كل اتجاه تحسبا لأى طارئ . . تمهل الموكب حتى توقف أمام المدخل، وفى لمح البصر قفز الحرس الشخصى (البوديجارد) وشكلوا حول السيارة دائرة قطرها عدة أمتار بحيث يرقبون الطريق من كل اتجاه وفى نفس الوقت لا يظهرون فى التصوير . . كانوا بضعة رجال ضخام الأجسام حليقى الرؤوس، يثبتون فى آذانهم سماعات دقيقة، ويشهرون مدافعهم باتجاه عدو متخيل متوقع ظهوره فى أية لحظة . . هرع رئيس التشريفات نحو السيارة الرئاسية، انحنى بشدة وفتح الباب، وسرعان ما ظهر سيادة الرئيس . . نزل ببطء وشموخ ملك متوج وقد علت وجهه ابتسامته الشهيرة الخالية من البهجة، التى اعتبرها من ربع قرن مناسبة للتصوير فلم يغيرها قَطّ . . كان يرتدى بدلة رمادية فاتحة آية فى الأناقة، ورابطة عنق مخططة بالأزرق والأبيض، وحذاءً إيطاليا لامعا ذا توكة ذهبية جانبية تخطف الأنظار . . على أن من يرى سيادته وجها لوجه، برغم الهيبة والرهبة، سيحس حتما بأن وجوده مصطنع على نحو ما! . . شعره المصبوغ الفاحم الذى سرت شائعات جادة بأنه (كله أو جزء منه) عبارة عن باروكة مستعارة من أفضل الأنواع العالمية، بشرته التى أنهكتها عمليات الكشط والصنفرة والدهانات اليومية لإعطائها حيوية الشباب، وجهه المكسو بطبقات مكياج دقيقة ليبدو أصغر سنا فى الصور . . ذلك

الحضور الزجاجي، المنعزل البارد البعيد، الخالى تماما من أى أثر للتراب والعرق وكأنه معقم، كان يترك فيمن يرى الرئيس إحساسا فجا غير مريح كذلك الذى ينتابنا عند رؤية الأطفال عقب ولادتهم مباشرة وهم لا يزالون كتلا صغيرة من اللحم بلا ملامح غارقين فى لزوجة الرحم! . . كان الرئيس، من جراء خمسة وسبعين عاما يحملها، قد قل تركيزه فأصبح يدرك ما يحدث حوله متأخرا لحظات. التفت إلى الضفة الأخرى من الطريق ولوح بيده محييا المتظاهرين، ولما ارتفع هتافهم الصارخ بسقوطه، فهم واستدار نحو مدخل القنصلية، مشى بطريقته المتبخترة ومد يده نحو أزرار الجاكت يتحسسها (وقد لازمته هذه الحركة منذ أن استبدل بالزى العسكرى الزى المدنى واكتشف أن أزراره كثيرا ما تنفك دون أن يحس بها). . بدأ الرئيس فى مصافحة مستقبليه بالترتيب: السفير المصرى فى أمريكا، وقنصل مصر فى شيكاجو، ثم صفوت شاكر الذى كان وجهه يعكس انطباعا هادئا لأن كل شيء يمضى على ما يرام، ثم أعضاء السفارة المصرية وفقا للأقدمية. . وفى آخر الصف بدا أحمد دنانه وكأنه مُتَخَفٍّ بسبب أناقته المفرطة! . . كان يرتدى بدلة زرقاء ماركة كريستيان ديور اشتراها خصيصا للمناسبة، وكلفته (مع القميص والجورب ورابطة العنق) ألفًا وخمسمائة دولار دفعها عن طيب خاطر من كارته الائتمانى، وحصل كعادته على فواتير احتفظ بها والأمل يداعبه فى أن يتمكن بعد ذلك من إرجاع الملابس واسترداد ماله (كما فعل فى بدلة العرس)! . . كان يدرك أن مقابلة الرئيس قد تغير حياته. . كم مرة سمع عن مسئولين بارزين فى الدولة عثروا على حظهم فى موقف مماثل. . التقوا الرئيس فاستلطفهم

وانطبعت وجوههم في ذاكرته الكريمة فمنحهم مناصب فى أقرب تغيير! . . إنها فعلا لحظة فارقة تكتسب فيها أصغر التفاصيل أهمية قصوى . . مجرد زر مقطوع أو غير مثبت جيدا، أو رابطة عنق معوجة، أو حذاء متلرب أو حتى لا يلمع كما ينبغي . . أية تفصيلة تافهة قد تفسد انطباع الرئيس وتؤثر سلبا على مستقبل دنانه! . . سبب آخر دفعه للعناية بأناقته: أراد أن يثبت لنفسه أنه تخلص نهائيا من تأثير فعلة زوجته مروة التى استيقظ صباح الثلاثاء الماضى فلم يجدها! . . ظل يجوب أنحاء الشقة وهو مذهول وآثار النوم على وجهه، حتى انتبه أخيرا إلى ورقة معلقة على الثلاجة فى المطبخ، مكتوبة على عجل بحروف كبيرة مترنحة: «سافرت إلى مصر . . سيتصل بك والدى من أجل ترتيبات الطلاق».

بذل مجهودا كبيرا حتى استوعب الصدمة. قال لنفسه إنه لم يكن سعيدا معها قط . . بإمكانه، بالتأكيد، أن يجد عشرات النساء أفضل منها. سيطلقها كما طلبت، لكنها يجب أن تدفع ثمن ما سببته له من تعاسة (وما تكبده من مصروفات أيضا)! . . بعد أيام من هربها اتصل به الحاج نوفل، وبدأ حديثا عن القسمة والنصيب وأبغض الحلال عند الله . . رد عليه دنانه قائلا: إن مروة هربت من بيتها وسببت له فضيحة وهو يحتاج إلى وقت حتى يجتاز الأزمة معنويا . . ثم وعده بلقاء، عندما ينزل إلى مصر، يجلسان رجلا لرجل ويتناقشان فى طلبات كل منهما . . وقد تعمد دنانه أن يستعمل كلمة «طلبات» حتى يمهد لفكرة أنه سيطلب مالا . . بالطبع سيطلب مالا . . إن حياته واسمه وسمعته ليست

ألعابا فى يد الست مروة تعبث بها كيف تشاء. . عقد العزم (بدافع من طمع مغطى بالغضب) على أن يطلب من الحاج نوفل مليون جنيه مقابل طلاق ابنته! . . المليون بالنسبة لنوفل لا شيء . . ولسوف يضعها دنانه فى البنك الأهلى كوديعة تدر عليه عائدا سنويا لا بأس به . . «ستدفع يا نوفل مليون جنيه رغم أنفك. إذا رفضت أو رفعت ابنتك ضدى قضية خلع فسوف أريك وجهى الآخر . . سألوث سمعتها يا نوفل الكلب فى كل مكان بحيث لا تتزوج بعد ذلك أبدا . . سأقول إننى لم أجدها بكرا»!

استقر عزمه واطمأن، وركز مجهوده فى الإعداد لزيارة الرئيس . . فكر مليا فى لحظة اللقاء . . ماذا يجب عليه أن يفعل عندما يرى سيادته؟ . . كيف يقف أمامه؟ ماذا يقول له؟ كم قبلة يطبعها على خد سيادته؟ وإلى أى مدى يستبقى يده وهو يصافحه؟

صافح الرئيس طابور الواقفين جميعا، ولما حان دور دنانه اندفع فاحتضنه وقبّله على جانبى وجهه، ثم صاح عاليا بلهجة ريفية:

- ربنا يحفظك وينصرك ويخليك لمصر يا سيادة الرئيس. . أنا ابنك يا فندم . . أحمد عبد الحفيظ دنانه، من الشهدا محافظة المنوفية!

هكذا اختار أن يقدم فقرة فولكلورية ضاحكة، يدلل بها - مع حبه لزعيمه - على مصريته الأصيلة . . وقد نجحت الخطة فبدا الانبساط على وجه الرئيس، وانتقل فورا إلى وجوه المحيطين به

فأخذوا يرمقون دنانه بود وعذوبة! . . وضع الرئيس يده على كتف دنانه وقال:

- أنت من المنوفية؟ . . نبقى بلديات!

- شرف لى يا فندم سيادتك.

- باين عليك فلاح قراري!

هكذا قال الرئيس وأطلق ضحكة عالية، فلمعت الكاميرات فورا، ونال دنانه شرف الظهور فى صورة رئاسية سوف تنشر فى الصحف الحكومية وتحتها تعليق: «سيادة الرئيس يداعب أحد أبنائه المبعوثين أثناء زيارته التاريخية الناجحة للولايات المتحدة»!

اجتاز الرئيس الممر، وخلفه بخطوتين مشى السفير بخشوع، يتبعهما بقية المستقبلين على شكل هلال حفاظا على مسافة يفرضها التوقير. . كانت القاعة الفسيحة مصممة على الطراز الشرقي، وقد ازدانت جدرانها بنقوش وزخارف إسلامية، كما تدلت من السقف ثريات من الكريستال المتلألئ. . وقد خصصت فى الأصل لإقامة المحاضرات وعروض السينما، أما اليوم فقد أقيمت منصة فخمة للضيف الكبير أحيطت بباقات الورد، وفوقها صورة نصفية بالحجم الطبيعى لسيادته، تحتها لافتة ضخمة باللغة العربية: «المصريون فى أمريكا يرحبون بالزعيم القائد. . نبايعك من أجل المزيد من الرخاء والديمقراطية». . كل ما يحدث فى القاعة كانت تنقله الكاميرات بالصوت والصورة إلى شاشة عرض ضخمة عُلقت فى الخارج بجوار الباب الرئيسى للقنصلية. .

اصطف المدعوون على مقاعد المدرج وأخذوا يتبادلون الأحاديث والضحكات ربما ليخفوا توترهم، وما إن ظهر الرئيس حتى وقفوا جميعا وضجت القاعة بالتصفيق المتواصل.. وأعطى دنانه الإشارة المتفق عليها مع مجموعة المبعوثين الذين أجلسهم إلى يمين المدرج، فارتفعت أصواتهم بهتاف منغم للرئيس مع صفقتين متتابعتين باليد كما دربهم.. أخذت الضجة تعلو وتتزايد حتى مد الرئيس يديه الكريمتين وحركهما إلى الأمام بمعنى «كفى.. أشكركم».

سار كل شيء على ما يرام، إلا أن حادثا غريبا وقع بعد لحظات؛ فقد اندفع بعض الحاضرين وطلبوا التصوير مع سيادة الرئيس فاستجاب وأشار للحرس فأفسحوا لهم.. صافحوه جميعا ووقفوا مزهوين حوله.. اقترب منهم مصور الرئاسة حاملا كاميرته الحديثة.. كان رجلا بدينا أصلع جاوز الخمسين.. (تأكد فيما بعد، بشكل قاطع، أنه جديد فى الرئاسة، وتقرر سفره لأول مرة مع الرئيس بعد مرض المصور الأصلي).. ضبط الرئيس والذين معه على وجوههم ابتسامة التصوير، لكن اللحظات مرت والمصور يثبت عينه على الكاميرا ولا يلتقط الصورة.. وفجأة مد يده إلى الأمام وقال:

- من فضلك يا سيادة الرئيس تعال إلى اليمين قليلا.

ساد صمت عميق، رابض متحفز كالخطر.. لم يتحرك الرئيس كما طلب المصور.. ظل واقفا فى مكانه ونظر إلى أعلى وكأنه يرقب شيئا يتحرك على السقف.. كانت هذه علامة غضبه المعروفة: أن ينظر إلى أعلى عندما يحدث شيء لا يعجبه، ويكون

على المحيطين به عندئذ إصلاح الخطإ فورا. . يبدو أن المصور لم يكن ذكيا بما يكفى لملاحظة ما حدث، أو أنه تخيل أن الرئيس لم يسمعه جيدا، فأبعد الكاميرا من أمام عينه وقال بصوت مرتفع هذه المرة:

- سيادة الرئيس. . سيادتك خارج الكادر. . تحرك إلى اليمين من فضلك.

وقبل أن ينتهى من الكلمة الأخيرة دوت صفعة عنيفة على وجهه!. . جذب رئيس التشريفات الكاميرا منه وطوح بها فى الهواء، فسقطت بعيدا وانكسرت إلى شظايا محدثةً صوتا عاليا، ثم أمسك به من ياقة القميص وزأر غاضبا:

- تقول لسيادة الرئيس يتحرك يا حمار ياابن الكلب؟! مصر كلها تتحرك وسيادة الرئيس يظل ثابتا فى مكانه. . اخرج يا حيوان!

دفعه بيديه في ظهره بقوة ووجه إليه بقدمه ركلة قوية دفعته إلى الأمام وكادت تُسقطه. . هرع المصور إلى الخارج مذهولا من المفاجأة والإهانة، فى حين استمر رئيس التشريفات يصب عليه اللعنات والشتائم. كان الذين طلبوا التصوير قد ابتعدوا عندما بدأ الضرب، ثم عادوا ببطء حذر إلى أماكنهم وقد غضوا النظر عن الموضوع. . أما سيادة الرئيس فقد بدا على وجهه أنه راض عن الجزاء الذى لقيه المصور الوقح!. . ألقى حوله بنظرة ثقيلة متمهلة كأنما يؤكد أن شموخه كما هو لم تَشُبْهُ شائبة، ثم استأنف السير وسط صمت متوتر سرعان ما تبدد لما وصل إلى المنصة، فدوت

موجة عاتية من التصفيق . . جلس سيادته على المقعد الفخم، وبدأ اللقاء بآيات من الذكر الحكيم ألقاها المبعوث مأمون الملتحي، الخبير بتجويد القرآن، الذى تخير أن يلقى سورة الفتح ﴿إنا فتحنا لك فتحا مبينا﴾ . . بعد ذلك تجدد التصفيق والهتاف، ثم بدأ الزعيم يقرأ كلمته من ورقة أمامه على المنصة مكتوبة بحروف كبيرة (لأنه لا يستعمل نظارة القراءة أبدا أمام الكاميرات) . . تحدث عن إنجازاته التى لم يكن ليستطيع أن يتوصل إليها لولا توفيق الله وعظمة الشعب المصرى الأصيل . . ثم أنهى كلمته بخطاب إلى المبعوثين مؤكدا أن كل واحد فيهم سفير لمصر يجب أن يضعها فى قلبه وعقله ووجدانه . . كانت الكلمة إنشائية تقليدية ومملة، مثل كل الخطب التى يكتبها له محمود كامل رئيس تحرير جريدة بلادى التى يصدرها الحزب الحاكم . . ما إن فرغ حتى عاد التصفيق والهتاف المنغم بقيادة دنانه، الذى وصل حماسه إلى الذروة فأخذ يلوح بذراعه وقد تضخمت عروق رقبته وهو يصيح بأعلى صوت : «عاش الرئيس القائد . . عاش بطل الحرب والسلام . . عاش مؤسس مصر الحديثة»!

تعاقبت كلمات الترحيب من السفير والقنصل ورئيس اتحاد الدارسين أحمد دنانه الذى جلجل صوته فى القاعة :

«نعاهدك يا سيادة الرئيس على أن نحب الوطن كما علمتنا . . أن نقتدى بك سيادة الرئيس فنتفانى فى العمل كما تفانيت، ونتحلى بالاستقامة والأمانة كما تحليت . . دمت لمصر ذخرا وعزا».

عاد الهتاف والتصفيق من جديد، ولم يلبث السفير المصرى أن

بدأ في إعطاء الكلمة للمتحدثين طبقا للجدول . . كانت التعليقات منتقاة ومعدة سلفا، وقد تمت مراجعتها جميعا بدقة، وكلها تعكس أشكالا متنوعة من الثناء على الرئيس . . حتى الأسئلة، كانت أميل إلى تمجيده منها إلى الاهتمام بمعرفة الإجابة . . سأله أحدهم: «كيف استطعتم سيادتكم أن تجتازوا بمصر كل التحديات الكبرى؟»، وسأله آخر: «كيف استفدتم سيادتكم من خبرتكم العسكرية في إدارة شئون الدولة بنجاح؟» . . خلال الإجابة ردد الرئيس كلامه المعتاد الذى قرأه الحاضرون عشرات المرات في الصحف، وبين الحين والحين كان يلقى بدعابة يضحكون لها فورا، ويكون دنانه بطبيعة الحال أكثرهم ضحكا . . (كان يتعمد أن يبدأ الضحك بعد الجميع حتى يلفت نظر سيادة الرئيس إليه) . . أخيرا قال السفير بلهجته الوقورة:

ـ الآن . . كلمة الأستاذ الدكتور محمد صلاح . . الأستاذ بكلية الطب جامعة إلينوى . . فليتفضل .

المسافة بين الصف الثانى حيث يجلس الدكتور صلاح والمنضدة العالية حيث يلقى كلمته لم تتعدَّ عشر خطوات، لكنها فصلت بين حياتين . . بين تاريخه على مدى ستين عاما ومستقبله الذى يتشكل الآن . . ها هو ينفذ الخطة، تماما كما اتفق مع كرم دوس وناجى عبد الصمد . . طلب منه الأمن مراجعة الكلمة التى سيلقيها، فأعطاهم ورقة من سطرين يمجد فيها الرئيس، فوافقوا فورا، وفى نفس الوقت احتفظ في جيبه الداخلى بنص البيان الذى سيلقيه باسم المصريين . . كان أخشى ما يخشاه وهو يدخل إلى القاعة أن

يتعرض للتفتيش الذاتى فيعثروا على البيان ويفسد كل شيء، لكن يبدو أن هيئته الوقورة قد طمأنت الضابط فلم يعرضه إلى إجراءات إضافية. . وقف الدكتور صلاح وتقدم ببطء نحو المنصة وهو مطرق حتى لا ينظر إلى أحد. . يجب أن يتأكد أولا من أنه أصبح فى مجال الكاميرات تماما حتى يسدد ضربته بإحكام. . سيقرأ البيان بصوت قوى واضح وبسرعة حتى ينتهى منه قبل أن يمنعوه. . من السذاجة أن يتصور أنهم سيتركونه للنهاية. . سيصيبهم الذهول لبضع لحظات، لكنهم سرعان ما يفيقون ويتحركون، ماذا سيفعلون به؟ مستبعد أن يطلقوا النار. سيقبضون عليه ويضربونه، أو حتى يكمموا فمه بالقوة ليمنعوه من إكمال البيان. . كل هذا سيزيد من فضيحتهم. . بقيت خطوتان. . ها هو يستمع إلى طنين خافت فى القاعة، لو رفع رأسه الآن لرأى رئيس الدولة وجها لوجه. . يا لها من لحظة فارقة!. . سيخرج من هذه القاعة إنسانا آخر. . إنه غير خائف. . كل ما يخشاه ألا يتمكن من إكمال البيان، أما ما سوف يحدث بعد ذلك فلا يشغله. . أين كانت هذه الروح؟. . لو واتته من ثلاثين عاما لتغيرت حياته. . لما قالت له زينب: «يؤسفنى أنك جبان»!. . ها هو يقطع الخطوة الأخيرة. . الآن يقف فى مواجهة رئيس الجمهورية ويلقى بيانا يدافع فيه عن حق المصريين فى الديمقراطية والحرية. . سيفعل ذلك أمام العالم كله. . ستنقل الكاميرات صورته إلى كل الأنحاء. عندما عرض عليه ناجى إلقاء البيان أحس بأن القدر قد أرسل إليه الخلاص من معاناته. . أدهشت موافقته الفورية ناجى نفسه. بالأمس قال لزينب فى التليفون:

ـ سأثبت لك أننى لست جبانا!

سألته، فأجابها بضحكة مزهوة:

ـ ستعرفين غدا.. كل العالم سيعرف.

وصل إلى المنضدة وأدنى رأسه من الميكروفون.. «لست جبانا يا زينب.. سترين بنفسك.. لم أكن جبانا قَط.. لقد تركت مصر لأنها أغلقت أبوابها أمامي.. لم أهرب منها.. سأريك الآن كيف تكون الشجاعة!.. ما أفعله يعتبره الفقهاء أعلى درجات الجهاد.. كلمة حق عند سلطان جائر».

الآن سيتخلص من حياته العادية، سيخلعها ويلقى بها جانبا كمعطف متهرئ قديم.. سيكتب اسمه فى تاريخ تتناقله الأجيال، البطل الذى واجه الطاغية!

شد قامته وثبت نظارته بأصبعه، ثم مد يده بحركة عصبية إلى جيب القميص الداخلى وأخرج عدة ورقات مطوية.. فتحها أمامه وبدأ القراءة، خرج صوته مترددا محشرجا قليلا:

«بيان من المصريين المقيمين فى شيكاجو»..

توقف فجأة وتطلع إلى الرئيس الجالس على المنصة، فرأى على وجهه ما يشبه ابتسامة ترحيب.. ران السكون عميقا، بدا مرتبكا بعض الشيء وهو يجفف بمنديله العرق الغزير على جبهته.. كان انقطاعه المفاجئ عن القراءة قد أثار همهمة خافتة بدأت تتجمع فى الأفق.. فتح فمه ليكمل القراءة.. فجأة، تغير وجهه وتطلع لأعلى كأنه تذكر شيئا غاب عن ذهنه.. دس بحركة

خاطفة متعجلة الأوراق التى يحملها فى جيب السترة، وأخرج من الجيب الآخر ورقة صغيرة بسطها أمامه، واندفع يقول بصوت متهدج بالانفعال:

«بالأصالة عن نفسى، وبالنيابة عن كل المصريين فى شيكاجو.. نرحب بكم يا سيادة الرئيس، ونشكركم من أعماق قلوبنا على ما قدمتموه للوطن من إنجازات تاريخية.. نعاهدكم على أن نقتدى بكم.. أن نظل كما علمتمونا نحب بلادنا ونبذل الغالى والنفيس من أجلها.. عاشت مصر وعشتم لمصر»!

عندما انتهى دوى تصفيق حاد، واستدار عائدا إلى مقعده بخطوة بدت بطيئة.

٣٧

كانت موظفة الاستقبال شابة جميلة، وجهها بشوش مشرق، لكنها ما إن سمعت اسم رأفت ثابت حتى تلاشت ابتسامتها وأطرقت ببطء . . حاولت أن تقول شيئا مناسبا، لكنها ارتبكت وأخرجت همهمة غير مفهومة . . خرجت من خلف منضدة الاستقبال الرخامية، مضت ورأفت يتبعها، اجتازت الصالة ثم الممر الطويل، وبعد ذلك انحرفت إلى اليسار ودخلت إلى ممر آخر . . كانت خطوتها ثقيلة مترددة فى البداية، ثم انتظمت واكتسبت إيقاعا رصينا مفعما بالمعانى . . فى النهاية وصلا إلى الحجرة . . أمسكت موظفة الاستقبال بمقبض الباب واقتربت برأسها وكأنها تصيخ السمع، ثم نقرت بأصابعها فارتفع صوت أجش من الداخل . . فتحت الباب ببطء، وأشارت إلى الدكتور رأفت فدخل . . الحجرة متوسطة المساحة، هادئة ونظيفة، ثمة نافذة إلى اليمين ينبعث منها ضوء النهار . . كان الطبيب فى الأربعينيات . . أصلع ويرتدى معطفا أبيض ونظارة طبية بإطار فضي . . وقف صامتا بجوار الفراش . . رأى رأفت سارة ممددة بنفس الثياب التى ارتدتها آخر مرة: البنطلون الجينز المتهرئ والفانلة الصفراء المتسخة من عند الياقة . . كان وجهها هادئا

تماما . . عيناها مغلقتان، وشفتاها مرتخيتان غير منفرجتين . . قال الطبيب بصوت عميق ترددت ذبذباته في فراغ السكون :

ـ ليلة أمس، في حوالي الثالثة صباحا، ألقت بها سيارة أمام باب المستشفى وفرت بسرعة . . فعلنا كل ما يمكن لإنقاذها، لكن جرعة المخدر الزائدة أدت إلى هبوط حاد في وظائف المخ . . أرجو أن تتقبل تعازيَّ الصادقة!

* * *

انتهت المظاهرة ومشينا إلى السيارة، أنا وكرم دوس وجون جراهام.. تركت المقعد الأمامي لجراهام وركبت في الخلف.. ظللنا صامتين لفترة.. كانت سحابة من الكآبة تظللنا.. اقترح كرم أن نشرب كأسا، وتمتم جراهام موافقا، أما أنا فظللت صامتا.. ذهبنا إلى مكاننا المفضل في رش ستريت.. مع الشرب سرت الحرارة إلينا، فقال كرم دوس:

ـ لا أفهم موقف الدكتور صلاح!.. لماذا فعل ذلك؟ كان يستطيع أن يرفض قراءة البيان من البداية.. لقد أفسد علينا كل شيء.

كنت أحس بمرارة مما حدث، فقلت:

ـ لا تتصور مدى غضبي على هذا الرجل.. لا أعرف كيف سأتعامل معه بعد ذلك في القسم!

ساد الصمت من جديد، وقال كرم:

ـ أظن ما فعله صلاح مقصودًا تماما.. لقد اتفق مع صفوت شاكر على إفساد الأمر.

لم أعقب.. كان شعوري بخيبة الأمل مختلطا بإحساسي بالذنب.. أنا الذي اتفقت مع محمد صلاح على إلقاء البيان..

تذكرت كيف أبدى حماسا أدهشني عندما عرضت عليه المهمة.. سألت كرم وأنا مشتت الذهن:

ـ هل تعتقد أنه يعمل لحساب الأمن؟

ـ طبعا.

ـ لا!

هكذا قال جراهام. تجرع قليلا من كأسه ثم استطرد:

ـ أظن هذا الرجل كان يريد أن يلقي البيان فعلا.. لكنه خاف في اللحظة الأخيرة.

ـ ولماذا قَبِل وتحمس في البداية؟

ـ قد يسعى الإنسان أحيانا للتغلب على خوفه.. ثم يفشل.

* * *

عدت إلى السكن في نحو منتصف الليل، خلعت ثيابي وألقيت بنفسي على الفراش ورحت في نوم عميق.. وما زلت حتى الآن أتذكر ما حدث على نحو غير مؤكد وكأني أستعيد حلما.. فتحت عينيَّ فلمحت أشباحا تتحرك في ظلام الحجرة.. استولى عليَّ الفزع، وظللت في المسافة ما بين اليقظة والحلم حتى أضيء النور فجأة، فرأيتهم بوضوح.. كانوا ثلاثة رجال أمريكيين، أجسادهم ضخمة، اثنان يرتديان الزي العسكري، ورجل يرتدي الثياب المدنية بدا من الوهلة الأولى أنه القائد.. تقدم نحوي وقال وهو يبرز بطاقة من جيبه الداخلي:

ـ مكتب التحقيقات الفيدرالي.. لدينا إذن بتفتيش البيت والقبض عليك.

استغرقتُ فترة حتى أستجمع تفكيري وسألته عن السبب.. قال:

«سنواجهك بالمعلومات التى لدينا فيما بعد».. كان يتكلم معى في حين كان الاثنان الآخران يفتشان البيت بعناية.. فى النهاية سمح لى بارتداء ملابسى.. تقدم نحوى ووضع القيد الحديدى في يدى.. الغريب أننى استسلمت له تماما وكأننى منوَّم فاقد الإرادة!.. استقللنا سيارة كبيرة يقودها سائق أسود جلس بجواره القائد، على حين أحاط بى العسكريان فى الأريكة الخلفية، قلت فجأة وأنا أستجمع تركيزي:

ـ أريد أن أرى بطاقتك مرة أخرى.

أجفل، ثم مد يده إلى جيبه ببطء غاضب مكتوم وأبرز البطاقة.. لزمنا بعد ذلك الصمت التام.. بعد نحو نصف ساعة وصلنا إلى مبنى منعزل فى شمال شيكاجو، تحوطه حديقة وممر مرتفع حلزونى صعدنا عليه بالسيارة حتى توقفنا أمام المدخل.. كان هناك حراس قدموا التحية العسكرية.. دخلنا إلى مكتب فى الناحية اليسرى من القاعة.. ما إن أغلق الباب علينا حتى تحولت ملامح القائد.. تقلصت عضلات وجهه الجانبية وكأنه يكز على أسنانه.. سدد إلىَّ نظرة صارمة وقال:

ـ حسنا.. لدينا معلومات مؤكدة أنك ضالع فى خلية تخطط لعمل إرهابى فى الولايات المتحدة.. ماذا تقول؟

ظللت صامتا. كان تتابع الأحداث أسرع من قدرتى على التفكير. اقترب منى حتى نفذت إلى أنفى رائحة عطر خفيف.. صاح بغضب:

ـ تكلم.. هل أصبت بالصمم؟

وفجأة.. صفعنى على وجهي!

أحسست بسخونة لاذعة، وبدأت بقعة ظلام تتجمع على عينى اليسرى.. صحت بصوت محشرج:

ـ ليس من حقك أن تضربنى.. إن ما تفعله غير قانوني!

صفعنى من جديد، عدة مرات، ثم ضربنى فى بطنى بقبضته القوية.. أحسست بغثيان وأننى سأفقد الوعى!

ـ لقد أعطتنا المخابرات المصرية كل شيء عن التنظيم الذى تنتمى إليه.. لا فائدة من الإنكار.

ـ هذه معلومات ملفقة.

ضربنى من جديد.. بدأت أحس بدم لزج ينسال ببطء من أنفى على شفتى.. صاح بصوت غاضب:

ـ تكلم ياابن القحبة.. لماذا تريد أن تدمر بلادنا؟ فتحنا لك أبواب أمريكا.. رحبنا بك لتتعلم وتصبح إنسانا محترما.. وأنت بالمقابل تتآمر لتقتل الأمريكيين الأبرياء!.. إذا لم تعترف سأفعل بك كما يفعلون فى بلادك.. سنجلدك ونصعقك بالكهرباء ونغتصبك!

٣٨

أطرق الدكتور بيل فريدمان ووضع رأسه بين يديه. كانت كريس جالسة أمامه، وساد بينهما صمت عميق حتى إن الموسيقى الخافتة المنبعثة من الإذاعة الداخلية ترددت فى الأنحاء وكأنها حزينة.. تطلع إليها وقال:

ـ متى بدأت مشكلة صلاح؟

ـ منذ عام.

ـ هل استشار طبيبا؟

ـ ذهب مرة واحدة ورفض أن يكمل العلاج.

ـ كنت أعزو التغير الذى لاحظته عليه إلى إرهاق العمل.

ـ بل هو مريض يا بيل.. ومنذ أن عاد من لقاء الرئيس المصرى تدهورت حالته بشدة.. ثلاثة أيام كاملة لم يأكل ولم ينم.. يقول الطبيب إنه فى مثل هذه الأحوال يجب أن ننقله إلى المستشفى عنوة!

ـ عنوة؟

ـ نعم.. الطريقة المتبعة أن يكرهوه على أخذ حقنة منومة ثم ينقلوه إلى المستشفى.

- إذا كانت هذه هي الطريقة الوحيدة لمساعدته فليس أمامنا اختيار .

ساد الصمت من جديد . . أجهشت كريس بالبكاء وقالت :

- يصعب عليَّ أن أراه في هذه الحالة !

أمسك فريدمان بيدها وقال بنبرة مواسية :

- اطمئني . . سيكون على ما يرام .

- أنت صديق قديم . . جئتك لتساعدني .

- سأفعل كل ما أستطيعه .

- أخشى أن يفقد صلاح وظيفته .

بان التفكير على وجه فريدمان ثم قال :

- من الناحية الإدارية يجب أن نسجل سبب انقطاعه عن العمل . . لن أذكر أنه يخضع لعلاج نفسي لأنها ستكون نقطة سلبية في سجله المهني . . سوف أعتبر انقطاعه إجازة سنوية ، وسأكلف أحد زملائه بإعطاء محاضراته .

- شكرا يا بيل .

- هذا أقل ما يتوجب عليَّ عمله .

- سأنصرف الآن .

نهض بيل فريدمان وصافحها بحرارة وقبَّلها قائلا :

- لو احتجت أي شيء فلا ترددي في الاتصال بي .

غادرت كريس مبنى الكلية، وعندما انطلقت بالسيارة فكرت فى أن مهمتها الصغرى قد نجحت، لن يفقد صلاح عمله الآن على الأقل.. بقيت المهمة الكبرى: أن يتم نقله إلى المستشفى لتلقى العلاج.. للأسف يجب أن تتصرف معه بقسوة حتى يشفى ويعود كما كان.. مصلحته تستوجب ذلك. لم تعد تتذكر الخلاف بينهما، نسيت مشاكلهما واتفاقهما على الطلاق. كل ما تفكر فيه الآن أنه مريض ويحتاج إليها.. لا يمكن أن يتهاوى أمامها ولا تفعل شيئا من أجله.. حتى لو لم يعد يحبها، حتى لو أراد أن يطلقها، حتى لو كان يحب امرأة أخرى، حتى لو كان يخدعها طوال هذه السنوات.. لا يمكن أن تتخلى عنه.. إنه وحيد تماما، لو تركته فلن يجد أحدا بجواره.. انسالت دموعها من جديد، فكفكفتها وركنت السيارة أمام المستشفى.. انتظرت لحظات حتى تمالكت نفسها، ثم دخلت بخطوة مسرعة إلى المبنى، وبعد نصف ساعة خرجت بصحبة الطبيب الشاب.. ركب بجوارها فى السيارة وسارت خلفهما سيارة إسعاف مجهزة.. اتفقا على أن تدخل وحدها إلى صلاح وتسعى لإقناعه بالذهاب إلى المستشفى، فإذا رفض ينضم الطبيب إليها.. وفى النهاية، إذا ظل صلاح مصرا على الرفض، سيستعينان بالممرضين لإعطائه الحقنة!.. توقفت السيارتان أمام البيت.. تقدمت كريس، فتحت الباب وتطلعت إلى الداخل، تنهدت وقالت:

- حسنا.. إنه فى حجرة المكتب.. هذا يسهل مهمتنا.

صعدت الدرج بسرعة ومن خلفها الطبيب، ولما صارا أمام الباب حجزته بيدها وهمست:

ـ اجلس أنت هناك .

هز الطبيب رأسه واستدار متوجها ببطء نحو المقعد القريب . . تقدمت كريس بهدوء، وما إن فتحت الباب حتى تبدى أمامها المشهد الذى لن يفارق ذهنها بعد ذلك أبدا . . كان الدكتور محمد صلاح، أستاذ الهيستولوجى بكلية الطب جامعة إلينوي، مرتديا بيجامته الحريرية الزرقاء وممددا على الأرض، محدقا فى الفراغ وكأنه اندهش بشدة مرة واحدة إلى الأبد، وثمة دم ينز من جرح غائر على جانب رأسه ويصنع بقعة تكبر شيئا فشيئا على الموكيت . . وبجوار يده اليمنى المسترخية المنبسطة، كان مسدسه القديم من طراز بيرتا ملقى على الأرض!

٣٩

كانت ليلة بديعة للاحتفال بالنصر . ذهب جراهام وكارول إلى السينما ، ثم تعشيا فى المطعم الدائرى فى برج سيرز . كلما تحرك المكان وتغير المشهد الذى يطلان عليه عبر الواجهات الزجاجية ، كانت كارول تصيح وتصفق بمرح طفولى . . بدت متألقة فى ثوب سهرة أنيق كشف عن كتفيها وصدرها ، صففت شعرها إلى أعلى فبان عنقها الجميل ، ووضعت طاقما من الحلى على هيئة قرطين وعقد من اللؤلؤ . . أصرت على فتح زجاجة نبيذ فرنسى فاخر ، وما إن استدار النادل مبتعدا حتى سألها جراهام ضاحكا :

ـ هل أنت واثقة أن بمقدورك دفع ثمن هذا العشاء؟

ـ لا تقلق يا عزيزي . .

صاحت بحماس :

ـ العقد الذى وقَّعته هذا الأسبوع فرصة العمر . . مذيعات كثيرات عملن سنوات طويلة من أجل عقد كهذا ولم يحصلن عليه . . لقد قفزت إلى القمة يا جون!

ـ أهنئك .

هكذا قال جراهام وهو يتطلع إليها بولَه . تذوقت النبيذ ،

واقترح أن يشربا نخب الحب والنجاح . . وكالعادة أثرت فيها الخمر بسرعة، فلمعت عيناها وقالت بتأثر :

ـ لأننى عانيت كثيرا فى حياتى ، فقد أراد الله أن يعوضنى عن كل آلامى السابقة!

ـ لماذا يخصك الله بمعاملة مميزة ولا يعبأ بملايين البؤساء؟!

ـ كف عن هرطقتك الليلة على الأقل!

سددت نحوه نظرة بين اللوم والدعابة . تحدثا وضحكا كثيرا، وعندما استقلا سيارة كارول الجديدة، كان كل شيء يعد بليلة حب دافئة . . ما إن وصلا إلى البيت حتى هرعت لتطمئن على مارك، فوجدته نائما بسلام كما تركته . . مدت يديها بهدوء وأحكمت الغطاء حول جسده، ثم عادت إلى جراهام الذى تلقاها برغبة حارة شاهقة . . احتضنها بقوة حتى أحست بذراعيه القويتين تعركان كتفيها، فندت عنها آهة خافتة ضاعفت من شهوته، فانهمرت قبلاته الحارة علي وجهها وعنقها . . تراجعت بخفة عصفور وهمست بصوت رخيم حالم :

ـ سأعود حالا .

ظل جالسا ينتظرها فى الفراش . . عادت بعد قليل من الحمّام وقد وضعت روبا أبيض على جسدها العاري . . وقفت تتزين وتتعطر أمام المرآة . . أطفأ جراهام غليونه بسرعة وقال بصوت متعجل مشوش من فرط الرغبة :

ـ وأنا أيضا سآخذ حمّاما .

بعد دقائق كانا يتمرغان على الفراش، عاريين تماما، فى الضوء الخافت المنبعث من المصباح الجانبى. . استبد به وَجْدٌ طاغ، فاندفع يطبع قبلات متلاحقة على وجهها ويديها وكتفها وصدرها، وعندما دخل أخيرا فى جسدها أصدرت آهة مائعة وهمست باسمه، فبلغت إثارته درجة جعلته يهتز داخلها بصلابة دفعتها للصراخ من فرط اللذة. . كانت واحدة من نوبات حبهما الجنونية. . ذابت فى أحضانه، أحست بروحها تنصهر، تتخفف من جسدها وتحلق عاليا. . من خلف عينيها المغمضتين لمحت أضواء ملونة تسطع فى الظلام، فأحست باقتراب النشوة. . فجأة دهمها إحساس مقلق غامض، حاولت أن تستبعده لكن بهجتها استمرت فى التسرب. . أبطأ جراهام من اهتزازه شيئا فشيئا حتى توقف. . استغرقت لحظة حتى أفاقت. أحست بجسده الضخم يبتعد. استند إلى ركبتيه ونهض عنها. . مدت ذراعيها وتشبثت بكتفيه، وهمست بصوت حار كالرجاء:

- ابْقَ معى.

أكد لها تردد صوتها فى الظلام أن ما يحدث خقيقي!. . تراجع جراهام أكثر، دائما ببطء، لاهثا هذه المرة ليس من اللذة، ولكن من فرط الانفعال. . أنزل قدميه على الأرض وجلس على حافة الفراش وأعطاها ظهره. . استغرقت دقيقة أخرى حتى استجمعت نفسها ونهضت، أضاءت نور الحجرة وهتفت بفزع:

- ماذا حدث؟

ظل مطرقا. . قفزت نحوه فبدا جسدها الأسود العارى

المترجرج رشيقا وجميلا . . جلست بجواره وكررت بنبرة غامضة :

- ماذا بك؟

أبعد جراهام ذراعها . . رفع رأسه ونظر إلى السقف . . فتح فمه ليقول شيئا، ثم أطرق من جديد وصدر صوته مبحوحا :

- من هو؟

- عمن تتكلم؟

هكذا تساءلت وقد أبرق في عينيها فزع خاطف . . استغرق جراهام وقتا لينهض . . تبعته ثم وقفت في مواجهته . . قال بصوت أعلى :

- من الذي نمت معه؟

- جون . . هل جننت؟

بدا شكله غريبا . . أشعل غليونه وهو عارٍ تماما، ثم قال بابتسامة منكسرة :

- أنا وأنت أذكى من أن نضيع وقتنا في اتهامات وإنكار . . لقد نمت مع شخص ما . . من هو؟

- جون!

- أريد أن أعرف اسمه .

لاذت بالصمت حتى تجاوزت هول المفاجأة، ثم قالت بنبرة هشة لدرجة تثير العطف :

ـ ليس من حقك أن تتهمنى .

فى لمح البصر ارتفعت يده وهوت على خدها ، فأطلقت صرخة عالية . . ابتعد عنها وصاح :

ـ قد أكون عجوزا . . قد أكون متعلقا بأفكار قديمة بالية . . لكننى لست مغفلا . . لدىَّ الخبرة الإنسانية الكافية لئلا يخدعنى أحد . . لقد خنتنى يا كارول! . . إحساسى بجسدك لا يكذب . . لا أفهم لماذا فعلت ذلك؟ . . لسنا متزوجين حتى نتصرف بغباء . لماذا لم تتركينى عندما وقعت فى حب شخص آخر؟

كان يلقى جملا مفككة بنفَس متقطع وهو يرتدى ثيابه ويربط الحزام ويضع قدميه فى حذائه . عاد ووقف أمامها . . كانت لاتزال عارية ويدها على خدها منذ أن تلقت الصفعة . . قال بصوت أهدأ :

ـ آسف لأنى صفعتك . . أنا ذاهب . . سأعيش فى فندق حتى تدبرى لنفسك مكانا آخر . . أنت الآن غنية ، وباستطاعتك أن تعثرى على سكن بسهولة .

ـ جون!

تجاهل نداءها وتقدم خطوتين نحو الباب ، فقفزت خلفه :

ـ أنا لم أخُنْكَ!

ـ الكذب لن يجديك .

ـ جون!

هكذا صاحت مرة أخيرة وحاولت أن تضمه، لكنه أبعد ذراعيها بقوة، فصاحت وهى تبكي:

- أنا لم أخنك.. لقد استعمل رئيس الشركة جسدى.. هذه هى الحقيقة.. اشترط ذلك لمرة واحدة حتى يمنحنى العقد الجديد.. لم يكن بإمكانى أن أرفض.. لم أكن أستطيع.. أؤكد لك أننى لم أخنك.. أحاسيسى كلها معك.. ما فعلته مع هذا الرجل شيء مقزز أكاد أتقيأ كلما تذكرته.. لقد ارتطم جسدانا.. هذا كل ما فى الأمر.. أنا لم أخنك يا جون.. أنا أحبك.. أرجوك ابق معي.

كان قد وضع يده على مقبض الباب.. ظل يتطلع إليها وهى تعترف، ثم خفض رأسه قليلا وانحنى للأمام، وبدا فى تلك اللحظة عجوزا بائسا قليل الحيلة مثقلا بالأحزان.. قال وهو يغلق الباب:

- عندما يستيقظ مارك فى الصباح قولى له إننى اضطررت إلى السفر.. وأننى أحببته كثيرا.

٤٠

أشارت الساعة فى بهو السكن إلى الخامسة والنصف صباحا. منذ جاءت شيماء إلى شيكاجو لم تخرج فى مثل هذه الساعة، لكن مشوارها هذه المرة بعيد . . دفعت بيدها الباب الزجاجى، فصفعتها ريح باردة محملة بندف الثلج . . تراجعت وأحكمت لف الكوفية الصوفية الثقيلة حول وجهها، ووضعت يديها المحميتين بقفازين مبطنين بالفرو فى جيب المعطف لتحتفظ لجسدها بأقصى ما يمكن من حرارة . . اندفعت بخطوة عجلى كأنما تقطع أية فرصة للتردد. كان الشارع مظلما وخاويا تماما والجليد يغطى كل شيء. اندفعت بأقصى سرعة باتجاه محطة المترو . . تعمدت ألا تنظر حولها . . أحست بقلبها يدق بعنف، واجتاحتها هواجس مرعبة . . «ماذا لو اعتدى أحد عليها الآن أو خطفها تحت تهديد السلاح؟!» . . أخذت تقرأ المعوذتين وهى تزيد من سرعتها حتى وصلت أخيرا إلى محطة المترو كان عليها أن تقطع عشر محطات ثم تغير المترو، وتجتاز عشر محطات أخرى حتى تصل إلى العنوان الذى حفظته عن ظهر قلب. ركاب المترو فى تلك الساعة خليط من عمال نظافة زنوج وآسيويين يذهبون لتنظيف أماكن العمل قبل حضور الموظفين، وسكارى متشردون قضوا الليل فى العربدة . . جلست شيماء فى مقعد بعيد بجوار النافذة

وتعمدت ألا تنظر حولها. كانت مُفَزَّعَة من السكارى الذين لم ينقطعوا عن الصياح والضحك فيما كانت رائحة الكحول الحامض تنبعث منهم لتعبئ العربة كلها. . كان ذهنها مشوشا، غائما كسطح مرآة مغطى بالبخار، كأن ما تراه غير حقيقي، كأنها تحلم. . فتحت حقيبة يدها وأخرجت المصحف الصغير وبدأت تقرأ بصوت خافت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. . بسم الله الرحمن الرحيم. . ﴿يس. والقرآن الحكيم. إنك لمن المرسلين. على صراط مستقيم. تنزيل العزيز الرحيم. لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون. لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون. إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون. وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾.

كان وقع الآيات عليها قويا فبكت، انسابت دموعها حتى بللت المصحف. . أشاحت بوجهها واقتربت من النافذة حتى استشعرت برودة الزجاج وراحت تهمس: «اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين، فاغفر لي. اللهم رحمتك أرجو، فلا تكلنى إلى نفسى طرفة عين. . يا حى يا قيوم. .».

غيرت المترو وقطعت المرحلة الثانية من الرحلة، وعندما خرجت من المحطة كان عليها أن تمشى قليلا حتى تصل إلى المركز. . كان نور الصباح قد انتشر. . مدت خطوتها حتى لمحت أخيرا اللافتة الكبيرة المضاءة منذ الليل. . «مركز شيكاجو للمساعدة». . لاحظت على الرصيف المقابل مجموعة من الناس، كانوا خليطا من البيض والسود من أعمار مختلفة ومعهم

بعض القساوسة، تجمعوا فيما يشبه المظاهرة وهم يحملون لافتات مكتوبا عليها «أوقفوا المذبحة»، «العار على القتلة».

أخذوا يلوحون باللافتات ويصيحون ويهتزون بإيقاع حماسى كأنهم يؤدون طقسا دينيا.. ازداد قلق شيماء وأسرعت الخطى نحو باب المركز، لكن ظهورها بالحجاب والزى الشرعي - فيما يبدو - ألهب حماس المتظاهرين، فازداد صخبهم.. ثم بدءوا يصيحون عليها من الرصيف المقابل:

- أيتها القاتلة البشعة!

- هل أنت مسلمة؟

- هل يسمح ربكم بقتل الأطفال؟

تفادت شيماء النظر إليهم، لكنها ارتجفت من الرعب وكادت تقفز لتقطع الخطوات المتبقية إلى المدخل.. بدءوا فى إلقاء الطماطم والبيض النيئ عليها.. مرت بيضة بجوار رأسها تماما ثم انفجرت على الحائط.. هرع نحوهم ضباط البوليس الواقفون أمام المركز فى محاولة للسيطرة عليهم.. اجتازت شيماء باب المركز بسرعة، ولقيتها موظفة الاستقبال السوداء بابتسامة مشجعة:

- لا تلقى بالا لهؤلاء المجانين.

تطلعت إليها شيماء، سألتها وهى تلهث:

- ماذا يريدون؟

- إنهم جماعات مناهضة للإجهاض، وهم يعلمون أننا نُجرى عملياتنا فى الصباح الباكر فيأتون إلينا ليصنعوا المشاكل.

ـ ولماذا لا تقبض الشرطة عليهم؟

ـ قانون الولاية يسمح بالإجهاض، لكنه أيضا يسمح بالتظاهر السلمي. لا عليك. إنهم مجموعة من المتعصبين الفاشيين لا أكثر ولا أقل. أظن لديك موعد مع الدكتورة كارين؟

ـ نعم.

ـ تعالى معى.

كانت الدكتورة كارين شابة نحيفة فى نهاية العشرينيات، شعرها كستنائي طويل منسدل على البالطو الأبيض الأنيق.. لقيت شيماء بود بالغ، صافحتها واحتضنتها وقبَّلتها، ثم تطلعت إليها بابتسامة وهمست كأنها أم تدلل طفلتها:

ـ كيف حالك؟.. لا تقلقى.. سيكون كل شيء على ما يرام!

كان هذا الحنان المفاجئ يفوق طاقتها على التحمل، فانخرطت فى البكاء من جديد، وظلت الدكتورة كارين تهدئها. طلبت منها أن تغسل وجهها، فذهبت إلى الحمّام وعادت.. جلست أمام الدكتورة التى قالت وهى تعطيها عدة ورقات:

ـ هذه بعض الإجراءات الضرورية.. استمارة معلومات شخصية عنك.. إقرار بموافقتك على العملية.. ثم بيان بالتكاليف.. هل لديك بطاقة ائتمان؟

هزت شيماء رأسها بالنفى، فسألتها الطبيبة بنبرة عملية تماما:

ـ هل تستطيعين أن تدفعى نقدا؟

استغرقت الإجراءات نحو نصف ساعة، ونصف ساعة أخرى أجرت شيماء خلالها فحوصا طبية: تحليل بول وقياس ضغط دم وأشعة سونار على البطن. . وفى النهاية، خلعت ملابسها بمساعدة الممرضات وارتدت ثوب العمليات الأزرق على جسدها العارى. . ولما أمسكت الدكتورة كارين بيدها لاحظت أنها ترتجف!

ـ لا تخافى. . العملية ليست خطيرة.

ـ لست خائفة من الموت.

ـ مم تخافين إذن؟

سكتت شيماء، ثم قالت بصوت متهدج:

ـ من عقاب الله. . إن ما فعلته حرام كبير فى ديننا!

ـ أنا لا أعرف كثيرا عن الإسلام، لكننى أعتقد أن الله يجب أن يكون عادلا. . أليس كذلك؟

ـ نعم.

ـ هل من العدل أن تحرم المرأة من ممارسة مشاعرها مع من تحب؟. . هل من العدل أن تتحمل المرأة وحدها مسئولية الحمل غير المرغوب فيه؟. . هل من العدل أن نأتى إلى العالم بطفل لا يرغب فيه أحد؟. . أن نقضى عليه بحياة بائسة قبل أن تبدأ؟

تطلعت إليها شيماء صامتة. . لم تعد بها قدرة على الحديث. . لم يعد لديها ما تقوله. . كانت اللحظة أكبر من كل ما يمكن أن تعبّر عنه. . إنها الآن فى مستشفى للإجهاض،

لأنها حملت فى الحرام . . شيماء محمدى حامد حملت فى الحرام وستجرى الآن عملية إجهاض! . . ليس لديها فعلا ما تصف به كل هذا ، بل لعلها تستعجل ما يخبئه القدر . . إذا كانت ستموت أثناء العملية ، إذا كانت هذه هى اللحظات الأخيرة فى حياتها ، فإنها تتقبل العقاب العادل . . كل ما يهمها ألا تتسبب فى فضيحة لأسرتها تظل عالقة بهم إلى الأبد . . ولقد طمأنتها المسئولة فى المركز إلى سرية العملية ، حتى لو ماتت فإن الأوراق الرسمية لن تذكر أبدا أنها كانت تُجرى إجهاضا . وقفت شيماء بثوب العمليات تتطلع بنظرة فارغة إلى الدكتورة كارين التى أحاطتها بذراعها وقالت :

ـ سيكون لدينا الوقت فيما بعد لكى نتناقش فى موضوعات كثيرة . . لقد صرنا صديقتين . . أليس كذلك؟

هزت شيماء رأسها ، ومشت معها ببطء عبر الممر القصير الذى يفضى إلى حجرة العمليات . . اجتازتا الباب ذا الضلفتين المتقابلتين ، ثم أسلمتها الدكتورة كارين إلى ممرضة ساعدتها على الاستلقاء على سرير متحرك ، وظهر رجل أبيض عجوز أشيب تماما . . ابتسم وقال :

ـ صباح الخير . . اسمى آدم . . أنا طبيب التخدير .

أمسك بذراعها وسألها عن اسمها ، ثم وخزها فى ذراعها بخفة ، وسرعان ما أحست بجسدها ينفك . . وشيئا فشيئا تغير ذهنها كأنه شاشة كبيرة انقطع عنها الإرسال فسادها الظلام فترة . . ثم بدأت تتوالى عليها صور ملونة ، مفعمة بأحاسيس جامحة

غـريبـة . . رأت كل شيء : أباها وأمـهـا وأخـواتهـا وبيـتـهـم فى طنطا . . طارق حسيب وقسم الهيستولوجى . . كان الأشخاص والأشياء يظهرون بأشكال مختلفة عن طبيعتهم . . كانت تميزهم بصعوبة بالغة وتحس بانقباض من صورهم الرمادية المشوهة . . أكثر من مرة فتحت فمها لتعترض على هيئتهم ، لكنها اكتشفت عندئذ أنها بلا صوت ، كأنما حنجرتها قد نُزعت عنها . . أصابها رعب شديد ، واستمرت تصرخ وتصرخ لكن دائما بلا صوت . . ظلت فى أسر هذا المجال الغريب المخيف فترة ، حتى لمحت أخيرا خيطا من الضوء يلوح من بعيد . . كأن الظلام نتج عن ستائر سوداء ثقيلة بدأت تنفرج ببطء . . ومع تزايد الضوء ظهرت أشكال جديدة ، اختلطت فى البداية ، لكنها لم تلبث أن انفصلت واتضحت شيئا فشيئا . . أخيرا ، بصعوبة ، استطاعت أن تميز وجه الدكتورة كارين ، رأتها تبتسم وسمعتها تقول :

ـ أهنئك يا شيماء . . كل شيء تم بطريقة رائعة . . بعد قليل ستكونين فى بيتك .

ابتسمت بقدر ما استطاعت ، واستطردت الدكتورة كارين بصوت أصبح الآن واضحا تماما :

ـ بالإضافة إلى نجاح العملية ، لدىَّ مفاجأة أخرى لك .

تطلعت إليها شيماء بنظرة منهكة غائبة ، فغمزت كارين بعينها وضحكت وقالت :

ـ بالطبع لا تطيقين الانتظار لتعرفى المفاجأة . . حسنا . . لدينا زائر مهتم بك . . وهو يلح علينا حتى يراك .

مدت شيماء ذراعها لتعترض، لكن كارين اندفعت نحو الباب، فتحته وأشارت بيدها. . وسرعان ما ظهر طارق حسيب. . بدت ذقنه غير حليقة، ووجهه شاحبا مرهقا وكأنه لم ينم من فترة. . تقدم خطوات حتى وقف بجوار الفراش. . تطلع إلى شيماء بنظرته المحملقة، ثم ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة.

تمت بحمد الله

رقم الإيداع ٢٠٠٧/١٥٨٠

الترقيم الدولى ISBN 977 - 09 - 1940 - 3

مطابع الشروق

القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف: ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس: ٨١٧٧٦٥(٠١)

شيكاجو

ها هى رواية علاء الأسوانى الجديدة «شيكاجو» تستحق بدورها نجاحاً مماثلاً وبنفس القدر من الجدارة كالذى استحقته عمارة يعقوبيان.

فرحت عند انتهائى من قراءتها لأكثر من سبب، فقد أكدت لى هذه القراءة أن لدينا بالفعل أديباً كبيراً وموهوباً، وظهر أن عمارة يعقوبيان ليست ظاهرة منفردة لا تتكرر، بل إن من الممكن أن تتكرر المرة بعد المرة.

فى الرواية الجديدة «شيكاجو» كل مزايا الرواية السابقة: التشويق الذى يبدأ من أول صفحة ويستمر إلى آخر صفحة، أسلوب الكتابة السلس والسريع الذى يصيب الهدف باستمرار بلا تثاقل أو تسكع، الرسم الواضح والمتسق للشخصيات، اللغة العربية الراقية دون تكلف أو تعمد الإغراب، وقبل كل شىء وفوق كل شىء، نُبل المعنى، إذ لا جدوى فى رأيى من رواية مهما كانت درجة تشويقها وإتقانها إذا لم تكن نبيلة المقصد، وإذا كان المقصد تافهاً أو حقيراً قضى على ما قد يكون للمهارة والشطارة من أثر فى نفس القارئ.

جـــلال أمـــين

6 221102 018616